

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الموصل

الأدب العربي

في العصر العباسي

تأليف

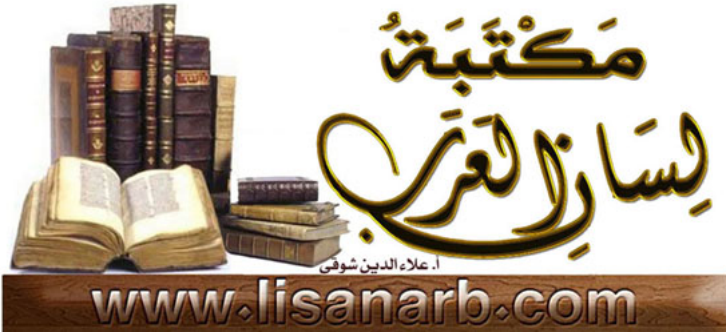
الدكتور ناظم رشيد

مكتبة الآداب - جامعة الموصل

١٤١٠ هجرية - ١٩٨٩ ميلادية

حقوق الطبع © محفوظة (١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م)
لمديرية دار الكتب للطباعة والنشر
جامعة الموصل

لا يجوز تصوير أو نقل أو إعادة مادة الكتاب
وبأي شكل من الأشكال الا بعد موافقة الناشر



نشر وطبع وتوزيع
مديرية دار الكتب للطباعة والنشر
شارع ابن الأثير - الموصل
الجمهورية العراقية
هاتف ٧٦٣٣٣١
٧٦٣٣٣٥
تلكس ٨٠٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللهم منك نستلهم الهداية والرشاد . والتوفيق والسداد . ونستمدُّ منك العصمة من الزلزل . والصون من الخطل . إنك على ما تشاء قدير . وبالاجابة جدير ، وبعد :

فإنَّ الحقبة التي حكم فيها ينو العباس من ابهى العصور والأيام في تاريخ امتنا المجيدة . زهت فيها المدنية . وارتقت الحضارة . وعمت الغضارة . وسمت العلوم . ونمت الآداب . وبلغ العطاء الفكري منزلة منيعة . ووصل الانفتاح العقلي مكانة رفيعة . وكانت الثمرة جنيئةً طيبةً غزيرةً . وحسبنا دليلاً ما وصل اليها من اسما العلماء والادباء الابرار . والذخيرة الكبيرة من الكتب والاسفار .

أنَّ الأدب العباسي واسع وكبير . ولا يمكن للمرء أن يستقصيه في دروس قليلة . وساعات محدودة . ولكن ما لا يدرك جلُّه لا يتركُّ كلُّه ؛ لذلك تناول هذا الكتاب المتواضع خلاصة هذا الادب وزبدته من خلال الفنون الأدبية وسير أعلام الشعراء والكتاب الذين ارتأت المناهج الجامعية اقرارها وتدريسها لأبنائنا الطلبة .

يقوم الكتاب على قسمين كبيرين . الأول يتناول الأدب - شعراً ونثراً - من قيام الدولة العباسية سنة ثنتين وثلاثين ومئة للهجرة الى سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة للهجرة . وهي السنة التي جاء فيها البويهيون الى بغداد وقضوا على هيئة الخليفة وجردوه من سلطته الدنيوية . والقسم الثاني ينتهي بانتهاء الدولة العباسية سنة ست وخمسين وست مئة للهجرة . وهي السنة التي احتلَّ فيها الغزاة من جيش هولوكو بغداد .

لقد حاولنا جهدنا أن نُقدِّم المادة بأسلوبٍ مكثفٍ ومفيد . مستعينين باختيارات أدبية رفيعة تجتمع حولها القلوب . وتطمئن لها النفوس . ومبعدةين كلَّ ما هو مزرر . ومشين . ومكثَّر للخواطر .

وإني لأجد في نفسي من واجب الوفاء أن أقدم أجمل الشكر وأجزله الى عمادة كلية الآداب . والى قسم اللغة العربية - رئاسة وأساتذة - لما أبدوه من تشجيع وحفاوة في تأليف هذا الكتاب .

وَقُتَّ اللهُ الطيبين ، وعَزَّزْ مكانة المخلصين ، وسدَّد خطاهم لما فيه خير البلاد ،
انه نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور

ناظم رشيد

كلية الاداب - جامعة الموصل .

ضعفت الدولة الأموية في أعوامها الاخيرة ، وأصبحت لا تقوى على الوقوف أمام القوى المناوئة لها ، وكان لفريق من العرب الحائقين على بني أمية ، ومن الكارهين لحكمهم من غير العرب ، الدور الكبير في انهيارها ، وزوال سلطتها ، وانقضاء عهدها ، الى جانب الاضطراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي في عهد آخر خلفائها مروان بن محمد .

كان بنو العباس ، وهم فرعٌ من بني هاشم ، يرون أن الخلافة حُهم الملسوب ، وتراثهم المنهوب . فأخذوا يطالبون بها ، واستطاعوا بذكائهم وفطنة رجالهم أن يستغلوا الكراهية على بني أمية للوصول الى هدفهم المنشود وتمكّنوا بدهائهم وكياستهم أن يستميلوا العلويين الذين كانوا يطالبون بالخلافة أيضاً ويرون أنفسهم أحقّ من غيرهم بالحكم ، وقدرروا أن يقنعوا كبار رجالهم بأن دعوتهم تهدف الى احقاق الحق وتسلم الأمر الى « الرضا من آل بيت محمد » ، وكلمة الرضا ليست محددة .

وكان في خراسان اثنا عشر داعياً يعملون على هدم كيان بني أمية ، واقامة سلطان هاشمي . وهم على اتصال بالمركز في الكوفة ، وكان الموجّه للدعوة في باديء الأمر أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي اضطر أن يلجأ الى بني عمه من آل العباس الذين يقيمون في « الحميمة » من أرض فلسطين جنوب البحر الميت . وكان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس اكبر رجال آل العباس آنذاك . فالتقيا . واتفقا على العمل سوية لازالة حكم الأمويين وتسلم السلطة منهم . واقامة دولة جديدة . ولما احسّ أبو هاشم بدنوّ أجله ولم يكن له عقب أوصى لمحمد بن علي بن عبد الله بالامامة من بعده ، وأعلم خاصته بهذا الأمر ، وكان هذا في سنة ٨٧ أو ٩٨ للهجرة . وهكذا أصبح محمد بن علي الشخصية الأولى من بني العباس تتولّى زعامة الحركة المضادة لبني أمية وتشرف على ادارة الفئة المعارضة للحكم في دمشق ، وأثر أن تبقى الدعوة سرية ، واختار سبعين رجلاً يأترون بأمر الدعاة الاثني عشر (١) . يعملون في الخفاء على نشر الدعوة العباسية . وكانوا

(١) لهم اختاروا هذا العدد ليضفوا الفرعية على دعوتهم ، فقد جاء في قوله تعالى (واختار موسى لومه سبعين رجلاً لميقاتنا) ثم قال في آية اخرى (وبمئنا منهم اثني عشر نقيباً) ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم وافته ليلة القبة سبعون رجلاً من الأوس والخزرج لهايموه ، فجعل منهم اثني عشر نقيباً (أخبار الدولة العباسية ص ٢٦٥) .

يجوبون البلاد متظاهرين بالاتجار . أو طلب العلم . أو التطبيب . أو السياحة . وهم يبشّون أفكارهم بين الناس . ويكثرون مآزريهم ومؤيديهم في الثورة على بني أمية وازاحتهم عن الحكم وابعادهم عن السلطة .

اتخذ محمد بن علي (وهو والد ابراهيم الإمام . وأبي العباس السفّاح . وأبي جعفر المنصور) مكانين لنشر الدعوة . أحدهما في الكوفة . والثاني في خراسان . وزاد الإقبال على هذه الدعوة ولا سيما في خراسان التي أصبحت آنذاك مركزاً بارزاً لقيادة المعارضة والتمرد على سلطة بني أمية .

ولما توفي محمد بن علي سنة ١٢٥ للهجرة تولّى الأمر من بعده ابنه ابراهيم وصار هو الامام . وسار على درب ابيه في العمل السري تحضيراً للاجهاز على الدولة الأموية . واعتمد على رجل ذكي هو أبو سلمة الخلال . وجعله كبيراً للدعاة في الكوفة . أما خراسان فجعل عليها أبا مسلم الخراساني الذي أصبح فيما بعد القائد للجيوش الزاحفة على معاقل الامويين . وكان أبو مسلم « شديد الاخلاص للعباسيين . مسرفاً في خدمتهم . كثير الدهاء . واسع الحيلة . خبيراً بما يقتضي عمله من الحزم والقسوة . فلا تعرف الرحمة قلبه . ولا يتناول الأمور الا بالحزم والبأس الشديد » (٢)

ولما اشتدّ أزر العباسيين . وأصبحت دعوتهم ذات قاعدة قويّة قادرة على تحمل أعباء الثورة . طلب ابراهيم الامام من داعيه أبي مسلم الخراساني أن يعلن الدعوة صراحةً وجهراً بين الخلائق . فاستجاب له . وكان ذلك سنة ١٢٨ للهجرة . وليس السواد الذي اتخذه العباسيون شعاراً لهم تيمناً برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي دخل مكة فاتحاً تحت راية سواد .

وقد أحسّ نصر بن سيار عامل الأمويين في خراسان بالخطر . واستصرخ الخليفة . وصور في أبيات من نظمه الحالة المأساوية التي تنتظر الأمويين اذا لم يهتوا لإخماد الجنوة المتقدمة التي ستحرقهم وتحيلهم الى هباء منثور (٢) :

(٢) عصر المأمون ١٠١ ، ٨٤ .

(٢) ديوان نصر بن سيار الكناهي ص ٤٠ . عيون الاخبار ١١ ، ١٢٨ . مروج الذهب ٣ ، ٢٤٠ . الفخري ص ١٤٤ .

أرى خلل الرُمادِ وميضَ جمرٍ . ويوشكُ أن يكونَ له ضرامٌ
فإنَّ السَّنازَ بالعُديينَ تُذكى . وإنَّ الحربَ أولُها الكلامُ
فإنَّ لم يُطْفِئها عقلاءُ قومٍ . أيكونُ وقودها جُشْتُ وهامٌ
فقلتُ من التعجبِ : ليت شعري أيقاظُ أميةٍ أم نيامٌ ؟ !

لم تنفع هذه الصرخة . فإنَّ نار الحرب اتَّقدت وامتدَّت أوارها إلى أماكن كثيرة
وواسعة . حيث استولى أبو سلم على مُدن خراسان وقتل نصر بن سيَّار وهو شيخ
كبير ابن خمس وثمانين . سنة ١٣١ للهجرة (١)

ولما شعر الخليفة مروان بن محمد بالخطر الذي ينتظره بعث جنداً ليقبضوا
على ابراهيم الامام . حيث أدركوه وهو بالخميمة واستقدموه الى الخليفة . ولما علم
أن مصيره الى الهلاك كتب الى أبي مسلم الخراساني رسالة قال فيها : « أما بعد .
فإن رأيتموني قتيلاً أو ميتاً فلا يثنيكم ذلك عن القيام بالحق . فوالذي آمن به
المؤمنون . وكفر به الكافرون لیتمنَّ الله أمرکم . وليعزبن دعوتکم . وليظهرنَّ حقکم .
وليقتلنَّ جبابرة بني أمية بأسيافکم . وليقومنَّ رجلٌ من إخوتي خليفة مطاعاً وإماماً
متبوعاً » . (٥)

حُبس ابراهيم الامام . وتُوفى في السجن . وقيل إن الخليفة مروان بن محمد دسَّ
إليه السمَّ في إزاء لبن . وكانت وفاته سنة ١٣٢ للهجرة ورتاه الشاعر ابراهيم بن هرمة بعدة
قصائد (٦) . وقد كتب قبل وفاته الى اخيه أبي العباس عبد الله السفاح أن يتولَّى
قيادة الحركة . وأن يتوجَّه الى الكوفة .

سار أبو العباس واخوته وأهله الى الكوفة . وكان أبو سلمة الخلال الذي لقبوه
« وزير آل محمد » يُديرُ الأمور في هذه المدينة ويتولَّى تنظيم شؤون الثورة .
وورد أمرٌ من أبي العباس السفاح الى أبي مسلم الخراساني بالتحرك نحو
العراق . وحينما سمع الخليفة مروان بهذا النبأ طلب من عامله على العراق ابن
هبيبة ملاقاته الجيش الزاحف . ولكن هذا الطلب جاء بعد قوات الأوان . فإنَّ جيش
العباسيين أتجه الى الكوفة ودخلها . وفيها أعلن عن خلع مروان .

(٤) تاريخ الطبري ٤٠٤ : ٧ .

(٥) أخبار الدولة العباسية ص ٢٩٢ .

(٦) أخبار الدولة العباسية ص ٤٠٥ - ٤٠٩ .

وأتَّجَهَت الجيوش العباسية لمتابعة حرب الخليفة مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن علي عم السفَّاح ، فالتقت به على نهر الزاب شمالي العراق ، وهزَّمته وجيشه هزيمة ساحقة . وفرَّ مروان الى مصر ، ولقي حتفه في بُوصير من مدن الصعيد على يد الجنود التي بقيت تلاحقه أواخر سنة ١٣٢ للهجرة .

ولم يطمئن أبو العباس السفَّاح الى مقامه في الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحول عنها الى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه الى الحيرة ، وأخذ في بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى ابا مسلم بأبي سلمة الخلال ، فدسَّ اليه من قتله ؛ لأن أبا سلمة كانت نيَّته معقودةً على استبعاد العباسيين ، حتى إنه أخفى أمر أبي العباس السفَّاح وأهله حين قدموا الى الكوفة ، بل عزلهم عزلاً تاماً عن جند خراسان (٧) .

ظفر العباسيون واتباعهم بالحكم بعد فتكهم بالبيت الأموي . وقد شارك فريق من الشعراء في حرب بني أمية وتآليب الناس عليهم واستئصال شأفتهم . منهم سُديف بن ميمون . قال ابن الطقطقا عن الخليفة أبي العباس السفَّاح : « كان في بعض أيامه جالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك . وقد أكرمه السفَّاح ، فدخل عليه سُديف الشاعر ، فأنشده :

لا يغرِّزُكَ ما تَرى من رجالٍ إن تحتَ الضلوعِ داءٌ ذويًا
فضع السِّيفَ وارفع السُّوطَ حتى لا تَرى فوقَ ظهرها أمويًا
فالتفت سليمان وقال : قتلتنى يا شيخ ! ودخل السفَّاح ، وأخذ سليمان فقتل « (٨) »
وبالغ بنو العباس في تعقُّب الأمويين وقتلهم واستصفاء أموالهم ، سخطاً عليهم ، وانتقاماً منهم ، وكان هذا العمل الصارم دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك الى الهرب واللجوء الى الأندلس واقامة دولة أموية جديدة هناك .

ولابدُّ من الإشارة هنا الى مسألة هويَّة الدولة العباسية ، أهى عربية أم أعجمية ؟ قال الجاحظ : « إن دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان أموية عربية (٩) » ، وقال المسعودي في معرض حديثه عن قيام الدولة العباسية وزوال

(٧) ينظر تاريخ الطبري ١٧ ، ٤٢٩ .

(٨) الفهرى ص ١٥١ .

(٩) البيان والتبيين ٢ ، ٣٦٦ .

الدولة الأموية : « سقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها ، وذهبت مراتبها(١٠) » . إن هذين القولين وأمثالهما فيهما شيء من التهويل ، وترك الجواب عليهما للدكتور عبد العزيز الدوري في حديثه عن نشأة الدولة العباسية بعد عرضه لأقوال السابقين : ولعل هذه الأقوال صحيحة في أساسها ، لكنها متطرفة على ما أرى . فمن المبالغة أن نقول بأن سلطان العرب ينتهي بسقوط الأمويين . فالخلفاء العباسيون كانوا عرباً هاشميين ، وكانوا يعتزون بنسبهم ، ويعتبرونه أكبر مناقبهم . ومع أنهم قربوا الفرس ، إلا أنهم سيطروا عليهم فنكّلوا بهم حين شعروا بتعاطم نفوذهم . كما فعل أبو العباس السفّاح بأبي سلمة الخلال ، والمنصور بأبي مسلم الخراساني ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل . وقد أعطيت بعض المناصب الهامة كالوزارة الى الفرس ، ولكن عدداً كبيراً من الولاة والقواد كانوا عرباً في العصر العباسي الأول ، وأن كثيراً من اصحاب المناصب في الدولة الجديدة كانوا عرباً(١١) .

نظام الادارة :

لم يتخلّ العباسيون كلياً عن الأنظمة الادارية المعمول بها في دولة بني أمية بل أخذوها وطوّروها وزادوا عليها بعد اختلاطهم بأمم أخرى . وتمازجهم مع أجناس كثيرة غير عربية . فمن الأمور البارزة التي أوجدوها وجعلوها ركيزة قوية في ادارة الدولة هو نظام الوزارة ، وأعطوا الوزير صلاحيات واسعة في الاشراف على الشؤون العامة في الجهاز الاداري . وكان أول وزير لهم حفص بن سليمان الذي عرف بأبي سلمة الخلال .

وهناك وظائف أخرى عُنوا بها . منها وظيفة الحاجب التي تتولّى أمر الدخول على الخليفة . ووظيفة الكاتب الذي يتولّى أمور الكتابة عن الخليفة . وكانت لهذه الوظيفة تقاليد وآداب يتقنها العاملون فيها . أما القضاة فكانوا عدولاً . يمتازون بالأمانة والنزاهة والصدق . ينظرون في أمور الناس ومشكلاتهم الدينية والدنيوية . وكانت كلمتهم مسموعة عند الخلفاء وأولي الشأن في الدولة . وأعطى الخلفاء الأوائل

(١٠) مروج الذهب (طبعة باريس) ٢٩٢ ، ٨

(١١) العصر العباسي الأول ص ٤٢

عناية فائقة بالجيش . وعينوا له قواداً ماهرين في التدريب والتعبئة والقتال . فهو الوسيلة الوحيدة لحماية الدولة وحفظ كيانها ومحاربة المتمردين أو الخارجين عليها . وقد أطنب الطبري في وصف جيش أبي جعفر المنصور وحسن تنظيمه واختيار قواده .

ونظّم العباسيون سجلات الدواوين ، ورَتَّبوا ترتيباً دقيقاً ، ووزَّعوها حسب الاختصاصات . ووَكَّلوا عليها موظفين ماهرين ، عرَفوا بأصحاب الدواوين ، مثل الخراج والخاتم والنفقات والصدقات والبريد والجند والاطعام والمصادرة والشكاوي والضرائب وأشركوا غير العرب في هذه الوظائف واستفادوا من خبراتهم وإمكاناتهم في الأعمال الادارية والفنية .

ورَتَّب العباسيون أيضاً الأمور المالية كي يجابها متطلبات الدولة الجديدة . فأحدثوا ضرائب جديدة تُضاف الى الضرائب السابقة التي كان الأمويون يتقاضونها مثل ضريبة المصائد والسفن ، وضريبة أخماس المعادن ، وضرائب الموارث والتركات :

بناء بغداد :

تركزت قواعد الدولة العباسية . وثبتت أركانها . بعد تولي أبي جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦ للهجرة . وهو يعد المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي أصبحت بعد فترة قصيرة ذات شأن خطير ودور كبير في ادارة رقعة شاسعة من العالم الاسلامي ترفرف عليها راية القوة والعظمة . وتطلُّها معالم الحضارة والمدنية . وفي عهد هذا الخليفة أنشئت بغداد بعد اختيار دقيق ، واستشارة موفقة بالمهندسين والعارفين بالاماكن الجيدة والمواقع الرصينة الصالحة للاتصال بأطراف الدولة المترامية الأطراف من كل الجهات .

وضع الخليفة المنصور أول لبنة للمدينة الجديدة بيده سنة ١٤٥ للهجرة قائلاً :
« بسم الله . والحمد لله . الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين (١٣) » . وظلَّ البناء قائماً بها حتى سنة ١٤٩ للهجرة . وجعلها مدورة . وبنى

قصره في وسطها . وأخذتْ تنمو يوماً بعد آخر حتى « أصبحتْ أهم مدينة في العالم العربي . إذ بُنيتْ بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة . وتكاثر بها التجار والصناع . وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة . فهذا سوق العطارين . وذاك سوق البرازين . وهذا سوق الصيارفة مستبدلي النقود . وذاك سوق الوراقين . وهذا سوق بائعي الخلي والطرف المعدنية . وذاك سوق الرقيق المكتظ بالجوارى من كل جنس . وأمها المغنون والمغنيات . ونزلها الأدباء والعلماء من كل صنف وعلى كل لون . فزخرت بالحياة . تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزهات وميادين اللعب بالصولجان وغيره . كما تزينها القوارب التي كانت تتلأ على سفوح دجلة بأشكالها المتنوعة (١٣) »

وكانت بغداد في بادئ أمرها تضم الجانب الغربي الذي يُعرف بالكرخ . ولما ضاقت بسكانها تطلعت المنصور الى الجانب الشرقي لنهر دجلة . وبنى فيها قصرأ لابنه المهدي . وثكنات للجيش تتخللها الأشجار والبساتين . وأخذتْ تنمو وتتسع حتى أصبحت لا تقل جمالاً وتسيقاً عن الجانب الآخر وسميت بالرُصافة . ووصل المنصور بين الشطرين بعده جسور (١٤) . يُذكرنا بواحد منها علي بن الجهم في قوله (١٥) :

عيونُ المها بين الرُصافة والجسر جليلن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرأ على جمر
وقد أشاد الكثيرون بجمال بغداد . وبهاء مناظرها . وروعة مبانيها . قال الجاحظ : « لم أر مدينة قط أرفع سمكاً . ولا أجود استدارةً . ولا أوسع أبواباً . ولا أهي عقوداً . ولا أحكم سوراً وفضيلاً من مدينة المنصور ... وأنشد :

يا حببنا بغداد من بلدة ياليتني أوطنت بغدادا
لم ترعني من مثلها بلدة أطلب إصدراً وإيرادا
إن ردني الله إلى أهلها لم أتزوّد للنوى زادا (١٦) »

(١٣) تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ص ١٧

(١٤) بغداد مدينة السلام ص ٥٥ ، تاريخ بغداد ١ ، ١١٥ .

(١٥) ديران علي بن الجهم ص ٢٥٢ .

(١٦) بغداد مدينة السلام ص ٦٤ .

ونالت بغداد ثناءً عطراً من المؤرخين . والرحالة ، والبلدانيين ، وكتاب التراجم ، وأجمعوا على القول : « إنها أم الدنيا ، سيّدة البلاد ، وجنة الأرض ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدهنّ الظرائف واللطائف . ليس لها نظيرٌ في مشارق الأرض ومغاربها سعةً وكبراً وعمارةً ، وكثرة مياه ، وصحة هواء . ولأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكُور . وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية ، وأثرها جمعُ أهل الآفاق على أوطانهم . فليس من أهل بلدٍ إلاّ ولهم فيها محلّة ومُتجر . فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا . ثم يجري في حافتها النهران الأعظمان ، دجلة والفرات ، فتأتيها التجارات والمير برأ وبحراً بأيسر السعي ، حتى تكامل بها كلُّ مُتجرٍ يحمل من المشرق والمغرب . حتى كأنما سيقّت إليها خيرات الأرض ، وجمعت فيها ذخائر الدنيا ، وتكاملت بها بركات العالم (١٧) » .

وقد أجاد أحد الشعراء في ذكر فضائلها من قصيدة (١٨) :

أشرفَ غِبُّ القطارِ زاهرها	فالقومُ منها في روضةٍ أنف
لو أنّ دنيا يدومُ غابرها	من غرة العيش في بلهنية
فيها وقرّت بهم منايرها	دارُ ملوكٍ قرّت أسرتها
لمجدٍ إذا عُدّت مفاخرها	أهل القري والسدى ، وأندية

ومن طريف ما يروى أن الرشيد كان بالرقة . وكان يستحسنها ويستطيبها ، فيقيم بها ، وطال المقام بها مرّة . فقالت زبيدة للشعراء : من وصف مدينة السلام وطيبها في أبيات يشوق أمير المؤمنين إليها أغنيته . فقال في ذلك جماعة ، منهم منصور النمرى قال أبياتاً أولها :

ماذا ببغداد من طيب الأفانين	ومن منازهِ للدنيا وللدنين
تحيي الرياحُ بها المرضى إذا نَسَمَت	وجوشتُ بين أعضانِ الرياحين (١٩)

(١٧) صور مهزلة من حضارة بغداد في العصر العباسي ص ٥ .

(١٨) بغداد مدينة السلام ص ٩٠ .

(١٩) جوشت ، سارت .

فوقعت أبيات النمري من بين جميع ما قالوا في قلب الرشيد بحيث أسرع في الانحدار الى بغداد ، فوهبت زبيدة للنمري جوهرة ، ثم دسّت اليه من اشتراها بثلاث مئة ألف درهم (٢٠) .

ان بغداد ، حاضرة الخلفاء العباسيين ، بقيت أغنية في فم الشعراء ، وقد أحسن أبو سعد محمد بن علي بن محمد بن خلف النيرمانبي في قوله^(٢١) :

فقد طفت في شرق البلاد وغربها وسيرت رجلي بينها وركايا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهلها أرق شاملاً وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيسا

ثقافة العصر :

ان تقارب الامم واختلاطها وامتزاجها تؤدي دائماً الى تبادل الآراء والأفكار والخبرات ، وتساعد على تطوير الحياة الفكرية ورفقها وتقدمها ، وقد فتحت الدولة العباسية منذ أيامها الأولى الأبواب لجميع الأقوم والأجناس بالاشتراك في عملية تطوير الفكر وتنشيطه ، متخذة اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والتراث العربي القديم ، أساساً في التعبير والتدوين ونقل المعرفة . ولا بد من الإشارة هنا إلى أهم الروافد التي اتحدت وانصهرت في كيان عربي إسلامي موحد بلغ القمة في العصر العباسي الأول الذي عُرف عند الدارسين بالعصر الذهبي .

استقى العباسيون الثقافة من عدة أوعية ، وطلبوها من منافذ كثيرة ، أضافوها إلى الثقافة الإسلامية . فإنهم أخذوا من الثقافة اليونانية شيئاً كثيراً ، وكان ذلك عن طريق المدن التي كثر فيها عنصر الروم ، أمثال جُنْدِسَابُور القريبة من البصرة ، وحرّان والرّها ونصيبين وأنطاكية والإسكندرية . ويعد الخليفة المنصور الرائد الأول في طلب العلوم والمعارف ، وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات الأخرى ، ومن لمع اسمه في عهده بترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيى البطريق (ت ١٠٠ هـ) إذ غني بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس (٢٢) . واقتفى أثر أبي

(٢٠) ينظر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٦ ، وتاريخ بغداد ١ ، ص ٥٠ .

(٢١) تاريخ بغداد ١ ، ص ٥٢١ ، لوات الوفيات ٢ ، ص ٧٥ .

(٢٢) هيون الألباء ٢ ، ص ١٧٤ .

جعفر المنصور الخليفة المشهور هارون الرشيد الذي أنشأ دار الحكمة وجعل فيها طائفة من المترجمين . ومن أشهرهم يوحنا بن ماسويه . وجبريل بن بختيشوع . (٢٣)

وبلغت خلافة المأمون القمة في البحث عن المعرفة واجتذاب المترجمين وايوائهم والانفاق عليهم قال عنه صاعد بن أحمد الأندلسي (٢٤) : « لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور تمَّ ما بدأ به جدُّه المنصور . فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه . بفضل همته الشريفة . وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة . وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا اليه بما حضرم من كتب أفلاطون ، وأرسطو طاليس ، وأبقراط . وجالينوس . وأقليدس ، وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستخار مهرة الترجمة ، وكلّفهم إحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن . ثم حضَّ الناس على قراءتها . ورغّبهم في تعليمها . فنفتت سوق العلم في زمانه . وقامت دولة الحكمة في عصره . وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من احضائه لمنتحليها واختصاصه لمقلديها . فكان يخلو بهم . ويأنس بضانظرتهم . ويلتذُّ بمذاكرتهم . فينالون عنده المنزلة الرفيعة والمراتب السنية . وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب . فاتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة . وسئوا لمن بعدهم منهاج الطب ومهدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الروميّة أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها » . وهكذا كان المأمون جاداً في معرفة ما عند اليونان من علوم . وقد أفلح في مسعاه حينما أرسل رجالاً للبحث عن الذخائر القيمة وقد « جاؤوه بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثما طريقي والطب » (٢٥)

إن الخلفاء العباسيين اتجهوا الى الناحية العلمية وكرسوا جهودهم لها . لأنها تغذي العقل . أما الناحية الأدبية التي تغذي العاطفة فهي مرتبطة بالبيئة التي تنبت فيها . فإن الأدب ظل المجتمع . ولكل بيئة تقاليدها وأدائها . ولذلك لانجد كتاباً في الأدب نقل الى العربية من اليونانية على وفرة ما كان لليونانيين من ذلك (٢٦)

(٢٣) عيون الأنباء ، ٢ ، ٤٣ ، ١٢٢ .

(٢٤) طبقات الأمم ص ٦٤ .

(٢٥) الفهرست ص ٢٤ . الارثماطيقى ، الحساب .

(٢٦) معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٣١ .

وشاركت الأمم غير العربية التي دخلت الاسلام وتعلّمت اللغة العربية . في الحركة الثقافية . وقام فريقٌ ممن أصولهم غير عربية بترجمة الكتب ، ذكر ابن النديم مجموعةً منهم أمثال عبدالله بن المقفع ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن يحيى البلاذري ، وجبله بن سالم ، وإسحاق بن يزيد . وموسى بن عيسى (٢٧) . وأقبل فريق آخر على التأليف والتصنيف ونظم الشعر ، واكتسب بعضهم شهرةً كبيرةً في العلم والأدب والغناء أمثال حماد الراوية ، وبشار بن برد ، وأبي نواس ، وسيبويه ، والكسائي ، والفرّاء ، وابن درستويه ، وإبراهيم الموصلي ، وابنه إسحاق (٢٨) .

واتصل العرب بالثقافة الهندية ونقلوا منها ولاسيما في الرياضيات والفلك والطب . وقد ذكر ابنُ النديم اثنين من الذين نقلوا العلوم مباشرة من الهندية الى العربية ، وهما منكة الهندي وابنُ دهن الهندي (٢٩) . ومن الكتب التي تُرجمت على يديهما كتاب علاجات الحُبالي ، وكتاب أسماء عقاقير الهند ، وكتاب أجناس الحيات وسمومها ، وكتاب التوهّم في الامراض والعلل (٣٠) . وعرفَ الهنود علم العروض ، ووضعوا للشعر بحوراً وأوزاناً ، وكانت لهم في البلاغة نظرات صائبة . كما كانت لهم جهودٌ مثمرةٌ في مجال الفلسفة ، عكف البيروني على دراستها في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مردولة) . وتذوّق العرب قصص الهنود ، فقاموا بترجمة روائعهم ، مثل كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وهو هندي الأصل ألفه الفيلسوف بُيُذبا للملكِ ديشليم . وترجموا ألف ليلة وليلة وأصله هندي (٣١) وان كان للعرب فيه زيادات كثيرة عن أصله . وكذلك قصة السندباد الكبير والصغير ، وقصة هبوط آدم ، وملك الهند القتال . ونقلوا أيضاً بعض الحكم والأمثال وتقبلوها بقبول حسن وحرصوا على الافادة منها .

(٢٧) الفهرست ص ٢٤١ .

(٢٨) ينظر ضحى الاسلام ١١ ، ١٩٠ .

(٢٩) الفهرست ص ٢٤٢ .

(٣٠) الفهرست ص ٤٢١ .

(٣١) يرى المسعودي أن للكاتب أكثر من اصل فيقول ، ومن الكتب المنقولة اليها والمترجمة عن الفارسية والهندية والرومية كتاب هزارة أسامة ... والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة (مروج الذهب ٢ ، ٢٥١) وينظر كتاب الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ص ٢٠ .

وتجدر الاشارة هنا الى أن المؤرخ ابن خلدون جعل جل العلماء من الأعاجم . وقال : « لم يتم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم » (٣٢) . وذهب الدكتور شوقي صنيف الى القول إن جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم « (٣٣) » . ونحن لاننكر جهود الأعاجم في الترجمة والتأليف ولكن هذا لايعنى أنهم الوحيدون الذين قاموا بحفظ العلم وتدوينه وان جمهور المفكرين منهم . واذا كان هذا الأمر سيديداً فابن نضع الخليل بن أحمد الفراهيدي . وأبا عمرو بن العلاء . والأصمعي . والمفضل الصنبي وهشام بن محمد الكلبي . والإمام مالك بن أنس . وأبا العباس المبرد . وأبا تمام . والبحري وابن نباتة السعدي . والعباس بن الأحنف . وابن المعتز . والمنتبى . وأبا فراس الحمداني و ابا العلاء المعري لقد عاش الجميع عرباً وغير عرب تحت مظلة الاسلام وحركته القوية وسيادة الروح العربية الاسلامية . فتفجرت طاقاتهم العلمية والأدبية بها .

عوامل ازدهار الشعر :

الشعر فن جميل من فنون الأدب . ترتاح له النفوس وتبهج وقد لقيت صناعته عناية فائقة ورعاية بالغة منذ عصر ما قبل الإسلام . وبقيت تنمو وتزدهر الى أن وصلت إلى صورة مثلى متألفة تجذب الناظر وتبهره في العصر العباسي . وقد ساعدت عوامل كثيرة في هذا النمو والازدهار . ولعل من أهمها حب الخلفاء للشعر . وتقديرهم للشعراء . وتشجيعهم للنظم والإنشاد . واغداق الاموال بسخاء على القادمين عليهم . والمتصلين بهم والمنتسبين إليهم . والمنشدين بين أيديهم . ويجب ان لانسى أن أغلب الخلفاء العباسيين كانوا مثقفين ثقافة عالية . ولبعضهم مشاركة طيبة في نظم الشعر وتدبيج النثر . وكثير منهم آراء سديدة . ومناقشات ذكية . ومناقشات دقيقة . ومحاورات ظريفة . ومناظرات لطيفة روتها كتب التراجم والسير والآداب .

إن عيون الشعر العربي وغرره أنشئت في مجالس الخلفاء والوزراء والولاة والقواد . وكانت العطايا تنهال على الشعراء المجيدين . والشواهد على ذلك كثيرة . فهذا ابراهيم بن علي بن هرمة يدخل على المنصور وينشده قصيدة مدحية ينال بها منه عشرة آلاف درهم . (٣٤) وقال المؤمل بن أميل : قدمت على المهدي . وهو إذ ذاك

(٣٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤ .

(٣٣) تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول ص ٩١ .

(٣٤) جمع الجواهر ص ١٠٣ .

ولي عهد أبيه . فامتدحتَه فأمر لي بعشرين ألف درهم . (٢٥) وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصلي أن الخليفة الهادي طلب منه أن يُنشده شعراً يطربُّ له . فأنشده :

وإني لتعروني لذكراكِ نَفْضَةً كما انتفضَ العصفورُ بللَّةَ القَطْرِ
فياحبُّها زمني جوى كلِّ ليلةٍ ويأسلوةُ الأيامِ موعدكِ الحَشْرِ
هجرتكِ حتى قيل لا يعرفُ الهوى وزرتكِ حتى قيل ليس به صبرُ

فاستطابه جداً وأعطاه سبع بدير (٣٦) . وقال الأصمعي : « كنت عند الرشيد ، فدخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فقال : أنشدني من شعرك ، فأنشده :

وأمره بالبخل قلتُ لها اقصري
أرى الناسَ خلانَ الجوادِ ولا أرى
ومن خيرِ حالاتِ الفتى لو علمته
فِعالي فِععالِ المكثرينَ تحملاً
وكيف أخافُ الفقرَ أو أحرَمُ الغنى
ورأيتُ أميرَ المؤمنينَ جميلٌ ؟
فليس إلى ما تأمرينَ سبيلُ
بخيلاً له في العالمينَ خليلُ
إذا نال شيئاً أن يكونَ منيلُ
ومالي كما تعلمينَ قليلُ
ورأيتُ أميرَ المؤمنينَ جميلٌ ؟

فقال الرشيد : يا فضلُ : أعطه عشرين ألف درهم . ثم قال : لله أبيات تأتينا بها
يا إسحاق ما أتقن أصولها ، وأبين فضولها ، وأقل فضولها : فقال : والله يا أمير المؤمنين : لا قبلتُ
منها درهماً واحداً قال : ولم ؟ قال : لأنَّ كلامك ، والله ، خيرٌ من شعري : فقال :
يا فضلُ : ادفع إليه أربعين ألفاً . قال الأصمعي : فعلمتُ أنه أُصيدَ لدراهم الملوك
مني (٣٧) . »

لقد أصبحت مجالس الخلفاء مُنتدى الأدباء . وملتقى الظرفاء . يأتونها من كل
مكان طلباً للمال والجاه . أو التمتع بملذات الحياة أو المشاهدة ورؤية معالم الحضارة
في ظلِّ الدولة الجديدة .

(٢٥) جمع الجواهر ص ١٠٤ .

(٣٦) مختصر التاريخ ص ١٢١ . والأبيات الشعرية لأبي صخر الهذلي (الاغانى ٢٤ ، ١٢٢) .

البيدر ، جمع بديرة ، وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .

(٣٧) زهر الآداب ٢ : ١٠٤ .

إن الحضارة دخلت كل جانب من جوانب الحياة آنذاك . في النظم والتقاليد . وفي مجالس الطرب والغناء . وفي بناء الدور والقصور . وفي استخدام وسائل جديدة في الأطعمة والألبسة والفرش والأثاث وأدوات الزينة والترف . كل هذه الأمور قادت الشعراء الى النظم في موضوعات جديدة لم تكن مألوفة أو معروفة من قبل . اضافة الى مظاهر الطبيعة الخلابة من أنهار وأشجار وأزهار وأثمار وأطياف ... فإنها فسحت للشعراء . ولا سيما شعراء الوصف . المجال الرحب لتقديم قصائد ومقطوعات رائعة . مصاغة بأسلوب جذاب . متدفق من خيال خصب وقريحة معطاءة

ومن عوامل ازدهار الأدب الحرية الواسعة التي وجدها الشعراء في ساحة النظم . فإنهم أطلقوا عنان خيالهم في كل شيء دون خوف أو وجل أو استحياء . معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم بما يملئ عليهم الجو الذي كانوا يعيشون فيه .

وهذه الحرية - وان دفعت الشعراء الى الاكثار من النظم - أدت الى ظهور تيارات شعرية بعيدة عن الخلق العربي الأصيل والتربية الاسلامية النقية . ومن يرجع الى المصادر الأدبية يجد شعراً جماً في المجون والدعوة الى التحلل والانسياق وراء اللذة والمتعة والقصف في مجالس الجواري والغلمان . اضافة الى تيار الشعوبية الذي كاد يعبث بالمجتمع العباسي لولا وقوف الخلفاء وشرفاء القوم بوجهها جميعاً ومحاربتها وابطال دعواتها .

ان العصر العباسي زاخر بمعطائه الفكري . وسوف نحاول أن نظهر جوانبه المشرقة التي تعد مفخرةً للاجيال السابقة واللاحقة .

كلنا أحببنا حبسنا

حظاً حيدر

العصر العباسي الأول

١٢٢ - ٢٢٤ هـ

شهدت الحياة الأدبية في العصر العباسي تقدماً ملحوظاً. ولاسيما بعد التوسع الحضاري وانتشار الثقافة الاسلامية في أوساط واسعة من المجتمع. وانفتاح الخلق على عوالم جديدة من المعرفة.

وكان الشعر - وهو ديوان العرب - العصب النابض في قلب المجتمع العباسي، والمرأة الصادقة التي انعكست عليها صور الحياة وأحداثها، والدفتر الأمين الذي قُيدت فيه أفكار الناس وأخيلتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم.

وقد كثر نظم الشعر في هذا العصر وازداد عدد الشعراء زيادةً لانجد لها نظيراً في أي عصر آخر (٢٨). أما الفنون الشعرية فتكاد تكون نفسها، وإن دخلها التطوير بحكم الحياة الجديدة، فنلقى المديح والفخر والهجاء والرثاء، كما نلقى الغزل والخمریات والوصف والطرده والشكوى والعتاب والاستعفاف... وقد استجدت جوانب جديدة لها صلة بالموضوعات السابقة، أو أنها توليد لها وتجديد.

١ المجدد في الموضوعات الشعرية

الموضوعات الشعرية :

المديح :

يعدُّ المديح من أبرز الفنون الشعرية منذ عصر ما قبل الإسلام، وهو يشكل القسم الأوفى في نتاج الشعراء، وقد نشأ في بادئ الأمر إعجاباً بالفضائل العربية مثل: السماحة، والكرم، والحلم، والمروءة، والعفة، والاباء، والشمس، والعدل، والقوة، والشجاعة، وما الى ذلك من الصفات الحميدة. ثم أضيف إليها صفات أخرى مستمدة من القيم والمثل الاسلامية، مثل: التقوى، والورع، والتواضع، والوقار، وخفض الجناح.. وظلَّت هذه الفضائل والمحامد تردُّ في شعر المديح في عصر بني امية، وأن تحوّل فريق من الشعراء في مديحهم لخدمة أغراضهم الخاصة وفريق آخر لخدمة أحزابهم السياسية وترويج ما عند هذه الأحزاب من مبادئ وأفكار.

(٢٨) ينظر في الادب العباسي للدكتور علي الزبيدي ص ٢٢ - ٢٢.

ولما جاء العباسيون فتحوا الأبواب على مصاريعها للشعراء المتأحين ليدخلوها . مدافعين عنهم . ورادين الخصوم . فجاءوا مسرعين زرافات ووحدا ، يتفنون بعظمتهم وقوة سلطانهم ، ويضفون عليهم تلك الفضائل التي توارثوها عن السلف . وقد طرب الخلفاء لهم ، واستأنسوا بهم وخلعوا عليهم ، وحضوهم بالأموال . من ذلك ما يروى أن « الربيع حاجب المنصور قال : قلت يوماً للمنصور : إن الشعراء بيباك وهم كثيرون طالبت أيامهم ، ونفدت نفستهم . قال : اخرج إليهم فاقراً عليهم السلام . وقل لهم : من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد ، فانما هو كلب من الكلاب ، ولا بالحية ، فانما هي ذؤيبة تأكل التراب ، ولا بالجبل فانما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فانما هو غطاميط (٢٩) لجب ، ومن ليس في شعره هذا فليدخل ومن كان في شعره فليصرف . فانصرفوا كلهم إلا ابراهيم بن هرمة ، فإنه قال له : أنا (٣٠)

ياربيع ، فأدخلني . فأدخله ، فلما مثل بين يديه ، قال المنصور ياربيع ، قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره ، هات يا ابن هرمة ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

له لحظات عن حفاقي سريه
لهم طينة بيضاء من آل هاشم
إذا ما أبى شيئاً مضى كالذي أبى
وإن قال إني فاعل فهو فاعل
إذا كرها فسيها عذاب ونائل
إذا اسود من كوم التراب القبائل

فقال : حسبك ، هاهنا بلغت ، هذا عين الشعر ، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم . (٣٠) . ومما يروى أيضاً أن حماد عجرد دخل على أبي جعفر المنصور بعد موت أبي العباس أخيه فأنشده :

أتوك بعد أبي العباس إذ بانا يا أكرم الناس أعراقاً وعبيدانا
لو مَجَّ عودٌ على قوم عصارته لمَجَّ عودك فينا الشهد والبانا

فأمر له بخمسة آلاف درهم (٣١) . ويكيل الشاعر الحسين بن مطير الأسدي الفضائل والمحامد للخليفة المهدي ويجعله عظيماً ماجداً أديباً قائداً بطلاً ، فيقول (٣٢) :

(٢٩) غطاميط ، عظيم الامواج

(٣٠) العقد الفرید ، ١ ، ٢٢٠ . وينظر دهوان ابراهيم بن هرمة ص ١٦٦

(٣١) العقد الفرید ، ١ ، ٢١٦ .

(٣٢) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ٣٢ .

فتى هو من غير التخلق ماجد
علا خلقه خلق الرجال وخلقهم
إذا شاهد القواد سار أمامهم
وإن غاب عنهم شاهدتهم مهابة
ومن غير تأديب الرجال أديب
إذا ضاق أخلاق الرجال رحيب
جری على مايتقون وثوب
بها يقهر الأعداد حين يغيب

يعف ويستحي إذا كان خالياً كما عف واستحيا بحيث رقيب
وهكذا تقبل الخلفاء هذه النعمت، واستحسنوها، وعلوها جزءاً من مآثرهم التي
ورثوها عن آبائهم، وحبذوا أن تشيع بين الناس، وأن تدون في بطون الكتب. وإذا
رجعنا الى القصائد المدحية في هذا العصر، ودققنا النظر في شكلها نجد بعضاً منها
لازال يهتدى بالموروث القديم في الوقوف على الأطلال، وذكر عهد الهوى، ووصف
معاناة الرحلة، ومثال على ذلك قصيدة علي بن الجهم في مدح الخليفة المعتمد، منها
قوله (١٣):

قفوا خيوا الديار فإن حقا
حرام أن تخطاها المطايا
علينا أن نحيا بالسلام
ولم نذرف من الدمع السجام

وبعد وصف متاعب السفر، ومكابدة الناقة لمشقة الطريق، يتخلص الى المدح،
مبيناً شجاعة الخليفة وشهامته وقدرته على توفير الأمن وتشبيت عرى الإسلام،

وأنت خليفة الله المعلى
ليهنك يا أبا اسحاق ملك
على الخلفاء بالنعم العظام
عري الإسلام من بعد انقسام
يجل عن المفاخر والماسمي (١٤)

ومما يلاحظ أن هذا النظام في بناء القصيدة ولاسيما المقدمة الطللية قد أصابه
شيء من التجديد « سواء من الناحية الموضوعية أم من الناحية الفنية، فهي من
الناحية الموضوعية لم تعد أوعية تسكب فيها الدموع حسرة على المنازل الدائرة وعهود
الحب الضائعة فحسب، بل تحولت أيضاً عند بعضهم الى منابر يعلنون من فوقها

(١٣) ديوان علي بن الجهم ص ٤

(١٤) أهراسحال، كنية المعتمد.

أراءهم في الحياة ، سائرين في نفس الطريق التي مهّدها بعض الشعراء الأمويين قبلهم من أمثال ذي الرمة والقطامي والعجاج ، فما يُصيبها من الاقفار والتغير يصيب الكائنات كلها ، فلا داعي للحزن ، ولا مجال للأسف ؛ لأنّ كلّ شيء مصيره الى بلى وفناء . غير أنها لم تتحول على كل حال الى قالب فلسفي . إنما هي نظرات جزئية توصلوا إليها وبثوها فيها . ونجتزئ بهذه الأبيات التي استهل بها بشار أرجوزته البائية في مدح عَقَبَة بن سَلْم ، فإنه ضمنها فنوناً من هذه المعاني التي أشرنا إليها ، يقول (١٥)

يادارُ بينَ الفَرعِ والجِنابِ عفاَ عليها عَقَبُ الأحقابِ
 قد ذهبَت والعيشُ للذهابِ لما عرفناها على الخرابِ
 ناديتُ هل أسمع من جوابِ وما بدار الحي من كرابِ (١٦)
 إلا مطايا المِرْجَلِ الصَّخابِ وملعبِ الأحبابِ والأحبابِ (١٧)
 فانقلبتُ والدهرُ ذو انقلابِ ما أقربَ العامرِ من الخرابِ

فهو لا يكتفي بتجديد موقع المنزل ، ولا بتعداد بعض بقاياها ، ولا بسؤاله له واستعجابه عليه . بل يذهب أيضاً الى أن ما أفناه هو تعاقب الأيام والليالي عليه ، كما يخرج الحديث عن دثوره وتغير آثاره بالحديث عن الدهر والحياة ، فإذا كان قد بلى فإن الحياة نفسها مصيرها الى الفناء والزوال ، وإذا كان قد تغير فالأيام لاتدمو على حال بل تتبدل من حال الى حال « (١٨)

وهناك شعراء أهملوا وصف الاطلال والناقة والرحلة . واستعاضوا عنها بالفزل كما نرى في مديح مروان بن أبي حفصة لمعن بن زائدة ، والخليفة المهدي الذي يقول فيه القصيدة التي مطلعها : (١٩) :

طرقتك زائرةٌ فحبي خيالها بيضاء تَخْلِطُ بالحياء دلالها
 قادت فؤادك فاستقادَ ومثلها قاد القلوب الى الصبا فأمالها

(١٥) ديوان بشار بن برد ١١ ، ١٥٠

(١٦) من كراب ، من أحد .

(١٧) الصخاب ، كثير الغليان .

(١٨) مقدمة القصيدة العربية في العصر عباسي الأول ص ٢٢ .

(١٩) ديوان مروان بن أبي حفصة ص ٩٦ .

ومنهم من لم يلتفت الى الطول ولا الى جمال الحبيبة والتغزل بها ، بل جعل
 الخمرة فاتحةً لقصيدته المدحية ، وهذا اللون من الافتتاحية نجده عند شعراء
 كثيرين أمثال علي بن جبلة الملقب بالعمكوك (٥٠) ، وأشجع السلمي (٥١) ، وعبد الله
 بن عبد الحميد اللاحقي (٥٢) ، ومحمد بن وهيب الحميري (٥٣) ، ومسلم بن الوليد
 الذي يقول في احدى قصائده في مدح الخليفة هارون الرشيد: (٥٤)

هات اسقني طال بِـ الحَبْسِ مِنْ قَهْوَةٍ بَائِغُهَا وَكُنْ
 زَقِيْبَةُ الدَارِ رِصَافِيَّةٌ أَغْلَى بِهَا الشَّمْسُ وَالسَّقْسُ
 كَأَنَّهَا فِي الكَأْسِ يَأْقُوْتُهُ وَهِيَ إِذَا مَا مُزِحِحَتْ وَرَسُ
 فِي مَجْلِسٍ لِلْقَصْفِ رِيحَانُهُ عَيْنُ الْمَهَا وَالْبَقْرُ اللُّغْسُ

ومنهم من تحدث عن حالته أو عن وضعه النفسي ، أو عن شيء يُقلقه ويزعجه ،
 من ذلك مثلاً قول منصور النمري في مطلع قصيدة يمدح بها الخليفة هارون
 الرشيد: (٥٥)

يا زائرِيْنَا مِنْ السَّخِيَامِ حَسِيَاكُمَا اللهُ بِالسَّلَامِ
 لَمْ تَطْرُقَانِي وَبَسِي خَرَاكُ إِلَى حَلَالٍ وَلَا حَرَامِ
 هِيَ هَاتِ لِلْهُوِّ وَالْتِصَابِي وَلِلْفَوَانِي وَلِلْسَمَامِ
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ حَلْمِي وَنَهْنَهُ الشَّيْبُ مِنْ عَرَامِي
 لَللهِ حَبْسِي وَتَرَبُّ حَبْسِي لَيْسَلَةَ أَعْيَاهِمَا مَرَامِي

(٥٠) شعر علي بن جبلة الملقب بالعمكوك ص ١١٢ .

(٥١) أخبار الشعراء المحدثين ص ١١٢ . وينظر أشجع السلمي ، حياته وشعره ص ٢٥٥ .

(٥٢) أخبار الشعراء المحدثين ص ٦٦ .

(٥٣) الاطالهي ١٩ ، ٧٤ - ٩٦ .

(٥٤) شرح ديوان صريح الفواهي ص ٢٧٩ .

(٥٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٧ .

إنَّ التَّألمَ والشَّكَايَةَ مِنَ الضَّعْفِ وَالهَزَالِ ، وَهَجُومِ الكَبِيرِ ، وَاشْتِمَالِ الرَّأْسِ بِالشَّيْبِ ، وَالجَزَعِ مِنَ الحَيَاةِ ، وَلُومِ الدَّهْرِ يَرُدُّ بِكثْرَةٍ فِي مَقَدِمَاتِ القَصَائِدِ كَمَا نَلَاظِحُ مِثْلًا عِنْدَ مِروَانَ أَبِي حَفْصَةَ ، وَابِي الشَّيْصِ ، وَالحَسِينِ بنِ مَطِيرِ ، وَابْنِ مَنَازِرِ ، وَالعَكُوكِ ، وَمَنصُورِ النَّمْرِيِّ (٥٦) ، وَمَنْ جَمِيلِ مَاجَاءَ فِي هَذَا اللُّونِ قَوْلُ أَشْجَعِ السَّلْمِيِّ ، وَهُوَ يَصِفُ آلامَهُ الَّتِي أَضْحَتْ تَرَافِقُهُ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ مَاءُ شَبَابِهِ ، وَخَارَتْ قُوَاهُ وَاعْتَلَى الشَّيْبُ مَفْرَقَهُ ، فِي مَطْلَعِ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا الفَضْلَ بنَ الرِّبِيعِ (٥٧)

غَلَبَ الرِّقَادُ عَلَى جَفُونِ المُسْعِدِ وَغَرِقَتْ فِي سَهْرٍ وَليلِ سَرْمِدِ
 قَدْ جَدَّ بِي سَهْرٌ فَلَمْ أَرْقُدْ لَهُ وَالنَّوْمُ يَلْعَبُ فِي جَفُونِ الرُّقْدِ
 وَلَطَالَمَا سَهَرْتَ بِحَبِّبِي أَعِينِ أَهْدِي السُّهَادَ لَهَا وَلِمَا سَهَدِ
 أَيَّامِ أَرَعَى فِي رِيَاضِ بَطَالَةٍ وَرَدَ الصَّبَا مِنْهَا الَّذِي لَمْ يُورِدِ
 لَهُوَ يَسَاعِدُهُ الشُّبَابُ وَلَمْ أَجِدْ بَعْدَ الشُّبُوبَةِ فِي الهَوَى مِنْ مُسْعِدِ
 مَا الدَّهْرُ إِلَّا النَّاشِئَانِ تَوَالِبَا يَوْمٌ يَبْرُوحُ لَنَا وَيَوْمٌ يَغْتَدِي
 فَالْأَمْسُ لَيْسَ بِرَاجِعٍ لَكَ عَهْدُهُ وَالْيَوْمُ لَيْسَ بِمَدْرِكٍ مَا فِي الغَدِ

وَمِنَ المَقَدِمَاتِ الَّتِي اسْتَهْوَتْ عِدَدًا مِنَ الشُّعْرَاءِ العَبَاسِيِّينَ ، وَصَفَ الطَّبِيعَةَ وَمَا فِيهَا مِنْ مَبَاهِجٍ سِوَاكَ كَانَتْ صَامِتَةً أَوْ مُتَحَرِّكَةً ، وَيَكَادُ أَبُو تَمَامِ الطَّائِي يَكُونُ مِنَ المَبْرِزِينَ الأوَّلِ فِيهِ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ الرِّبِيعِ فِي مَقَدِمَةِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا الخَلِيفَةَ المَعْتَصِمَ (٥٨)

يَا صَاحِبِي تَقْضِيَا نَظْرِيكَمَا تَرِيَا وَجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تُصَوِّرُ
 تَرِيَا نَهَارًا مِشْمَسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبِيِّ فَكَانَمَا هُوَ مَقْمَرُ
 دُنْيَا مَعَاشٍ لِلوَرَى حَتَّى إِذَا جَلِيَ الرِّبِيعُ فَانَمَا هِيَ مَنظَرُ
 أَضْحَتْ تَصَوَّرُ بَطُونَهَا لظَهْوَرِهَا نُورًا تَكَادُ لَهُ القُلُوبُ تَنُورُ

بِهَذَا الأَسْلُوبِ الرَّائِعِ المَمْتَعِ يَسْتَرسلُ الشَّاعِرُ فِي وَصْفِ الرِّبِيعِ ، وَيُقَدِّمُ لُوحَةً جَمِيلَةً لِلطَّبِيعَةِ الزَّاهِيَةِ الضَّاحِكَةِ الَّتِي تَمَلُّ القُلُوبَ بِهَجَّةٍ وَمِسْرَةٍ ، وَيَزَاوِجُ بَيْنَ هَذَا البَهَاءِ وَالصِّفَاءِ وَالعَطَاءِ لِلطَّبِيعَةِ وَبَيْنَ كَرَمِ الخَلِيفَةِ وَوُجُودِهِ .

(٥٦) طبقات الشعراء لابن المعز ، الصفحات ٤٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٧٦ ، ٢٤٥ .

(٥٧) أخبار الشعراء المحدثين ص ٩٥ .

(٥٨) ديوان أبي تمام ٢ ، ١٩٦ .

نستشف من الشواهد السابقة أن الأسلوب في القصيدة المدحية أصبح يتراوح بين الجزالة والسهولة، والقوة والليونة، يضاف الى ذلك أن الأوزان أصبحت طويلها وقصيرها - قوالب لهذا الفن « مع ان قصائد المديح بالذات كان أساسها في العصر الجاهلي والإسلامي أيضاً الجزالة والرفخامة وقوة أسر الألفاظ وطول البحر الشعري، ليتلاءم مع جزالة الألفاظ ورفخامة التعبير، حتى إننا لو نظرنا في قصائد المديح قبل القرن الثاني لوجدنا غالبيتها في بحري الطويل والبسيط لانهما يحققان الغاية المبتغاة من شعر المديح» (١٠)

ومما يلاحظ في موضوع المديح في العصر العباسي المبالغة المفرطة التي تصل أحياناً الى حد مُستهجن، مثل قول الحسين بن مطير الأسيدي، فقد رفع المهدي فيه عن البشر، وكاد ينزله بمنزلة الخالق، فهو أطهر الناس، وأولاهم بالتقديس وأوسعهم كراماً، بل من نوره تتغير الألوان، ومن تلالؤ وجهه يتألق وجه الأرض ومن يده تدب الحياة في الأعواد اليابسة: (١١)

لو يُعبدُ الناسُ يامهديّ أفضلهم ماكان في الناس إلا أنت معبودُ
أضحتَ يمينك من جود مصورة لابل يمينك منها صورَ الجودِ
لو أن من نوره مثقال خردلة في السود طراً إذن لايبضت السودُ
من حسي وجهك تضحى الأرض مشرقةً ومن بنانك يجزي الماء في العود (١١)

ومن المبالغة أيضاً قول أبي نواس في هارون الرشيد: (١٢)

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وقوله: (١٢)
كيف لايدنيك من أمل من رسول الله من نسفرة

(٥٩) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٧٢.

(٦٠) شعر الحسين بن مطير الأسيدي ص ٤٨ وينظر الفراء من مخضر من الدولتين الاموية والعباسية ص ٢٩٧.

(٦١) في البيت إقواء.

(٦٢) ديوان أبي نواس ص ٤٠١.

(٦٣) ديوان أبي نواس ص ٤٢٠.

ياسيد الشياداتِ جئتُك قاصداً أرجو رضاك واحتمى بحماكا
ذكر فيها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ومعجزاته ، ويبدو واضحاً ان
التأخرين قد تأثروا بها ، خاصةً الإمام البوصيري الذي اشتهر بنظم المدائح النبوية
في القرن السابع للهجرة .

وتجدر الإشارة إلى ان شعر المديح حوى حكماً وأمثالاً كثيرة . أطلقها الشعراء
ترسيخاً لأقوالهم وتوطيداً لتعليقاتهم . وقد اشتهر بها أبو تمام ، وبلغت القمة عند
أبي الطيب المتنبى من بعد . من ذلك قول أبي تمام من قصيدة مدح بها أحمد بن
أبي دؤاد : (٦٩)

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ طُوِّيتَ أتاحَ لها لسانَ حَسودٍ
لولا اشتعالَ النارِ فيما جاورَتْ ما كان يُعرَفُ طيبَ عَرَفِ العُودِ

وقال في قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني :
وليس يُجَلِّي الكَرْبَ رُمَحَ مُسَدَّدٍ إذا هو لم يُؤنَسَ برأيِ مُسَدِّدِ

الهجاء :

الهجاء فنٌ أدبي قديم رافق المديح منذ عصر ما قبل الإسلام . وكان أول أمره
يدور على التعبير بوضاعة النسبِ والبخلِ ، والفقيرِ ، والقعود عن الغزو . والتقصير في
حماية الجار . والمعجز عن أخذ الثأر ، والانحزام في الحرب ، والاستسلام للأعداء ،
واستساعة الظلم (٧٠) . ولما أطلَّ الإسلام وأشرق نوره على الناس قُبِحَ الهجاء ، وعُدَّ
إثمًا . فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال في الإسلام هجاءً
مقذعاً فلسانه هَدْرٌ » (٧١) . ولذلك قَتَرَ هذا الفنُ في عصر صدر الإسلام ، ولكنه نما
وزاد شرره في العصر الأموي . وأخذ يتناول المثالب والمعائب ، واحترفه شعراء

(٦٩) ديوان أبي تمام ١ ، ٣٩٧ .

(٧٠) الهجاء والهجائون في الجاهلية ص ٨٢ .

(٧١) الصفة ١٧ ، ٢ لم أجد الحديث في الكتب الستة ولا في غيرها من الكتب . ينظر ، المعجم

المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لولسنك

النقائض احترافاً، وأصبحت القبائل « تحتشد في المزبد وفي الكناسة حول الشعراء يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء، وكأنهم وجدوا في ذلك لهواً لهم وتسلياً ». (٣١) وقلَّ الإقبال عليها. أي النقائض، في العصر العباسي الأول، وأصبحت مقتصرة على شعراء قلائل مثل ابن ميادة، والحكم الخُضري، وعبدالرحمن بن جهم الأسدي. (٣٢)

إنَّ حجم الهجاء في العصر العباسي الأول كبير، وقد تنوعت موضوعاته، واختلقت اتجاهاته، والكثير منه كان شخصياً يدفعه الحقد والغضب والحسد والانتقام. من ذلك مثلاً أنَّ بشار بن برد هجا العباس بن محمد بن العباس، والي الجزيرة لأخيه المنصور، لأنه بخل عليه ولم يسعفه بالمال. (٣٣)

ظَلَّ اليسارِ على العباسِ ممدودٌ وقلبُه أبداً بالبخلِ معقودٌ
 إنَّ الكريمَ ليخفي عنك عسرتَه حتى تراهُ غنياً وهو مجهودٌ
 وللبخيلِ على أموالهِ عِللٌ زرقُ العيونِ عليها أوجهُ سودٌ
 إذا تكرَّهتْ أنْ تعطِيَ القليلَ ولم تقدرْ على سعةٍ لم يظهرِ الجودُ
 بثَّ النوالِ ولا تمنعك قلته فكلُّ ما سدَّ قفراً فهو محمودٌ

فهو لم يكتفِ بتعنيفه على الشخِّ وحجب المال عن المقبلين عليه، بل ينصحه بإعانه الفقراء والمحتاجين وإن كانت الإعانة قليلة، فهي تكسبه حمداً وشكراً.

ويلاحظ أحياناً في الهجاء الشخصي روح الاستخفاف والتهوين والتحقير، فالقاري لشعر حماد عجرد في بشار بن برد يلمس ذلك، يقول مثلاً، (٣٤)

وأعمى يشبه القِرْدَ إذا ما عمى القِرْدُ
 دنياً لِم يُرْخَ يوماً إلى مسجدٍ ولم ينفذْ
 ولم يحضرْ مع الحُضَا ر في خيرٍ ولم يبيدْ
 ولم يُخَشَّ له ذمٌ ولم يُرْخَ له حمْدُ
 هو الكليلُ إذا ما ما ت لم يوجدْ له فقدُ

(٣٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٧٨.

(٣٣) الأغانى ٢، ٢٦٢، ٢٣٣.

(٣٤) دهراله ٣، ١٢٧.

(٣٥) الأغانى ١٤، ٣٢٩.

فلما سمع بشار هذا الشعر بكى ، فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما أبكي من هجائه ، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيصنفي ولا أصفه .

إنَّ رُوحَ السَّخْرِيَّةِ المَرِيْرَةِ المُنْتَابِيَّةِ مِنَ الكِرَاهِيَةِ المَقِيْتَةِ ، وَالحَسَدِ ، وَهُوَ دَاءٌ قَاتِلٌ كَمَا يُقَالُ تُوْدِي كَثِيْرًا ، وَتُوْدِي إِلَى عَوَاقِبِ وَخِيْمَةٍ ، وَلَعَلَّ أَصْدَقُ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ قَصِيْدَةُ أَبَانَ الأَلْحَقِي فِي هِجَاءِ جَارِ لَهُ اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ عِمَارِ الثَّقَفِيِّ تَزَوَّجَ مِنْ فَتَاةٍ اسْمُهَا عَمْرَةَ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّقَفِيِّ طَمَعًا ، وَكَانَتْ كَثِيْرَةَ المَالِ ، قَالَ :

لَمَّا رَأَيْتُ السَّبْرَ وَالسَّارَةَ وَالْفَرْشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الحَازَةَ
وَاللُّوْزَ وَالسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةَ
وَأَحْضَرُوا المَلْهِيْنَ لَمْ يَتْرَكُوا طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زَمَارَةَ
قُلْتُ : لِمَاذَا؟ قِيلَ : أَعْجُوبَةٌ مُحَمَّدَ زَوْجَ عَمْرَةَ
لَا عَمَرَ اللهُ بِهَا بَيْتَهُ وَلَا رَأَتْهُ مُدْرِكًا ثَارَةَ

وثمة أبيات يحرض فيها على التخلي عنه والنجاة منه بالهرب . وقد أفلح - كما يبدو - بهذه الفتنة . يقول الصولي : فلما سمعت عمارة هذه بشعره هربت « (٧٦) وشيبه بهذا - وإن اختلفت صورة المرأة - ما جرى لحماد مجرد ، فإن مطيع بن إياس هجاه بهذه الأبيات مستنفرًا خليلته « ظبية الوادي » على تركه :

أَلَا يَاطِبِيَّةَ الوَادِي وَذَاتَ السَّبْرِ وَالسَّارَةَ
وَزِيْنَ المَصْرِ وَالدَّارِ وَزِيْنَ الحَسِيِّ وَالنَّادِي
وَذَاتَ المَبْسَمِ السَّقْدَبِ وَذَاتَ المَسِيْسَمِ السَّبَادِي
أَمَّا بِاللهِ تَسْتَحْيِي نَ مَنْ خُسْلَةَ حَمَادِ
فَحَمَادُ فَتَى لَيْسَ بِذِي عَزْفَتِنَا قَادِي
فَسْتَوْبِي وَاتَّقِي اللهُ وَبِتِّي خَبْلَ جَرَادِ

قيل أخذها حكم الوادي فغنى بها . فلم يبق بالكوفة سقاء ولا طحان ولا مكار
إلا غنى فيها ... وحينما علم حماد بالخبر قال له : قتلتنى قتلك الله . (٧٧)

ويأخذ الهجاء أحياناً طابع المزاح والظرف . من ذلك بيتان قالهما الحسين بن
الضحك في مغنية كان قد عبث بها مرة . فصاحت عليه واستخفت به . فأراد ان
يضحك الجالسين عليها ، ويجعلها موضع سخريتهم فقال : (٧٨)

لها في وجهها عكنٌ وتُلثا وجهها ذقنٌ
وأسنانٌ كريش البط بين أصولها غفنٌ

وبكت الجارية لذلك بكاء مرأً ، وشاع البيتان ، فكسدت من أجلهما ، وكانت
إذا حضرت في موضع أنشدوا البيتين فتُجنُّ . ثم هربت من سرُّ من رأى فما عرف لها
بعد ذلك خبرٌ . والواقع أن في هذين البيتين هجاء قاسياً ، ولاسيما انها جارية مغنية
جُل عملها في مجالس الطرب واللهو .

ومن العجب أن بعض الشعراء سلطوا هجاءهم على أنفسهم ، وعلى الناس من
حولهم . أقارب كانوا ، أو زوجات ، أو بنات ، أو آباء ، أو أصدقاء ، أو قضاة ، أو
علماء ، أو وزراء ، أو خلفاء ، أو مُتدينين . أو مقنين ، إما تعابثاً وتظرفاً جرياً وراء
النادرة المسلية ، والنكتة البارعة ، أو انتقاماً لأنفسهم ، وإيلاماً لمنافسيهم . (٧٩) فهذا أبو
ذلامة يهجو نفسه ليضحك المهدي بقوله : (٨٠)

ألا أبلغ إليك أبا ذلامة فليس من الكرام ولا كرامة
إذا ليس العمامة كان قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامة
جمعت دمامة وجمعت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الذمامة

(٧٧) الأغانى ١٣ ، ٢٨٢ .

(٧٨) الأغانى ١٧ ، ٢٢٤ ، الحسين بن الضحك ، حياته وشعره ص ١٩٧ .

(٧٩) بنظر الشعراء من مظهرى الدولتين الأموية والعباسية ص ٣٣٨ - ٣٥٢ .

(٨٠) طبقات الشعراء ص ٥٧ ، الأغانى ١٠ ، ٢٥٨ ، جمع الجواهر ص ١١١ .

ونلاحظ ابن أبي الزوائد يهجو زوجته لأنه ملها وأبغضها. (٨١) ونرى مطيع بن إياس هاجياً أباه ، متهكماً به ، ومحترقاً له . (٨٢) ونجد بشاراً بن برد يهجو يعقوب بن داود وزير المهدي متهماً إياه بالغرور والكبر . (٨٣) ويجتريء على الخليفة نفسه ،

ولا يتورع عن هجائه بأقذع الألفاظ وأشنع السياب متهماً له بالفجور والغفلة (٨٤) . وكان أبو نعامة محمد بن الدقيقي خبيث اللسان ، استفترغ شعره في الهجاء ، وله قصيدة مزوجة باسم « السنيّة » ذكر فيها جميع رؤساء الدولة في أيام المتوكل من أهل سُرّ من رأى وبغداد ورماهم بالقبايح . (٨٥) وقد أخفى عدد من الشعراء الذين هجوا الخلفاء أسماءهم خشية العقاب والبطش . ومثال على ذلك الأبيات الآتية التي نظمها أحد الشعراء المجهولين في هجاء الأمين ؛ لأنه بايع لابنه الصغير موسى : (٨٦)

أضاع السخِلافَةَ غَشَّ الوزير وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزير ، وبكر مشير يريدان ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلا طريقتُ غرور وشر المسالسك طرقتُ الغرور
وأعجب من ذا وذا أننا نبايع للطفل فينا الصغير

إن سهولة الألفاظ وبساطة التعبير والميل إلى الشعبية يغلب على فن الهجاء في هذا العصر . إضافة إلى انه انماز بمقطوعات أو قصائد ليست طويلة منظومة في بحور قصيرة أو مجزوة .

وكان للنشاط الشعبي في العصر العباسي الأول دور كبير في بروز نوع من الهجاء عند عدد من الشعراء . تعصبوا على العرب ، وتناولوا عليهم ، وتغنوا بمجدهم الساساني ، وكان على رأسهم الشاعر الأعمى بشار بن برد بن يرجوخ الذي تنكّر لنعمة العرب وغض من شأنهم وخط من قدرهم بأسلوب ساخر حتى عدّ أخطر شاعر

(٨١) الأذهالي ١٤ ، ١٢٨ .

(٨٢) الأذهالي ١٢ ، ٢٢٢ .

(٨٣) دهرانه ٢ ، ٩٢ .

(٨٤) الأذهالي ٢ ، ٢٤٢ .

(٨٥) معجم الشعراء ص ٢٩٥ .

(٨٦) تاريخ الطبري ١٠ ، ١٤٢ .

أوقد نار الشعوبية . وهناك شعراء آخرون شاركوا في هذا الهجاء الخبيث ، منهم أبو نواس ، وأبان اللاحقي ، وأبو عبدالرحمن الهيثم بن عدي ، وعلى بن خليل ، وإبراهيم بن ممشاذ ، وستحدث عن شعرهم في فقرة لاحقة .

الرتاء :

الرتاء فن أدبي يُعَبَّرُ عن الألم والتوجع والتأسف ، وهو باصطلاح أهل اللغة بكاء الميت ، وتعدادُ حسناته ، وتمجيدُ صفاته ومناقبه بالشعر والنثر ، وقد عُرِفَ الرتاء منذ عصر ما قبل الإسلام « إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وإن ذلك مصيرٌ محتوم » (٨٧)

والرتاء من الموضوعات القريبة إلى النفس ، وهو يُشكِّلُ ديواناً كبيراً في أدبنا العربي ، وكان للشعراء العباسيين نصيبٌ وافرٌ فيه ؛ إذ نجدهم قد رثوا خلفاءهم وولاتهم ووزراءهم وقوادهم ، ورثوا مدنهم التي نزلت بها الكوارث ، ورثوا حيواناتهم المستأنسة ، وطيورهم الصادحة ، حتى رثى بعضهم شبابه ونفسه وعضواً ذهبَ من جسده ... إنهم جادوا بدموع غزيرة على كلِّ شيء عزيز عندهم وأثير لديهم بمقطوعاتٍ وقصائدٍ مستقلة قائمة بذاتها .

لقد حظي الخلفاء بقسطٍ من شعر الرتاء ، وأول خليفة بكاه الشعراء هو أبو العباس السفاح ، وكان أبو ذلامه نديمه المحبوب ؛ لذلك كثر نحيبه عليه ، وأثنته بقصائد كثيرة ، أثنت فيها على سياسته وأخلاقه وصفاته ، وذكر خسارة الأمة برحيله . من ذلك قوله : (٨٨)

(٨٧) الرتاء للدكتور شوقي ضيف ص ٧ .

(٨٨) جمع الجواهر ص ١٠٨ .

ويلى عليك وويل أهلي كلهم وَيْلاً وهولاً في الحياة طويلاً
 فلتبكين لك النساء بعبرة وليبكين لك الرجال عويلاً
 مات الندى إذ ميت يا ابن محمد فجعلته لك في التراب عديلاً
 إن أجملوا في الصبر عنك فلم يكن صبري ولا جلدي عليك جميلاً
 يجدون منك خلائقاً وأنا امرؤ لو عشتُ دهري ما وجدت بديلاً
 وهذا سلّم الخاسر يذرف الدموع الساخفة على الخليفة المهدي ويشيد بمساعيه
 الحميدة إبان حكمه: (٨١)

وباكية على المهدي عبرى كأن بها وما جُننت جنوناً
 لئن بلي الخليفة بعد عشر لقد أبقى مساعي ما بليناً^(٨١)
 سلام الله غدوة كـلـ يوم على المهدي حين ثوى رهيناً
 وكان أبو نواس وفياً للخليفة محمد الأمين؛ لأنه تنعم في أيامه، وحظي بلطفه
 وإحسانه، وحينما قضى نحبه رثاءً بشعر صادقٍ منبعثٍ من قلب حزين مرزوء،
 مثل قوله: (٨١)

ظوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوي المنية ناشراً
 وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذراً
 لئن عمرت دور بمن لا أوده فقد عمرت ممن أحب المقابر
 طواه الموت وأبعده عنه، وكان حذراً عليه، وقد احتفلت به المقابر لأنه عظيم
 وكريم ومن أسرة نبيلة، وهذه صورة لطيفة صاغتها مخيلة هذا الشاعر الذي كان
 صاحباً وسميراً للخليفة الأمين.

ومن الشعر الجيد في رثاء القواد قصيدة الحسين بن مطير الأسدي في من بن
 زائدة الذي اشتهر بجوده وشجاعته، منها قوله: (٩٢)

(٨١) الرثاء للدكتور شوقي ضيف ص ٥٩.

(٩٠) بعد عشر، يشير إلى انه ولي الخلافة مدة عشر سنوات.

(٩١) ٥هـواله ص ٥٨١.

(٩٢) شعر الحسين بن مطير الأسدي ص ٦٠.

فيا قَبْرَ مَعْنٍ. أَنْتِ أَوْلُ خُفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ حُطَّتْ لِلْمَكَارِمِ مُضْجِعاً
 وَيَأْتِيَرُ مَعْنٍ. كَيْفَ وَارِيَتْ جَوْدَهُ؟ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبِرُّ وَالْبَحْرُ مُنْزَعاً
 بَلَى قَدْ وَسَعَتْ الْجَوْدَ وَالْجَوْدُ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضُفَّتْ حَتَّى تَصُدَّعَا

قال أبو هلال العسكري معلقاً على هذه القصيدة : « إنها أرثى ما قيل في الجاهلية
 والاسلام » (١٣) . وقال ابن الأثير إنها « أعجب ما سمعتُ في هذا الباب » (١١) . ووصفها
 ابن خلكان بأنها « من المراثي النادرة » (١٥) . ومن يُمعن النظر فيها لا يجد شيئاً
 جديداً « يخرج عن سنن الشعراء العرب في الرثاء من الدعاء للميت وقبره بالسقيا
 والعجب للحفرة التي ضُمَّت الميت وقد كان كالبحر جوداً والجبل حلماً وإن الكرم
 مات بموته وانقطع الخير عن الناس بعد ذهابه » (١٦) . وشارك مروان بن أبي
 حفصة في رثاء معن بن زائدة . وتعدُّ قصيدته اللامية من القصائد الجيدة في باب
 الرثاء . إذ صُوِّرَ فيها حزنه عليه . وَوَجَدَ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَالشَّامَ وَنَجَدَ بِهِ . فَقَدْ خَسِرُوا
 بِمَوْتِهِ الْبَطُولَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْبَأْسَ وَالْجَوْدَ وَالتَّقْوَى وَالْإِخْلَاصَ لِلْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ .
 مطلعها : (١٧)

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالَا
 وَمِنْهَا :

وَأظْلَمَتِ الْعِرَاقَ وَأورَثَتْهَا مَصِيبَتُهُ الْمَجْلَلَةَ اخْتِلالاً
 وَظَلَّ الشَّامَ يَرْجِفُ جَانِبَهُ لِرُكْنِ الْعِزِّ حِينَ وَهَى فَمَا لَا
 وَكَادَتْ مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ أَرْضٍ وَمَنْ نَجِدَ تَزُولُ غَدَاةُ زَالَا
 فَمَا شَهِدَ الْوَقَائِعَ مِنْكَ أَمْضَى وَأَكْرَمُ مَحْسَبَتَا وَأَشَدُّ بَالَا
 سِيذُكَرُكَ الْخَلِيفَةُ غَيْرَ قَالَ إِذَا هُوَ فِي الْأُمُورِ بَلَا الرَّجَالَا

وَلَا يَنْسِي وَقَائِعَكَ الْهَلَوَاتِي عَلَى أَعْدَائِهِ جُمِلَتْ وَبَالَا
 وَمَعْتَرِكَا شَهِدَتْ بِهِ حِفَافَا وَقَدْ كَرِهَتْ فَوَارِسَةَ الْبِزَالَا

(٩٢) ديوان المعالي ٢ ، ١٧٦ .

(٩٤) الجامع الكبير ص ٩٥ .

(٩٥) وفيات الأعيان ٥ ، ٢٥٤ .

(٩٦) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ١٤ .

(٩٧) شعر مروان بن أبي حفصة ص ٧٤ .

ومن القواد الذين رثاهم الشعراء بقصائد عامرة ، محمد بن حُميد الطائي الذي قاتل بابك الخرمي في خلافة المأمون ، واستشهد في إحدى المعارك بعد أن أُخِن الجراح في الإعداء ونال منهم كثيراً بسيفه البتار . وكانت قصائد أبي تمام الطائي في رثائه من أجود القصائد وأوفقها في بيان فروسيّة هذا القائد وشهامته وجلده على مصاولة الخصوم ، ونضاله وصموده في محاربة الخارجيين على دولة بني العباس . من ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها^(٩٨) :

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذراً
ومنها :
فتى مات بين الضربِ والطعنِ ميتةً تقومُ مقامَ النصرِ إذ فاتهُ النصرُ

وما مات حتى ماتَ مضربُ سيفِهِ من الضربِ وإعتلت عليه القنا السُّمُرُ
ونفسٌ تعافَ العارَ حتى كأنَّه هو الكفرُ يومَ الزُّوعِ أو دونه الكفرُ
فأثبتت في مستنقعِ الموتِ رجلُهُ وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ^(٩٩)
غدا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجرُ
تردِّي ثيابِ الموتِ حمراً فما أتى لها الليلُ إلا وهي من سندسٍ خضرُ

هذا البطل المغوار والمقاتل الجسور لم تفتقر عزمته ولم يفر من الحرب ، بل بقي يضارب ويجالد بكفاءة عالية ومقدرة فائقة الى ان وقع شهيداً وأمسى من أهل الجنة الذين « يلبسون ثياباً خضراً من سندسٍ واستبرقٍ »^(١٠٠)

وللشعراء العباسيين شعر شجيٍّ مؤثر في أبنائهم واخوانهم وزوجاتهم وأقربائهم ، فمن الذين بكوا أبناءهم بشار بن برد ، إذ فُجع بموت ابنه الصغير محمد الذي كان كالفضن البانع يتأمل فيه الخير والمون في حياته^(١٠١) ،

(٩٨) ديوانه ، ٤ ، ٧٩ .

(٩٩) الأخص ، باطن القدم .

(١٠٠) سورة الكهف ، الآية ٦١ .

(١٠١) ديوانه ، ١ ، ٢٥٤ .

أَجَارَتَا لَا تَجْزَعِي وَأَنْيَبِي أَتَانِي مِنْ الْمَوْتِ الْمَطْلُ نَصِيبي
 بُنِي عَلَى رَغْمِي وَسَخْطِي رَزْزَتُهُ وَبُدِّلَ أَحْجَاراً وَجَالَ قَلِيبِ (١٠٣)
 وَكَانَ كَرِيحَانِ الْغُصُونِ تَخَالُهُ دَوَى بَعْدَ إِشْرَاقِ يَسْرُ وَطِيبِ
 دَعَتْهُ الْمَنَايَا فَاسْتَجَابَ لَصَوْتِهَا فَلِلَّهِ مِنْ دَاعٍ دَعَا وَمَجِيبِ !
 وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ لَنَا كَافِئاً مِنْ فَارِسٍ وَخَطِيبِ

ومن جيد الشعر في رثاء الزوجات ، وأشجاءه . وأشدّه تأثيراً وإثارةً ، قول محمد بن عبد الملك الزيات في زوجته التي ماتت وتركت ولداً صغيراً لا يبصرُ على فراقها (١٠٣) :

أَلَا مَنْ رَأَى الْوَيْدَانَ الْمَفَارِقَ أُمَّةً بُعِيدَ الْكَرْيَ عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ
 رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمَّه يَبْتَائِنُ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيانِ
 وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفَرَاشِ تُجْنُهُ بِلَابِلِ قَلْبٍ دَائِمِ السَّخْفِقَانِ
 فَلَا تَلْحِيَانِي إِنْ بَكَيْتَ فَإِنَّمَا أَدَاوِي بِهَذَا الدَّمْعِ مَاتِرِيَانِ

ومن الشعراء الذين اشتهروا بهذا اللون من الرثاء الحزين ، ديك الجن الذي قتل زوجته إثر وشاية كاذبة ، وبقي يبكي عليها بشعرٍ صادقٍ يُعبّرُ فيه عن مأساته فيها وندمه على الضحية التي ذهبت غدراً وظلماً . قال فيها بعد الندم : (١٠٤)

أَشْفَقْتُ أَنْ يُذَلِّي الزَّمَانُ بَغْدِرِهِ أَوْ أُبْتَلَى بَعْدَ الْوَصَالِ بِهَجْرِهِ
 قَمَرٌ أَنَا اسْتَخْرَجْتُهُ مِنْ دَجْنِهِ لِبَلِيَّتِي وَجَلَوْتُهُ مِنْ خَدْرِهِ
 فَكَلَّمْتُهُ وَبِهِ عَلِيٌّ كَرَامَةٌ مَلَأَ الْحِشَاءَ وَلَهُ الْفَوَازُ بِأَسْرِهِ
 عَهْدِي بِهِ مَيْتًا كَأَحْسَنِ نَائِمٍ وَالْحَزْنَ يَسْفُحُ عَبْرَتِي فِي نَحْرِهِ
 لَوْ كَانَ يَدْرِي الْمَيْتُ مَاذَا بَعْدَهُ بِالْحَيِّ حَلَّ مَكَانَهُ فِي قَبْرِهِ
 غُضَّصَ تَكَادَ تَفِيضُ مِنْهَا نَفْسُهُ وَتَكَادَ تَخْرُجُ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ

وكذلك . اشتهر أبو حية النميري في بكاء زوجته والنواح عليها حتى استفزع جزءاً كبيراً من شعره في رثائها ، قال ابن المعتز : « وكان أبو حية تزوج ابنة عم له ، فتوفيت عنه ، وكاد يخرجُ عليها من الدنيا ، وأشعارة الجياد كلها فيها وفي وصفها في

(١٠٢) الجال ، الجالب . القليب في الاصل ، البثر ، والمراد هنا القبر .

(١٠٣) ديوانه ص ٦٧ .

(١٠٤) ديوانه ص ٩٢ .

حياتها ، ومراثيها بعد . ممتاتها ، وما رأيتُ ذكياً ولا عاقلاً ولا كاتباً ظريفاً إلا وهو يتمثل من شعر النميري بشي «(١٠٥) وللأصدقاء نصيب طيب من الرثاء . يفرض بالوفاء ، ومن بديع ما قيل في هذا اللون قصيدة لابي العتاهية في رثاء صديق له يدعى علياً : (١٠٦)

أخ ، طالما سرّنتُ ذكراً فقد صرتُ أشجياً لدى فكره
وقد كنتُ أغدو إلى قصره فقد صرتُ أغدو إلى قبره
وبَدَلُ بالبُسطِ فرش الشرى وريح ثرى الأرض من عطره
أخو سافر ماله أوبةً غريب ، وإن كان في مصره

ومن الضروب الجديدة في فن الرثاء في العصر العباسي بكاء المدن التي أصابها الدمار والخراب ، وذهب سكانها الأبرياء ضحايا . ومن أجود ما قيل في هذا اللون قصائد ومقطوعات عمرو بن عبد الملك الوراق الغنزي (١٠٧) وقصيدة أبي يعقوب اسحاق بن حسان الخريمي في رثاء بغداد بعد الفتنة بين الأمين والمأمون ، وقصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة بعد ثورة الزنج . ان قصيدة الخريمي التي تصور كارثة بغداد بلغت ١٣٥ بيتاً ، وهي سجلٌ حافلٌ لحادثة دامية مروعة ، منها قوله (١٠٨) :

فإنها أصبحت خلايا من ال انسانٍ قد أدميتُ محاجرها
قفرأ خلاء تعوي الكلاب بها ينكرُ منها الرسوم زائرُها
وأصبح السبوس ما يفارقها إلها لها والسُورُ هاجرُها

أما ابن الرومي فإنه صوّر مأساة البصرة في قصيدة تجاوزت ثمانين بيتاً (١٠٩) ، وهي أيضاً سجلٌ لفاجعة كبيرة حلّت بهذه المدينة العريقة وسنذكرها في ترجمته .

ومن الألوان الجديدة التي ظهرت في العصر العباسي مراثي الطيور الصالحة والحيوانات الأليفة التي اقتناها الناس آنذاك واعتنوا بتربيتها في بيوتهم أو في

(١٠٥) طبقات الشعراء ص ١٤٩ .

(١٠٦) ديوانه ص ٢٠٩ .

(١٠٧) ينظر تاريخ الطبري ١٨ ، ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(١٠٨) ديوانه ص ٢٧ .

(١٠٩) تنظر دراسات في التص الشعري ، العصر العباسي ص ١٥٢ - ١٦٩ .

محلات خاصة بها(١١٠) فأبو نواس - مثلاً - رثى كلبٌ صيد لسعته حيّة فمات في
أرجورة بيّن فيها حزنه وأساه لفقده سيد الكلاب الذي أغناه عن وسائل الصيد.
مطلعها(١١١) :

يابؤس كلبى سيّد الكلابِ قد كان أغناني عن العقابِ
وبرز القاسم بن يوسف بهذا النمط من الرثاء . يقول أبو الفرج الأصبهاني :

«إنه شاعر مليح الشعر. قد جعل وكذّه في مدح البهائم ومرائيتها فاستغرق أكثر شعره في
ذلك»(١١٢) . وأورد له الصولي قصائد كثيرة في هذا الغرض ، منها قصيدة طويلة في
رثاء قُمري أولها(١١٣) :

هـل لامريء من أمانٍ من ريبِ هذا الزمانِ
ومنها :

فالقلبُ فيه كلومٌ من لاءِجِ الأحزانِ
وفي الحشا لاذعاتٌ كمشعلِ النيرانِ
والمقلبانِ سجومٌ دمعاهُما تكفانِ
كان المسطوقُ أنسأ للأهلِ والجيرانِ

ولابن العلاف قصيدة مشهورة متداولة في رثاء هرّ تناقلتها كتب الأدب
والتاريخ(١١٤) . وهي من روائع الشعر في هذا الغرض ، مطلعها(١١٥) :

ياهرُ فارقتنا ولم تعدِ وكنت منّا بمنزلِ الولدِ
وكيف تنفكُ عن هواك وقد كنت لنا عدّة من العددي

(١١٠) ينظر « ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي » بحث للدكتور طه محسن في مجلة
آداب الراشدین ، العدد السابع ١٩٧٦ .

(١١١) ديوانه ص ٦٤٣

(١١٢) الأهالي ٢٣ ، ١١٨ .

(١١٣) أخبار الشعراء المحدثين ص ١٩٢ .

(١١٤) وصل إلينا منها ٥٧ بيتاً ، وهي في الأصل ٦٥ بيتاً كما ذكر ابن تفرّج بردي (النجوم

الزاهرة ٢ ، ٢٢٠)

(١١٥) شعر ابن العلاف ص ٢٢ .

بهذا الأسلوب السهل المأنوس يسترسل في رثائه لهذا الحيوان الذي ألفه وأحبه. وقد اختلف الدراسون فيها . فمنهم من قال : انها في هرّة حقيقّة . وقيل : انه أراد بها رثاء عبدالله ابن المعتز . وقد كنى عنه بالهر خوفاً من الخليفة المقتدر الذي قتل ابن المعتز . كما قيل : انه كنى بالهر عن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات الوزير أيام محنته لأنه لم يستطع أن يرثيه علانية خشية من الخليفة المقتدر . الى غير ذلك من الأقوال ... وقد عتق " ندى على هذه القصيدة بعد أن أورد جزءاً كبيراً منها بقوله : « وأنا شديد التعجب ممن يزعم أن هذه القصيدة رثي بها غير هر » (١١٣)

وهناك مراثٍ تبدو لنا غريبة . وهي من مستجدات العصر العباسي . فمثلاً نجد لمحمد بن يسير مرثيةً في بستانٍ عاثت فيه شاةً أفلتت لأحد جيرانه (١١٣) . ولأحمد بن أبي كريمة قصيدةً في رثاء قميصٍ أغار عليه فأر فقرضه (١١٣) . ولإسحاق الموصلي مرثيةً في خمارة . ولعبد الصمد بن المعتدل قصيدةً في رثاء طفيلي مات على المائة بعد أن بلع لقمةً حازةً جداً . (١١٠) . ولحمود بن الحسين المعروف بكشاجم قصيدة في رثاء قدحٍ انكسر له (١١٣) .

ان شعراء العصر العباسي لم يتحرّجوا من رثاء أي شيء . مهما كان قدره أو منزلته . مادام هو وثيق الصلة بنفوسهم . وكانوا صريحين في تصوير أحاسيسهم ومشاعرهم . وصادقين في تعابيرهم . فلما تشوبها الصنعة أو التكلف .

الغزل :

الغزل من الفنون الشعرية الجميلة المحببة الى النفس . يُصوّر أشواق المحبين ولواعجهم . وهو شبيه بالنسيب والتشبيب من غير كثير تمييز أو عظيم اختلاف . ومن يتصفّح ديوان الغزل العربي يجده كبيراً وواسعاً . تغنى الشعراء من خلاله بالمرأة منذ عصر ما قبل الاسلام . وقد جعله فريقٌ منهم استهلالاً لمدايحهم وأهاجبتهم وحماسياتهم . وخصّص له فريقٌ آخر قصائد ومقطوعات .

(١١٦) نكت الهيمان ص ١٢٩ - ١٤٢ .

(١١٧) الأهالي ١٤ : ٢٠ .

(١١٨) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٤٤٢ .

(١١٩) ديوانه ص ٢٠١ .

(١٢٠) شعره ص ١٦٥ .

(١٢١) ديوانه ص ١٢٠ .

وارتقى الغزل في عصر بني أمية ، وزاد الاقبال عليه ، ولحق الشعراء المرأة ، ووصفوا :معاناتهم في حبّها ، وقد اختصّ بعضهم بواحدة عاش لها وقضى وهو يحبها . فسموا بالغزلين العذريين ، أو شعراء مدرسة « الغزل العفيف » وعلى رأسهم جميل بن مَعْمَر . وعاش بعضهم الآخر يتصيد الجمال في كل مكان ، ويتبع الحسن أينما حلّ وارتحل للعبث واللذة ، فسموا بالغزلين الماجنين ، أو شعراء مدرسة « الغزل الحسي » وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة . وبقي التياران يسيران في العصر العباسي جنباً إلى جنب مع اختلاف في الكمية والتنوعية .

ويمثل التيار الأول ، أي العفيف ، مجموعة من الشعراء ، من أشهرهم ابن ميادة (١٣٣) ، وأبو حية النميري (١٣٣) ، والحسين بن مطير الأسدي (١٣٤) ، وابن ربيعة (١٣٥) . وهؤلاء الأربعة من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ومما يستحسن لابن ميادة قوله (١٣٦) :

سلي الله صبراً واعترف بفراق عسى بعد بين أن يكون تلاق
ألا ليتني قبل الفراق وبعده سقاني بكأس المنية ساق

ويعدّ العباس بن الأحنف أبرز شعراء الغزل العفيف والعشق الشريف في العصر العباسي ، وقد قصر جل شعره على صاحبتة « فوز » ، ولاحظ أبو الفرج الاصبهاني هذه الظاهرة فقال : « كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً ، من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولدباجة شعره رونق ، ولعانيه عذوبة ولطف . ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني » (١٣٧) . ان شعر العباس بن الأحنف يمتاز بالعفة والودّ والصفاء والنقاء ، وهو رقيق مؤثر يتجاوب مع النفس الإنسانية في كل زمان وإن قال فيه الدكتور طه حسين : « لم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بني أمية ، ولم يبلغ إجاده العابثين من

(١٣٢) طبقات الفراء ص ١٠٦ ، الألهاني ١٢ ، ٢٦١ .

(١٣٣) طبقات الفراء ص ١٤٢ ، الألهاني ١٦ ، ٢٠٧ .

(١٣٤) طبقات الفراء ص ١١٤ ، الألهاني ١٦ ، ١٧ .

(١٣٥) الألهاني ١٤ ، ٤٠٥ .

(١٣٦) طبقات الفراء ص ١٠٩ .

(١٣٧) الألهاني ٨ ، ٢٥٢ .

شعراء بني العباس؛ وإنما جاء فاتراً قلماً يترك في النفس أثراً قوياً. لأن الفن الذي أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره، وانتهت الأسباب التي أوجدته ومكنت الناس من اتقانه والاجادة فيه» (١٣٨). وتابعه في هذا الرأي الدكتور عزالدين اسماعيل فقال: «ومهما يكن من أمر، فإن هذا الشاعر العباسي قد انقطع للغزل. شأنه شأن العذريين وشأن عمر بن أبي ربيعة. وأن نفسه الشعري كان أقرب اليهم. وإن كنا - فيما طالعنا له من شعر - لانجد فيه حرارة العذريين وصدقهم، ولا خفة ظل عمر بن أبي ربيعة. بنفس الدرجة» (١٣٩).

كان العباس بن الأحنف مخلصاً في رسم صورته الجميلة للحب العفيف، وحسبك ما قالته الدكتورة عائكة الخزرجي: «ولست أكاتمك الحقيقة من أنني مؤمنة كل الإيمان بأن الشاعر يملئ علينا من تجربة حقيقة عاشها، ولعل أروع لوحة عرض لنا العباس فيها حكاية هواه المذبذبة التي يحلو له أن يعرضها علينا بين الحين والحين لنراه فيها الظمان القريب من النبع المحروم من الورد» (١٣٠). ومن جميل شعره مناجاته للقطا التي وجدت صداها في كل أذن ووقعها في كل قلب: (١٣١)

بكيّت إلى سرب القطا حين مرّ بي فقلّت ومثلي بالبكاء جدير؛
أسرب القطا هل من مُعير جناحه لعلّي إلى من قد هويت أطيّر

إن روحه معلقةً بفوز، لا يبيد عنها، فهي الوحيدة التي ملكت فؤاده دون
الفتيات: (١٣٢)

ما سمج الناس في عيني وأقبحهم إذا نظرت فلم أبصرك في الناس
حتى متى كيدي حرى مُعطشةً ولا يلينُ لشيء قلبك القاسي

ويلاحظ أنه بالغ في البيت الأول. وهذا من طبائع المحبين وأساليهم حين يصفون جمال المحبوبة ومفاتها، وهما هو ذا يقول: (١٣٣)

(١٣٨) حديث الأربعاء ١، ٢٩٤

(١٣٩) في الأدب العباسي، الرؤية والفن، ص ٢٩٤.

(١٣٠) العباس بن الأحنف ص ٥٢

(١٣١) الديوان ص ١٦٨

(١٣٢) الديوان ص ١٨١

(١٣٣) الديوان ص ٢٥٧

تَمَّتْ وَتَمَّ الحَسَنُ فِي وَجْهَهَا فَكُلُّ حَسَنٍ مَا خَلَاها مُحَالٌ
لِلنَّاسِ فِي الشَّهْرِ هَلالٌ وَلِي فِي وَجْهَهَا كُلِّ صَباحٍ هَلالٌ

ومن الشعراء الذين عرفوا بالغزل العفيف عُكاشة بن عبد الصمد البصري الذي أحب فتاة تُدعى « نعيم » ، وهي جارية لبعض الهاشميين . وشاءت الصدق أن شخصاً اشتراها من مولاتها ورحل بها الى بغداد « فعظم أسفه وحزنه عليها ، واستهيم بها طول عمره . فاستحالت صورته وطبعه وخلقه الى أن فرَّق الدهر بينهما . فكان أكثر وكده وشغله أن يقول فيها الشعر وينوح به عليها ويكيى (١٣١) . » وقد وصل به الحال الى التمني في الموت ليستريح من الهموم والاحزان التي اتعبته وهذته (٣٠) :

نُعيم هل بكيتِ كما بكيت وهل بغدي وفيتِ كما وفيتِ ؟
ألا يا ليت شعري كيف بعدي أض طبارك اذ نأيتِ واذ نأيتِ ؟
فكم من عبّرة ذرّفتِ فلما خشيتُ عيون أهلي واستحيتُ
نهضت بها مكاتمةً فلما خلوتُ ذرقتها حتى اشتفيتُ
وقلتُ لصحبي لما رمانى هواكِ بدائه حتى انطويتُ
أراني من هموم النفس مَيّتا ولم أر في نعيم ما نويتُ
فليت الموت عجل قبض روعي جهاراً فاسترحت وأين ليت ؟!

ومن شعراء الكوفة القلائل في نظم الشعر العفيف علي بن أديم الجعفي . فقد تغزّل بفتاة اسمها « منهلة » ، وهام بها . وشاع أمرهما بين الناس . حتى وضع أحدهم كتاباً فيهما بعنوان « علي بن أديم ومنهلة (١٣٦) » . وقد أشار أبو الفرج الأصبهاني إلى خبرهما فقال : « كان بالكوفة رجلٌ من بني أسد يُقال له علي بن أديم . فهو جارية لبعض نساء بني عيس . فباعها لرجلٍ من بني هاشم . فخرج بها عن الكوفة . فمات علي بن أديم جزعاً عليها بعد ثلاثة أيام من خروجها . وبلغها خبره فماتت بعده . فعمل أهل الكوفة لهما أخباراً هي مشهورة عندهم ... وقالوا : آخر من مات من العشق علي بن أديم الجعفي (٣٧) . ومن شعره قوله (١٣٨) :

(١٣٤) الأغانى ١٢ ، ٢٦٠ .

(١٣٥) الأغانى ١٢ ، ٢٦٢ .

(١٣٦) الفهرست ص ٤٢٦ .

(١٣٧) الأغانى ١٥ ، ٢٦٧ .

(١٣٨) الأغانى ١٥ ، ٢٦٧ ، معجم الشعراء ص ١٢٥ .

إِنَّ قَلْبِي قَدْ تَصَابَى بِسَمْعِهَا كَمَا كَانَ ابْنَا
 وَرَمَاهُ الْحَجَبُ مِنْهُ بِسَمْعِهَا فَصَابَا
 قَدْ دَهَا شَادِنٌ يُلَلُّ فِي الْجَيْدِ بِخَابَا (١١٠)
 فَهوَ بَدْرٌ فِي نَسَقَابِ فَذَا السَّقَى السَّنَقَابَا
 قَلَّتْ شَمْسٌ يَوْمَ دَجِنِ حَسْرَتِ عَنْهَا الشُّحَابَا

وثمة شعراء آخرون نظموا مثل هذا الشعر، منهم اسماعيل بن عمار
 الاسدي (١١١)، والمؤمل بن اميل المحاربي (١١٢)، وبشار بن برد (١١٣)، وعمرو
 الخاركي (١١٤)، والفضل بن عبدالصمد الرقاشي (١١٥)، وابن الخياط (١١٦) ...

ولم يقف بعض الشعراء في غزلهم عند المرأة، بل تجاوزوها الى الغلمان
 والغلاميات (وهن فتيات في زِيِّ غلمان) وكلاهما بدعة خطيرة، وانحراف مقرف،
 وخلق شائن. ان الغزل بالمذكر تسرب الى المجتمع العباسي من الفرس كما يرى
 يوسف حسين بكار في قوله: «ان العامل الاساس في ظهور الميل الى الغلمان هم
 الفرس الذين نقلوها الى العرب. وساعد عليها عوامل اخرى اذت في مجموعها الى ظهور
 الغزل بالمذكر كأبي فرز من فنون الشعر الاخرى (١١٢)، وبخالفه في الرأي محمد
 النويهي. فيرى الخطأ والظلم معاً في أن يعزى هذا الانحلال الخلفي الى أمة واحدة هي
 الفرس وإنما يعزوه الى كل الأمم التي جمعتها الحضارة الاسلامية، لأن الانحطاط
 إنما نشأ عن اختلاط هذه الأجناس بأديانها المختلفة وعاداتها ومقاييسها ونظمها
 المتباينة. (١١٣)

(١١٥) السحاب، القلاعة من قرفل.

(١١٦) الأغانى ١١، ٣٦٤.

(١١٧) نهاية الأرب ٢، ٢٦٦.

(١١٨) الأغانى ٢، ١٢٥.

(١١٩) الورقة ص ٥٩.

(١٢٠) طبقات الشعراء ص ٢٢٦.

(١٢١) الأغانى ٢٠، ١ - ١٢.

(١٢٢) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ص ١٩٩.

(١٢٣) نسية أبي نواس ص ٨٨.

إن هذا الداء المقيت ، أو المرض الاجتماعي ، الذي انتقل الى المجتمع العباسي سواء أكان من الفرس أم من غيرهم . سرى في فئة كبيرة من الشعراء آنذاك ، ومن أبرزهم أبو نواس (١٥١) ، والحسين بن الضحاك (١٥٥) ، ووالبة بن الحباب (١٥٦) الذي يقول فيه الدكتور شوقي حنيف : « إنه هو الذي يتحملُ وِزْرَ إفساد أبي نواس ، بل هو في رأينا الذي يتحملُ وِزْرَ العصر كله وماشاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال خنقاً (١٥٧) » وفي رأينا قبر شعر هؤلاء الخلاء خير من نشره وإشاعته ؛ ولذلك أعرضنا عن إيراد أمثلة من شعرهم ، واكتفينا بالإشارة الى مواضع تراجعهم في كتاب الأغاني الذي يُعدُّ أكبر مصدر لأخبارهم وأشعارهم .

الوصف :

الشعراء فنانون مبدعون يرسمون بالكلمات مايرون ، ويصوِّرون مايشاهدون ، ويصفون مايجسبون به ؛ ومن هنا كثر نتاجهم الشعري في غرض الوصف ، حتى قال ابن رشيقي : « الشعر إلا أقله راجع الى باب الوصف ، ولاسييل الى حصره واستقصائه » (١٥٨) . وقد خصَّه الدارسون القدامى والمحدثون بعنايتهم ورعايتهم ، وأفردوا له أبواباً في مؤلفاتهم واختياراتهم .

إن الشعر العربي زاخرٌ بأوصاف كثيرة منتزعة من البيئة ابتداءً من عصر ما قبل الاسلام . وقد أعطتنا دولة بني العباس ألواناً مختلفة من هذه الأوصاف . منها قديمة امتدت اليها يد الحضارة بالتهذيب والتطوير ، ومنها مبتكرة أوجدتها المدنية الجديدة التي تضافرتُ أمم كثيرة وأجناس مختلفة على خلقها . فإذا وصف - مثلاً - الشاعر الجاهلي رحلةً في مضارب الصحراء ، فإنَّ بشار بن برد وصف في قصيدة رحلة الخليفة الهادي من البصرة الى بغداد في نهر الفرات (١٥٩) ، وتناول أبو نواس نزهةً للخليفة الأمين في سفينة جميلة الصنع تمخرُ عباب الماء في نهر دجلة (١٦٠) :

(١٥٤) الأغاني ١ ، ٢ ، ٦١ ولكل من ابن منظور وأبي هفان كتاب مفرد في أخباره .

(١٥٥) الأغاني ١ ، ٢ ، ١٤٦ . وراجع كتاب (الحسين بن الضحاك) للدكتور شوقي رياض .

(١٥٦) الأغاني ١٨ ، ١٠٠٠ .

(١٥٧) العصر العباسي الأول ص ٧٢ .

(١٥٨) الصدة ١ ، ٢ ، ٢٩٢ .

(١٥٩) ديوانه ١ ، ٢ ، ٢٨٢ .

(١٦٠) ديوانه ص ٤١٤ .

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِيْنِ مَطَايَا لَمْ تُسَخَّرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ (١٣١)
 فَإِذَا مَا رَكَبَهُ سِرْنٌ بَرًّا سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثٌ غَابِ
 أَسْدًا بَاسِطًا ذِرَاعِيهِ ، يَعْدُو أَهْرَتَ الشَّدَقِ ، كَالْحِجِّ الْأَنْيَابِ (١٣٢)
 لَا يَمَانِيهِ بِاللِّجَامِ ، وَلَا السُّو طِ ، وَلَا غَمَزَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ
 عَجَبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْهُ عَلَى صَو رَةِ لَيْثٍ يَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

ولم تكن السفن والقوارب فقط تشير إعجاب الشعراء . بل الجسور المقامة على
 دجلة أيضاً . يقول على بن الفرج : (١٣٣)

أَيَا حَيْذَا جَسَرَ عَلَى مَتْنِ دَجَلَةٍ بِإِتْقَانٍ تَأْسِيسٍ وَحُسْنٍ وَرَوْنِقِ
 جَمَالٍ وَفَخْرٍ لِلْعِرَاقِ وَنَزْهَةٍ وَسَلْوَةٍ مَنِ أَضَاهُ فَرَطُ التَّشْوِقِ

وأقبل الشعراء العباسيون على الطبيعة الجميلة إقبالاً كبيراً . فلم يتركوا شيئاً
 فيها إلا وصفوه . سواء كان في الأرض أم في السماء . من رياض ومروج وبساتين .
 وأزهار وأشجار وأثمار . ودور وقصور وقباب . ومآكل ومشارب . وسحب وأمطار .
 ونجوم وأفلاك ... من ذلك قول مروان بن أبي حفصة يصف حديقة وهبها له المهدي .
 ويذكر نخلها وشجرها : (١٣٤)

نَوَاضِرٌ غَلِيًّا قَدْ تَدَانَتْ رُؤُوسُهَا مِنْ النَّبْتِ حَتَّى مَا يَطِيرُ غُرَابُهَا (١٣٥)
 تَرَى الْبَاسِقَاتِ الْعُمَّ فِيهَا كَأَنَّهَا طَعَانَتْ مَضْرُوبٌ عَلَيْهَا قَبَابُهَا (١٣٦)
 تَرَى بَابَهَا سَهْلًا لِكُلِّ مُدْفَعٍ إِذَا أَيْنَعَتْ نَخْلٌ فَأَغْلَقَ بَابُهَا (١٣٧)
 يَكُونُ لَنَا مَا نَجْتَنِي مِنْ سَمَرِهَا رِيحًا إِذَا الْآفَاقُ قَلَّ سَحَابُهَا

ووصفوا القصور وما فيها من فرش وأثاث . وما يحيط بها من حدائق غناء .
 تُعْرَدُ فِيهَا الطُّيُورُ . وتجري فيها الطباء والغزلان مثل قول أبي عيينة بن محمد بن
 أبي عيينة : في وصف قصر بالبصرة (١٣٨) :

(١٦١) الطايا ، أراد بها السفن التي يطلق عليها العراقيات صاحب المِحْرَابِ ، سليمان بن داود .

(١٦٢) أهرت اللدق ، واسمة .

(١٦٣) تاريخ بغداد ، ١ ، ١١٦ .

(١٦٤) قصر مروان بن أبي حفصة ص ٢٥ .

(١٦٥) النواضر ، الخضراء القديمة الخضرة . القلب ، الطبيعة المتفتة .

(١٦٦) العم ، جمع عيمة ، وهي النخلة الطويلة .

(١٦٧) المدفع ، الفقيير .

(١٦٨) ديوانه ص ٣٦ . وينظر الأدهلي ٢٠ ، ٩٠ .

وسرب من الغزلان يرتعن . حوله . كما انسل منظوم من الذر من سلك
وورقاء تحكي الموصلي اذا شدت . بتغريدها أحبب بها وبمن تحكي !
فيا طيب ذاك القصر قصراً ونزهةً بأفئح سهل غير وعر ولا ضنك
وكان للثمار الموجودة في الحدائق والبساتين نصيب من شعر الوصف . ومن
طريف ماجاء في وصف التفاح قول بشار بن برد (١٣٩) :

وتفاحه من خالص الثبر نصفها ومن جُلنار نصفها وشقائق
كأن الهوى قد رد بعد تفرق لها خد معشوق الى خد عاشق

ومن بديع وصف العنب الرازقي قول ابن الرومي (١٤٠) :

كأن الرازقي وقد تناهى وباهت بالمعناقيد الكروم
قوارير بسماء الورد ملأ تشيف ولؤلؤ . فيها يعوم
وتحسبه من الشهد المصفي اذا اختلفت عليك الطعموم
فكل مجمع منه ثريا وكل مفرق منه نجوم

وكانت قصور الخلفاء والأسر الغنية حافلة . الى جانب الطعموم اللذيذة والفواكه
الشهية . بوسائل اللهو واللعب التي كانوا يقضون بها أوقات فراغهم . من ذلك لعبة
الشطرنج . وقد أحسن المأمون في وصفها وتشبيهاها بمعركة حربية حامية بين
عسكريين (١٣١) :

أرض مربعة حمراء من آدم مابين الفين معروفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها جيلا من غير أن يأتيا فيها بفسك دم
هذا يغير على هذا . وذلك على هذا يغير . وعين الحزم لم تتم
فانقلت الى فطن جالت بمعركة في عسكريين بلا طبل ولا علم

ومن وسائل اللهو التي أخذت جانباً كبيراً من شعر الوصف خارج الدور
والقصور . الصيد والطرده . وكان الخليفة المهدي من أشهر الخلفاء عناية بالصقور
والبزة وکلاب الصيد . ومن طريف ما يروى عنه أنه خرج مع ابن عم أبيه علي بن

(١٦٩) نزهة الأنام في معاصر القام ص ٢٠٥ . وهذان البيتان ليا في الموجود من الديوان

(١٧٠) نزهة الأنام في معاصر القام ص ٢٢٨ . ولم ترد هذه الأبيات في الديوان المطبوع

(١٧١) المستطرق ٢ ، ٢٥٩ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٨ . وتنسب الابيات الى علي بن

الجهم ينظر ديوانه ص ١٧٩ .

سليمان إلى الصيد فسمح لهما قطعاً من طيباء . فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل
 فرمى المهدي طيباً بهم فصرعه . ورمى علي بن سليمان فأصاب بعض الكلاب
 فقتله . فقال أبو ذلامه :

قد رمى المهدي طيباً شك بالثهم فؤادة
 وعلي بن سليمان رمى كلباً فصادة
 فهنيئاً لهما كد ل امريء يأكل زادة

فضحك المهدي حتى كاد أن يسقط عن سرجه . وقال : صدق والله أبو ذلامه .
 وأمر له بجائزة سنية (١٣٢) .

ونظر الشعراء الى الأنواء الجوية . ووصفوها بقصائد ومقطوعات . فهذا أبو عبادة
 البحرى يُعيد بلغة رقيقة عذبة وصف السحاب والبرق . ويرسمها رسماً دقيقاً يدل
 على خيال خصب ينفذ في دقائق الأشياء فيبرزها ويظهرها بأبهى حلّة وأجمل
 منظر (١٣٣)

ذات ارتجاز كحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
 مسفوحة الذمغ لغير وجد لها نسيم كنسيم الزود
 ورنّة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
 جاءت بها ريخ الضبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقيد
 فراحبت الأرض بعيش رعد من وشي أنوار الربي في برد

ونلاحظ ابراهيم بن هرمة يصف في قصيدة رائعة النجوم والكواكب وكأنه عالم
 جليل من علماء الفلك . يتناول فيها هيئاتها الخلابة . وألوانها الجذابة . وحركاتها
 الدقيقة المنتظمة (١٣٤) .

وشارك الشعراء مشاركة كبيرة في وصف الخمرة وأدواتها وسفاتها ومجالها
 وما يتردد في هذه المجالس من أصوات للمغنيين والمغنيات الى جانب الآلات
 الموسيقية . وسنوضح هذا الوصف لاحقاً في حديثنا عن الخمريات .

(١٣٢) الأطلال ١١ ٢٥٨ .

(١٣٣) دهراله ١١ ٥٦٧ .

(١٣٤) ينظر دهران ابراهيم بن هرمة ص ١١٤ .

أما المعارك والحروب فقد تناولها عددٌ من الشعراء بالوصف، فمثلاً نجد بشار بن برد يصوّر معركةً ثار فيها الغبار ولعث فيها السيوف حتى خيّل إليه أنها نجوم تتساقط في الليل (١٣٥).

كأنّ مَنارَ النُّقعِ فوقَ رؤوسنا وأسيافنا ليلَ تهاوى كواكبها
واشتهر مسلم بن الوليد بوصفه الحرب وتصوير شجاعة الفرسان وقوتهم واقدامهم وقد تأثر به المتنبي فيما بعد، مثل قوله (١٣٦).

يَغشى الوغى، وشهابُ الحربِ في يده يرمي الفوارسَ والأبطالَ بالشُّعلِ
يفترُّ عندَ افتقارِ الحربِ مُبتمماً إذا تغيَّرَ وجهُ الفارسِ البطلِ

وبرز أبو تمام في وصف حروب الروم والمسلمين ونظم قصائد جيدة رسم فيها صوراً باهرة للجيش العباسي المظفر والى جانبه القتلى والجرحى والأسرى للأعداء. انظر الى هذه الأبيات التي وصف فيها شجاعة المقاتلين ومهارتهم وهم مُتحصنون بسيوفهم ودروعهم ومُنقضون على الخصوم كالأسود: (١٣٧)

تخذوا الحديد من الحديد ماعلاً سَكَّانها الأرواح والأجسام (١٣٨)
مسترسلين الى الحتوف كأنمما بين الحتوف وبينهم أرحام
أأذ موتٌ مُخدراتٌ مالميسها إلا الصوارمُ والسِّقنا أجام

إنَّ فنَّ الوصف الذي ذكرنا طرفاً منه متعذد الجوانب الى حد بعيد. ويمكن للقارئ، إذا أراد التوسع، أن يرى صوراً كثيرة في الدواوين الشعرية والكتب الأدبية مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون الكاتب، وغرائب التشبيهات لعلي بن ظافر الأزدي، والمحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسري الرقاء، والتحف والهدايا للخالدين، وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ...

(١٣٥) ديوانه ١، ٢٠٩.

(١٣٦) ديوانه ص ٩.

(١٣٧) ديوانه ٣، ١٥٦.

(١٣٨) أي جطلوا سيوفهم معال من سيوف غيرهم.

زهد في الشيء وعنه . رغب عنه وتركه . ومنه زهد في الدنيا . أي تخلّى عنها للعبادة . فهو زاهد . وقد أوجز أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥ هـ) ما قيل في معنى الزهد : « اختلفوا علينا في الزهد بالعراق . فمنهم من قال : الزهد في ترك لقاء الناس ومنهم من قال في ترك الشهوات . ومنهم من قال في ترك الشّيع . وكلامهم قريب بعضه من بعض . وأنا أذهب إلى أن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله » (٢٧٩)

إن ظاهرة الزهد ليست جديدة أو طارئة على العصر العباسي . فإن الصحابة والتابعين كانوا زهاداً . وكان كثير من القصاص والوعاظ ينشدون في العصر الاموي أشعاراً فيها بوادر للزهد وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب عن متاع الدنيا الفاني . مثل مالك بن دينار والحنن البصري (١٣٠) . وحينما جاء عهد بني العباس أخذ الزهد مساراً مستقلاً . وأصبح الشعر الذي ينظم فيه فناً قائماً بذاته . يواجه تيار الزندقة والإباحية والفساد والعبث والمجون . ويسعى لإصلاح النفوس المريضة وملئها بنور الهدى واليقين .

وإذا كان الزهد اتجاهاً سلوكياً مضمونه التقشّف والإعراض عن الدنيا بالتزام العبادات وأدائها كاملة لبلوغ الجنة والنجاة من النار . فإن التصوف نزعة تتخذ المجاهدة والرياضة الروحية . وتتجاوز الظاهر الشرعي بالتعمق في الباطن والوصول إلى الكشف (١٣١) . ولا نخوض في هذا المكان - كما فعل كثير من الدارسين - في حقيقة التصوف ونشأته . أهو اسلامي خالص أم متأثر بالهندية كما يرى جولدزيهر (١٣٢) . أو المسيحية كما يرى فون كرىمر (١٣٣) . وغيره من المستشرقين أمثال بروكلمان (١٣٤) . ونيكلسون (١٣٥) . ولكن حسبنا ما قاله ألفرد جيوم ،

(١٣٦) حلية الأولياء ١٩ : ٢٥٨ .

(١٣٧) يرى نيكلسون أن الحنن البصري مؤسس مدرسة الزهد والتصوف في البصرة . وأنه يعد في نظر الصوفية واحداً منهم ، لأنه ينزع إلى حياة روحية خالصة في عبادته غير لائق بمجرد الصور الشكلية في أدائها (ينظر كتابه ، في التصوف الاسلامي وقاريهه ص ٢) .

(١٣٨) التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ١٦٩ .

(١٣٩) العقيدة والفرقة ص ١٤١ .

(١٤٠) الحضارة الاسلامية ص ١٢٠ .

(١٤١) تاريخ الأدب العربي ١٢ : ٢٥٠ .

(١٤٢) في التصوف الاسلامي وقاريهه ص ٢ .

« وتساؤلنا الى أي حد كان المتصوفة متأثرين بعوامل ودوافع خارجة عن الاسلام أمر لا أهمية له . فالؤكد أن الاسلام نفسه بمعيدته وصومه وذكره كان أساس حياتهم » (١٨٦)

إن شعراء الزهد والتصوف كثيرون ومن يرجع الى الكتب التي اهتمت بأخبارهم يجد عشرات الأسماء . وسنكتفي بذكر البارزين منهم . مثل عبدالله بن المبارك الذي نصح العباد بالتزام الخلق القويم والطريق المستقيم . ودعاهم الى نبذ الآثام واجتنابها . والتزود بزد التقوى والاتجاء الى الله الحي القيوم كقوله (١٨٧) :

ياطالب المعلم بادر الورعاً وهاجر النوم وهاجر الشبعا
ياأيها الناس أنتم عشب يحصد الموت كلما طلعا
لايحصد المرء عند فاقته إلا الذي في حياته زرعاً

ولحمد بن كنانة شعر في الزهد . سلك فيه مسلك الوعظ والنصح الدين والدعوة الى القيم الخلقية الرفيعة التي أوصى بها النبي الحنيف . وسار على هديها السلف الصالح . وكان مترفعاً عن الدنيا . بعيداً عن كل ما يخزي ويشين . وقد صرح بذلك في شعره (١٨٨) :

سألقى النايا . لم أخالط دنيئة ولم تثر بي الى المخزيات قلوب

ومن المتواضعين الزهاد محمود الوراق الذي أكثر من النظم في الزهد . دعا فيه الى طاعة الله ولزوم أوامره ونواهيه . والنوكل عليه . والثقة به . والرضا بقضائه . والتحصن بالصبر والقناعة . مثل قوله (١٨٩) :

من كان ذا مال كثير ولم يقنع فذاك الموسر المسر
وكل من كان قنوعاً وإن كان مقللاً فهو المسكر
الفقر في غنى النفس وفيها الغنى وفي غنى النفس الغنى الأكبر

(١٨٦) اتجاهات الفكر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٨٥ .

(١٨٧) شعره . المقطوعة ٢٢ .

(١٨٨) الأغاني ١٢ ، ٣٤٠ . وينظر : محمد بن كنانة الأسدي . حياته وشعره . مجلة آداب

الرازيين . العدد ٦ لسنة ١٩٧٥ . المقطوعة ١٩ .

(١٨٩) ديوانه ص ٥٧ .

واشتهر الامام أبو عبدالله محمد بن ادریس الشافعي بشعر الزهد والوعظ . وقد روت له المصادر أقوالاً وأشعاراً تدعو الى التربية الإسلامية . والتمسك بحبل الله المتين . والسير في درب البر والتقوى والعمل الصالح مثل قوله (١١٠) :

يَا مَنْ تَعَزَّزَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا الدُّهْرُ يَأْتِي عَلَى الْمُنِيِّ وَالْبَانِي
وَمَنْ يَكُنْ عِزَّهُ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَعِزُّهُ عَنْ قَلِيلٍ زَائِلٌ فَانِي
وَعَلِمَ بَأَنَّ كَنْزَ الْأَرْضِ مِنْ ذَهَبٍ فَاجْعَلْ كَنْزَكَ مِنْ بَرٍّ وَإِيْمَانِ

ومن النساء المشهورات بالعبادة والصوم والاستغراق في الذات العلية . رابعة العدوية . وهي لا تقل شهرة عن كبار الزهاد . والمتصوفة آنذاك أمثال ابراهيم بن أدهم . وسفيان الثوري . وشفيق البلخي . ومعروف الكرخي . وبشر بن الحارث الحافي . والحارث المحاسبي .. ومن شعر رابعة العدوية الذي يتجلى فيه الحب الإلهي الأبيات الآتية (١١١) :

أَحَبُّكَ خَبِيْنٌ ، خَبَّ الْهَوَى وَخَبًّا لِأَتْنِكَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ خَبُّ الْهَوَى فَشَغَلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشَفَكَ لِلْحَجَبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وهناك شعراء تيقضوا من غفلتهم . وثابوا الي رشدهم . وثابوا . وأنابوا الى الله ونظموا شعراً زهدياً . أمثال آدم بن عبد العزيز . ومحمد بن يسير . وصالح بن عبد القدوس . ويوسف بن القاسم . ولقيط بن بكير . الحاربي . وأبي نواس . وسعيد بن وهب . وأبي العتاهية ... ولعل هذا الأخير أكثرهم نظماً في الزهد . حتى ليؤلف وحده ديواناً كاملاً . وستحدث بالتفصيل عن حقيقته في ترجمته . ولا بأس من إيراد هذا الشاهد من شعره (١١٢) :

(١١٠) شعره ص ٢٠٢ .

(١١١) لوت القلوب ٢ ، ٨٤ ، احياء الطوم ٤ ، ٢٦٧ . وينظر الشعر الصوفي حتى القول مدرسة بغداد

وهجور الفزالي ص ١٢٨ .

(١١٢) ديوانه ص ٢١٥ .

الى الله فارغب لا الى ذا ولا ذاكا فإنك عبد الله . والله مولانا
وإن شئت أن تحيا سليماً من الأذى فكن لشرار الناس ماعشت تراكا

ونلاحظ أبا نواس ، ذلك العايب الماجن . يندم في أخريات حياته على ما اقترف
من إثم . وينظم شعراً زهدياً يرجو فيه عفو الله وغفرانه . مثل قوله وهو
يتضرع (١٣) :

يارب : إن عظمت ذنوبي كثيرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ . ويستجير المجرم
أعدوك - رب - كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم إنى مسلة

وتجدر الإشارة هنا الى أن هناك مجموعة من الشعراء عرفوا بعملاء المجانين .
أمثال عليان وبهلول وعباس وسعدون ... تميّز شعرهم بصدق العواطف وحرارة
المشاعر تجاه المحبوب . وهو الله سبحانه وتعالى . يلهجون بذكره ويأتسون بمناجاته .
مثل قول عباس : (١٤)

يا حبيب القلوب من أي سواكا ؟ ارحم اليوم مذنباً قد أتاك
أنت سؤلي ومنيتي وسروري قد أبى القلب أن يجيب سواكا
يامناني وبيدي واعتماذي طال شوقي متى يكون لقاءكا ؟
ليس سؤلي من الجنان نعيماً غيّر أنسي أريد لها لأراكا

المجنون :

جاء في اللغة : أن الماجن هو « الذي يرتكب المباح الردية / والفضائح المخزية .
ولا يمضه عدل عاذله ولا تقرع من يقرعه » (١٥) . إن الماجن يخلع ثوب الحياء
ويفعل ما يشاء من الأعمال المنكرة التي لا تبئخها الأديان السماوية ولا تقبل بها
المجتمعات الفاضلة .

(١٣) ديوانه ص ٦١٨

(١٤) عملاء المجانين ص ١٣٥ . حلية الأولياء ١٠ ، ١٤٥ .

(١٥) لسان العرب ١٣ ، ٤ .

لقد اُتسم جانبٌ من المجتمع العباسي بالمجون والاستهتار بالقيم الخلقية النبيلة . وكان وراء انتشاره الزنادقة ، والشعوبيون الحاقدون ، والمتحللون من الدين والعرف والتقاليد . وساعد على شيوعه أيضاً كثرة الجواري المتهتكات اللواتي اشتهرن .. بأفعالهن الرديئة ، وأخلاقهن السيئة «(١٩١) . وكذلك الغلمان الذين عُرفوا بالفساد وانحطاط الأخلاق . وقد عزا الدكتور طه حسين انتشار العبت والمجون إلى الفرس وحضارتهم(١٩٢) . ورأى الدكتور محمد مصطفى هدارة ان الفرس مدوا تيار المجون بأسباب القوة ، وان الحياة التي عاشوها قد أنتجت أنواعاً من الأدب المكشوف ، تداولتها أيدي المترجمين العرب فكان لها تأثيرٌ خطيرٌ في إشاعة الإباحة والمجون في المجتمع الاسلامي .(١٩٣) أما الدكتور محمد نبيه حُجّاب فيعزو الخلاعة والمجون إلى انتشار الحانات ومجالس الشراب التي تضم الفجّار والمُجان من الزنادقة المارقين وأكثرهم من فسقة الموالي الذين خلَعوا حشمة الوقار .

ونحن لاننكر ما ذكره الباحثون في أمر المجون وانتشاره . ولكننا نرى السبب الأقوى هو الحرية المطلقة التي رآها الناس آنذاك ، وخاصة الناقمين على مبادئ السماء ، والكارهين للمشائخ التي أرادت أن يكون الانسان سامياً في أخلاقه وطبائعه وتصرفاته . ونؤيد ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف ان الدولة العباسية كانت مسؤولة عن انتشار موجة المجون ؛ لأنها لم تقف بوجه الفساد ولم تتخذ للماجنين ديواناً لحسابتهم كما فعلت مع الزنادقة(٢٠٠) .

جاهر الكثيرون بالمجون وارتكاب المحارم ، ولا يمكن حصرهم وإحصاؤهم في هذا المكان . ومن يرجع إلى الدراسات والمصادر ولاسيما الأغاني يجد أسماءهم وتفصيلاً عن سيرهم ، ويقف على أدبهم الذي يعكس صورة صادقة عن حياتهم الداعرة الفاسدة الشاذة . ولعل من أكثرهم شهرة في هذا المجال أبا ذُلامة ، وأبا نواس ، ومطيع بن إياس والحسين بن الضحّاك ، والحمادين الثلاثة ، ومسلم بن الوليد ، ويحيى بن زياد ، ووالبة بن الحُباب ، وأبان اللاحقي ، والفضل بن عبدالصمد الرقاشي .

(١٩٦) الموشى ص ١١٧ ، وينظر : الجوّاري والفرع في العصر العباسي الأول ص ١٠٤ .

(١٩٧) حديث الاربعاء ٢ : ٨٢ .

(١٩٨) اتجاهات الفرع العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٠٥ .

(١٩٩) معالم الفرع وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٦٩ .

(٢٠٠) العصر العباسي الأول ص ٢٨٢ .

والخازكي الذي أفسد جيلاً برمته كما يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ، ولا خلعتُ العنارَ ، حتى عاشرتُ الخازكي ، فجاهر بذلك ولم يحتمش ، فامثلنا نحن على ما أتى به وسلكننا مسلكه . ونحن ومن يذهب معنا عيالٌ عليه » (٢٠١)

إنَّ العُصبة الماجنة اتخذتُ في أدها أسلوب التصريح لا التلميح ، يقول أحدهم وهو مطيع بن إياس ، (٢٠٢)

اخْلَعْ عَنَّا زَكَ فِي الْهَوَى وَأَشْرَبْ مَعْتَقَةَ الدُّنَانِ
وَصَلِّ الْقَبِيحَ مُجَاهِرًا فَالْعَيْشُ فِي وَصْلِ الْقَبِيحَانِ
لَا يَلْهِيَنَّكَ غَيْرُ مَا تَهْوَى فَإِنَّ الْعَمْرَ فَإِنْ

وكانت مجالس المُجان في غاية الخلاعة والتهتك والرذيلة ، وقد روى حمزة الأصبهاني شعراً لعشرة من أولئك الماجنين . كان يستضيف كل منهم الآخرين عنده ، ويُغريهم بلون أو أكثر من ألوان المجون ليقبلوا ضيافته (٢٠٣) . وكان الرقاشي من دعائهم البارزين . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « وكان مع تقدّمه في الشعر ماجناً خليعاً ، متهاوناً في مروءته ودينه . وقصيدته التي يوصي فيها بالخلاعة والمجون مشهورة . سائرة في الناس ، متبدلة في أيدي الخاصة والعامة » . (٢٠٤) .

إنَّ المجانَّة والخلاعة والتهتك وركوب المعاصي حالة طبيعة لأناس تمردوا على دينهم واستخفوا بكلِّ القيم والتقاليد . وباعوا أنفسهم للشيطان كما قال والبة بن العباب : (٢٠٥)

حتى إذا ما انستشينا وهزناً إبليس
رأيتُ أعجبَ شيء منّا ونحسنُ جلوسُ
هذا يُسقة ببلُّ هذا وذاك هذا يبوسُ

(٢٠١) طبقات الحمراء ص ٢٠٦ .

(٢٠٢) شعراء عباسيون ص ٧٦ .

(٢٠٣) ينظر ديوان أبي نواس بتحقيق إيفالد فاغنر ص ٤٢ . واتجاهات الفكر العربي في

القرن الثاني الهجري ص ٢١١ .

(٢٠٤) الأغانى ١٦ ، ٢٤٦ .

(٢٠٥) طبقات الحمراء ص ٨٩ .

إن هذا اللون من الأدب في غاية الكثرة . ولكن لانبيح لأنفسنا الانشغال به ، لأنه بعيد عن التربية الصحيحة التي نتوخاها لأبنائنا السائرين نحو العلى والمجد . ويكفي ما ذكرناه في الصفحات السابقة للاستدلال على تلك الفئة الضالة التي كانت تعمل على هدم مثلنا وقيمنا السامية .

الشعبوية والزندقة :

عاش الفرس بجوار العرب من الجانب الشرقي ولاسيما العراق منذ أزمان بعيدة . ولكنهم - حسبما تذكر الكتب التاريخية - كانوا يناصبون العرب العداة . ويشمخون عليهم . ويدعون أنهم أرفع منهم مقاماً . وأعلى مكاناً . وأقوى سلطاناً . وأرسى بنياناً . واتهموهم بأنهم غلاظ الأكباد . قساة القلوب . وليس رد النعمان بن المنذر ملك الحيرة على كسرى حين أراد النيل من العرب ومكانتهم بخاف على الدارسين (٢٠٦) لقد حاول كسرى - غير مرة - أن ينكّل بالعرب . ويستبيح ديارهم . ويثلم عزتهم . ويهين كرامتهم . وما قصيدة لقيط بن يعمر الايادي العينية المشهورة التي حذّر فيها قومه من غدر هذا الملك إلا دليل على ذلك (٢٠٧) . إن العرب لم يقبلوا الإهانة ولم يناموا على ضيم وقد عبّر الأعشى بقصيدة رائعة في يوم ذي قار عن ذلك (٢٠٨) .

وحينما قامت دولة الراشدين العادلة . وهوت دولة الأكاسرة . جمع الأشرار حطب حقدهم ولؤمهم - ولاسيما فريق من الفرس - ليشعلوه بوجه المسلمين وأصمتهم . منهم أبو لؤلؤة الفارسي الذي طعن الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب بسكين أودت بحياته . وزازويه الفارسي الذي اشترك مع ابن سبأ في مقتل الخليفة عثمان بن عفان . والتأمر على مقتل الخليفة على ابن أبي طالب وإن ظهر ذلك على يد الخوارج .

(٢٠٦) المقد الفريد ٢ ، ٦٠٦ .

(٢٠٧) ديوان لقيط بن يعمر ص ٢٠ - ٥١ .

(٢٠٨) ديوان الأعشى ص ٢٠٨ - ٣١١ .

وما كادت تقوم دولة بني أمية في الشام حتى بدأ الغادرون بمحاربتها وعرقلة نشاطها والتآمر عليها وعلى العرب الذين كان لهم الفضل في حمل لغة القرآن إلى آفاق بعيدة وهداية الضالين وتخليص الشعوب المضطهدة من العبودية والقهر والاستغلال . وعمد عددٌ من الشعراء إلى التغني بمجد الفرس القديم ، والتعصب على العرب ، والتطاول عليهم ، والنيل منهم ، كاسماعيل بن يسار وابنه ابراهيم ، وموسى شهوات (٢٩) .

وشارك الفرس بني هاشم في إزالة الدولة الأموية واقامة الدولة العباسية . وعاونوهم في ارساء قواعدها وتثبيت أسسها . ولم يكتفوا بالنعمة التي صاروا عليها ، بل أخذهم الغرور وتطاولوا على العرب . وكان بشار بن برد من أبرز رجالهم في عصبته للفرس واذكاء نار الشعوبية (٣٠) ، والمتصفح لديوانه يلمح ذلك ولاسيما في قصيدته التي يقول في أولها (٣١) :

خليلي ، لا أنام على اقتسارٍ ولا أبى على مولى وجارٍ
سأخسبرُ فاجز الأعرابِ عسبي وعنه حين تاذنُ بالفخارِ
أحين كسيت بعد العري خراً ونادمست الكرام على السقارِ
تُفاخزُ يابن راعيةٍ وراعِ بني الأحرارِ حسبك من خسارِ

إن التعريض بالعرب ، والتجني عليهم ، والتقليل من شأنهم ، والاستهزاء بهم ، لم يكن اعتباطاً . وإنما هو جزء من مخطط تأمري تعاهد الشعوبيون وموقف مضاد من العرب في غابرهـم وما ضيهـم . وكان بشار بن برد ابنهم البار ، وربيهم المخلص . وداعيتهم الأول . وجنديهم المتمرس بين شعرائهم في العصر العباسي الأول . وكان مصرعه جزءاً بذاته ومجوسيته واستخفافه بأقدار الناس .

(٢٩) الألهاني ٢ ، ٢٥١ .

(٣٠) نسبة غير لياسية إلى الشعوب ، وهم فريق من الناس لا يرون للعرب فضلاً عليهم ، بل يبالغون في ذلك فيذهبون إلى تنقصهم والحط من قدرهم (البيان والتبيين ٢ : ٥ حاشية ٤) .

(٣١) ديوانه ٢ ، ٢٢٩ . وينظر ، تاريخ العصر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٢٣٦ .

ومن الشعراء الذين صبوا جام غضبهم على العرب ، وعلقوهم بألسنة حداد الشاعر المشهور أبو نواس الذي استطاع بذكائه ولباقته وبديهته الحاضرة ان ينفذ إلى البلاط العباسي وييث سموم شعوبيته في مجالس الخلفاء والوزراء وسراة القوم الذين اصطفوه وجعلوه نديمهم .

لقد تغنى أبو نواس بأمجاد الفرس وحضارتهم . وتياهى بمقام الأكرسة وترائهم ، واتخذ من هذا التغني منفذاً لطعن العرب والزراية بهم ومسح صورة آبائهم المشرقة المتمثلة في البطولة والشهامة والإباء والسخاء ، مثل قوله (٢١٢) :

أَرْضُ تَبْنَى بِهَا كَسْرَى دَسَاكِرَهُ فَمَا بِهَا مِنْ بَنِي الرُّعْنَاءِ إِنْسَانٍ
وَمَا بِهَا مِنْ هَشِيمِ الفَرْبِ عَرْفَجَةٌ وَلَا بِهَا مِنْ غَدَاءِ العَرَبِ حُطْبَانٌ (٢١٣)
لَكِنْ بِهَا جَلَنَارٌ قَدْ تَفْرَعُهُ أَسٌّ وَكُلُّهُ وَرْدٌ وَسَوَانٌ

ولم يكن تهكم أبي نواس المرير بالواقفين على الأطلال - كما قال الدكتور طه حسين - مذهباً شعوبياً فحسب ، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً . يذمُّ القديم - لا لأنه قديم - بل لانه قديم ولأنه عربي . ويمدح الحديث - لا لأنه حديث - بل لأنه حديث ولأنه فارسي . فهو إذن مذهبٌ تفضيل الفرس على العرب ، مذهبٌ الشعوبية المشهور (٢١٤) .

وثمة شعراء آخرون رفعوا لواء الشعوبية في المجتمع العباسي وتحمّسوا لها مثل أبان اللاحقي وأبي عبدالرحمن الهيثم بن عدي . وعلى بن خليل . وابراهيم بن ممشاذ المعروف بالمتوكلّي .

إن الصيحات العدايئة للعرب ، والتشهير بهم ، والطعن بمآثرهم رُدَّتْ على أعقابها بأقلام الفياري من الكتاب والشعراء مثل أبي عثمان الجاحظ الذي استنكر « العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقى ديناً إلا أفسدته . ولا دُنْيَا إلا أهلكتها . وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية » (٢١٥) . وفند

(٢١٢) ديوانه ص ١٢٧

(٢١٣) المرعبة ، واحدة المرفج وهو حجر ينبت في البادية . الحطبان ، حبات الحنظل

(٢١٤) حديث الأربعة ، ٩٠ ، ٢ . وينظر ، حياة الفرس في البصرة للدكتور أحمد كمال زكي ص

٢١٤ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص ٩٩ - ١١٦ .

(٢١٥) رسائل الجاحظ ، ٢٠ ، ٢ . وينظر البيان والتبيين ، ٥ ، هامش ٤ .

الجاحظ مزاعم الشعوبية في كتابه البيان والتبيين وتعقبهم في البخلاء والحيوان
 والمحاسن والأضداد كما تعقبهم في غير ذلك من الكتب الكثيرة التي ضاعت ولم يبق
 منها سوى أسماؤها تنطق بمضمونها. مثل كتاب الضَّرءاء والهَجْءاء . والعرب والموالي .
 والعرب والعجم .. وثمة علماء كثيرون وشعراء من غير العرب كانوا يفضلون العرب
 على العجم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم . أي من العرب . مثل البخارزي
 (ت ٤٦٧ هـ) . (٢١١)

وكان لفريق من الفرس - إلى جانب الشعر الذي قرضوه في الفخر بأصولهم
 والإزراء بالعرب - دور بارز في تشويه موروثنا الحضاري والفكري والعبث بهما
 وفسادهما . ونسج الروايات وانتحالها . أمثال حماد الراوية . وجناد بن واصل
 الكوفي . وخلف الأحمر (٢١٣) . وذهب فريق ثانٍ إلى أبعد من ذلك . فألف الكتب في
 معائب العرب ومثالبهم أمثال يونس بن أبي فروة . وعلان بن الحسن الشعبي
 الوراق . وأبي عبيدة مقمر بن المثني . والهيثم بن عدي (٢١٨) ... واندفع فريق ثالث
 لتلفيق الأحاديث في فضل الفرس ودورهم في الاسلام . ناسبين إياها إلى الصحابة
 والتابعين . ذكر الطبري أن عبدالكريم بن أبي العوجاء لما أيقن انه مقتول قال :
 « أما والله لئن قتلتوني . لقد وضعت أربعة آلاف حديث . أحرم فيها الحلال وأحل
 فيها الحرام . والله لقد فطرتكم في يوم صومكم . وصومتكم في يوم فطرتكم » (٢١٩) .
 إن الشعوبيين والحاقدين أخذوا لهم مواقع خطيرة في مختلف سبل المعرفة . وكان
 طريق دراسة الحديث الذي ولجوه مجالاً للدس على الرسول الكريم يمثلهم أحمد
 بن بشير الذي يقول عنه الخطيب البغدادي إنه « كان رأساً في الشعوبية . استأذى
 يخاصم فيها » (٢٢٠) .

إن هذه الأفعال المريبة كان القصد منها «تفسيخ الدولة العربية الاسلامية . وتصدع
 كيانها . وتدمير كل أخلاقها ومثلها وقيمها . ونسف الاسلام . وهو عمادها وقوامها .
 وبفسفه تحطيم قواعدها ودعائمها . وتهدم قلاعها وحصونها . وتهيأ لهم ان يحيوا
 تراثهم الثقافي والديني . ويعيدوا مجدهم السياسي على أنقاضها » (٢٢١) .

(٢١٦) ينظر : الصراع الأدبي بين العرب والعجم ص ١١٩ - ١٢٢ .

(٢١٧) ننظر اخبارهم في : الحيوان ٤ ، ٤٤٧ ، مجمع الأدباء ٢ ، ٤٢٥ ، ٤ ، ١٧٩ .

(٢١٨) ينظر : الحيوان ٤ ، ٤٤٨ أمالي المراضى ١ ، ١٢٢ . مروج الذهب ٤ ، ٣٦ . الفهرست ص ١٥٣ ، ١٥٥ .

(٢١٩) تاريخ الطبري ٩ ، ٢٨٦ .

(٢٢٠) تاريخ بغداد ٤ ، ٤٨ .

(٢٢١) الشعراء من مضمومي الدولتين الأموية والعباسية ص ٢٢٠ .

وكانت الزندقة تعمل إلى جانب الشعبية على هدم المجتمع وتشويه قيمة ومثله . وقد اتهم الكثيرون بترويجها . منهم مَنْ سلم من العقاب والقتل أمثال مطيع بن اياس . ووالبة بن العباب ، ويحيى بن زياد الحارثي ... ومنهم من قتل أمثال : ابن المقفع ، وبشار بن برد . وصالح بن عبدالقدوس . وعبدالكريم بن أبي العوجاء . وحماد عجرد وقد أورد الشريف المرتضى في فصل خاص شيئاً كثيراً عن أخبارهم وأشعارهم . (٢٢٢) فالزندقة موقف مضاد من العرب في حاضرهم بعد حملهم رسالة الاسلام ورفعهم راية الجهاد في سبيله

الخمريات :

فإن أدبني ليس بجديد على الشعر العربي في العصر العباسي . وإنما هو قديم ابتدأ به شعراء ما قبل الإسلام . ويُعدُّ الأعش أبرزهم وأكثرهم إطالةً في وصف الخمرة . (٢٢٣) ولما جاء الإسلام أمر بتحريمها وحدَّ شاربها ؛ لذلك قَلَّتْ معاقرتها إلا من نفر قليل جداً مثل أبي محجن الثقفي الذي لم يسلم من الحدِّ عدة مرات . (٢٢٤) وفي عصر بني أمية قرع كؤوسها عددٌ من الشعراء أمثال النابغة الشيباني (٢٢٥) . والقطامي (٢٢٦) . والأخطل (٢٢٧) . والوليد بن يزيد (٢٢٨) ...

ولما أقبل العصر العباسي بترفه ولهوه ومجونِه وانفتاحِه على أقوام كثيرة ولاسيما الفرس والروم . شاعت الخمرة . وتوسَّعت مجالسها . وكثرت حاناتها وأنديتها . وزاد الأقبال عليها . وتوقَّر الشعراء على وصفها بصورة لم تحدث من قبل . ويبدو أن الحرية والتساهل كانتا وراء هذا الإقبال . ولم يكن الخلفاء بمعزل عنها . فإن أكثرهم شربها . ويقال إن المنصور تناول النبيذ مرَّةً واحدةً بعد أن زَيَّنَّها له أحد

(٢٢٢) أمالي المرتضى ١ ، ١٢٧ - ١٤١ .

(٢٢٣) ينظر : تطور الخمريات في الشعر العربي ص ٦٤ ، وأساليب الصناعة في شعر العصر والنالة ص ١٤ .

(٢٢٤) الأغانى ١٩ ، ١ .

(٢٢٥) ديوانه ص ٨٢ .

(٢٢٦) ديوانه ص ٧٦ ، ٩٠٧ ، ٢٥١ ، ٢٩١ .

(٢٢٧) الأخطل الكبير ، حياته وشخصيته وقصته الفنية ص ١١٤ - ١٢٠ .

(٢٢٨) الأغانى ٧ ، ١٩ .

الأطباء « فشربه في اليوم الأول فاستطابه . فعادَ له في اليوم الثاني ، وزادَ منه فخره . ثم عاوده في اليوم الثالث فأبطأ عن صلاة الظهر والعصر والعشاء . فلما كان من غدٍ دعا بما عنده من الشراب فهراقه . ثم قال : ما ينبغي لمثلي أن يشرب شيئاً يشغله » (٢٢٩) .

إنَّ أولَ شاعرٍ خُصَّ شعره لوصف الخمرة هو أبو الهندي غالب بن عبدالقدوس . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « وقد أدركَ الدولتين . دولة بني أمية . ودولة ولد العباس . وكان جزلَ الشعر . حسنَ الألفاظ . لطيفُ المعاني ... واستفرغَ شعره بصفة الخمر . وهو أولُ من وصفها من شعراء الإسلام . فجعل وصفها وَكْدَهُ وَقُضْدَهُ » (٢٣٠) . وكان يحب الخمرة . ويبكي لفراقها . ويحنُّ إليها حين الفطيم إلى الرضاع . فما هو ذا يقول بعد أن أبطأ عن شربها مدة : (٢٣١)

أديرا عليَّ الكأسَ إنِّي فقدتها كما فقدَ المفظومُ ذرَّ المراضع
حليفٌ مدامَ فارقَ الراخَ روحهُ فظلَّ عليها مُستهلُّ المدامع
وإذا قال أبو الهندي (٢٣٢) :

اجعلوا . إن مِتَ يوماً كفنِي ورقَ السُّكْرَمِ وقبري مَفْصَرَةً
وادفنوني وادفنوا الراخَ معي واجعلوا الأقداحَ حولَ المسقبرة
فقد سبقه إليه أبو محجن الثقفي (٢٣٣) :

إذا مِتَ فادفني إلى أصل كزمة تزوي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني في القلاة فإنتي أخاف إذا مامت ان لا أدوقها (٢٣٤)

٢٢٩) الوزراء والكتاب للجبهيارى ص ١٠١ .

(٢٣٠) الأغانى ٢٠ ، ٢٢٩ .

(٢٣١) دهرانه ص ٤٤ ، الأغانى ٢٠ ، ٢٣٢ .

(٢٣٢) دهرانه ص ٢٣ .

(٢٣٣) الأغانى ١٩ ، ٧٠ .

(٢٣٤) أدوقها مرفوعة باعتبار (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن أو ضمير مفعول

محدوف ، وجملة أدوقها خبر . تنظر : خزانة الأدب ٢ ، ٥٥ ط بولاق .

وقد استقى أبو نواس كثيراً من المعاني في وصف الخمرة من أبي الهندي . حدث فضل اليزيدي : « انه سمع إسحاق الموصلي يوماً يقول . وأنشد شعراً لأبي الهندي في صفة الخمر . فاستحسنه وقرّطه . فذكرَ عنده أبو نواس ، فقال : ومن أين أخذ أبو نواس معانيه إلا من هذه الطبقة ؟ وأنا أوجدكم سلخه هذه المعاني كلها من شعره . فجعل ينشد بيتاً من شعر أبي الهندي : ثم يستخرج المعنى والموضع الذي سرقه الحسن فيه حتى أتى على الأبيات كلها واستخرجها من شعره « (٢٢٥) .

ومن شعراء الخمرة المشهورين قبل أبي نواس . علي بن الخليل (٢٢٦) . وغكاشة العمي (٢٢٧) . وابن ميادة (٢٢٨) . وابن هرمة (٢٢٩) ... ومهما قيل عن هؤلاء ، فإن شعر الخمرة تطوّر تطوراً كبيراً على يد أبي نواس . حتى عدّ زعيم شعراء الخمرة (٢٣٠) . وبقي شعره على مرّ العصور في صدر الدراسات التي تحدثت عن الخمریات . لما له من بريق أخاذ . وأريحية غلابة متأتية من قوة الطبع إلى جانب بساطة الأسلوب وحلاوة اللفظ ورشاقة الوزن (٢٣١) .

لقد عشق أبو نواس الخمرة عشقاً عنيفاً قوياً . ووصل شعوره نحوها إلى درجة التقديس . وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور طه حسين حين توقّف أمام مقطوعته (٢٣٢) :

أثني على الخمر بالأثما	وسمها أحسن أسمائها
لا تجعل الماء لها قاهراً	ولا تسلطها على مائها
كرخيّة قد عتقت جعبه	حتى مضى أكثر أجزاءها
فلم يكذبك خمارها	منها سوى آخر حوبائها
دارت فأحييت غير مدمومة	نفوس خراها وأنضائها
والخمر قد يشربها معشر	ليسوا — إذا عدوا — بأكفائها

(٢٢٥) الأغاني ٢٠ ، ٢٢٩ .

(٢٢٦) الأغاني ١٤ ، ١٧٤ .

(٢٢٧) الأغاني ٣ ، ٢٥٧ .

(٢٢٨) الحيوان ٢ ، ٢٢٧ ، البيان والتبيين ٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ .

(٢٢٩) ديوانه ص ٢٢٤ .

(٢٣٠) ينظر : أبو نواس زعيم شعراء الخمرة ص ٢٢ - ٨٥ .

(٢٣١) ينظر : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٤٢٧ . الشعر وطوايحه

الشمعية ص ٨٥ .

(٢٣٢) حديث الأربعاء ٢ ، ٨٧ . وينظر ديوان أبي نواس ص ١٢٠

إنَّ شعر الخمرة في العصر العباسي يشكّل ديواناً كبيراً يتناول وصفها وما يتصل بها من ندامى وسقاة وكؤوس ومجون ... وفي هذا الشعر جانب جديد يمكن أن يطلق عليه - كما يقول الدكتور هذارة (٢١٣) - اسم أدب الديارات ، ويقصد به الشعر الذي كان يتردّد حول مجالس الشراب في الأديرة التي كانت منتشرة في العراق والشام ومصر . وقد عُرف جماعةً من الشعراء بالذهاب إلى هذه الأديرة أمثال أبي نواس ، والحسين بن الضحّاك ، وعمرو الوراق ، ومطيع بن إياس ، وأبي الشبل البرجمي ، ومحمد بن عبدالرحمن الكوفي المعروف بالثرواني ، وبكر بن خارجة الكوفي ، ومحمد بن أبي أمية ، وإسحاق الموصلي ، وخالد الكاتب الذي يقول في دير (سَمالو) الذي يقع بباب الشامية شرقي بغداد : (٢١٤) .

يامنزل القَصْفِ في سَمالو مالى عن طيبك انتقال
 واهأ لأيامك الخوالي والمعيش صاف بها زلال
 تلك حياة النفوس حقاً وكل ما دونها مُحال

وهكذا أصبحت الأديرة « مقصداً وهدفاً لطلاب اللذة والمتعة ، وأصحاب اللهو والمجون ، وإذا بالشعراء والأدباء وغيرهم من مُعزّمي موائد الشراب ومجالسه ، يقطعون المسافات للوصول إلى هذا الدير ، أو ذاك ، لما شُهر به من نبيذ حسن ، وخمرة جيدة ، وطيب معشر سكانه ، والقيمين عليه ، وإذا بهذه الديارات تدخل الأدب العربي عن طريق الشعر خاصة بأبيات ومقاطع وحتى بقصائد كاملة . تُمجدها ويذكر الشعراء فيها أيامهم الجميلة ، ولياليهم السعيدة الحلوة التي قضوها فيها ، ثم يتمنون العودة إليها ، أو يتواعدون على اللقاء في الدير الفلاني ، وقد تنشأ علاقة صداقة ومودة خالصة بين المُجان وطلاب المتعة وبين المسؤولين عن هذه الديارات (٢١٥) .

إن رواد الديارات كانوا « يتنافسون فيما يظهرون هنالك من زيهم ، ويباهون بما يعثّونه لقصفهم » (٢١٦) ، وقد عدّ الدكتور يوسف خليف شعر الديارات لوحة من لوحات مدرسة الأدب المكشوف ، صوّر فيها الشعراء الجانب اللاهي من

(٢١٤) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٤٩٧ .

(٢١٥) دهران خالد الكاتب ص ٥٢٢ . وتنظر ، الديارات للشاهستي ص ١٤ .

(٢١٦) الألفية الأدبية في العصر العباسي ص ١٧٨ .

(٢١٧) الديارات ص ٤٦ .

حياتهم . فوصفوا مجالس الشراب . وتغزلوا بالفتيان والفتيات الذين كانوا يقومون على أمر الأديرة ويقدمون الخمر لروادها(٢١٧) . وقد صدق ما قاله جحظة في دير الرّند وُرد القريب من بغداد(٢١٨) :

سقياً ورعياً لدير الرّند ورد وما يحوي ويجمع من راج وريحان
ديرٌ تدورُ به الأقداحُ مترعةٌ من كفّ ساقٍ مريض الطرفِ وسنانٍ
والعودُ يتبعهُ نايٌ يوافقهُ والشو يحكمهُ غصنٌ من البانِ

الشعر الفكاهي :

الفكاهة : المزاح . والفكّه : الذي يُحدثُ أصحابه ويُضحكهم . وقد وجدت الفكاهة مجالاً رحباً في أوساط المجتمع العباسي . وعندما أخذ هذا المجتمع بأسباب التحضّر والتطوّر . وأصبحت تُطلب كثيراً في المجالس والمحافل . ولاسيما من الخلفاء والوزراء وسُرّة القوم . إذ جعلوها وسيلة للترفيه والإضحاك والتسليّة . أو لترويض الفكر . كما قال الرشيد : النوادر تشخذ الأذهان . وتفتق الأذان(٢١٩) . وكان طبيعياً في وسط الحياة اللاهية حيناً والساخبة أحياناً أن تنزع النفوس المكدودة إلى أساليب الفكاهة التي تسري لهم . وتشرخ الصدر . وتفتح مغاليق القلوب . وهل وراء ذلك بُغية لنفس ؟ لاغروان كانت روح المجالس وزينة المحافل . ولا جرم ان كان الخلفاء يقبلون عليها ويعقدون لها مجالس السحر(٢٢٠) .

والفكاهة عادةً تتطلّب الذكاء والنباهة واللباقة وسرعة البديهة . وكان بعض الشعراء قادرين على إثباتها في المكان الملائم والزمان المناسب . وقد رأينا أبيات أبي ذلامه حينما خرج للصيد مع الخليفة المهدي الذي أصاب ظيباً فصادةً وعلى بن سليمان أصاب كلباً فقتله .

(٢١٧) حياة الفخر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة ص ٦٢٠ .

(٢١٨) جحظة البرمكي الأديب الفاهر ص ٣٧٠ .

(٢١٩) ثمرات الأوراق ص ١٨٧ .

(٢٢٠) ينظر : معالي الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٩٦ .

وكان البخلاء موضع التندر في المجالس . وقد عقد الجاحظ فصلاً في كتابه « البخلاء » لنواديرهم . وفي دواوين الشعراء شيء كثير عنهم . ولا سيما في ديوان أبي نواس . فله أكثر من مقطوعة في التهكم بهم . مثل قوله في رجل يدعى سعيداً : (٢٠٢)

رغيفٌ سعيدٌ عنده عذْلٌ نفسه يُقَسِّبُه طوراً . وطوراً يلاعِبُه
ويُخرِجُه من كُفِّه فيشْمُه ويجلسه في حجره ويخاطِبُه
وأن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكَلتُه أمُه وأقارِبُه
يكرُّ عليه السوطُ من كلِّ جانبٍ وتكسرُ رجلاه ويُنْتَفُ شاربُه
وقوله في آخر يدعى الفضل (٢٠٣) :

رأيت الفضل مكتئباً يناغي الخيز والسُّمكا
فقطب حين أبصرني ونكس رأسه وبكى
فلما أن جلفت له بأنبي سائِم ضحكا

وتندر الشعراء كثيراً بأولئك الذين لم يحسنوا تنظيم إلهامهم وتنظيفها . من مثل قول مروان بن أبي حفصة في لحية شيخ يسمي رباحاً (٢٠٤) :

لقد كانت مجالنا فاحاً فضيقها بلحيتِه رباح

مبعثرة الأسافل والأعالي لها في كل زاوية جناح
ولا ين الرومي باع طويل في هذا اللون من الشعر فله فيه صورٌ مضحكة مثل قوله : (٢٠٥)

ولحية يحملها مائق مثل الشرايين إذا أشرعا
تقوده الريح بها صاغراً قوداً عنيفاً يتعَب الأخدعا
فان عدا والريح في وجهه لم ينبعث في مشيه إضبعاً
لو غاص في البحر بها غوصة صاد بها حيتانه أجمعا

(٢٠١) ينظر : كتاب البخلاء ص ٤٧ - ٤٤٢ .

(٢٠٢) ديوانه ص ٥٢٤ .

(٢٠٣) ديوانه ص ٥٢٥ .

(٢٠٤) شعره ص ٢٨ .

(٢٠٥) ديوانه ١٥٥ : ٤

فلحية هذا الرجل الأحمق بجانبيها المستعرضين كشراعين . ولكنهما لا يساعداه مع الريح على التنقل كما يساعد الشراعان السفينة . بل هما يتقلانه حين تقابله الريح . فلا يستطيع التحرك بل إن هذه اللحية العريضة أشبه ماتكون - في عين ابن الرومي - بشبكة كبيرة . وأولى بصاحبها أن لا يعترض بها الناس في الطريق بل يسقط بها في البحر ليصيده حيتانه التي يعز على الشباك صيدها(٢٥٦)

والنوادير أحياناً تكون لاذعة وساخرة . ومثال على ذلك ما حدث به أحمد بن خالد . قال(٢٥٧) « كنا يوماً بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد . ومعنا جماعة من أصحابنا . فسقط على كئينة(٢٥٨) في سطحه ديك طار من دار دعبل . فلما رأيناه قلنا هذا صيدنا . فأخذناه . فقال صالح : مانصنع به ؟ قلنا : نذبخه . فذبحناه . وشويناه . وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح . فطلبه منا . فجحدهناه . وشربنا يومنا . فلما كان من الغد خرج دعبل فصلى الغداة . ثم جلس على المسجد . وكان ذلك المسجد مجمع الناس . يجتمع فيه جماعة من العلماء . ويتناهبهم الناس فجلس دعبل على المسجد وقال :

أسر الممؤذن صالح وضيوفاً أسر الكمي هفا خلال المايط (٢٥٩)
بعثوا عليه بنيهم وبناتهم مابسين نانسفة وأخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعيط(٢٦٠)
نهشوه فانترعت له أسنانهم وتهشمت أقمافؤهم بالحائط

وقال : فكتتها الناس عنه ومضوا فقال لي أبي وقد رجع الى البيت : ويحكم ضاقت عليكم المأكلة . فلم تجدوا شيئاً تأكلونه سوى ديك دعبل ؟ ثم أنشدنا الشعر . وقال لي : لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدرز عليه إلا اشتريته . وبعثت به الى دعبل والآ وقعنا في لسانه . فنعلت ذلك .

(٢٥٦) الشعر وطوابقه الشمبية ص ١٠٢ .

(٢٥٧) الأغاني ٤٠ ، ١٢٨ . وينظر ديوان دعبل ص ٩٩ .

(٢٥٨) كئينة : تفسير الكنة ، وهي الحائط ، أو القيفة تفرع فوق باب الدار .

(٢٥٩) الممؤذن ، أراد به الديك هفا ، سقط . المايط ، المضييق في الحرب .

(٢٦٠) خاقان ، اسم لكل خقنه الترك أي ملكوه عليهم . ناعيط ، البيلة من همدان

ويسلك التعابث أحياناً عند بعض الشعراء طريق الإساءة ، وهو أمر خطير يؤدي الى زرع الفتنة ، وتفكك الروابط وزوال المحبة . وهذا مانجده عند عبد الصمد بن المعذل في كثير من شعره . مثل قوله في أعور عشق عوراء (٢١١)

هي عوراء باليمين وهذا أعور باليسار وافق شئنا
بين شخصيهما ضرير إذا ما قعدت عن شماله تتفنى

وقوله في أبان اللاحقي : (٢١٢)

صحفت أمك إذ سمَّتك بالمهدي أبانا
قد علمنا ما ارادت لـنـمـنـهـمـ تـرـدُ إلّا أنانا
ضيرت بآء مكان التـنـاء والله عيانا
قطع الله وشيكاً من منيك اللسانا

إن هذا الشعر وأمثاله لا يرقى الى المستوى الذي شاهدناه في الأغراض الأخرى . إذ يخلو من الجمال ، وتبدو عليه السطحية والضعف ؛ لأنه في الغالب منظوم على عجل أو ارتجالاً .

الشعر التعليمي :

فن أدبي جديد ، اقتحم الشعراء بابه في العصر العباسي . سهيلاً لحفظ العلوم واستظهار المعارف ولأسيما بعد الاقبال على التعلم والرغبة الشديد في طلب المعرفة . وهو في الغالب يفتقر الى العاطفة والخيال ويخاطب العقل . ويتميز بطول النفس الشعري واعتماده الرجز وتنوع القافية .

ويعدُّ أبان بن عبد الحميد اللاحقي فارس الشعراء في هذا اللون من النظم . فله مزدوجة في خمسة آلاف بيت تقريباً كما يقول ابن المعتز (١٣٢) . استفرغ فيها كتاب كليله ودمنة . وقد نقل الصولي منها بضعة وسبعين بيتاً . جاء فيها (٢١٤) :

(٢١١) شعره ص ١٩٢ .

(٢١٢) الأهلبي ١٢ ، ٢٢٧ .

(٢١٣) طبقات الشعراء ص ٢٤١ .

(٢١٤) أخبار الشعراء المحدثين ص ٤٦ . وينظر الأهلبي ١٣ ، ١٥٥ .

وربما كان هلاك الشجر في حسن الغصن وطيب الثمر
 وذنب الطاوس فهو زينته كذاك أحياناً وفيه حينه
 وبأذن النصح لمن لم يشكره كطارج في سبخ ما يذره
 لاخير للعاقل في ذي المنظر إن هو لم يحمده عند المخبر
 وليس في الصديق ذي الصفاء خير إذا لم يك ذا وفاء
 وله أيضاً مزدوجة طويلة شرح فيها أحكام الصوم والزكاة . أولها: (٢١٥)

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع
 من ذلك المُنزل في القرآن فضلاً على من كان ذا بيان
 ومنه ماجاء عن النبي من عهده المتبوع المرضي
 صلى الأله وعليه سلماً كما هدى الله به وعلمنا
 وسلك ابنه حمدان بن ابان هذا المسلك . ونظم مزدوجة في وصف الحب وأهله .
 منها (٢١٦)

يأئبها الناس فغوا وصيتي واستمعوا
 ففي صفاتي عجب وفي كتابي أدب
 قصيدتي مقومة ألفاظها منظمه
 فيها هوى العشاق ومنية المشتاق

وفي علم الحيوان نظم بشر بن المعتير قصيدتين فيهما غرائب وقرائد كما قال
 الجاحظ . (٢١٧) وفي تاريخ الطب نظم اسحاق بن حنين قصيدة (٢١٨) . وفي علم
 الفلك نظم محمد بن ابراهيم الفزاري مزدوجة طويلة تقع مع تفسيرها في عشرة
 مجلدات . كما يقول ياقوت الحموي . أولها (٢١٩)

الحمد لله العلي الأعظم ذي الفضل والمجد الكبير الأكرم
 الواحد الفرد الجواد المنعم
 الخالق السبع العلى طباقاً والشمس يجلو ضوءها الإغساقا
 والبدر يملأ نوره الآفاقا

(٢١٥) أخبار الشعراء المحدثين ص ٥١ .

(٢١٦) أخبار الشعراء المحدثين ص ٥٨ .

(٢١٧) الحيوان ١٦ ، ٢٨٤ .

(٢١٨) شعراء النصرانية بعد الاسلام ص ٢٤٩ .

وشارك الشعراء في تدوين التاريخ شعراً . ولعل أحداً لم يسبق علي بن الجهم ، فهو الذي فتح هذا الباب ونظم مزدوجة في أكثر من ثلاثمئة بيت . تناول فيها بدء الخليقة وتاريخ الانبياء . كما حكى تاريخ الاسلام منذ بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى خلافة المستعين . منها قوله (٣٠)

ثم أزال الظلمة الضياء وعاودت جذتها الاشياء
ودانت الشعوب والأحياء وجاء ماليس به خفاء
أناهم المنتجب الأواة محمد صلى عليه الله

وبعد علي بن الجهم جاء ابن المعتز في نظم تاريخ الخلفاء . إذ نجد له مزدوجة طويلة في سيرة الخليفة المعتضد وأحداث عصره تقع في أربعمئة وتسعة عشر بيتاً . أولها : (٣١)

باسم إله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسُلطان
الحممد لله على الآئيه أحمدة والحمد من نعمائه
أبدع خلقاً لم يكن فكاناً وأظهر الخجّة والبيانا
وأرسل الرّسل بحق ساطع قاهر كل باطل وقامع

ويعلق الدكتور طه حسين على هذه المزدوجة . ومزدوجة أخرى لابن المعتز امتدت نحو مائة وعشرين بيتاً في ذم الصبوح وحمد الغبوق (٣٢) . فيقول : « لن أبالغ ولن أغلو . حين أوصي بقراءة هاتين القصيدتين . لا لأن واحدة منهما تدم الصبوح وتحمد الغبوق . ولا لأن الأخرى تتناول حوادث تاريخية قد نجدها في سهولة في الكتب التاريخية بل لأن في قراءة هذا النوع ماقد يبعث شعراءنا على محاكاة هذا الشعر . وأؤكد لكم أن هذه المحاكاة تعود بشيء كثير على الشعر في هذا العصر . فأجمل ما فيه أنه بريء كل البراءة من التكلف . لم يبحث عن لفظ غريب . ولم يتكلف معنى غريباً . إنما هو يأخذ الأشياء التي حوله . فيعبر عنها

(٢٦٩) مجمع الأديان ٦ ، ٢٦٨

(٢٧٠) ديوانه ص ٢٤٢ .

(٢٧١) ديوانه ١ ، ٥١٩ .

(٢٧٢) الفصول ، الحرب آخر النهار مقابل الصبوح . تنظر المزدوجة في ديوان ابن المعتز ١٢

٥٢٨ وأخبار أولاد الخلفاء ٢٥١ .

بالالفاظ التي تدور على ألسنة الناس جميعاً» (٢٣٣). أما الدكتور عز الدين اسماعيل فيقول، «وقد كان من الممكن ان يتطور هذا اللون من الفن الشعري الى نوع من الشعر المحمي، ففيه نفس غير يسير منه، ولكن ما يؤسف له أنه تطور في اتجاه آخر لا ينتمي في كثير أو قليل الى الفن الأدبي، وذلك عندما راح المشتغلون بفروع العلم المختلفة ينظمون المادة العلمية في أراجيز مزدوجة من هذا الطراز، تكون بمثابة متون يحفظها الآخذون في تحصيل هذه العلوم». (٢٣١). لقد كان التعلّم آنذاك يعتمد كثيراً على الحفظ والشرح، حفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والمتون اللغوية، والقوائد الشعرية الجيدة، وكل المعارف المتصلة بعلوم اللغة العربية وآدابها... ولذلك كثر هذا اللون من النظم بأسلوب سهل ميسور، ولم يتجاوز الغاية التعليمية، ولم يتطور في إتجاه آخر. وتناول الشعر التعليمي الوعظ والارشاد والتهديب، وكذلك الحكم والأمثال كما تلاحظ في أرجوزة أبي العتاهية المعروفة بـ (ذات الأمثال) التي نيفت على أربعة آلاف مثل كما يقول أبو الفرج الأصبهاني (٢٧٥) منها قوله :

لِكُلِّ مَا يُؤْذِي وَإِنْ قُلَّ أَلَمٌ مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمِ
مَا انْتَفَعَ الْمَرْءُ بِمَثَلِ عَقْلِهِ وَخَيْرُ دُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
إِنْ الْفَسَادُ ضِدُّهُ الصَّلَاحُ وَرُبُّ جِدِّ جِرَّةِ السُّبْحَانِ
إِنَّ الشُّبَابَ وَالسَّفْرَاحَ وَالْجَدَّ مَفْسِدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسِدَةٍ

وظل الشعر التعليمي قائماً، وزاد الاقبال على نظمه بمرور الايام، حتى أصبحنا نرى في العصور اللاحقة كثيراً من المنظومات في الفقه والطب والمنطق والحساب والتاريخ والنحو والصرف والبلاغة والخط..

(٢٧٢) من حديث الشعر والنثر ص ١٦٩ .

(٢٧٤) في الأدب العباسي ، الرؤية والفن ص ٤٠٨ .

(٢٧٥) ١٦٤ هـ ، ٣٦ ، ٤ . وقد وصل إلينا من هذه الأرجوزة ثلاث مئة وعشرون بيتاً (ينظر أبو

العتاهية أشعاره وأخباره ص ٤٤٤ - ٤٦٥) .

التجديد في المعاني والأفكار

اتسعت الثقافة في العصر العباسي ، وكثرت منافذها ، وتمعدت ألوانها . وقد ظهر أثر ذلك جلياً في الحياة الفكرية ، والشعرُ جانبٌ من هذه الحياة . إذ نراه يزدحم بالمعاني والأفكار ، والصور والأخيلة . ومن يراجع دواوين الشعراء والمجاميع الأدبية يجد تلك الحقيقة واضحة للعيان .

بعد غاص الشعراء في بحر الأفكار ، وتعمقوا في أغواره ، واستنبطوا لآلي جديدة ، ودرراً ثمينة تعجب الناظر وتبهر السامع ، لما فيها من دقة وروعة وبهاء ...

إن الصور الشعرية التي نلمس فيها الحدة والطرافة كثيرة في رياض الأدب العباسي . فمن أزهير تلك الرياض الآيات الآتية لبشار بن برد التي أعجب بها أبو عمرو بن العلاء وعُدَّ بشاراً من أفضل الشعراء لتجديده وابداعه فيها . قال (٣١)

لم يطلُ ليلي ولكن لم أنم	ونقى عني الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودي لنا	خزجت بالصمت عن لا ونعم
نفسى ياعبد عني واعلمي	أنسي ياعبد من لحم ودم
إن في بردي جسماً ناحلاً	لو توكأت عليه لانهدم
ختم الحب لها في عنقي	موضع الخاتم من أهل الدم

ولعل أبا عمرو بن العلاء استساغ البيت الأخير . لأنه حقاً صورة فريدة وتشبيه نادر إضافة إلى أن لغة الأبيات سهلة وأسلوبها مأنوس يتعاطف مع القلب .

ومن الشعر الجميل المتناهي في الرقة والسلاسة قول دعبل الخزامي (٣٢)

أين الشباب ، وأية سلكا ؟	لا ، أين يطلب ؟ ضل ، بل هلكا
لا تعجبي ياسلم من رجل	ضحك الشيب برأسه فبكي
ياسلم ما بالشيب منقصة	لاسوة يُبقي ولا ملىكا
ياليت شعري كيف نومكما	ياصاحبى اذا دمي سفكا
لاتأخذا بظلامتسي أحداً	قلبي وطرقي في دمي اشركا

(٣١) الأغانى ١٢ ، ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣٢) ديوانه ص ١١٧ .

والبيت الثاني هو الذي أوصل دعبلاً بالرشيد . فقد غنى ابنُ جامع المقطوعة التي تضمُّ هذا البيت بين يدي الرشيد « فطرب ، وسأل عن قائل الشعر ، فقيل له : دعبل بن علي ، وهو غلامٌ نشأ من خُزاعة ، فأمرَ باحضار عشرة آلاف درهم وخِلمة من ثيابه ، فأحضِر ذلك ، فدفعه مع مركب من مراكيبه الى خادم من خاصته ، وقال له : اذهب بهذا الى خُزاعة فاسأل عن دعبل بن علي . فاذا دُللت عليه فاعطه هذا . وقل له : ليحضر ان شاء ، وان لم يُحب ذلك فدعه . وأمر للمغني بجائزة . فسار الغلام الى دعبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير اليه . فلما دخل عليه وسلّم أمره بالجلوس فجلس . واستنشه الشعر فأنشده اياه . فاستحسنه وأمره بملازمته وأجرى عليه رزقاً سنياً » (٢٧٨)

وبرز مسلم بن الوليد في ابتداع المعاني ، وكثيراً ما ذكره المأمون في مجالسه وفضله على غيره من الشعراء ، ومن شعره الذي أعجب به النقاد والقرءاء البيت الآتي : (٢٧٩)

تجوّد بالنفس اذ صنّ الجواد بها والجوّد بالنفس أفضى غاية الجود
وكذلك اشتهر أبو تمام بفتق أكامم الفكرة وتزينها باللفظ الجميل والجرس .

لرقيق . مثل قوله في فضل الحاسد على المحسود (٢٨٠) :

واذا أرادَ الله نشرَ فضيلة طويّت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاوَزت ما كان يعرف طيب عرّف العود

وبلغ ابن الرومي مرتبة عالية في التجويد باللفظ والعبارة . والتعمق في المعاني . وابتداع الصور الجديدة ، مثل قوله في الغزل (٢٨١)

نظرت فأقصدت الفؤاد بسهمها ثم انتثت نحوي فكدت أهيم
ويلاه إن نظرت وأن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليس

ومما يستحسن في هذا المجال بيتان لعبد الله بن محمد بن سالم المعروف بابن الخياط . قال أبو الفرج الأصبهاني : (٢٨٢) « دخل على المهدي فمدحه . فأمر له بخمسين ألف درهم . فقال يمدحه

(٢٧٨) الأغانى ٢٠ ، ١٧٩ .

(٢٧٩) ديوانه ص ١٦٤ .

(٢٨٠) ديوانه ١ ، ٢٩٧ .

(٢٨١) ديوانه ٦ ، ٢٢٩٧ .

(٢٨٢) الأغانى ٢٠ ، ١١٠ .

أخذت بكفّي كَفَذَ ابْتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفّه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

فبلغ المهدي خبره . فأضعف جائزته . وأمر بحملها اليه في منزلة .

ان خيال الشاعر في العصر العباسي حلّق في آفاق بعيدة . بعدما شاهد ما صنعتها
يد الحضارة . وما أوجدته الحياة الجديدة من ألوان الترف والنعيم لم تكن معروفة
سابقاً . الى جانب الطبيعة الجميلة المكتسبة بالألوان الزاهية . كما نرى مثلاً في قول
أبي تمام يمدح أبا سعيد الثغري ويذكر بعض حملاته على الأعداء (٢٨٢)

غادرت أرضهم بخيلك في الوغى وكان أمّنعها لها مضمار
وأقمت فيها وادعاً فتمهلأ حتى ظننا أنها لك دار
وأرى الرياض حواملاً ومطافلاً مذ كنت فيها والسحاب عشار
أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالي كلها أحاز
تندى عذبتك للعفاة وتغتدي رفقاً الى زوارك الزوار
هممي معلقة عليك رقابها مغلولة إن الوفاء إسار
وانظر الى صورة الخمرة عند العكوك (٢٨١)

كان يد النديم تدير منها شعاعاً لا يحيط عليه كاس
وقريب من هذا المعنى قول ابن المعتز (٢٨٥) :
تخفي الزجاجة لونها وكأنها في الكف قائمة بغير إناء

ولاحظ هذه اللوحة الشعرية الملونة المتحركة التي قدّمها ديك الجن في أبياته
الجميلة الرقيقة لوصف الديك : (٢٨٦) :

أما ترى راهب الأسحار قد هتفاً وحث تغريده لما علا الشّعفا
أوفى بصيغ أبي قابوس مفرقة كدرة التاج لما أن علا شرفاً (٢٨٧)
مشنّف بعقيق فوق مذبحه هل كنت في غير أذن تعرف الشفا

(٢٨٢) ديوانه ٢ ، ١٨١ .

(٢٨٤) شعره ص ٧٢ .

(١٨٥) شعره ٢ ، ١٨ .

(٢٨٦) ديوانه ص ١٧٧ .

(٢٨٧) جاء في ديوان المعاني ٢ ، ١٢٧ (ولوله صبيغ أبي قابوس ، يعني شقائق النمان) .

لما أراحت رعاة الليل عازبة من الكواكب كانت ترتعي السدفا
 هز اللواء على ماكان من سبة فارتج. ثم علا. واهتز. ثم هفا
 ثم استمر. كما غنى من طرب مريح شرب على تفريده وضا(٢٨٨)
 اذا استهل استهلته فوقه خصل كالحي صبح صباحا فيه فاختلنا

ومن صور ابن الرومي البديعة الزاهية قوله في وصف قوس السحاب(٢٨٩) :

يُطرزها قوس السحاب بحمرة على أخضر في أصفر وسط مبيض
 كاذيال خوذ أقلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

ومن الشعراء من أضفى على شعره أدلة منطقية. اكتسبها من الثقافة التي
 تلقاها. أو من مشاهداته وتجاربه الخاصة. يريد بها اقناع السامعين بما جادت به
 قريحته. مثل قول أبي تمام في الهرم(٢٩٠)

لا تكثرني منه تخديداً تجلله فالسيف لا يزدري إن كان ذا شطب

ومن ابتدعات ابن الرومي التي لم يُسبق إليها قوله(٢٩١)

كل امرئ مدح امرأ لنواله فأطال فيه فقد أراد هجاء
 لو لم يقتر فيه بغير المشتقى عند الورود لما أطال رشاء

واستعان الشعراء في هذا العصر بالتجسيد والتضخيم. والمبالغة والتحويل. وهذه
 الأمور - وإن لم تكن من مستحدثات هذا العصر - أصبحت سمة بارزة اتكأ عليها
 الشعراء في كثير من الأحيان. ولا سيما في المديح والغزل. ويبدو أن المتلقين كانوا
 يرتاحون لها ويهشون لسماعها. مثل قول منصور النمري في الخليفة هارون
 الرشيد(٢٩٢)

إن المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث تشع
 اذا رفعت امرأ فالله يرفعه ومن وضعت من الأقوم متضع

(٢٨٨) المريح: الهديد المرص. العرب: القوم الغابون. ضفا: استطال مستعراً.

(٢٨٩) ديوانه ٤، ١٤١٩.

(٢٩٠) ديوانه ١، ١١١.

(٢٩١) ديوان ١، ١١١.

(٢٩٢) الأطلال ١٣، ١٤٧.

وقول بشار بن برد في الفخر (٢٧٣)

إذا ما غضبنا غضباً مضريةً هتكنا حجاب الشمس أو تُمطر الدُما
وقوله في الغزل (٢٧١) :

سلبت عظامي لحمها فتركتها عواري في أجلاذها تستكسز
وأخليت منها مَحْها فتركتها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب فانظري ضنى جندي لكنني أتستز

وإلى جانب المبالغة يلاحظ القاريء حرص كثير من الشعراء على الحسنات اللفظية والمعنوية. إذ عدوها من مراتب التجديد والابداع. وقد جاءت في شعرهم أحياناً مقبولة. لها وقع حسن في النفس. وأحياناً مردولة لا جمال فيها ولا بهاء وبعيدة عن الذوق السليم. فمن الصور اللطيفة التي تبدو فيها الصنعة محببة قول الحسين بن مطير الأسدئي (٢٧٥) :

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو جفد أسحم
فكانها منه نهاراً مشرقاً وكأنه ليل عليها مظلم

وقول بشار بن برد في عذوبة صوت الحبيبة: (٢٧٦)

وكان رجع حديثها قطع الزياض كمين زهرا

وهذه أبيات لأبي تمام تتداعى فيها المعاني وتتزاحم الصور يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ويذكر خروجه للقاء العدو (٢٧٧)

لقد أنعمت والشتاء له وج
طاعنا منخر الشمال متيجا
في ليل تكاد تبقي بحد الشمس
هـ براءة الكمأة جهما قطوبا
بلاد العدو موتا جنوبا (٢٧٨)
من ريحها الليل شحوبا

(٢٧٦) ديوان شعر بشار بن برد ص ١٩٩ .

(٢٧٤) نفسه ص ١١٤ .

(٢٧٥) شعره ص ٧٢ .

(٢٧٦) ديوان شعر بشار بن برد ص ١١٨ .

(٢٧٧) ديوانه ١ ، ١٦٥ .

(٢٧٨) المعنى أنه يغزو بلاد العدو وهم في ناحية الشمال فيجئهم بموت من ناحية الجنوب .

فَضْرِبَتِ الشِّتَاءَ فِي أَخْذَعِيهِ ضَرْبَةً غَادَرْتَهُ غَوْدًا رَكُوبًا (٢٩٩)
لَوْ أَصْخْنَا مِنْ بَعْدِهَا لَسَمَعْنَا لِقُلُوبِ الْأَيَّامِ مِنْكَ وَجِيبًا (٣٠٠)

إنَّ غالبيةَ الشعراءِ العباسيين كانوا مولعين بالتجديد إلى جانب الاعتماد على الموروث . وهذا التجديد يعود إلى التطور الاجتماعي الكبير الذي شمل جوانب الحياة المختلفة آنذاك . وكذلك التطور الفكري الذي أدى إلى ثراء العقل وفتح الأبواب الكثيرة للخلق والابداع .

الألفاظ والأساليب

قطع العلم والأدب في العصر العباسي شوطاً كبيراً في ساحة الرقي والتقدم والازدهار . وازداد عدد الدارسين والناهلين من معين المعرفة . تلك المعرفة النابعة من أصول قديمة أو آتية من منافذ جديدة . ومن يلاحظ في ألفاظ هؤلاء الدارسين وأساليبهم يجدها تتراوح بين القوة والجزالة من جهة والسهولة والليونة من جهة أخرى .

كانت صلة كثير من الشعراء قوية بالشعر القديم . فبشار بن برد مثلاً كان يجاري امرئ القيس (٣٠١) . ويتعمد محاكاة الأساليب القديمة . ولا عجب حين قال الأصمعي : « بشار خاتمة الشعراء . والله لولا أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم » . وأبو نواس قال عن نفسه : « ما ظنكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين إمراة من العرب . منهم الخنساء وليلى . فما ظنكم بالرجال ؟ (٣٠٢) » . وكان محمد بن مُنَازِر « ينحونحوغدي بن زيد في شعره . ويميل إليه . ويقدمه » . وعرف عن أبي تمام بروايته للقديم من الأشعار . حتى أن الحسن بن رجاء قال : « ما رأيت أحداً قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام » (٣٠٣) .

(٢٩٩) الأخدعان ، عرقان في العنق . عوداً ، جملاً مسناً . ركوباً ، مذلاً .

(٣٠٠) الاصاخة ، إمالة الأذن للسمع . الوجيب ، صوت حركة القلب

(٣٠١) الأغاني ٢ ، ١٩٦ .

(٣٠٢) الاغاني ٢ ، ١٤٣ .

(٣٠٣) أخبار أبي تمام ص ١١٨ .

إن فئة كبيرة من شعراء العصر العباسي الأول كان شعرهم يجاري الأقدمين تارةً . والمحدثين تارةً أخرى . ومن أشهرهم بشار بن برد . وأبو نواس . ومروان بن ابى حفصة . ومسلم بن الوليد . وأبو الشيص . ودعبل الخزاعي . والحسين بن مطير الأسدي . وعمارة بن عقيل . وكلاثوم بن عمرو العتابي . وأبو تمام . وعبدالمك بن عبدالرحيم الحارثي ... فمن النماذج الرصينة القوية قول أبي نواس من قصيدة يمدح بها الخليفة هارون الرشيد(٢٠١)

انا اليك من الصلبي فداسم طلع النجاد بنا وجيف الأنيق(٢٠٥)
يتبعن مائة الملائ . كأنما ترنو بعيني مقلت لم تفرق(٢٠٦)
خساء ترعى جودراً بخميلاً وبها اليه صابئة كالأولق(٢٠٧)
حتى اذا وجدته لم تر عنده الأ مجرأ إهابه المتمزق

في هذه الأبيات يصف الشاعر حنين الابل واشتياقها الى أعطانها . ويشبها ببقرة وحشية ترنو الى ابنها في خميلة . وليس لها بواه . لأن كل أولادها تموت أو لأنها ولدته ولم تلد بعده . فلما ذهب اليه وجدته قتيلاً فأوعلت عليه . وأرزمت له فهو يشبه هذا بهذا . وهذه الصورة التي رسمها النواصي تشبه أختاً لها عند الخساء في رثاء أخيها صخر في رائيها المشهورة . ومن النماذج السهلة الميسورة الخفيفة على الأسماع قول مروان بن أبي حفصة في مقدمة قصيدة يمدح بها الخليفة المهدي(٢٠٨)

طرقتك زائرة فحيي خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالتها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب الى الصبا فأمالها

(٢٠٤) ديوانه ص ٤٠٠

(٢٠٥) الصلبي وداسم ، اسما موضعين . النجاد ، مفردة النجد ، وهو ما اشرف من الأرض .

الوجيف ، نوع من السير السريع .

(٢٠٦) المائة ، المضطربة الملائ ، جانباً السنام . المقلت المرأة لا يميش لها ولد .

(٢٠٧) الأولق ، المجنون .

(٢٠٨) شعره ص ٩٦ .

ومنها في المديح :

أحيا أمير المؤمنين محمد سنن النبي حرامها وحلالها
ملك تفرغ نبغ من هاشم مد الإله على الأنام ظلالها
جبل لأمته تلود بركنه راذي جبال عدوها فأزالها

وهناك فئة أخرى من الشعراء سلكت طريقاً سهلاً ميسوراً . يسميهم نجيب محمد البهيتي أنصار المدرسة الشعبية (٢٨٩) . وهم كثيرون وعلى رأسهم أبو العتاهية . والعباس بن الأحنف . وربيعة الرقي . وقد سار شعرهم بين محبي الأدب « ووجد الناس فيه مراحاً من كد القريحة . وإعمال الذهن . ومهرباً من النصب الذي يلتقونه في قراءة غيرهم من الشعراء »^(٣٠٠) . وحسبنا من شعر هذه المدرسة قول ربيعة الرقي متغزلاً بفتاة تدعى غنمة (٣١١)

حمامة بلني عنني بلاما حبيباً لأطيق له كلاما
وقولي للتي غضبت علينا علام . وفيم ياكني علاما
ومنها ،

وإن جميع أهلك عنفوني ولاموني . ولم أطق الملا
كرام الناس قبلي قد أحبوا كرائمهم وأحببن الكراما
جميل والكثير قد أحبا وعروة من هوى لاقى حاما
هم ستوا الهوى والحب قبلي وما ألقى لهم في الناس ذاما
فيا « غنام » يابصري وسمعي رسي هواك أورثني سقاما
لقد أقصدت - حين رميت - قلبي بسهم الحب . إن له سهاماً

بهذه الرقة والعذوبة يسترسل الشاعر في قصيدة طويلة . طالباً من الحبيبة أن يلين قلبها . وتعطف عليه . وتميل إليه . وتنجيه من لوعة الغرام ودواعي الشوق والهيام .

ان اغلب الشعراء . سواء كانوا من أنصار الأوائل أم من أنصار المدرسة الشعبية . تأثروا بالعصر الجديد ومعطياته . ومن هنا تعصب اللغويون لأدب ما قبل الاسلام

(٢٠٩) ينظر تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٢٨٢ .

(٢١٠) نفسه ص ٤٠٦ .

(٢١١) شعره ص ٨٨ .

والعصر الإسلامي والأموي ، وقد تساهل الأصمعي حين ختم الشعر بآبن هرمة وآبن ميادة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية (٢١٧)

لقد تسرّبت كثير من الألفاظ والأفكار إلى الساحة الأدبية من الأقاليم الذين امتزجوا بالعرب وتظاهروا مع الكثيرين منهم . ومن يراجع الكتب التي عُنيت بالألفاظ الدخيلة مثل «المعرب» لأبي منصور الجواليقي . و «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» لشهاب الدين الخفاجي يجد ألفاظاً كثيرة أصبحت مألوفاً الاستعمال في الشعر والنثر . مثل : الفالوذج . والديباج . والطيلسان . والخوان . والطشت . والابريق . والمهرجان . والنيروز . والمارستان . والسكر . والقولنج . والترياق . والهيولى . والاسطربلاب . والقميراط ... ومن أكثر الشعراء استخداماً للألفاظ غير العربية أصلاً أبو نواس . وكان أحياناً يأتي بها على وجه التظرف والتلمح كما يقول الجاحظ (٢٣٣) . كذلك وفدت إلى العربية بعض ألفاظ التبجيل مثل الحضرة والجناب . والإدارية مثل صاحب الشرطة وصاحب الستار ...

وشاع استعمال الألفاظ المركبة مع لا النافية في حالة التعريف كاللانهاية . واللاضورة . واللارادة ... وكذلك صياغة الأسماء من الحروف والضماير مثل الكمية والكيفية والماهية والهوية ... كما أدخلت الألف والنون قبل ياء المتكلم مثل نفساني وروحاني ... وهذه وتلك من خواص اللغة الآرية كما يقولون (٢٣٤)

وضمن بعض الشعراء ألفاظ المتكلمين والفلاسفة في شعرهم مثل : الحركة والسكون والروح والجسد والكل والبعض والجوهر والعرض والجزء والقليل والأقل ... وقد استشهد الجاحظ في هذا المجال بشعر أبي نواس في جنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي : (٢٣٥)

(٢١٢) الأغانى ٤ ، ٣٧٣ .

(٢١٣) البيان والتبيين ١ ، ١٤١ . ونظير الأبيات الشعرية التي فيها ألفاظ أعجمية في كتاب الفن

ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٢ - ١٢٤ .

(٢١٤) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ ، ٤١ .

(٢١٥) البيان والتبيين ١ ، ١٤١ . ونظير ديوان أبي نواس ص ٢٢٢ .

وَذَاتٍ خَيْدٍ . مَوْرُدٍ
فَتَّانَةٍ . الْمُتَجَرِّدُ (٣١٦)
مَحَاسِنًا لَيْسَ تَنْفِذُ
وَبِغَضِّهَا يَتَوَلَّدُ
مِنْهَا مَعَادَةٌ مَرْدُودٌ

وَأَبِي نَوَاسٍ أَيْضًا (٣١٧)
يَا عَاقِدَ الْقَلْبِ مَنِّي ؛
تَرَكْتُ مَنِّي قَلِيلًا
يَكَاذُ لَا يَتَجَرَّأُ

هَلَّا . تَذَكَّرْتُ . حَلًّا
مَنْ الْقَلِيلِ أَقْلًا
أَقْلٌ فِي اللَّفْظِ مِنْ « لَا »

وَهَكَذَا تَجَاوَزَ الشُّعْرَاءُ عَلَى الْمَعْجَمِ الشُّعْرِيِّ الْأَصِيلِ . وَاسْتَخْدَمُوا الْفَاطِمَاتِ وَتَرَكَيبِ
أَعْجَمِيَّةً فَضْلًا عَلَى الْمِصْطَلِحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْفِقْهِيَّةِ وَالْفَلَسْفِيَّةِ وَالصُّوفِيَّةِ وَسِوَاهَا . وَقَدْ
ابْتَعَدَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ عَنِ السَّلِيْقَةِ مِمَّا هِيَ لظُهُورِ اللَّحْنِ وَالخُرُوجِ أحيانًا عَنِ الْقِيَاسِ
الصُّرْفِيِّ (٣١٨) . وَكَانَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ لَهُمْ بِالْمُرْصَادِ . كُلَّمَا انْحَرَفُوا دَلُّوهُمْ عَلَى انْحِرَافِهِمْ .
وَيَفِيضُ كِتَابُ الْمَوْشِحِ لِلْمُرْزُبَانِيِّ فِي مَأْخَذِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِمْ .

(٣١٦) المتجرد ، أي بضة عند التجرد .

(٣١٧) البيان والتبيين ، ١ ، ١٤١ ، والنظر ، ابن نواس لابن منظور ص ١٩ حيث تجد فيه أشماراً
أخرى فيها دليل على معرفته بالفاظ المتكلمين .

(٣١٨) ينظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٤ .

الأوزان والقوافي

الشعر فنٌ جميل تستهويه النفوس « مثله مثل التصوير والموسيقى والنحت ، وهو في أغلب أحواله يخاطبُ العاطفة ، ويستثيرُ المشاعر والوجدان . وهو جميلٌ في تخييرِ ألفاظه ، جميلٌ في تركيب كلماته . جميلٌ في توالي مقاطعه وانجامها . بحيث تتردّد ويتكرّر بعضها فتسمعه الآذان موسيقى ونغمًا منتظماً » (٢١٩)

ان للشعر خصائص موسيقية ، تأتيه - في الغالب - من الوزن والقافية . وقد اهتم بهما الدارسون القدامى . فقال ابن رشيقي : « الوزن أعظم أركان خد الشعر ، وأولها به خصوصية . وهو مشتملٌ على القافية وجالب لها ضرورة ، إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن ، وقد لا يكون عيباً نحو الخمسات وما شاكلها » (٢٢٠)

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي الرائد الأول في تسجيل أوزان الشعر . إذ نظر في التراث الشعري فعرف منه خمسة عشر وزناً على نحو ما هو معروف في علم العروض . ثم جاء أبو الحسن الأخفش فاستدرك عليه وزناً نادراً أسماه المتدارك . وقد أَلَمَّ الشعراءُ العباسيون بهذه الأوزان ونظموا على تفعيلاتها ، التي تمثل الوحدات الصوتية . وكان الميل في كثير من الأحيان الى الأوزان القصيرة والمجزوءة . ولا سيما الذي يُغنى به . إذ يستدعي الرشاقة والعدوبة والنومة والخفة ويلائم حياة القصور والحانات والخمائل وما فيها من نعيم ولهب وطربٍ وألحانٍ ... والشيء الذي نقف عنده قليلاً هو بحر المجتث الذي نظر اليه النقاد القدامى نظرة استصغار . قال حازم القرطاجني : « أما المجتث والمقتضب فالحلاوة فيهما قليلة على طيش فيهما » (٢٢١) . فأننا نخالف هذا الرأي . فهو - وإن كان قليلاً في أشعار المتقدمين كما يقول أبو العلاء المعري (٢٢٢) - محبوب الى النفوس . وأكثر استجابة للفتاء وطواعية للموسيقى . لذلك نظم فيه الشعراءُ في العصر العباسي . أمثال بشار بن برد (٢٢٣) . ومطيع

(٢١٩) موسيقى الشعر ص ٧ .

(٢٢٠) الصدة ١ : ١٢٤ .

(٢٢١) منهاج البلاغ ص ٢٦٨

(٢٢٢) الفصول والفتايات ١ : ١٢٢ .

(٢٢٣) ديوان بشار ١ : ١٥٧

ابن اياس (٣١١) . والعباس بن الأحنف (٣١٠) ومن جاء بعدهم . واليك هذه الأبيات من بحر المجتث من قصيدة لمطيع بن اياس :

ويَلِيَّ مَمَّنْ جفاني وحبُّهُ قد برانسي
وطيفُهُ يلقاني وشخصُهُ غيرُ داني
أغرُّ كالبدْرِ يُعَمِّشِي بحسنه المينانِ
جازيُّ ، لا تـمـذلانسي في حبِّسِه ودعانسي

ومن المقتضب قول أبي نواس (٣٣١) :

حاملُ الهوى تـمـبُّ يستخفُّهُ الطربُ
إن بكى يحقُّ له ليس ما به لـمـبُّ
تضحكين لاهيةً والمحبُّ ينتحبُّ؟
تعجبين من سُقمي؟ صغتي هي العجبُ
كلُّما انقضَى سببُ منك عاد لي سببُ

تصرَّف بعض الشعراء بالأوزان المعروفة . كما استحدثوا أوزاناً أخرى ثلاثم الأذواق آنذاك وتنجم مع روح العصر . وكان عبدالله بن هرون بن السميندع البصري أول من أقدم على ذلك . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « أخذ العروض من الخليل بن أحمد . فكان مقدماً فيه . وانقطع الى آل سليمان بن علي وأدب أولادهم . وكان يمدحهم كثيراً . فأكثر شعره فيهم . وهو مقلِّ جداً . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبةً في شعره . ثم أخذ ذلك عنه ونحا نحوه فيه رزّين العروضي . فأتى فيه ببدائع جمّة . وجعل أكثر شعره من هذا الجنس » (٣٣٧) . ومن شعر رزّين العروضيّ الأبيات الآتية من قصيدة يمدح بها الحسن بن سهل وزير المأمون : (٣٣٨)

(٣٣٤) الأضالعي ١٣ ، ٢٩٢

(٣٣٥) ديوانه ص ٧٢ ، ٢٤٤

(٣٣٦) ديوانه ص ٢٢٧ .

(٣٣٧) الأضالعي ٦ ، ١٦٠ .

(٣٣٨) معجم الأدباء ٦ ، ١٦٠ .

مَنْ مَبْلَغُ الْأَمِيرِ أَخِي الْمَكْرَمَاتِ مِدْحَةٌ مَحْبِرَةٌ فِي أَلْوَكِ؟ (٣٢٨)
تَزْدَهِي كَوَاسِطَةَ فِي النُّظَامِ فَوْقَ نَخْرٍ جَارِيَةٍ تَسْتَبِيكُ
يَابُنَّ سَادَةَ زَهْرٍ كَالنُّجُومِ أَفْلَحَ الَّذِينَ هُمْ أَنْجَبُوكُ

وإذا دققنا في وزن هذه الأبيات وجدناه عكس المنسرح ، وهذا ليس بغريب . إذ لجأ عدد من الشعراء الى أوزان مهيمة ولدها الخليل بن أحمد الفراهيدي من عكس دوائر البحور . من ذلك ، (٣٠) .

بحر المستطيل : وهو عكس الطويل . وأجزاؤه (مفاعلين ، فعولن . مفاعيلن . فعولن) .

بحر المتمد : وهو عكس المديد ، وأجزاؤه (فاعلن . فاعلاتن . فاعلن . فاعلاتن) .

بحر المتوافر : وهو محرف الرمل ، وأجزاؤه (فاعلاتك . فاعلاتك . فاعلن) .

بحر المتمد : وهو مقلوب المجث . وأجزاؤه (فاعلاتن . فاعلاتن . مستفع لن) .

بحر المطرد : وهو مقلوب التفعيلتين الأوليين من بحر المضارع ، وأجزاؤه (فاعلاتن . مفاعيلن . مفاعيلن) .

بحر المنسرد : وهو مقلوب التفعيلتين الأخيرتين من بحر المضارع أيضاً ، وأجزاؤه (مفاعيلن . مفاعيلن . فاعلاتن) .

وكان أبو العتاهية من أكثر الشعراء الذين أطلقوا أنفسهم على سجيتهما لتخلق وتبتكر الأوزان التي تليق بما يقولون من الشعر . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني « وله أوزان لاتدخل في العروض » (٣٣) . وقال ابن قتيبة : « وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعراب الشعر وأوزان العرب » (٣٣) واستشهد بهذه الأبيات من شعره :

عُثِبَ ، مَالِ الْخِيَالِ خَبِيرِي نِي وَمَا لِي ؟
لَأَرَاهُ أَتَانِي لِي زَائِرًا مَدُّ لِيَالِي
لَوْ رَأَيْتَنِي صَدِيقِي رَقُّ لِي أَوْرَشِي لِي
أَوْ يَرَانِي عَدُوِّي لَأَنَّ مَن سَوِّ حَالِي

(٣٢٩) الألوک ، الرسالة .

(٣٣٠) معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ١٢٢ .

(٣٣١) الأطلال ص ١٢٠٤ .

(٣٣٢) الشعر والشعراء ص ٦٦٦ .

والقافية كما هو معروف شريك الوزن في الاختصاص بالشعر، فهو القرار الذي ينتهي اليه كل بيت . فتحدث مع الوزن وحدة موسيقية في القصيدة (٣٣) . وقد جدد الشعراء العباسيون في القافية كما جددوا في الأوزان . فاستحدثوا ماسموه باسم المزدوج والمسمط والخمس ... أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد في الابيات . بل تختلف من بيت الى بيت . في حين تتحد في الشطرين المتقابلين . كما شاهدنا في النماذج التي أوردناها في الشعر التعليمي . أما المسمط فهو قصائد تتألف من أدوار . تعتمد على قطب واحد يسمى عمود المسمط . وكل دور يتركب من أربعة أشطر تتفق في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فانه مستقل بقافية تشابه قافية العمود التي بدأها الشاعر . ومن أمثلته مسمطة لأبي نواس في وصف الخمرة (٣٤)

سُـلَافٌ ذَنْ كَشْمَسٌ دَجْنِي
كدمع جَفْنِي كَخْمَرٍ غَدْنِي

فاحسُّ بربيعي كريبج شبيج
يوم صبحي وغميم دجني

يسقيك ساقِي على اششيتي ياقِي
السبي تسلاقِي بممأء مُزْنِي
يامن لجانبي على زمانبي
السلهو شانبي فلا تلمني

والمخمس شبيه بالمسمط . فهو يعتمد على الأدوار . كل دور يتكون من خمسة أشطر . الاربعة الأولى متحدة القافية . والخامس قافيته ثابتة وهو بمثابة اللازمة . واليك هذا الدور من خمسة لأبي نواس : (٣٥)

ماروض ربحانكم الزاهرُ وما شذى نشركم العاطرُ
وحسق وجدي . والهوى قاهرُ لم يبق لي ناظرُ
والقلب لاسالٍ ولا صابرُ

(٣٣) أبو فراس الحمداني . حياته وشعره ص ٢٩٢ .

(٣٤) ديوان أبي نواس ص ٢٤٦ .

(٣٥) حياة الهيوان للدويري ٩٦٠١ .

ويطالعنا أبو العتاهية بأبيات شعرية لم نألفها من قبل . فهي لا تقرأ إلا قطعة واحدة متصلة . على الرغم من تفتية صدور الأبيات وأعجازها : (٣١)

يا ذا الذي في الحب يلحى أما	والله لو كلفست منه كما
كلفت من حب رخييم . لما	لمت على الحب . فذرني وما
ألقي . فأنى لست أدري بما	بليت إلا أننى بينما
أنا بيب القصر - في بعض ما	أطوف في قصرهم - إذ رمى
قلبي غزال بسهام . فما	أخطابها قلبي . ولكنما
سهما عينا له . كلما	أراد قتلي بهما سلما

أبو العتاهية

١٣٠ - ٢١١

هو أبو العتاهية اسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسَانَ . وكُنِيته أبو اسحاق. وأبو العتاهية لقبه . رُوِيَ أن المهدي قال له يوماً : أنت إنسان متحذلقٌ مُعْتَمَةٌ . فاستوت له من ذلك كنيةً غلبت عليه دون اسمه وكُنِيته . وسارت له في الناس .. وقيل : كُنِيَ بأبي العتاهية لأنه كان يحب الشهرة والمجون والتعته . (٣٧) أما نسبه ففيه خلافٌ . قال بعض الباحثين إنه نبطي من موالي بني غنزة . وأمه من موالي بني زهرة . وذكر آخرون أنه عربي وتبعهم في ذلك بعض المستشرقين مثل نكلسون وهوار .

مولده وسيرته :

ولد أبو العتاهية في بلدة عين التمر غربي الكوفة (٣٨) سنة ١٣٠ للهجرة ولا نعلم شيئاً عن حياته في هذه البلدة . وأغلب الظن أنه انتقل منها صغيراً مع أبيه الى الكوفة الذي كان يعمل حجاماً ..

نشأ في الكوفة . وتلقى علومه فيها . وكانت آنذاك مركزاً للعلم والأدب . وكان لقسم من الموالي الذين عاشوا في هذه المدينة أثر كبير في انتشار المجون والخلاعة والزندقة والشعوبية . وقد ظهر فيها مجموعة من الشعراء سلكوا طريق التهلك والغواية أمثال : مطيع بن إياس . ووالية بن الحباب . وحماد عجرد ... وكان لأبي العتاهية نفس ميالة للمسير في دربهم الشائن . وقد حاول أخوه زيد الذي كان يعمل بالجرار والفخار أن ينقذه من السقوط في هاوية الضلالة . فاشركه في حرفته وكان أبو العتاهية ذكياً يتردد الى حلقات العلماء والادباء ونسج في نظم الشعر وهو في مقتبل العمر . وكان الأحداث والمتأدبون يأتون اليه فينشدهم أشعاره . ويكتبونها على ما تكسر من الخزف . وبعد زمن قصير رفض هذه المهنة وتركها . وكان يقول : « أنا جدار القوافي . وأخي جرار التجارة » (٣٩)

(٣٧) الأغاني ٤ ، ٣ .

(٣٨) ينظر معجم البلدان ٤ ، ٢٦ .

(٣٩) الأغاني ٤ ، ٢٥ .

نزعت نفس أبي العتاهية الى مخالطة الشعراء المجان والتردد الى محلات المغنين والقيان . واكتسب أنذاك صديقاً أخلص له الود وهو المغني ابراهيم الموصلي . وقد اصطحبه عندما جاء الى بغداد . ولم يفلح أبو العتاهية من هذا المعجى . ولم تفتح له أبواب البقاء . فعاد الى الكوفة بعد أن عرج في طريقه الى الحيرة . ووقع بصره على فتاة ذات حسن وجمال تسمى « سعدى » مولاة عبد الله بن معن بن زائدة . تهله بها . ونظم فيها شعراً غزلياً رقيقاً . ولكنها أعرضت عنه . ولم تأبه به . وحينما علم مولاها بذلك نهأ عنها . ولكنه لم يتمثل للنهي . وهجاه هجاءً موجعاً . فقبض عليه وضربه مئة سوط وأسكته من هذا التغزل .

جر أبو العتاهية أذيال الخيبة والفشل الى الكوفة . ولم يمكث فيها طويلاً . اذ جاءه طلب من صديقه ابراهيم الموصلي بالتوجه الى بغداد . فاستجاب له . ونظم قصيدة في مدح الخليفة المهدي نالت رضاه . وبذلك انفتحت له أبواب الشهرة . ونال بعدها جوائز الولاة والقواد . أحدهم عمر بن العلاء الذي وصله على قصيدة واحدة سبعين ألف درهم (٢١٠)

وفي البلاط العباسي رأى جارية جميلة فتانة تسمى « غتبة » . فتابعها . ولاحقها . ونظم شعراً رقيقاً يحاول به أن ينفذ الى قلبها وينالها . من ذلك قوله (٢١١) :

ياغْتَبُ سَيِّدَتِي ! أَمَا لِكَ دِينُ ؟ حَتَّى مَتَى قَلْبِي لَدَيْكَ رَهِينُ ؟
وَأَنَا الذَّلُولُ لِكُلِّ مَا حَمَلْتَنِي وَأَنَا الشَّقِيَّ البَائِسُ الْمَسْكِينُ
وَأَنَا الْغَدَاةُ لِكُلِّ بَاكِ مُنْعَدٌ وَلِكُلِّ صَبِيٍّ صَاحِبٍ وَخَدِينِ
لَا بَأْسَ . إِنَّ لِدَاكَ عِنْدِي رَاحَةً لِلصَّبِّ أَنْ يَلْقَى الْحَزِينَ حَزِينِ
يَاغْتَبُ ! أَيْنَ أَفْرُ مِنْكَ . أَمِيرَتِي ! وَعَلَيَّ حِصْنٌ مِنْ هَوَاكِ حَصِينِ

لم تكن غتبة تجيبه . بل كانت تكرهه وتزدرجه . وفي أول الأمر هم المهدي أن يدفع غتبة اليه . فجزعت وقالت : « يا أمير المؤمنين . أستجير في مروءتك وشرفك وما يلزمك من حق خدمتي وصحبتى أن تخرجني من دار النعمة الى بائع جزار .

(٢٤٠) زهر الآداب ١١ : ٢٢٤ .

(٢٤١) ديوانه ص ٤٥٨ .

سوقِي ، دنيء النفس ، وبعد ، فانما يريد الذكر والشهرة ، وليس بعاشق « (٢٢٢) .
فأغافها ، ولم يمثل أبو العتاهية لهذا القرار ، ومضى يتغزل بها ، وضربه المهدي
مئة سوط لقوله :

ألا إن ظبياً للخليفة صادني ومالي على ظبي الخليفة من غدو
وقال : أبي يتمرّس ، ولحرمي يتمرّض ، وبنسائي يعبث ؟ ونفاه الى الكوفة .
وبقي يذكر عتبة ويكني باسمها ، من ذلك قوله (٢٢٣)

قل لمن لست أمي ، بأبي أنت وأمي
بأبي أنت لقد أص ، بحت من أكبر همي
ولقد قلت لأهلي ، إذ أذاب الحب لحمي
وارادوا لي طبيباً ، فاكثفوا مني بعلمي
من يكن جهل ما ألقى ، فإن الحب سقمي
إن روحى لسبغدا ، ذ وفي الكوفة جسمي

وشفع له المهدي ، بواسطة يزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، وعاد الى
بغداد ، وبقي على حبه لعتبة ، وبعد وفاة المهدي ثم الهادي ، تقدّم لطلبها ، وحاول
الخليفة الرشيد أن يستميلها اليه ، ولكنها أبث وقالت : « أنا أمك ، وأمرك نافذ
في ، ما خلا أمر أبي العتاهية (٢٢٤) ... » وبكت بين يديه ، فرق لها ، ورحمها ،
وانصرف عنها ، ولما سمع أبو العتاهية الخبر يس منها وعلم أنها لاتحبيبه ، وقال في
ذلك قصيدة أولها : (٢٢٥)

قطعت منك حائل الآمال وحططت عن ظهر المطي رحالي
ويست أن أبقى لشيء نلت مما فيك يادنيا ، وأن يبق لي
فوجدت بزّ اليأس بين جوانحي وأرحت من حلبي ومن ترحالي

وهكذا انتهت المحاولة الأخيرة ، وانسد الستار عليها . وقد قام الشك حول هذا
الحب الضائع ، ونحن نرجح أنه أحب عتبة وإن ذهب فريق من الدارسين الى أنه مثل
دور المحب العاشق المدله بالفراق كي يتحدث الناس بأمره .

(٢٤٢) طبقات الشعراء ص ٢٢١ .

(٢٤٢) زهر الآداب ، ١ ، ٢٢٧ .

(٢٤٤) مروج الذهب ، ٢ ، ٢٥٧ .

(٢٤٥) ديوانه ص ٢٢٥ .

وبعد انصرافه عن عُتْبة ، وانقطاعه عن التغزُّل بها . بقي ملازماً لدار الخلافة ، وكانت الأموال تأتيه بسخاء ، فإن الخليفة الرشيد كان يُجري عليه كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعادن (٢١٦) ، ومن بعده المأمون كان يُجري عليه عشرين ألف درهم (٢١٧) وكان الى جانب هذا يجري الحسن بن سهل عليه ثلاثة آلاف درهم كل شهر (٢١٨) ... فضلاً عن الهدايا والهبات الأخرى . ومع هذا الثراء والمال الكثير كان بخيلاً غاية البخل ، وكان يحاول أن يدفع عن نفسه البخل والشرهة في جمع المال بطرق شتى ، وله نوادر طريفة نجدها في ترجمته في الأغاني وتاريخ بغداد ومروج الذهب .. ومن أطرفها أنه يدعو الى التمتع بالمال وانفاقه في قوله : (٢١٩)

إذا المرء لم يُعْتَقْ من المَالِ رَقَّةً تملكه المَالُ الذي هو مالِكُهُ
ألا انما مالي الذي أنا مُنْفَقُ وليس لي المَالُ الذي أنا تَارِكُهُ
إذا كنتَ ذا مالٍ ، فبادِرْ به الذي يحقُّ ، وآلا استهلكته هوالِكُهُ

لقد حدث تحوُّل كبير فجأة في حياة أبي العتاهية ، إذ نراه ينقطع عن مجلس الرشيد ، ويضرب عن قول الشعر في الحبِّ . ويلبس ملابس الصوفية ، في سنة ١٨٠ للهجرة وهو في الخمسين من عمره . ويدعوه الرشيد الى استئناف خدمته والعودة الى ماكان يصنع له من رفاق الغزل ، فيأبى ، فيأمر بحبسه والتضييق عليه ، فينظم قصيدة مطلعها (٢٢٠)

أما والله إن السظلمَ لوُمُ ولكنَّ المسيُّ هو الظلومُ
وفي ختامها يقول :
ألا يا أيها الملكُ أُرْجَى عليه نواهضُ الدنيا تحومُ ،
أقلني زلَّةً لم أجرمها الى اوم . روما مثلي ملومُ
وخلصني تخلُّص يومٍ بعث إذا للناس بُرِّزَت الجحيمُ
رقاً له الخليفة وأمر باطلاقه . وقضى أخريات حياته بالزهد والتوبة والاستغفار . والدعوة الى مكارم الأخلاق . الى أن قضى نحبه سنة ٢١١ هـ على أرجح الآراء (٢٢١)

(٢٤٦) الأغاني ١٤ ، ٦٢ .

(٢٤٧) الأغاني ١٤ ، ٥٢ .

(٢٤٨) الاغانى ١٤ ، ٨٩ .

(٢٤٩) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢٥٠) ديوانه ص ٢٩٨ .

(٢٥١) ينظر أبو العتاهية حياته وشمعه ص ١٥٨ .

تهمة الزندقة

ذكرنا سابقاً أن الزندقة كانت حركة كبيرة في العصر العباسي ؛ لذلك حاربها الخليفة المهدي ومن جاء بعده ، وقد اتهم عددٌ من الشعراء بهذه التهمة ، وكان أبو العتاهية واحداً منهم . ويبدو أن تهمة لعنوا شخصية ، لأن ما قيل عنه لم ينهض دليلاً قاطعاً على زندقته .

ونورد هنا أهم التهم ، قال محمد بن أبي العتاهية : « لما قال أبي في عُتْبَة :

كَأَنَّ عَتَابِيَةَ مِنْ حَسَنِيهَا دَمِيَّةٌ قَسِرَ فَتَنَتْ قَسُهَا
يَارِبُّ لَوْ أَنْسَيْتِيهَا بِمَا فِي جَنَّةِ الْفَرْدُوسِ لَمْ أَنْسَهَا
شَنَعَ عَلَيْهِ مَنْصُورُ بْنُ عُمَارٍ بِالزَّنْدَقَةِ ، وَقَالَ : يَتَهَاوَنُ بِالْجَنَّةِ وَيَبْتَدِلُ ذِكْرَهَا فِي

شعره بمثل هذا التهاون ، وشنَّعَ عَلَيْهِ أَيْضاً قَوْلُهُ :

إِنَّ الْمَلِيكَ رَأَى أَحَدًا سَنَ خَلْقِهِ وَرَأَى جَمَالَكَ
فَحَذَا بِقُدْرَةِ نَفْسِهِ حَوْرَ الْجِنَانِ عَلَى مِثَالِكَ

وقال : أَيْصُورُ الْحَوْرَ عَلَى مِثَالِ امْرَأَةِ آدَمِيَّةٍ ، وَاللَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثَالٍ ، وَأَوْقَعَ لَهُ هَذَا عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَامَّةِ ، فَلَقِيَ مِنْهُمْ بِلَاءً « (٢٥٢)

ان التهمة واضحة ، لأن الأبيات ماهي إلا مبالغات أدبية .

وقال أبو الفرج الأصبهاني في التهمة الثانية ، « وكان قوم من أهل عصره ينسبونهُ إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتججون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر التشور والمعاد » (٢٥٣) .

إن من يطالع ديوان أبي العتاهية يظهر له بجلاء افتراء هؤلاء القوم لما فيه من ذكر التوحيد وذكر البعث ، والاقرار بالجنة والنار ، والوعد والوعيد .

وفي تهمة ثالثة قال أبو الفرج الأصبهاني (٢٥٤) : « قال محمد بن أحمد بن حرب : « كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد . وأن الله خلق جوهرين متضادين لا

(٢٥٢) الألهاني ٥١٠٤ .

(٢٥٣) الألهاني ٢٠٤ .

(٢٥٤) الألهاني ٥٠٤ .

من شيء . ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ... وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل أن تفتى الأعيان جميعاً . وهذا القول يوافق ما قاله ابن المعتز عن أبي العتاهية : « والذي يصح لي أنه كان ثنويّاً » (٢٥٥) ، ويبدو أنه نظر الى أرجوزته التي تقول فيها (٢٥٦)

لكل شيء معدنٌ وجوهرٌ وأوسطٌ وأصفرٌ وأكبرٌ
 وكل شيءٍ لاحقٌ بجوهره أصفره مُتَّصِلٌ بأكبره
 الخَيْرُ والشَّرُّ بها أزواجٌ لذا نحتاجُ ولذا نحتاجُ
 لكل إنسانٍ طبيعتانِ خَيْرٌ وشَرٌّ وهما ضدانِ
 والخَيْرُ والشَّرُّ اذا ماعدًا بينهما بونٌ بعميدٍ جدًّا

إن أبا العتاهية - في ظننا - لم يكن زنديقاً ، وإنما كان في أول أمره محيراً مذذباً ثم استقر بعد ذلك على الايمان بالله وباليوم الآخر ، وهاهو ذا يقسم : « والله ما ديني إلا التوحيد » (٢٥٧) . وقد أصاب الدكتور محمد مصطفى هدارة في قوله (٢٥٨) : « الواقع اننا نؤمن ايماناً وثيقاً بأن أبا العتاهية ليس زنديقاً ولا كافراً ولكنه يؤمن ايماناً لا يتطرق اليه الشك . وكل ما في الأمر أنه رجل عاش وسط تيارات من الفلسفات المختلفة والمذاهب المتباينة ، فتأثر بها لاتأثر الزنديق ولكن تأثر المؤمن . فهو يستخدم ما في الثنوية من فكرة الخير والشرب لتوضيح تيارها في نفس الانسان وفي العالم كله . ولكنه لم يتعد هذه الحدود وبذلك لم يتعد حدود الإسلام » .

زُهده :

عاش أبو العتاهية حياةً لاهيةً عابثةً . ثم عاف تلك الحياة بعد تجاوزه الخمسين من العمر . والتجأ الى الزهد وتقوى الله وعبادته . وقد اختلف الدارسون في هذا التحول . فقد رأى محمد خلف الله أن وراء زهد أبي العتاهية وتحوله من تيار اللهو والمجون الى الايمان وتقوى الله عاملين رئيسيين : أولهما : أحاسسه الدفين بضعة أصله . وهذا الاحساس النفسي حمله على أن ينادي بأن التقوى هي العز والكرم كما في قوله :

(٢٥٥) طبقات الشعراء ص ٢٢٨ .

(٢٥٦) ديوانه ص ٤٩٤ .

(٢٥٧) الأهلبي ١ ، ٢٥ .

(٢٥٨) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٦٩ .

دعني مبن ذكر أب وجد ونسب يُعليك نور المجد
مالفخر الأفي التقى والزهد وطاعة تعطى جنان الخلد

والعامل الثاني : حبه لعته الذي صهر مشاعره . وكان بلا أمل فصار بذلك حرماناً جديداً أضيف الى أسباب تنسكه . ويرى خلف الله أن صدمته في حبه لعته هي نقطة التحول الحقيقية في حياته (٢٠٩) . ويضيف الدكتور مصطفى هدارة عاملاً ثالثاً هو اتصاله بالثقافات المختلفة في عصره . ولا سيما حركة الزهد التي بدأت تأخذ طريقها في ذلك الوقت (٢١٠) . أما محمد بن برانق فقال : « ما كان شعره في الزهد لله ولكنه طريق سلكه في شعره لإظهار الحسرة والأسى على حبيته عتبه (٢١١) . وأنكر الدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي زهد أبي العتاهية ورأى أنه ضلل الباحثين والنقاد ما يقرب من اثني عشر قرناً . ولا يزال شعره في مدارسنا الثانوية بل وجامعاتنا يدرس على أنه منبعت عن زهد أو ما يشبه الزهد مع إنه أبعد الأشياء عن ذلك . وجعل أحد دوافع الزهد عند أبي العتاهية اتفاقية سرية بين الشاعر من جهة والفضل بن الربيع مع زبيدة من جهة أخرى . لإبعاد الرشيد عن مجالس الأئس والطرب والجواري منافسات زبيدة وإبعاد جعفر البرمكي عدو الفضل بن الربيع ونديم الرشيد على الشراب ... لقد كانت زبيدة تريد أن تجعل من الرشيد رجلاً عابداً زاهداً في كل شيء من الدنيا سواها . وأبو العتاهية وشعره وسيلتها الى ذلك (٢١٢) .

وهكذا حاول الكثيرون اخراج أبي العتاهية من حلبة الزهد ورميه خارجها ، مع انه - في رأينا - قد تزهد في أخريات عمره . وكف عن شهواته وصوباته . وهاهو ذا يقول مخاطباً الرشيد بعد اعتزال مجلسه وطرح اللهو والشراب والمنادمة جانباً ، « يا أمير المؤمنين ؛ إن الحسنات يذهبن السيئات . كنت أقول الغزل ولي شاب وجدة . وبني حراك وقوة . وأنا اليوم شيخ ضعيف لا يحسن بمثلي تصاب (٢١٣) . ان زهده جاء بعد ضعفه وكبره وشعوره بالندم على ما قدمت يده من معاص وأثام وأعمال منكرة . ويرى الدكتور محمد محمود الدش أنه تزهد حقاً بعد سنة مئتين للهجرة . أي بعد السبعين من العمر (٢١٤) .

(٢٥٩) دراسات في الادب العربي الاسلامي ص ٨٥ .

(٢٦٠) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٩٢ .

(٢٦١) أبو العتاهية ص ٢٦ .

(٢٦٢) الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ١٠٢ ، وأسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ٢٩ .

(٢٦٣) زهر الآداب ١ : ٢٢٩ .

(٢٦٤) أبو العتاهية ، حياته وشعره ص ١٥٩ .

كان أبو العتاهية ذا ثقافة واسعة . أتته من عدة روافد أوسعها الرافد الاسلامي .
وهذه الثقافة واضحة في شعره . فمثلاً مذكره المبرد في قول أبي العتاهية : (٣٠٥)

وقد يهلك الانسان من باب أمنه وينجو باذن الله من حيث يحذر

فهو متأثر بقوله تعالى : (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً
كثيراً) (٣١١) ومن تأثره بالحديث : (٣١٧)

إذا كنت في الدنيا بصيراً فإتما بلاغك منها مثل زاد المسافر

فهو مأخوذ من الحديث الشريف : « ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد المسافر » .
ومن تأثره بمن سبقه من الشعراء في قوله : (٣١٨)

يامن رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل
فهو مأخوذ من جميل بن معمر في قوله : (٣١٩)

خليلي . فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي ؟

كان ابو العتاهية مبكراً في نظم الشعر ومكثراً . حتى انه قال : « لو شئت ان أجعل
كلامي كله شعراً لفعلت » (٣٢٠) وقد شاهد ابن النديم من ديوانه في الموصل نيفاً
وعشرين جزءاً من ثلاثين . (٣٢١) وقال الخطيب البغدادي : « وهو أحد من سار
قوله . وانتشر شعره . وشاع ذكره . يقال : ان احداً لم يجتمع له ديوانه بكماله .
لعظمه » (٣٢٢) ولكن الذي بين أيدينا الآن من ديوانه مجلد واحد أغلبه في الزهد .
ونجهل الاسباب التي حالت بين ذلك الشعر الكثير وبين وصوله الينا .

(٣٦٥) الكامل ، ١ ، ٢٢٢ .

(٣٦٦) سورة النساء ، الآية ١٩

(٣٦٧) ديوانه ص ١٧٦ .

(٣٦٨) ديوانه ص ٢٨٦

(٣٦٩) ديوان جميل بثينة ص ٧٢ .

(٣٧٠) الاغانى ٤ ، ١٢ .

(٣٧١) الفهرست ص ٢٢٧ .

(٣٧٢) تاريخ بغداد ١٦ ، ٢٥٠ .

استهل أبو العتاهية حياته الشعرية بالفزل . ولعل في قول الدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي شيئاً من المبالغة : « انه أعظم شعراء الحب في عصره » (٣٣) . ان غزله عفيف ورقيق له « من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الضمان » (٣٤) . وأغلب ما وصل الينا منه في عتبة جارية المهدي ووصيفة الخيزران . وقد سُجِرَ بها حينما رآها لأول مرة ماضية الى السوق . وأخذ يستعطفها ويتودد اليها . ويتوسل لها . بشعر سهل لطيف عذب . مثل قوله : (٣٥)

عيني على عتبة منهلةً بدمعها المنسكب السائل
 كأنها من حسنها . ذرةً أخرجها اليمم الى الساحل
 كأن في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلن من بابل
 لم يُبق مني حبها . ما خلا حشاشة في كبيد ناحل
 وكان صد عتبة وردّها ودلالها يزيد جذوة حبه . ويثير في نفسه الالم والحرة .
 ويدفعه الى نظم الشعر شاكياً : (٣٦)

الله بيني وبين ظالمتي طلبت منها وصالها فأبى
 ماذا عليها لو أنها بعثت منها رسولاً اليّ أو كتبت ؟
 رغبت في وصالها . وقد زهدت عتبة في وصالنا وما رغبت

ان بساطة شعره وطريقته في التوجع وفي التعجب وفي النداء والدعاء أشبه بطرق النساء . وهذا مادفع الاقدمين الى القول : انه يحمل زاملة المخشيين . (٣٧) . وقد سئل بشار بن برد : من أشعر أهل زماننا ؟ فقال : مخنث أهل بغداد (يعني أبا العتاهية) . (٣٨)

وللمديح نصيب لا بأس به في شعر أبي العتاهية . اذ سخره للوصول الى ابواب الخلفاء والولاة والقواد والحصول على الاموال الكثيرة منهم . وكان يهز أريحيتهم

(٣٣) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ١٣٧ .

(٣٤) طبقات الشعراء ص ٢٢٠ .

(٣٥) ديوانه ص ٢٨٦ .

(٣٦) مروج الذهب ٢ ، ٤٥٢ .

(٣٧) الاطالبي ١٠٤ ، وينظر ابو العتاهية حياته وشعره ص ٢٠٦ .

(٣٨) الاطالبي ٢٣٠٤ .

لأنه يعرف كيف يتخير الأفكار القريبة الى نفوسهم بعيون القول ، واليك هذه
الآيات في مدح الخليفة المهدي لترى مدى دقته في اصابة هدفه: (٣٨١)

أنته الخلافة مُنقادة إليه تجرُّ أذياله
ولم تك تصلح الآله ولم يك يصلح الآ لها
ولو رامها أحدٌ غيرهُ لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تُطعمه بناتُ القلوب لما قبل الله أعمالها

وكان الخليفة الرشيد يُقرِّبه ويرعاه ويصحبه ويملاً يديه مالا . ولذلك كثرت
مدائحه فيه . ومن جيد شعره الذي تتجلى فيه مظاهر القوة في الصياغة قوله: (٣٨١)

جری لك من هارون بالسعد طائرهُ
امام له رأي حميد ، ورحمة
هو الملك المجلول نفساً على التقى
مادةٌ مَحمودة ومصادرة
ليغمد سيف الحرب ، فالله وحده
مُسلمةٌ من كل سوء عساكرهُ
وهارون ماء المزن يشفي من الصدى
ولئى أمير المؤمنين وناصرهُ
وأوسط بيت في قريش لبيته
اذا ما الصدى بالريق غصت حناجرهُ
وتحكي الرعود القاصفات حوافرهُ
وَأوسط بيت في قريش لبيته
إذا حميت شمس النهار تضاحكت
وتحكي البروق سيوفهُ
اذا نكب الاسلام يوماً بنكبة
لقد بُلغت ما قال
ولا بى العتاهية شعر في الهجاء ولكنه قليل ، يغلب عليه الافتراء ، والتهكم
والسخرية والطعن في الرجولة ، ولا سيما هجاؤه لمن بن زائدة الشيباني الذي منعه
من التشيب بجاريته شعدي ، من ذلك قوله: (٣٨٢)

لقد بُلغت ما قال
فلو كان من الأسد
وما تصنع بالسيف
فصغ ما كنت خلليت
فما بالبيت ما قال
لما راع ولا هالا
اذا لم تك قتالا
به سيفك ، خلخالا

(٣٧٩) ديوانه ص ٣٧٥ .

(٣٨٠) بنات القلوب ، الذ ...

(٣٨١) ديوانه ص ٣١٢

(٣٨٢) ديوانه ص ٣٨٠ .

وكان معن بن زائدة يتألم ويتوجع من هذا الهجاء ويقول : « ما لبست سيفي قط فرأيت انساناً يلمحني إلا ظننت انه يحفظ قول ابي العتاهية في . فلذلك يتألمني فأخجل » (٢٨٢) .

والباب الواسع في شعره هو الزهد . وقد رأينا كيف انصرف الى نظمه بعد كبره واعتلاء الشيب مفرقه . ورجحنا انه تاب توبة صادقة لاريب فيها . وكان كما قال ابو الفرج الاصبهاني : « يحج في كل سنة » (٢٨١) . والحج آنذاك لم يكن سهلاً ميسوراً وانما له متاعب جملة لا يتحملها الا المؤمن الصبور الذي أتى الله بقلب سليم .

أدرك ابو العتاهية ان المرء الى فناء . وأن وراءه حساباً عسيراً . لذلك زهد في الدنيا بعد أن سعى فيها الى طلب اللذة والمتعة وعكف على بهرجتها وزينتها . وقد ذكر خلاصة رؤية في الحياة في قوله : (٢٨٥)

طلبتك يادنيا . فأعذرت في الطلب فما نلت إلا الهمة والغمة والنصب
فلما بدا لي أنني لست واصلًا الى لذة إلا بأضعافها تعبت
وأسرعت في ديني . ولم أقض بغيتي هربت بدينني منك . أن نفع الهرب
تخليت مما فيك جهدي وطاقتي كما يتخلى القوم من عرة الجرب
هكذا وجد الحياة . هم وتعب . وعم ونصب . لذلك فر منها الى عالم العبادة
والزهادة ويبدو أن السهام التي رمى بها من المبغضين والحاسدين آذته وزادته نفرة
وفراراً من الواقع الذي كان يعيش على أرضه . وقد عبر عن ذلك في قصيدة
منها : (٢٨٦)

فيارب . إن الناس لا ينصفونني وإن أنا لم أنصفهم ظلموني
وإن كان لي شيء تصدوا لأخذه وإن جئت أبغي شيئهم منعوني
وإن نالهم ريفي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن وجدوا عندي رخاء تقرّبوا وإن نزلت بي شدة خذلوني
وإن طرقتي نكبة فكهّوا بها وإن صحبتني نعمة حسدوني

(٢٨٣) الاطاني ٤ ، ٢٧

(٢٨٤) الاطاني ٤ ، ٥٢

(٢٨٥) ديوانه ص ٤٩ .

(٢٨٦) ديوانه ص ٤١٥

لقد دعا أبو العتاهية في شعره الزهدي إلى محاسن الأخلاق . وحميد الفِعال .
وصالح الأعمال . وكان آخر ماقاله في مرضه الذي مات فيه : (٢٨٧)

إلهي ، لاتعذّبني . فإنني مقرر بالذي قد كان مني
ومالي حيلة . إلا رجائي وعفوك . إن عفوت . وحنّ ظني
فكم من زلّة لي في البرايا ولأنت عليّ ذو فضلٍ ومن
إذا فكرت في ندمي عليها عضضت أناملِي . وقرعت سني
يظنّ الناس بي خيراً . وأنّي لشرُّ الناس . إن لم تعف عني

إن شعر أبي العتاهية . في كل أغراضه . سهل وواضح وسلس . وبلا تعثر في
مظاهر الصنعة او الزخرف . قال مصعب بن عبدالله حينما سمع الأبيات الآتية . من
شعره

طـوالٍ ايّ امـالٍ	تمـلّقت بآمالٍ
مـلحاً أيّ اقـبالٍ	وأقبلت على الدنيا
فـراقٍ الأهل والمال	أيا هذا . تـجهّز لـ
على حالٍ من الحـال	فلا بد من الموت

« هنا كلام سهل حق . لا حشو فيه ولا نقصان . يعرفه العاقل . ويقرّ به
الجاهل » (٢٨٨) لقد تقصد ابو العتاهية هذه الطريقة . اي طريقة السهولة والوضوح
والسلاسة . وأرادها لنفسه ؛ فالشاعر في رأيه يجب « أن تكون الفاظه مما لا تخفى
على جمهور الناس » (٢٨٩) . وهذا الشيء دفع نكلسون الى القول : « ان أبا العتاهية
قد برهن لأول مرة في تاريخ الادب العربي . وربما كان لآخر مرة ايضاً . انه في
استطاعة المرء ان يستعمل لغة عادية . وواضحة تمام الوضوح . وتظل له رغم ذلك
مكانته بين الشعراء » (٢٩٠)

والى جانب السهولة والوضوح وسلاسة الاسلوب كان ابو العتاهية « يباشر المعنى
مباشرة . ويقصد اليه قصداً . لا يختار لذلك واسطة من صورة أو غيرها . مما أوع
به شعراء العصر الذي عاش فيه . إلا ان تأتيه عفواً في غير كد » . (٢٩١) وهذه الحقيقة

(٢٨٧) ديوانه ص ٤٢٥ .

(٢٨٨) الأغانى ١٠٠٤ . وينظر ديوانه ص ٢٤٦ .

(٢٨٩) الأغانى ٧٠٤ .

(٢٩٠) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ١٥٤ .

(٢٩١) تاريخ العصر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٢٨٩ .

واضحة للعيان في شعره عموماً . وللتأكد من ذلك نورد هنا الخبر . روى ابو الفرج الاصفهاني أن ابا العتاهية مدح عمر بن العلاء . وهو من اصحاب الخليفة المهدي . « فأمر له بسبعين الف درهم . فأنكر ذلك بعض الثمراء وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفي ؟ وأي شيء مقدار شعره ؟ فبلغه ذلك . فأحضر الرجل وقال له : والله إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه . ويتعاطاه فلا يحسنه . حتى يشيبَ بخمسين بيتاً . ثم يمدحنا ببعضها . وهنا كأن المعاني تجمع له . مدحني فقصر التشبيب وقال :

اني أمنتُ من الزمان وريبه لما علقْتُ من الأمير حبالا
 أن المطايا تشتكيك لأنها قطعت اليك سباباً ورمالا
 فاذا ورذن بنا ورذن مخفة واذا رجفن بنا رجفن ثقالا (٣٢)

لقد عرف ابو العتاهية اختيار الطريق الذي يوصله الى ما يريد . وحسناً قال حينما سُئل : « كيف تقول الشعرَ : قال : ما أردته قط إلا مثل لي . فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد » (٣٢)

(٢٩٢) الاغانى ٤ : ٢٨ .

(٢٩٣) الاغانى ٤ : ١٣ .

مسلم بن الوليد

١٤٠ - ٢٠٨ هـ

اسمه وكنيته ولقبه :

هو مسلم بن الوليد ، ويكنى بأبي الوليد ، ويلقب بصريع الغواني . وهذا اللقب كان الرشيد قد أطلقه عليه حين سمع قصيدته الغزلية الخمرية التي يقول فيها ،

سَأَنْقَاذُ لَلذَّاتِ مَتَّبِعِ الصُّبَا لَأَمْضِيَ هَمِّي أَوْ أَصِيبَ فَتَى مِثْلِي
هَلِ الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرَوْحَ مَعَ الصُّبَا وَتَغْدُو صَرِيحَ الْكَأْسِ وَالْأَعْيُنِ النَّجْلِ؟
قال له : أنت صريع الغواني ، فسُمِّي بذلك حتى صار لا يعرف إلا به (٣١٠) .
وفي رواية أخرى : ان رجلاً سأل مسلم بن الوليد : لم تدعى صريع الغواني ؟ فأنشأ يقول (٣١٠) :

إِنَّ وَرْدَ الْخُدُودِ وَالْأَعْيُنِ النَّجْدِ لِي وَمَا فِي الثُّغُورِ مِنْ أَقْحَوَانٍ
وَاعْوِجَاجِ الْأَصْدَاغِ فِي ظَاهِرِ الْخَمْرِ..... وَمَا فِي الصُّدُورِ مِنْ رُفَّانٍ
تَرَكْتَنِي بَيْنَ الْغَوَانِي صَرِيحاً فَلِهَذَا أَدْعَى صَرِيحَ الْغَوَانِي
إِنَّ هَذَا اللَّقْبَ الَّذِي شُهِرَ بِهِ يَنْطَبِقُ عَلَيَّ . إِذْ كَانَ زَيْرَ نَسَاءٍ . وَيُرَدِّدُ كَثِيراً فِي شَعْرِهِ
كَلِمَةَ الصَّرِيحِ وَمَا أَشْبَهَهَا . وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ رَاضِياً مَزْهُواً بِهِ .

سيرته :

ولد مسلم بن الوليد في الكوفة سنة ١٤٠ للهجرة ، من أسرة تُنسب إلى الأنصار . وكان أخوه الأكبر سليمان الأعمى شاعراً جيداً وصديقاً نديماً لبشار بن برد . وكان له أثر كبير في نشأته وتوجيهه إلى درب الأدب .

تعلم مسلم بن الوليد في الكوفة ، واختلف إلى البصرة ، وسمع كبار رجال النحو واللغة والأدب والرواية ، وحفظ القرآن الكريم ، والشعر القديم ، والخطب والأمثال ... حتى أصبح واحداً من أعلام الأدب آنذاك . قال الجاحظ : « من الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعرَ الجيدَ والرسائلَ الفاخرةَ مع البيان الحسن

(٢٩٤) طبقات الشعراء ص ٣٣٥ ، تاريخ بغداد ١٢ ، ٩٧ ، ديوانه ص ٣٣ .

(٢٩٥) ديوانه ص ٣٤٢ .

كلثوم بن عمرو العتّابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى الفاظِهِ وحذوه ومثاله في البديع يقول جميعٌ من يتكلّف مثل ذلك من شعراء المولّدين . كنحو منصور النّمري ، ومسلم بن الوليد الأنصاري « (٣١١) » .

جذبت بغداد الكثيرين من الأدباء والعلماء . وكان مسلم بن الوليد شأنه شأن معاصريه تواقاً الى الترف واللهو والمال . فارتحل إليها . ولم يمش وقت طويل حتى سطع نجمة في سماء الأدب . ودعته مجالس الخلفاء والوزراء والقواد . ونال الهدايا والأعطيات . ويقال : إنه كان يربح ألف درهم في العام وكان متلاًفاً ينفق ما تجود به أيدي الكرماء على ملذاته وأصحابه الذين يتسامرون معه .

ولم يدم على حياة اللهو والشرب ، إذ نراه يُغيّرُ هذه الحياة . ويقطع عن درب الغواية والعمث بعد وفاة زوجته . يقول أبو الفرج الأصبهاني (٣١٧) : « كانت لمسلم بن الوليد زوجةٌ من أهله . كانت تكفيه أمرّةً وتسرّه فيما تليه له منه . فماتت . فجزع عليها جزعاً شديداً . وتنسك مدة طويلة . وعزم على ملازمة ذلك . فأقسم عليه بمض إخوانه ذات يوم ان يزوره . ففعل . فأكلوا وقدموا الشراب . فامتنع منه مسلم . وأنشأ يقول :

بكاءٌ وكأسٌ . كيف يتّفقان ؟ سبيلهما في القلبِ مختلفانِ
دعاني وإفراط البكاءِ فإنّسي أرى اليوم فيه غير ما تريانِ
غدّت والثرى أولى بها من وليها إلى منزلٍ ناهٍ لعينيكِ داني
فلا حزنٌ حتى تدرّف العين ماءها وتعترف الأحشاء للخفقانِ
وكيف بدفع اليأس للوجد بعدها وسهماهما في القلبِ يمتلجانِ »

لقد أحسن في هذه الأبيات وأجاد ، لأن معانيها صادرة من أعماقه . تنطق صدقاً . وتتحدث عن ألم كبير ومأساة فادحة أصابته وأوجعته وتركته بلا قرين وأليف .

تولى مسلم بن الوليد في أخريات أيامه بريدَ جرجان . وبقي فيها مستقراً على شاطيء بحر الخزر ، وكان يتشوق الى بغداد ويحنّ لها . وقد أحسن بالفربة ورأى ذات يوم نخلةً فبعثت شجونةً ودكرته بنخيل العراق كما دكرت نخلة الأندلس

(٣١٦) البهتان والعيون ٥١٠١ .

(٣١٧) الأغانى ٩٠١٩ .

عبدالرحمن الداخل بوطنه في المشرق في أبيات مشهورة له ، (٣٨) قال مسلم وكأنه
يكي على حاله ويرثي نفسه ، (٣٩)

ألا يانخلة . بالشـفـح مـن أكـنـافـجـرجـان
ألا إنـي وإيـكـبـجـرجـانـغـريـبـان

وقيل : لما احتضر وهو بجرجان نظر إلى نخلة وقال هذين البيتين ، ولي داعي
ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

شعره :

نال مسلم بن الوليد إعجاب الدارسين والنقاد ، وجعلوه في منزلة رفيعة ، فهذا
ابن رشيقي يقول : « سمعتُ جملةً من العلماء يقولون مسلم بن الوليد نظير أبي
نواس ، وفوقه عند قوم من أهل زمانه في أشياء » (١٠٠) ، ويُفضله الأمدى على أبي تمام
« لسلامة شعره ، وحسن سبكه ، وصحة معانيه » (١٠١) ، وهو في نظر المرزباني
« شاعر مفلح مستخرج للطيف المعاني بحلو الألفاظ » (١٠٢) .

طرق مسلم بن الوليد أغلب موضوعات الشعر من مديح وغزل ووصف وثناء
وهجاء ... وكان مجوداً فيها ، مُبدعاً في صياغتها ، مُتفناً في تركيبها . وقد بهر محبي
الأدب منذ عصره ، ذكر أبو الفرج الأصبهاني ان جملة من الأدباء والنقاد اجتمعوا
يوماً عند الخليفة المأمون « فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم ، أين
أنت يا أمير المؤمنين عن مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث
يقول وقد رثى رجلاً :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر
وحيث مدح رجلاً بالشجاعة فقال :
يجود بالنفس إذ ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وهجا رجلاً بقبح الوجه والأخلاق فقال :

(٢٩٨) ينظر ، دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٠١ .

(٢٩٩) ديوانه ص ٢٤٢ .

(٤٠٠) الصفحة ١١١ .

(٤٠١) الموازنة ص ١١ .

(٤٠٢) معجم الشعراء ص ٢٧٧ .

قَبِحَتْ مَنَازِرُهُ فَحِينَ خَبِرْتَهُ حَسُنَتْ مَنَازِرُهُ لِقُبْحِ الْخَبْرِ
وَتَفَازَلْ فَقَالَ .

هُوَ يَجِدُ وَحَبِيبٌ يَلْعَبُ أَنْتَ لَقِيَ بَيْنَهُمَا مُغْتَبٌ
فَقَالَ الْمَأْمُونُ : هَذَا أَشْعَرُ مِنْ حُضْمِ الْيَوْمِ فِي ذِكْرِهِ « (١٠٣) .

كان مسلم فارساً مجلياً في المديح ، يصبُّ جُلَّ طاقته وموهبته في إبداعه وإخراجهِ
في صورة مثلى . وكأنه أمام امتحانٍ صعبٍ ، ومثالٌ على ذلك قصيدته اللامية التي
يبلغ عدد أبياتها تسعة وسبعين بيتاً ، وهي من عيون قصائده في مدح يزيد بن
مَرْزِدِ الشيباني ، قائد الرشيد المشهور الذي أثنى الجراح في الأعداء وانتزع النصر منهم
بجلده وصبره وقوة إرادته وشدة مناجزته . منها قوله : (١٠٤)

يرمي الفوارسَ والأبطالَ بالشُعْلِ إذا تَغَيَّرَ وَجَهَ الفارسِ البَطْلِ كأنه أجلُّ يَسْمَى إلى أَمَلٍ كالموتِ مُسْتَجَلًا يَأْتِي على مَهَلٍ كالبيتِ يُضْحِي إليه مُلتقى السُّبْلِ يقري الضيوفَ شحومَ الكومِ والبَزْلِ	يقشَى الوغى وشهابَ الموتِ في يده يفترُّ عندَ افترارِ الحربِ مبتسماً موفٍ على مَهْجٍ في يومِ ذِي رَهْجٍ ينالُ بالرفقِ ما يعيا الرجالُ به لايرحلُ الناسُ إلا نحوَ حُجْرَتِهِ يقري المنيَّةَ أرواحَ الكماةِ كما
ويجعلُ الهامَ تِجَانِ القنا الدُّبْلِ شوارعاً تتحدى الناسَ بالأجْلِ فهنَّ يتبعنهُ في كلِّ مُرتَحِلٍ لايأمنُ الدهرَ أن يَدْعَى على عَجَلٍ ولا يَمْسُحُ عينيهِ من الكُحْلِ	يكسو السيوفَ دمَاءَ الناكثينَ به يغدو فتغدو المنايا في أَسْنَتِهِ قد عودَ الطيرِ عاداتٍ وثَقَنَ بها تراءُ في الأمنِ في درعِ مضاعِفَةٍ لايَعْبَقُ الطيبُ خديهِ ومفرقَةٍ

إنها صورة رائعة ، مرسومة بكلمات محبوكة وعبارات مسبوكة ، تأخذ معانيها
بعضها برقاب بعض وكأنها سلسلة ذهبية قلدها الشاعر جيد البطل المدوح . وقد
تأثَّرَ بها أبو الطيب المتنبي حين مدح سيف الدولة الحمداني في قصيدة جاء
فيها : (١٠٥)

(١٠٣) الأُلهاني ، ١٩ ، ٢٤ .

(١٠٤) ديوانه ص ٩ .

(١٠٥) شرح ديوان المتنبي ، ٢ ، ٢٧٢ .

وقفتَ ومما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم

وكان مسلم يذوبُ صباةً في جمال النساء الأخاذ ، ويُعزُّرُ عنه بشعر رقيق ،
يسيل عذوبة ، ولا سيما في شعره الذي نقل فيه حديث الغواني اللواتي تغزلُ بهن ،
وهو يُذكرنا فيه بشعر عمر بن أبي ربيعة ، مثل قوله من قصيدة : (١٠٦)

وقد قالت لبييض أنساتٍ يصدن قلوبَ شبانٍ وشيبٍ ؛
أنا الشمس المضيئة حين تبدو ولكن لست أعرف بالمغيبِ
براني الله ربِّي إذ براني مبرأةً سلمتُ من العيوبِ
فلو كلمتُ إنساناً مريضاً لما احتاج المريضُ إلى الطبيبِ
فقلن لها : صدقت فهل عطفتمُ على رجلٍ يهيمُ بكم كئيبِ
غريبٍ قد أتاك فأطلقيه فإن الأجرَ يُطلبُ في الغريبِ
فقلتُ ، قد بدت منه هناتٌ وقد تبدو الهناتُ من المريبِ
وصلناه فكلمنا « بسخر » كذلك كلُّ ملأٍ خلوبِ (١٠٧)
وما ظلمت ولكننا ظلمنا فقد تبنا إليها من قريبِ
غفرتُ ذنوبها وصفحنا عنها فلم تصفح ولم تغفر ذنوبي

لم يكن مسلم بن الوليد مجيداً في المديح والغزل فحسب وإنما كان مجيداً في
كل الفنون الشعرية ، فله شعر جميل في الوصف ، ولا سيما في وصف الخمرة ،
ووصف الروض ووصف السفينة التي جعلها وسيلته في الوصول الى المدوح بدلاً من
الناقة ، وكذلك كان محسناً في الرثاء والتعبير عن الحزن بحرارة وقد عدَّ النقاد بيته
الذي مرَّ بنا في بداية حديثنا عن شعره أرثى بيت .

وقصارى القول ، إن مسلم بن الوليد من الشعراء الأذكياء المبدعين الذين جمعوا بين
جزالة القدامى ورقة المحدثين ، وبصياغة لطيفة وموسيقى محببة ، وإن قيل أنه « أول
من وسعَ البديع وحشابه شعره (١٠٨) » ، فإن صورةً التي زينها بالبديع والبيان لم
تكن قبيحة أو مستكرةً كما سنرى عند شعرائنا المتأخرين .

(١٠٦) ديوانه ص ١٩١ .

(١٠٧) كلنا بسخر ، أي صالحه مبهراً ، وليس اسمي ، وكذلك يفعل كل ملأٍ خلوبٍ
والخلوب ، الصدوع ؛

(١٠٨) طبقات المعراء ص ٢٢٥ .

أبو تمام الطائي

١٨٨ - ٢٢١ هـ

اسمه ومولده :

هو أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس ، وتمام ابنه ، ولد بقرية « جاسم » على يمين الطريق الممتد بين دمشق وطبرية . وقد اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها ، ولعل سنة ١٨٨ للهجرة أقرب الى الصحة ، لأن أكثرهم يرجحون هذا التاريخ ومنهم ابنة تمام ، فيقول : « ولد ابي سنة ثمانٍ وثمانين ومئة . ومات سنة احدى وثلاثين ومئتين » (١٠٩)

نسبه :

انّ الخلاف في نسبه وأصله كبير ايضاً ، فقد ذكر ابو الفرج الاصبهاني ان أبا تمام من نفس طبقى صليئة ، واسمه حبيب بن أوس ، (١١٠) وعدّد ابن خلكان جدوده وأوصله الى يعرب بن قحطان ، (١١١) وقيل : انّ أباه كان رجلاً نصرانياً يدعى تدوس فخره ابو تمام الى أوس وانتسب الى طيء ، وذهب مرجليوث وطه حسين الى أنه تيودوس ، وهو اسم يوناني ، وكان هذا نصرانياً يبيع الخمر في دمشق وأن ابنه نشأ في حجرة نشأة نصرانية ، ولكنه أسلم وترك دمشق وذهب الى مصر فأقام فيها فترة . (١١٢) وانكر البهيتي نصرانية ابيه وقال : « دعك من نصرانية ابيه ، فما كانت الا افتراء خصوم ابي تمام » . (١١٣)

ان نصرانية أبيه - ان صحّت - لاتنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيء ، وانه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجلوا لها في عصره امجاداً حربيةً ، مما يدل على أنه طائي وعربي أصيل . (١١٤)

(٤٠٩) لوزة الألباء في طبقات الادهاء ص ١٠٨ ، وينظر اخبار ابي تمام للصولي ص ٢٧٢ .

وتهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ١٨١٤ ، ٣٦ .

(٤١٠) الاطائي ٢٨٢ ، ١٦ صليبة ، اي ليس من مواليها ولا حلفائها

(٤١١) وفيات الاعيان ١١٠٢ .

(٤١٢) من حديث الشهر والنشر ص ٩٢ ، وتُنظر مادة ابي تمام في دائرة المعارف الاسلامية

(٤١٣) ابو تمام الطائي ص ٦٢ .

(٤١٤) ينظر العصر العباسي الاول للدكتور هولي ص ٣٦٩ .

نشأ أبو تمام في دمشق بعد انتقاله إليها مع أبيه ، واشتغل في مطلع حياته عاملاً صغيراً في حانوت للحياكة ، وفي اثناء ذلك كان يتردد الى حلقات الدرس ويسمع ما يدور على أفواه العلماء والادباء من علوم اسلامية اصيلة او وافدة مثل الفلسفة اليونانية . وتنقل كثيراً في سبيل التعلم ، وكانت رحلته الاولى الي حمص ، حيث أفاد من الشاعرين عتبة بن عبدالكريم الطائي ، وعبدالسلام بن رُغبان المعروف بديك الجن ، وانتفع بما عندهما من معرفة بصنعة الشعر . وبعدها شد رحاله الى مصر ونزل المسجد الجامع في القسطنطينية ليكسب معاشاً وينهل علماً . وأسعفته قدرته على قرض الشعر الجيد منذ الوهلة الاولى وتسخيره للمدح كما يفعل كثير من الشعراء ، فنظم قصيدة في مدح صاحب الشرطة والخراج عيَّاش بن لهيعة الحضرمي ، منها قوله : (١١٥)

وما ضيقُ أقطارِ البلادِ أضافني إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي (١١٦)
وأنت بمصرٍ غايستي وقرايتي بها وبنو الآباء فيها بنو أبي

وفي رواية للصولي ان أبا تمام قال عن هذه القصيدة انها « أول شعر قلته ... ومدحت به عيَّاش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم » (١١٧) ولا تتسق هذه الرواية مع عتاب أبي تمام للممدوح فيما بعد ولا مع هجائه له . ومع ذلك قد يحصل أن يمدح شاعر شخصاً ثم ينقلب عليه فيهجوه كما فعل مسلم بن الوليد مع يريد بن مزيد الشيباني (١١٨)

عاد الى موطنه دمشق سنة ٢١٤ للهجرة بعد مكوثه في مصر اكثر من خمسة أعوام . استوعب فيها علوماً كثيرة ، ووقف على كتب جمّة . وكان المأمون آنذاك يتجول في الشام بعد رجوعه من حرب الروم والانتصار عليهم ، وقد مدحه ابو تمام بقصيدة طويلة ، منها قوله : (١١٩)

(٤١٥) دهراله ١١ ، ١٥٤

(٤١٦) يقول : لم يلمحني ضيق البلاد علي ، وكعاد بضاهتي عند الناس ، ولكن مذهبي إلا أسأل إلا لكريم .

(٤١٧) أخبار أبي تمام ص ١٦١ .

(٤١٨) الأملاني ١٩ ، ٢٩ .

(٤١٩) دهراله ٢ ، ١٥٦

يا أيها الملك الهمام وعدلته ملكك عليه في القضاء همام
أوريت زند عزائم تحت الدجى أَسْرَجْنَ فِكْرَكَ وَالسِّبْلَادُ ظِلَامٌ
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه حَسَنُ اليقين وقادة الأقدام
حتى نقضت الروم منك بوقعة شنعاء ليس لنقضها إبرام
لم يظفر أبو تمام عنده بما كان يحلم به أو يتأمله . وراح ينظم شعرا في رثاء
بطل من طيء هو محمد بن حميد الطائي الذي كافح بابك الخرمي كفاحا مريرا
وخانه القدر فسقط في ميدان النضال . وأخذ هذا الشعر يحتل مكانة ممتازة في
الأوساط الادبية ولا سيما قصيدته التي يقول في مطلعها : (١٠٠)

كذا فليجل الخُطْبُ وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفيض ماؤها عنر

وكان يحب التنقل والتطواف وانتجاع الأقاليم والثغور في العالم الاسلامي الذي
عنه وطناً واحداً له . وقد صور هذه الحالة أصدق تصوير في ابياته الاولى من
قصيدته التي مدح بها محمد بن حسان الضبي : (١٠١)

ما اليوم أول توديع ولا الثاني البين أكثر من شوقي وأحزاني
خليفة الخضر من يزغ على وطن في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقميتين وبالفسطاط اخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تطوخ بي أقصى خراسان (١٠٢)
انه على سفر دائم . وترحل قائم . على ظهور الابل .
يطوف البلاد وكأنه خليفة الخضر . فأهله في الشام . وهواه في
بغداد . وهو بالرقميتين . واخوانه بمصر . وقد يطرح به النوى أقصى خراسان .
هكذا حقاً كان أبو تمام . فنراه يرتحل الى الموصل ومنها الى ارمينية . وينال عطاء
وافراً من واليها خالد بن يزيد الشيباني . ثم يقفل راجعاً الى بغداد بعد وفاة
المأمون سنة ٢١٨ للهجرة ويجد حظوة عند المعتصم وكبار رجال الدولة . منهم محمد
بن يوسف الثغري القائد الذي هزم بابك الخرمي ثم قصد خراسان واستقبله واليها
عبدالله بن طاهر استقبالاً حافلاً ومن معه من الكتاب والشعراء . وأنشد أمامه قصيدة
قوية جزلة المعاني . مطلعها : (١٠٣)

(١٠٠) ديوانه ١٤ ، ٧٩

(١٠١) ديوانه ٢ ، ٢٠٨

(١٠٢) وهناك رواية ثانية ، حتى تسافر بي . وثالثة ، حتى تغالبي بي .

(١٠٣) الاغانى ١٩ ، ٢٨٩ . وينظر الديوان ١ ، ٢١٩ .

هَنَّ عوادي يوسفٍ وصواحبُـهُ فَعَزَمًا فَعَدَمًا أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهُ
فلما فرغ منها نشر عليه ألف دينار .

وقبل عودته الى العراق ، عَزَجَ على همدان ، واستضافه أبو الوفاء بن سلمة أحد
أدباء البلد وسرّاتها ، وصادف سقوط الثلوج بكثافة في هذا الاقليم ، فأعاقه عن
السفر ، وجلس في مكتبة أبي الوفاء وأكب على الكتب التي تحويها هذه المكتبة
وصنّف خمسة مجاميع في الشعر منها الحماسة ، والوحشيات . كما يقول أكثر
الدارسين (١١١) ، واننا لا نتفق مع هذا الرأي . لان المرء مهما أوتي من قدرة وقوة لا
يستطيع ان يقرأ في مدة ثلاثة شهور كل الشعر العربي ويختار منه خمسة كتب ،
واننا نذهب الى ماذهب اليه الآمدي بأن أبا تمام « كان مشتهراً بالشعر ، مشغولاً
به ، مشغولاً مدةً بعمره يتخيرهُ ودراسته » (١١٢) ، وربما كانت مدة اقامته مكتملة لعمله
السابق الذي خَطَطَهُ لنفسه في جميع الشعر في مختارات ، وانه استغلّ هذا الانقطاع
للتفرغ لهذا العمل بدلاً من نظم الشعر والوقوف به على أبواب المدوحين . رجع أبو
تمام الى اصبهان ومنها الى سُرّ من رأى ، وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك
الخرمي الذي دَوَّخَ الدولة منذ سنة ٢٠١ للهجرة ، ونازله رجال كثيرون ، وأخيراً قبض
على الأفشين في اوائل سنة ٢٢٣ للهجرة ، وهو من اكبر قواد المعتصم ، وجاء به مقيداً
الى سُرّ من رأى وفيها صُلِبَ جزاءً بغيه وخروجه على الدولة ، وأخذ الشعراء وفي
مقدمتهم ابو تمام يباركون للخليفة بهذا النصر يقول من قصيدة بهذا الظفر : (١١٣)

فتسوخ أمير المؤمنين تفتحتْ لهن أزاهيرُ الرُّبَا والخمائل
وعادتْ نصرٍ لم تزلْ تستعيذها عصابةٌ حقّ في عصابةٍ باطل
فهذا دواءُ الداءِ من كلِّ عالمٍ وهذا دواءُ من كلِّ جاهل

وحينما أغار تيوفيل إمبراطور بيزنطة على مدينة « زبطرة » ونكّل بأهلها
وسبى نساءها ، نهض المعتصم على نداء الهاشمية الأسيرة ، وامعتصماه ! وهتف لبيك
ليبيك . وخرج بنفسه يدوس ديار هذا الامبراطور الى أن وصل الى عمورية ، وكان
يحميها تسعون ألفاً من الروم ، فحاصرها . ثم انقضّ عليها وقتحها ، وكسر أنوف
المتجبرين المعتدين ، وأخذ للتذكار باباً حديدياً عظيماً من أبواب هذه المدينة

(١١٤) ينظر بحثنا (نظرة في حماسة أبي تمام) مجلة بين النهرين ، العدد ٢٧ لسنة ١٩٧٩ .

(١١٥) الموازنة ص ٥١ .

(١١٦) ديوانه ٢ ، ٨٦ .

وأحضره الى بغداد وقد رآه ابن الطقطقا فقال : « وهو الآن على أحد أبواب دار الخلافة يسمى باب العامة » (١٣٧) ، وسجل أبو تمام وقائع هذه المعركة في قصيدة تُعدُّ من عيون الشعر العربي ، مطلعها : (١٣٨)

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وأصبحت لأبي تمام مكانة لائقة ومتميزة عند الخليفة المعتصم وابنه أحمد ، وقويت علاقته بالوزراء والكتاب والقواد ولاسيما محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الشاعر ، وكاتبه وكاتب سره الحسن بن وهب ، وحظي عند الجميع تقديراً وكراماً ومهاداة . وعندما خرج الأفشين عن طاعة الدولة وظهرت خيائته أمر المعتصم بسجنه ثم اعدامه ، ووقف أبو تمام فأنشد الخليفة قصيدة في غاية السبك والحبك مطلعها : (١٣٩)

الحق أبلجٌ والسيف عواري فحذار من أسد العرين حذار
وفي سنة ٢٢٧ للهجرة توفي الخليفة المعتصم ورحل الى بارئه وخلفه ابنه الواثق ونظم أبو تمام بهذه المناسبة قصيدة مطلعها : (١٤٠)

مالدموع تروم كل مرام والجفن تاكل هجمة ومنام !
ياخفرة المعصوم ترُبك مودع ماء الحياة وقاتل الاعدام
إن الصفائح منك قد نُضدت على مُلقى عظام لو علمت عظام !

وفي أوائل سنة ٢٢٩ للهجرة عُين أبو تمام على بريد الموصل وانتهى تطوافه ومرافقته للخليفة وحاشيته ، ولكنه لم يمكث طويلاً اذ فاجأه الموت سنة ٢٣١ للهجرة على أرجح الآراء ولم يتجاوز الأربعين الأ قليلا ، ودفن في الموصل خارج الميدان على حافة الخندق (١٤١) ، ورثاه محبوبه أمثال أبي عبادة البحرى ، وعلى بن الجهم ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وأبو الشيص ، وأحمد بن يحيى البلاذري ...

(١٣٧) الشهرى ص ٣٠

(١٣٨) ديوانه ١٠١

(١٣٩) ديوانه ١٠٢ ، ١٩٨

(١٤٠) ديوانه ١٠٢ ، ٣٢

(١٤١) رليات الأعيان ١٧ ، ٢ ، هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٩ .

كان أبو تيمام شخصية مرموقة تملأ العين . قال أبو اليركات الأنباري : « كان موصوفاً بالظرف ، وحسن الأخلاق ، وكرم النفس (١٣٢) . ومن أميز صفاته الذكاء الحاد والاحساس بالشئ قبل وقوعه ، ذكر الصولي أن أبا تمام « إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه ، كأنه كان على علم بما يقول فأعد جوابه » (١٣٣) . ويروى أنه لما أنشد قصيدته في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها ،

دِيْمَةٌ سَمِحَةٌ الْقِيَادِ سَكُوبٌ مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ

سمعها أحد الفلاسفة الجالسين وقال : « إن هذا الفتى يموت شاباً . فقيل له : ومن أين حكمت ؟ قال : رأيت فيه من الحدة والذكاء والفتنة . مع لطافة الحس وجودة خاطر . ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده » (١٣٤)

وكان أبو تمام حاضر البديهة . سريع الإجابة والاقناع . يتخلص من المواقف الحرجة بذكاء ولباقة . من ذلك قصته حينما مدح أحمد بن المعتصم بسينيته المشهورة . وكان الفيلسوف الكندي حاضراً . وانتهى الى قوله :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ (١٣٥)
اعترض عليه الكندي وقال : الأَمِيرُ فَوْقَ مَنْ وَصَفْتَ . فَأَطْرَقَ قَلِيلاً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَأَنْشَدَ :

لَا تَنْكُرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مِثْلًا شُرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهِ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مِثْلًا مِنَ الْمَشْكَاءِ وَالنَّبْرَاسِ
ثم استمر في انشاده حتى أتم القصيدة ولما أخذت من يده لم يجدوا بها البيتين ، فعجبوا من سرعة فطنته واهتز الأمير طرباً . (١٣٦)

(١٣٢) لذة الأبياء في طبقات الأدهباء ص ١٠٨ .

(١٣٣) أخبار أبي تمام ص ٧٢ . وليل القصيدة في مدح محمد بن الهيثم . ينظر ههنا ص ١١ .

(١٣٤) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٠ . فذرات الذهب ٢ ، ٧٤ .

(١٣٥) هو عمرو بن معدى كرب ، وحاتم الطائي وإيَّاس بن معاوية كان كاهنياً في البصرة والاحنف بن الهيثم سيد لهيئة تميم .

(١٣٦) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٢٥ . وفيات الأعيان ٢ ، ١٥ .

ومن صفات أبي تمام حبُّ التجول والمسير بلا ضجر ولا ملل من أجل الوصول الى المكان الذي عقد العزم على الذهاب إليه . وقد صدق في قوله (١٣٧) :
 ما بيضُ وَجْهُ المرءِ في طلبِ العُلَى حتى يسوّدَ وَجْهُهُ في البيدِ
 والى جانب حُبِّه للسفر . كان كريماً سخياً مسرفاً . يحبُّ أطاليب الحياة غير أنه لم يكن متهتكاً . بل كان يأتي لذاته في ستر (١٣٨)

ثم مزية أخرى لأبي تمام أنه كان كثير النظر في الكتب والحفظ . قال محمد بن قدامة : « دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى . فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه . ثم رفع رأسه فنظر إلى وسلم عليّ فقلت له : يا أبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصبرك عليها ! فقال : والله مالي الف غيرها ولا لذة سواها . (١٣٩) والى جانب هذه القراءة كان يستظهر شعراً كثيراً وقد « قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للمعرب غير القصائد والمقاطيع » (١٤٠)

شعره :

لأنظن دارساً للأدب العربي لا يعرف الى أي مدى سار أبو تمام بالشعر نحو التطور والتجديد . وكيف حرّك النقد - قديماً وحديثاً - الى دراسة شعره واطلاق الأحكام المتباينة فيه . فهو شاعر امتاز بالثقافة الواسعة . والذكاء الحاد . والحفظ الغزير للشعر العربي الموروث . قال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول : « مارأيت أحداً قطّ أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام (١٤١) » وعده محمد بن عبد الملك الزيات « أشعر الناس طراً » (١٤٢) . وقال الشاعر عمارة بن عقيل حينما قدم الى بغداد وسمعه الناس شعراً لأبي تمام وحكمه فيه « لئن كان الشعر بجودة اللفظ . وحسن المعاني . واطراد المراد . واتساق الكلام . فإن صاحبكم هذا أشعر الناس » (١٤٣) . وقال الزمخشري : « وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره

(١٣٧) ديوانه ١٤ . ٨ . ٥ .

(١٣٨) أعيان الشيعة ١٩ . ١٩ وما بعدها . وأبو تمام للذكور عمر فروخ ص ٣٦

(١٣٩) طبقات المعراء ص ٢٨٤ .

(١٤٠) وفيات الأعيان ١٢ . ١٢ .

(١٤١) شرح ديوان العصابة للمرزولي ١١ . ١٤ .

(١٤٢) الأغانى ١٦ . ٢٨٤ .

(١٤٣) الأغانى ١٦ . ٢٨٥ .

في اللغة . فهو من علماء العربية . فأجعل مايقوله بمنزلة مايرويه «(١١١)» . وإن أردنا أن نجتمع ما قيل في أبي تمام وشعره ومختاراته ابتداءً من الصولي في كتابه « اخبار أبي تمام » ومروراً بمن ترجم له الى وقتنا الحاضر لوجدنا الشيء الكثير المليء بالاطراء والاعجاب والثناء .

تناول أبو تمام معظم موضوعات الشعر المعروفة وبرع فيها إلا الهجاء فقد قَصَرَ بهما وأكثر شعره في فني المديح والثناء . فهما يُشكّلان أكثر من ثلثي الديوان ، وقد اشتهر بها حتى قيل : أبو تمام مذاكرة نواحة .

لقد صبَّ جُلُّ طاقته الشعرية في اجادة المديح لأنه الموضوع الذي يمتحن به الشاعر ثم يُجاز عليه . وما أكثر المواقف التي نجح فيها . وفاز بالجوائز السنية والهدايا الثمينة . وإحدى هذه المواقف أنه حضر مجلس أبي ذلف القاسم بن يحيى العجلي وكان كريماً سرياً جواداً . وأنشده قصيدته :

على مثلها من أربع ملاعب أذيلت مصونات الدُموع السواكِب
فلما بلغ الى قوله :

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وازادت على ما وطّدت من مناقب
فأتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذي استرهنوا قوس حاجب (١١٠)
محاسن من مجد متى تقرنوا بها محاسن أقوام تكن كالمعايب

فقال أبو ذلف : « يامعشر ربيعة . ما مدحتُم بمثل هذا الشعر قط . فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها إليه . فقال أبو ذلف : قد قبلها وأعاركم لبسها . وسأنوب عنكم في ثوابه . تمّ القصيدة يا أبا تمام . فتممها فأمر له بخمسين ألف درهم . وقال : والله ماهي بازاء استحقاقتك وقدرك . فاعذرنا . فشكره وقام ليقبل يده . فحلف ألا يفعل » (١١٦)

إن أبا تمام يعرف كيف ينفذ الى قلوب الممدوحين ويداعبها عن طريق مايعجبهم . إضافة الى مقدرته العالية في اختيار ألفاظ رصينة منظومة كاللؤلؤ في سلك ذهبي متين جميل كما لاحظنا في القصيدة السابقة وقد بدأها بمقدمة طلبية

(٤٤٤) الكفالك ١١ ، ٢٢٠ .

(٤٤٥) يوم ذي قار ، هو أول يوم انتصر فيه العرب على المجرم ، وتنتظر لصلة لوس حاجب

بن زرارة في شرح التبريري على ديوان أبي تمام ٢٠٨ ، ١١

(٤٤٦) الألفاني ١٦ ، ٢٨٩ .

وهذا مانجده بكثرة في قصائده المدحية . وقد يبدأ بوصف صاحبه ومعاناته في هواها ثم يعود الى ذكر ديارها . وبعدها يخلص الى ممدوحة مثل قصيدته في مدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد . يقول في أبياتها الأولى : (١١٧)

أرأيت أي سالفٍ وخذودٍ عنت لنا بين اللوى فزرود
أتراب غافلة الليلي ألفت عقد الهوى في يارق وعقود (١١٨)
بيضاء يصرعها الصبا من نعمة خوذ كخوط البانة الأملود (١١٩)
مالي بربيع منهم معهود إلا الأسى وعزيمة المجلود

ويذكر ناقته وماتعاني من تعب ومشقة . ثم يصف كيف تحط رحالها في رحاب الممدوح فتجد أمناً وراحة وطمأنينة :

هيئات منها روضة محمودة حتى تُناخ بأحمد المحمود
بمعرس العزب الذي وجدت فيه أمن المروءة ونجدة المنجود

إن أبا تمام يعنى عناية فائقة بمقدمته المدحية . وكثيراً ما يلتفت فيها الى نفسه . فيصف همومه وآلامه . وقد يودعها حكماً وتأملاً تدل على نظر عميق وفكر دقيق . وهو عندما ينتقل من هذه المقدمة يُحكم الربط بينها وبين الموضوع الأساس وهو المديح كي لا يشعر القاري أو السامع بفجوة أو عثرة . حينما يرفع من شأن الممدوح . ويُشهر مناقبه ويُظهر مناسبه ... وقد يُطيل في استهلاله قبل التخلّص الى المدح . كما نلاحظ - مثلاً - في قصيدته التي مدح بها الخليفة المعتصم وأولها : (١٢٠)

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

فهو يصف الطبيعة في لوحة جميلة جذابة في أكثر من عشرين بيتاً . يأتي فيها على مباحج هذه الطبيعة وما فيها من مناظر جذابة . ولا سيما في زمن الربيع الذي تخضر فيه المروج في حلة بديعة . وتتفع الزهور بألوانها الزاهية . ثم يربط بين

(١١٧) ديوانه ١١ ، ٢٨٤ .

(١١٨) غائلة الليالي ، ناعمة البالي ، ألفت عقد الهوى ، جمعت الهوى بما لاح من حسنها

اليارق ، السوار .

(١١٩) الغود ، الحسنة الخلق الشابة الناعمة . الغود ، الفصن . الأملود ، الأملس الناعم .

(١٢٠) ديوانه ٢ ، ١٩١ .

(١٢١) تمرمر ، تموج وتضطرب ليناً ونعمة .

هذه المقدمة الظريفة التي تفتح النفوس وتسرها مع خلق الخليفة العظيم الذي عم البرية بعدله ولطفه وكرمه :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الامام وهديته المتيسر
في الأرض من عدل الإمام وجوده ومن النبات الغص سرج تزهر
تنسى الرياض وما يروض فعله أبدأ على مر السليبي يذكرك

واشتهر أبو تمام بالثناء كاشتهاره في المديح . قال ابن رشيقي : « هو من المعبودين في إجادة الرثاء » (١٥٢) . وقال الأمازي : « هو أشعر الناس في المراثي » (١٥٣) . لقد كانت مراثية رائعة وكانت أناشيد حربية ولاسيما ماقاله في القائد محمد بن حميد الطائي الذي استشهد في ساحة الوغى ولم يكن عجباً أن يطلب أبو ذؤلف العجلي من أبي تمام أن ينشده قصيدته الرائية (كذا فليجل الخطب ...) في رثاء هذا القائد . ومنها :

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السم
وقد كان قوت الموت سهلاً فرده إليه الجفاظ المر والخلق الوعر
فأثبت في مستنقع الموت رجلة وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج رداءه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
فقال له : « والله لوددت أنها في . فقال : بل أفدي الأمير وأهلي . وأكون المقدم .
فقال : إنه لم يمت من رثي بهذا الشعر » (١٥٤)

إنه كان يحسن إظهار التفجع والتحسر والألم على الفقيد . وخسارة الأمة فيه . ويجيد « خلق الجو الحزين المتلائم مع طبيعة الكارثة وظروف المأساة . ثم يلقي بثقله وفكره على بحار المعاني فيصيد نفائسها ويصقلها ويطرزها ويقدمها لجمهرة الناس أحسن ما تكون صوغاً وأجمل ما تكون ثوباً » . (١٥٥) . ومن جميل مراثيه التي أجاد فيها قوله في رثاء القائد جعفر الطائي : (١٥٦)

(١٥٢) الصمدة ١٢ : ١٥

(١٥٣) خاص العاص للشعالي ص ١٢١ .

(١٥٤) الأغاني ١٦ : ٣٩ .

(١٥٥) الشعر والقصص للدكتور مصطفى الحكمة ص ٦٧٤

(١٥٦) ديوانه ١٤ : ١٣٨ .

رَجِمَ اللهُ جَعْفَرًا. فلقد كان أبياً شهماً وكان رحيماً
مَثَلُ الموتِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَالذُّلِّ. فَكَلَّا رَأَى خَطْباً عَظِيماً
ثُمَّ سَارَتْ بِهِ الْحَمِيَّةُ قَدْماً فَأَمَاتَ الْعِدَى وَمَاتَ كَرِيماً!

أما الاغراض الاخرى فلم يكن مكثرأ فيها . فله شعر رقيق في العتاب ولاسيما في
أولئك الذين مدحهم وقد تأخر رفدهم . مثل قوله يخاطب أبا ذلف : (١٥٧)

أبَا ذُلْفَ لَمْ يَبْقَ طَالِبَ حَاجَةٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِي وَالْمَحَلَّ جَدِيدٍ
يَسُرُّكَ أَنْ أُبَيِّتَ عَنْكَ مَخِيئاً وَلَمْ يُرَخِّلْكَ مِنْ جَدَاكَ يَخِيْبُ ؟ !
وأحياناً يتقلب هاجياً . وهو فيه أدنى مرتبة من سائر شعره . إذ تبدو لفته الشعرية
في هذا اللون باردة لارواة فيها ولاجمال . ويظهر أنه لم يكن يحسن لغة السباب
والشتائم التي درج عليها بعض شعراء العصر العباسي . مثل قوله في هجاء عبدالله
بن يزيد الكاتب : (١٥٨)

مَا أَنْبَتَ إِلَّا الْمَشْتَلُ السَّائِرُ يَعْرِفُهُ الْجَاهِلُ وَالسَّخَابِرُ
فَاكِهَةٌ ضُيِّعَ بِسَتَانِهَا فَاَنْتَابَهَا الْوَارِذُ وَالصَّادِرُ
وقوله في عيَّاش بن لهيعة : (١٥٩)

سَمَّجَتْ بِكَ الدُّنْيَا فَمَا لِكَ حَامِدُ وَسَمَّجَتْ بِالدُّنْيَا فَمَا لِكَ حَامِدُ
ولم يعرف أبو تمام بحبيبة معينة غارلها . وعانى فيها شوقاً وصبايةً . ومع ذلك نجد
له غزلاً في مطامع القصائد المدحية . أو مقطوعات مستقلة . مثل قوله الجميل الذي
يستهوئ المرء سماعه : (١٦٠)

نَقَلْ فُوَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحَبِّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٌ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أَوَّلُ مَنْزِلِ
كان أبو تمام يحسن اختيار أبياته التي تجري مجرى الأمثال والحكم . سواء
كان في أثناء المديح والرثاء أم في الأغراض الأخرى . مثل قوله : (١٦١)

(٤٥٧) ديوانه ٤ : ٤٤٢ .

(٤٥٨) ديوانه ٤ : ٢٥٢ .

(٤٥٩) ديوانه ٤ : ٣٤٧ .

(٤٦٠) ديوانه ٤ : ٢٥٢ .

(٤٦١) ديوانه ١ : ٢٩٧ .

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودٍ
لولا اشتعالَ النارِ فيما جاورَتْ ما كان يعرفُ طيبَ عَرَفِ العُودِ
ومن حكمه التي راقَت الجاحظَ وأعجبتَه . وعدّها تصلحُ للروايةِ والمذاكرةِ قوله

في البيتين الآتيتين اللذين يدعو فيهما الى الارتحال والتنقل: لأن الانسان بحاجة الى
تجديد النشاط والحيوية ورؤية عوالم جديدة: (١١٢)

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مخلوقٍ لذيِّباجيستهِ فاعتربَ تتجددِ
فاني رأيتُ الشمسَ زِيدتْ محبَةً الى الناسِ ان لَيْستْ عليهمِ بسمردِ
خصائص شعره :

أبو تمام شاعر مثقف وذكي . استوعب علوم عصره . وأحاط بها . واستقصاها .
واستخلص منها زبدتها ووظفها في شعره توظيفاً اختلف الدارسون والنقاد فيه . فمنهم
من صار معه ومنهم من صار عليه . وقد لاحظ أبو الفرج الاصبهاني ذلك فقال :
« وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط . حتى يفضله على كل سالفٍ وخالف .
وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه . ويطوون محاسنه » (١١٣) . ومن أبرز
الأمر التي اخذوها عليه في شعره الصنعة البديعية . والصنعة المعنوية او الاختراع .
والاغراب والتعمد في اختيار الالفاظ المبهمة والصعبة .

لقد عمد كثير من الشعراء الى الاستعانة بالبدع . ولاسيما الجنس والطباق
والمقابلة والتلميح ومراعاة النظير... والاكثر من التشبهات والاستعارات
والكنايات . وأولهم مسلم بن الوليد ثم تبعه ابو تمام . (١١٤) وفاقه وأربى عليه حتى
« صار فيه أولاً واماماً متبوعاً . وشهر به حتى قيل : هذا مذهب ابي تمام » . (١١٥)
وقد اشار بنفسه الى هذا المذهب فقال : (١١٦)

ان الجياذ اذا علتها صنعةٌ راقَت ذوي الآداب والافهام
لترين الأبصار فيها فسحةٌ وتأملاً باشارة السساقوام

(٤٦٢) ديوانه ٢٢٠٢ . البيان والتبيين ١٢ : ١٨٧

(٤٦٣) الاغانى ١٦ : ٢٨٢

(٤٦٤) تنظر : الصورة الفنية في شعر ابي تمام ص ١٤٢ - ١٨٤ .

(٤٦٥) الوساطة ص ١٦ .

(٤٦٦) ديوانه ٢ : ٢٨١ .

ان النقاد تتبعوا شعره . ونظروا فيه بدقة . وانكروا عليه اموراً جمّة . والشواهد عليها كثيرة . تأخذ منها قوله : (١٧٧)

لا تسقني ماء الملام فإنني صبُّ قد استعذبت ماء بكائي

قالوا : « اذا كان ماء الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستغنياً منه ، مستعذباً له » (١٧٨) وقد ردّهم الأمدي بقوله : « ليس قول ابي تمام - لا تسقني ماء الملام - بعيب عندي ، لأنه لما أراد ان يقول - قد استعذبت ماء بكائي - جعل للملام ماءً ليقابل ماءً بماءً ، وان لم يكن للملام ماء على الحقيقة ، فان الله جلّ اسمه يقول : (وجزاء سيئةً سيئةً مثلها) ومعلوم ان الثانية ليست سيئةً وانما هي جزء على السيئة ، وكذلك : (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم) والفعل الثاني ليس بسخرية . ومثل هذا في الشعر والكلام كثير ومستعمل ، فلما كان في مجرى العادة ان يقول القائل : أغلضت لفلان القول ، وجرّعته منه كأساً مرّةً . أو سقيته منه أمر من العلقم . وكان الملام مما يستعمل فيه التجرّع ، جعل له ماءً على الاستعارة ، وهذا كثير موجود » (١٧٩)

ولم يكتف أبو تمام بالبديع وصور البيان ، بل كان يعمد أيضاً الى الافكار ، ويتعمق فيها ، ويستبطن منها الواناً يرتاح لها العقل ، وقد أثنى عليه ابو العلاء المعري في هذا الشيء ، فقال : « كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعانٍ كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض البحار ، ويفضُّ عنها المستغلق من المحار » . (١٨٠) ومن أمثلة هذه الطريقة المبتدعة قوله في مدح الحسن بن رعاء : (١٨١)

لاتنكري عطلّ الكريم من الغنى فالسبلُ حرب للمكان العالِي
وتنظري حَبَبَ الرِكاِبِ ينضُّها محيبي القريض الى مميت المالِ
وقوله في مدح أبي ذؤلف الجعلي : (١٨٢)

تكاذ عطاياه يجنُّ جنونها اذا لم يعوذها بنغمة طالبِ
تكاذ مغانيه تهشُّ عراضها فتركبُ من شوق الى كل راكِبِ

(٤٦٧) ديوانه ١ ، ٢٢٠ .

(٤٦٨) سر الفصاحة ص ١٢١ .

(٤٦٩) نفسه ص ١٢٢ .

(٤٧٠) رسال الفران ص ٤٨٨

(٤٧١) ديوانه ٢ ، ٧٧

(٤٧٢) ديوانه ٢ ، ٢٠٤

وتتصل بالمزية السابقة مزيةً أخرى هي التعقيد اللفظي والميل الى الغريب من المعاني ، وقد وصف شعره بقوله : (١٧٣)

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في العيون كواكب
وغرائب تأتيك إلا أنسها لصنيعك الحسن الجميل أقارب

ولس عل بن عبدالعزيز الجرجاني هذه الصفة في شعره فقال انه « تعسف ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف اليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه ، وتوصل اليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخليتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقیل ، وأرصد لها الافكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا فرع السمع لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر ، وكذ الخاطر ، والحمل على القريحة » (١٧١) فمن اغرابه قوله : (١٧٥)

وركب يساقون الركاب زجاجةً من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى فصارت لها أشباحهم كالغوارب (١٧٦)

لاغرو ان ظهر مثل هذا التصعب في شعره : فانه كان يقتسر المعنى البعيد او الاستعارة التي يتخيلها . ولا يبالي بما يأتيه من نقد . فقد سأله ابو العميث اللغوي : لم تقول مالا يفهم ؟ فأجابه على الفور : ولم لا تفهم ما يقال ؟ (١٧٧) .. وهذا الامر دفع الناقد العباسي المشهور علي بن عبدالعزيز الجرجاني الى القول : ان ديوانه مشحون بالغموض والتعقيد. (١٧٨)

ومهما قيل في أبي تمام (١٧٩) . فانه يبقى ذلك الشاعر العربي الكبير الذي يشنف الاسماع بأقوى الشعر وأجزله . وقد صدق ابن رشيق حين قال : « انما سمي

(٤٧٣) ديوانه ١ ، ١٧٦ .

(٤٧٤) الوساطة ص ١٩

(٤٧٥) ديوانه ١ ، ٢٠١ .

(٤٧٦) جعل ابو تمام السير خسرأ صرفاً ، يديرها الركب ان بينهم لتورثهم شدة في سيرهم من غير تفكير بمال ، ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها ، وكان السير الكثير ايضاً قد العلهم هم انفسهم فاصبحت اجسامهم النحيطة كأنها هي سنام الابل .

(٤٧٧) اخبار ابي تمام ص ٧٢ .

(٤٧٨) الوساطة ص ٤٨٩ .

(٤٧٩) تنظر ، الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ١ ، ١٤٤ - ٢٤٨ . ٢٤٩ - ٥٥٧ .

الشاعر شاعراً؟ لانه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه . او استظراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني . أو نقص مما اطاله سواه من الالفاظ . أو صرف معنى الى وجه عن وجه اخر . كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة . ولم يكن له الا فضل الوزن « (٤٨٠) »

أبو عبادة البحرري

٢٠٦ - ٢٨٤ هـ

هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى . وكنيته أبو عبادة . واشتهر في عالم الأدب بلقبه البحرري . نسبة إلى بحر أحد أجداده (٤٨١) . ينتهي نسبه إلى طيء إحدى القبائل القحطانية . وكانت أمه عربية من بني ناهل إحدى القبائل التغلبية . فهي عربية خالصة النسب أيضاً . وقد أشاد في شعره بنسبه العربي . فقال : (٤٨٢)

إن قومى قوم الشريف قديماً وحديماً
ذهب طيء بسابقة المجدي على العالمين : بأساً وجوداً

سيرته :

ولد البحرري في مدينة تشهر بالخضرة والمروج تسمى « منبج » . تقع في الشمال الشرقي من حلب . سنة ٢٠٦ للهجرة . وأمضى فيها طفولته وشبابه . وأخذ فيها علومه . ولا سيما ما يتصل بالقرآن والحديث واللغة والنحو والفقه .. وكان مولعاً بحفظ الشعر يُنشده في ذهابه وإيابه كما يقول ابن خلكان (٤٨٣)

ظهرت مواهبه الشعرية في وقت مبكر . وحينما أنس من نفسه القدرة على مواجهة رجال الأدب ومحاورتهم شدّ رحاله واتّجه صوب حمص ليلتقي بالشاعر الكبير أبي تمام الطائي ليعرض عليه نظمه ويأخذ رأيه فيه . وبينما هو في طريقه مرّ بحلب . وفيها وقعت عينه على فتاة جميلة تدعى « علوة بنت زُرَيْقة الحلبية » . ففتن بشكلها وقوامها الرشيق . ونظم فيها شعراً في غاية الرقة والعذوبة . وبقيت صورتها عالقة في ذهنه بعد رحيله عنها .

(٤٨١) الأغاني ٢١ ، ٣٧ . معجم الأديباء ٧ ، ٢٢٦ . (٤٨٢) ديوانه ١ ، ٥٩٢ .

(٤٨٣) وفيات الأعيان ٦ ، ٢٢ .

وصل البحترى الى حمص والتقى بأبي تمام . وأنشده شعره أمام مجموعة من الشعراء الحاضرين آنذاك . فأقبل عليه . وأكرمه . وقال له : أنت أشعرُ مَنْ أنشدني . فكيف حالك ؟ فشكا اليه خلَّة . فكتب الى أهل معرة النعمان في شأنه . فاستقبلوه بحفاوة . ولسوا بناهته . وشاعريته الجيدة . ووظفوا له أربعة آلاف درهم . كانت أول مالٍ أصابه بالشعر (١٨١)

وفي رواية أخرى تقول : إنه التقى بأبي تمام في مجلس أبي سعيد الثغري أمير الجزيرة . قال البحترى : « أول مارأيت أبا تمام أني دخلت على أبي سعيد محمد ابن يوسف . وقد مدحته بقصيدتي :

أفأق صَبَّ من هوى فأفيقا ؟ أو خان عهداً أم أطاع شفيقاً ؟

فسرُّبها أبو سعيد . وقال : أحسنت والله يافتى وأجدت ... ودعاني أبو تمام . وضمَّني اليه . وعانقني . وأقبل يُقرظني . ولزمته بعد ذلك . وأخذت عنه . واقتديت به (١٨٥) » ويرجح الصولي أن هذه الرواية ربما كانت قبل ذهابه الى معرة النعمان .

قويت علاقته بأبي تمام . وسمع منه وصيةً بليغة في صناعة الشعر أفاد منها في مسيرة حياته الأدبية (١٨٦) . وبقي وفياً مخلصاً له . حتى انه سُئل : « إنَّ الناس يزعمون أنك أشعرُ من أبي تمام . فقال : والله ماينفعني هذا القول . ولا يضرُّ أبا تمام . والله ماأكلت الخبز إلا به . ولو ددت أن الأمر كان كما قالوا . ولكني والله تابع له . أخذ منه . لاأذ به . نسمي عند هوائه . وأرضي تخفض عند سمائِه (١٨٧)

ولما اشتدَّ أزره في نظم الشعر . ولم تتسع دياره لأدبه . أقبل الى العراق . وهي زاهية بجلال الملك . ناعمة بغضارة العيش . فاحتضنته . وخذبت علمه . وكان قدومه

(١٨٤) أخبار البحترى ص ٦٦ .

(١٨٥) الأغاني ٢١ ، ٤١ وتنظر المرازلة ص ١٣ . والديوان ١٤٥ ، ٢ .

(١٨٦) تنظر الوصية في العمدة ٢ ، ١١٤ ، زهر الآداب ١ ، ١١٠ .

(١٨٧) الأغاني ٢١ ، ٤٠ .

زمن الخليفة الواثق . ولكن شهرته ظهرت في عهد المتوكل . اذ صار لسان هذا الخليفة . يمدحُه . ويُمجِّدُه . ويُسجِّلُ أعماله في قصائد عامرة . ويصاحبه في رحلته الى دمشق . ويقول له : (١٣٨)

ياإمام الهدى الذي إحدى ——— تباط للذنين . واجتهد
سِرَّ بسعد السُّعود في ضحية الواحد الضَّمْد !
وابق في العزِّ والعُلِّ ————— مؤلنا آخر الأبد !

وحين يقفل راجعاً الى بغداد ينظم أيضاً قصيدةً . منها : (١٣٩)

فأسفرَّ وجهُ الشَّرْقِ حتى كأنما تبلَّج فيه البدرُ بعد أقولِه
وقد لبستُ بغدادُ أحسنَ زِيها لإقبالِه . واستشرفتُ لعدولِه
لعمرِ لقد أبَّ الخليفةُ جعفرُ وفي كلِّ نفسٍ حاجةٌ من قفولِه

وتوثقت صلته بهذا الخليفة . وأصبح نديمه . كما توثقت علاقته بوزيره الفتح بن خاقان الذي عُرف بتكريم الشعراء والحدب عليهم . وظلَّت هذه العلاقة الحميمة زهاء خمسة عشرَ عاماً . كانت من أنها أيام البحترى وأسعدها . حتى قُتل الخليفة ووزيره الفتح على مرأى من بصره في مجلس منادمة في قصره سنة ٢٤٧ للهجرة بمؤامرة خطيرة اشترك فيها ابنه المنتصر (١٩٠) . وهرب البحترى متوجعاً متألماً يلاحقه شبح الجريمة . ورثى الخليفة المقتول وعرضُ بابنه في قصيدة تتوشخ بثوب الصدق وتدلُّ على وفاءٍ شديد . مطلعها (١٤١) :

محلُّ على القاطولِ أخلق دائرةً وعادتُ صروفُ الدهرِ جيشاً تغاورُهُ (١٤٢)
ومنها :

(٤٨٨) ديوانه ٢ ، ٧٠٨ .

(٤٨٩) ديوانه ٢ ، ١٦٣٤ .

(٤٩٠) ينظر البحترى في سامراء ص ٢٦٩ - ٢٨٥ .

(٤٩١) ديوانه ٢ ، ١٠٤٧ .

(٤٩٢) القاطول ، نهيير من دجلة كان في موضع سامراء كان عليه القصر الجعفري . أخلق .
بلى . الدائر ، البالي . صروف الدهر ، نوازله . تغاوره . تعاربه .

صريح تقاضاه السيوف خشاشة يجود بها. والموت حُمرَ أظافرة
أدافع عنه باليدين، ولم يكن ليثنى الأعادي أعزل الليل حاسرة
ولو كان سيفي ساعة القتل في يدي درى القاتل العجلان كيف أساوره
سرام علي الراخ بعدك، أو أرى دماً بدم يجري على الأرض مائرة

توجه البحتري الى مكة وأدى فريضة الحج . ومنها سافر الى منبج حيث أهله
وذويه . ولكنه لم يستطع البقاء فيها بعد أن رأى النعمة والثراء في بلاط الخلافة .
فعاد مسرعاً الى سر من رأى وأرضى الخليفة المنتصر بقصيدة أشاد فيها بحلمه
ورأفته - ولم يدم حكم هذا الخليفة أكثر من ستة أشهر . إذ فاجأه الموت سنة ٢٤٨
للهجرة . وجاء بعده المستعين . ولم يتعد البحتري عن دار الخلافة . فاتصل بهذا
الخليفة الجديد وخصه بعه قصائد . وفي سنة ٢٥١ للهجرة اتصل البحتري بالمعتز
بعد وفاة المستعين . وحظي بجوائز كثيرة . وتولى المهدي الخلافة سنة ٢٥٥ للهجرة
ومدحه بقصائد أشاد فيها بزهده وورعه وعدله وشجاعته في محاربة الروم . وبعد
سنة خلغ هذا الخليفة وولّى مكانه المعتمد . وهو آخر الخلفاء الذين اتصل بهم
البحتري ومدحهم ونال رفدhem . وهكذا كانت علاقته بالخلفاء . يستقبل خليفة
ويودع آخر . وقد أثرى ثراء كبيراً . وأصبح صاحب أموالٍ وضياح كثيرة . حتى
قيل : « كان ملياً قد فاض كسبه من الشعر . وكان يركب في موكب من
عبيده » (١١٣) .

وبعد وفاة الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ للهجرة عاد البحتري الى موطنه الأصلي .
ومكث فيه الى أن أدركته المنية سنة ٢٨٤ للهجرة تاركاً وراءه ديواناً ضخماً وكتاب
« الحماسة » . وآخر بعنوان « معاني الشعر » لم يصل اليها .

شعره :

كان البحتري شاعراً فناناً مجيداً مبدعاً . استطاع بموهبته الفذة وطبعه المتدفق
أن يقدم شعراً جميلاً شبيهاً « بسلاسل الذهب » كما يقول ابن خلكان (١١١)

وصل الينا شعر البحتري في ديوان كبير . حوى كل أبواب الشعر العربي المعروفة . والمديح هو أكبر باب في هذا الديوان ؛ فانه احترف هذا الفن وجعله وسيلة لتحسين الحال وجمع المال . فله في مديح الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد وأعيان الدولة شعر كثير . وجد في نفوسهم هوئى وقبولاً حسناً . وقد عدّه أبو هلال العسكري من أكبر المذاحين . وذكر له قصيدة في مدح الفتح بن خاقان . منها قوله :

أغرّ له من جوده وسماحيه ظهير عليه ماخيبي وشافغ
ولما جرى للمجد والقوم خلفه نغول أقصى جهدهم وهو وادغ
وهل يتكافا الناس شئى خلالهم وما تتكافا في اليدين الأصابع
إذا ارتد صمتاً فالرؤوس نواكس وإن قال فالأعناق صور خواضع
ولا يعلم الأعداء من فرط عزمه متى هو مضبوب عليهم فواقغ

وعقب في خاتمة القصيدة بقوله : « لم يبق وجه من وجوه المدح في الجود والشجاعة وتصوب الرأي ومضاء العزيمة والدهاء وشدة الفكر الأقد اجتمع ذكره في هذه الأبيات . ولا أعرف أحداً يستوفى مثل هذه المعاني في أكثر مدائحه الأبحتري » (١١٥) .

وهو في نظر ابن خلكان محسن كل الإحسان في المديح . وأورد له أبياتاً من قصيدته الرائية المشهورة في الخليفة المتوكل وهو يخرج لأداء صلاة عيد الفطر . وأولها :

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهره وألأم من كسَمَدِ عليك وأعذر
ومنها :

ذكروا بطلعتك النبيّ فهللوا لما طلعت من الصُفوفِ وكبّروا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً نورَ الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشيةً خاشع متواضع لله لا يُزهى ولا يَسْتَكْبِرُ

وعلق عليها بقوله : « هذا الشعرُ هو السحرُ الحلالُ على الحقيقة . والسهلُ المتنع .
فله درّه ! مأسلى قياده . وأعذب ألفاظه . وأحسن سبكه . وأطف مقاصده . وليس
فيه من الحشو شيء . بل جميعه نُخبٌ » (١١١) . وكما أشاد ابن خلكان بهذه
القصيدة . فقد أشاد بها كثيرٌ من الباحثين المعاصرين وعدوها من قصائده الفريدة
في جودة المبنى وروعة المعنى (١١٢)

لقد تميز شعره المدحي بمتانة الألفاظ . وجودة الأسلوب . وحسن العرض ورقّة
الجرس الموسيقي التي تستهوي السامع . ويبدو أنه عمل بوصية أستاذه أبي تمام
حين قال له : « اذا أخذت في مديح سيد ذي أياذ فأشهر مناقبه . وأظهر
مناسبة . وأبّن معالمه . وشرف مقامه . ونضد المعاني . واحذر المجهول منها . وإياك
أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة . ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير
الأجساد » (١١٣) .

وأجاد البحترى في الغزل . وقدم شعراً يسيل رقّة وذنوبه في « علوة » . تلك
الغادة الحسنة التي تولّع بها وصبا إليها في مطلع شبابه . ولم يحظ بها . إذ
تزوجت من رجلٍ آخر . ولكنه لم يسل عنها . وظلّ طيفها يعاوده طوال حياته .
وضرب به المثل بين الأدباء . فأصبحوا يقولون : أرق من طيف البحترى . وقد
كانت أغلب شواهد الشريف المرتضى في كتابه « طيف الخيال » من شعره . إذ ذكره
في بضعة وسبعين موضعاً (١١٤) . ولا عجب في ذلك : فإن ابن رشيقي قال : « البحترى

(٤٩٦) وفيات الأعيان ١٦٦ - ٢٦٠ .

(٤٩٧) ينظر : حياة البحترى ووفته ص ١٥٨ . تاريخ الأدب العربي . العصر العباسي الثاني ص
٢٩٠ . البحترى في سمرام ص ١٧١ . الشعراء والشعراء في العصر العباسي ص ٧٠٨ .
البحترى بين نقاد عصره ص ١٧٣ .

(٤٩٨) زهر الآداب ١١٠ - ١١٠ .

(٤٩٩) ينظر : طيف الخيال (الفهرس) ص ١٤٨ - ١٥٨ .

أرقُ الناس نسيباً، وأصلحهم طريقة، لاسيما إن ذكرَ الطيف . فإنه البَابُ الذي شُهرَ به «(٥٠٠)» ومن شعره الشفاف الأسر قوله في فاتنته : (٥٠١)

خيالٌ يعتريني في المنام
لِعَلْوَةٍ إِنَّهَا شَجَنٌ لِنَفْسِي
إذا سَفَرْتُ رأيتَ الظَّرْفَ بَحْتاً
سلامُ اللهِ كِلِّلاً صَباحِ يومٍ
لقد غادرتِ في قلبي سقاماً
لئن قَلَّ التَّواصلُ أو تَمادَى
فكم من نظرةٍ لي من قريبٍ
أَتَخِذُ السَّمْعَاقَ هوى وداراً
لِسِكْرَى اللَّحْظِ . فاتنة القوامِ
وَبَلْبَالٍ لِقَلْبِي المِستَهَامِ
ونارِ الحُسنِ ساطعة الصُّرامِ
عليك . ومن يُبَلِّغُ لي سلامي ؟
بما في مقلتيك من السُّهامِ
بِنا الهجرانِ عاماً بعد عامٍ
إليكِ . وزورةٍ لكِ في المنامِ !
ومن أهواءٍ في أرضِ الشامِ ؟

والبحتري شاعر وُصِفَ من الدرجة الأولى . له مقدرةٌ فائقةٌ على تصوير مظاهر الحضارة . ومباهج العمران . ونعم الحياة . والطبيعة الخلابة برياضها وأزهارها . وله قدرة فذة في تقديم صور متحركة لموكب الخلافة . والجيش . والأسطول الحربي .. وكذلك وصف حياة البادية ومشاقها وما فيها من حيوان كالناقة والذئب والأسد .. وقد حدَّقَ في كل ذلك تفوقاً كبيراً ما يضعه ضمن أعظم الوصافين العرب . واليك هذه الأرجوزة اللطيفة بوقعها الموسيقي المحب ولغتها الجميلة السهلة في وصف سحابة ذات رعد وبرق . أَلقت مطرها على الأرض . فرويت وتفتحت أزهار رياضها . وامتلات غدراها بالمياه (٥٠٢) :

ذات ارتجازٍ بحنين الرِّعدِ
مسفوحيةً الذمغ لغير وُجدِ
ورنةً مِثْلَ زئيرِ الأسدِ
جاءت بها رِيحُ الصَّبَا من نجدِ
فراحست الأرض بعيش زُغدِ
كأنَّما غَدْرانُها في الوُهدِ
مَجْرورةٌ الذَّيْلُ . صدوق الوعدِ
لها نسيماً كنسيم الوُردِ
ولعُ بَرِّقِ كسيوفِ الهندِ
فانتشرتْ مثلَ انتشارِ العِقدِ
من وشي أنوارِ الرِّبِّي في بردِ
يلعبن من خبابها بالترُّدِ

(٥٠٠) الصمدة ٢ : ١١٩ .

(٥٠١) ديوانه ٢ : ١٩٣٢ .

(٥٠٢) ديوانه ١ : ٥٦٧ .

وللبحتري شعر جيد في رثاء مَنْ رُزِيءَ به . يفيضُ حزناً وألماً وحسرة . وقد مرّت بنا قصيدته في رثاء المتوكل التي قال فيها أبو العباس ثعلب : « ما قِلتُ هاشميةً أحسنَ منها . وقد صرّحَ فيها تصريحَ مَنْ أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب » (٥٠٣) . ومن مراثية القوية أيضاً ما قاله في القائد محمد بن يوسف الثغري وولده يوسف بعد مقتلهما . قال أبو الفرج الأصبهاني : « ومراثيه فيهما أجود من مدائحه . ورؤي أنه قيل له في ذلك . فقال : من تمام الوفاء أن تفضّل المراثي المدائح » (٥٠٤) . وله قصيدة رائعة في رثاء الفرسان الأبطال من بني حميد الطائي الذين استشهدوا في ساحة الحرب دفاعاً عن الكرامة والشرف والوطن . منها قوله (٥٠٥) :

تدانتُ مناياهم بهم . وتباعدتُ
فكل له قبرٌ غريبٌ ببلدةٍ
قصورٌ بأطرافِ الشُّغور كأنما
مضوا يستلذون المنايا خفيضةً
ولما رأوا بعضَ الحياةِ مذلةً
أبوا أن يذوقوا العيشَ والدمَ واقعً
مضاجعهم عن تريك المتنسم
فمن مُنجد نائي الضريح ومتهم
مواقعها منها مواقع أنجم
وحفظاً لذك السؤدد المتقدم
عليهم وعزّ الموت غير مُحرم
عليه . وماتوا ميتةً لم تدمم

وكان البحتري موفور الحظ في شعر العتاب . فله فيه صور دقيقة . قال ابن رشيق : « وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحتري » (٥٠٦) . أما الهجاء فإنه كأستاذه أبي تمام لم يكن موقفاً فيه . أو بالأحرى لم يكن مطبوعاً فيه . وقه نوّه أبو الفرج الأصبهاني بذلك . فقال : « شاعرٌ فاضل . حسنُ المذهب . نقيُّ الكلام . مطبوعٌ . كان مشايخنا رحمةً الله عليهم يختمون به الشعراء . وله تصرّف حسنٌ فاضلٌ نقيٌّ في ضروب الشعر . سوى الهجاء . فإن بضاعته فيه نثرة . وجيّد منه قليل » (٥٠٧)

(٥٠٣) زهر الآداب ١ : ٢١٦ .

(٥٠٤) الأهلبي ٢١ : ٤٢ .

(٥٠٥) ديوانه ٢ : ١٩٤٦ .

(٥٠٦) الصدفة ٢ : ١٦٠ .

(٥٠٧) الأهلبي ٢١ : ٢٧ .

وله أبيات قليلة في الحكمة استلهمها من صميم تجاربه وتفاعله مع الحياة مثل قوله: (٥٠٨) :

إذا المرء لم تبهك بالحزم كلّه قريحته لم تغن عنك تجاربه
وقوله (٥٠٩)

إذا ما الجرح رمّ على فإد تبيّن فيه تفريط الطبيب

خصائص شعره :

ان من أميز خصائص شعر البحري الوضوح الذي لاتمقيد فيه ولا ابتدال . الى جانب اللغة الصافية الشفافة التي لاتختنق بجرائر التفلسف والمنطق . والالتزام بالايقاع الجميل في ظل موسيقى هادئة مريحة . والتوسط في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية في صياغة رائعة وكأنها كما يقول ابن الأثير : « نساء حسان عليهن غلائل مُصَبَّعات وقد تحلين بأصنافِ الحلبي » (٥١٠) . وقد أشار البحري بنفسه الى مذهبه الشعري في الابيات الآتية : (٥١١)

كلفتهمونا حدودَ منطقتكم في الشعر يُلقَى عن صدقهِ كذبة
ولم يكن ذو القروح يلهج بال منطوق : مانوعة . وما سببه (٥١٢)
والشعر لمح . تكفي اشارته وليس بالهذر . طوّلتُ خطبة
لو أن ذاك الشريف وازن ييد من اللفظ واختار لم يقل : شجبة (٥١٣) .
واللفظ خلّي المعنى . وليس يُريد لك الصفر حسناً يريكه ذهباً (٥١٤)

(٥٠٨) ديوانه ١١ ، ٢٢٤ .

(٥٠٩) ديوانه ١ ، ١٠٠ .

(٥١٠) المثل السائر ١ ، ١٧٨ .

(٥١١) ديوانه ١ ، ٢٠٩ .

(٥١٢) ذو القروح ، امرؤ القيس .

(٥١٣) يرهد بالشريف ، عبيدالله بن عبدالله بن طاهر الذي جرت بينه وبين البحري مناقفة

بالصفر تجدها في الديوان .

(٥١٤) الصفر ، النحاس الأصفر .

ولا يعني هذا أن البحترى تخلى عن تراثه القديم . بل العكس . فانه جمع في شعره بين مذهب القدامى ومذهب المحدثين . أخذ عن القديم الجزالة والفصاحة والمتانة . وعن الحديث الرقة والعدوبة والسلاسة . وقد أصاب الأمدي في قوله : « ان شعر الوليد بن عبيد البحترى صحيح السُّبْكِ . حَسَنُ الديباجة . وليس فيه سَفَافٌ ولا رديءٌ ولا مطروحٌ . ولهذا صار مُستوياً يشبه بعضه بعضاً ... وما فارق عمود الشعر المعروف . وكان يتجنب التعقيد . ومستكره الألفاظ . ووحشي الكلام » (٥١٥) .

لقد نال اعجاب اغلب الدارسين ومحبي الشعر . وعدوه أطبع المحدثين والمولدين ؛ لأنه « يرسل نفسه على سجيته إرسالاً . ويُعبّر عن عواطفه كما يُعبّر الناس جميعاً حين يحبون أو يبغضون . فليس غريباً أن يجد كل إنسان من معاصريه مرآة لهذه العواطف التي يشعر بها في حياته . وفيما يختلف عليها من ظروف » (٥١٦)

(٥١٥) الموازنة ص ١٠ .

(٥١٦) من حديث الشعر والنثر ص ١١٧ .

ابن الرومي ٢٢١ - ٢٨٢ هـ

لم يلق هذا الشاعر الكبير . لسوء حظه . باهتمام مؤلفي كتب الادب والسير والطبقات من القدامى . اذ لانجد له ترجمة في طبقات الشعراء لابن المعتز . ولا في كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني . ولا في نزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري . ولا في معجم الادباء لياقوت الحموي ولعل اكثر من انصعه بترجمة موجزة لا تغني كثيراً الخطيب البغدادي وابن خلكان . وقد حظي في العصر الحاضر بأعمال طيبة من رجال فضاء . وفي مقدمتهم عباس محمود العقاد في دراسة قيمة . والدكتور حسين نصار في تحقيق ديوانه بستة أجزاء .

سيرته :

علي بن العباس بن جريج أو جورجيس . المكنى بأبي الحسن . والمعروف بابن الرومي . ولد في بغداد بالجانب الغربي لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ للهجرة من أب رومي . وقد أشار الى ذلك في شعره . فقال : (٥٧)

ونحن بنو اليونان من قوم لنا ججى ومجد وعيدان صلاب المعاجم
وقال في تورية لطيفة وهو يداعب فتاة : (٥٨)

ورومية يوماً دعتنسي لوصلها ولم أك من وصل الأغاني بمحروم
فقلت : فذتك النفس ماالأصل ؟ انني أريد وصلاً منك . قلت لها : رومي

وليس غريباً ان يكون هذا الشاعر من أصل رومي ؛ فان كثيراً من الاقوام أسلموا وامتزجوا بالعرب . ولاسيما في العصر العباسي . وكانت أمه اعجمية ايضاً تسمى حسنة بنت عبدالله السجزي كما ذكر المزرباني . (٥٩) وهي امرأة تقية صالحة . طيبة المعشر . تطعم الايتام وتجدد على الجيران بمطاعمها . ومن شعر ابن الرومي فيها بعد مماتها : (٥٢٠)

(٥١٧) ديوانه ١ ، ٦ : ٢٢٧٢

(٥١٨) الكشكول ١ ، ١٢٤ ، ولم يرد البيتان في ديوانه المطبوع .

(٥١٩) معجم الشعراء ص ١٤٥

(٥٢٠) ديوانه ١ ، ٦ : ٢٢٠٠

أقول . وقد قالوا : أتبكي كفاقد رُضاعاً وأين الكهل : من راضع الحلم ؟
هي الأم . يالللناس جُرعت ثكلها ومن يبك أمأ لم تُدْم قط . لا يُدْم

فقد ابن الرومي والده وهو صغير . وتعهدته أمه وأخوه الأكبر ويسمى محمداً
كان يعمل في دواوين الدولة . ولم يلبث ان توفي اخوه ولم يبلغ الثلاثين . وتوالت
عليه الشدائد . فماتت أمه . ثم تزوج وأنجب أطفالاً . ولكن القدر لم يمهلهم بهم .
فماتوا جميعاً حتى زوجته . فحزن عليهم أشد الحزن .

أما دراسته وعلمه وثقافته فلم تذكر المصادر شيئاً عنها . ويبدو أن الكتابات قد
أعطته قسطاً من علوم اللغة العربية وآدابها . وحينما اصبح يافعاً أخذ يختلف الى
حلقات العلماء في المساجد . ويتابع الكتب ويقرأها ويستخلص المعارف منها . وقد
أشار أبو العلاء المعري الى أنه « كان يتعاطى علم الفلسفة . واستعار من أبي بكر
ابن السراج كتاباً » (٥١١) . وهذا الخبر يدل على شغفه بالمطالعة واستنباط العلوم من
الكتب حتى الفلسفة . التي ساهمت في خلق الكثير من مميزات شعره التي سراها
فيما بعد

وكان غريب الأطوار . سوادي المزاج . انطوائياً النفس . كثير التطير والظن
والقلق . ضعيف الأعصاب . شديد الخوف . لا يستقر على حالة . تراه يمدح شخصاً
ثم لا يلبث ان يهجو . حتى قال عبيدالله بن سليمان بن وهب وهو يوصي ابنه
الوزير القاسم : « أرى مايسوءني ولا يسرنني . أرى رجلاً صحيح الشعر . بقيم
العقل . ومثل هذا لا تؤمن بوادره . وأقل غضبة يفضها تبقي في اعراضنا مالا يغسله
الدهر . والرأي ابعاده » (٥١٢) . وهكذا جعلته هذه الصفات رجلاً غير محظوظ
كأقرانه من الشعراء الذين وجدوا قبولاً حسناً عند الخلفاء وأعوان الدولة .

وفي موته رأيان . الاول : انه مات اثر مرض . والثاني : ان الوزير القاسم بن
عبيدالله دس له السم فمات ليتخلص من لسانه . وهذا ماذهب اليه أكثر المؤرخين .
وكانت وفاته لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ٢٨٣ للهجرة ودفن بمقبرة باب

الستان في الجانب الشرقي من بغداد ورويت له أشعارٌ قالها في نَزْعِهِ . منها مارواه ابو حيان التوحيدي عن احد الرواة قوله : دخلنا على ابن الرومي في مرضه الذي قضى منه فأشدنا :

ولقد سئمتُ مَربِي فكأنَّ طيبها خبيثُ
الآ الحديثُ فأنَّه مثلُ اسمه أبداً حديثُ (٥٣٣)

شعره :

برزت موهبة ابن الرومي في وقت مبكر . فقد صاغ ابياتاً في هجاء غلام عباسي وهو لا يزال في الكتاب (٥٣٤) ثم استمر في النظم حتى أصبح له ديوان في حجم كبير . حوى أغلب موضوعات الشعر المعروفة من مديح . وهجاء . ورتاء . ووصف . وغزل . وعتاب . وشكوى . وحكم ...

عاصر ابن الرومي عدَّة خلفاء . ولكنه لم يمدح منهم احداً مدحاً مباشراً الا الخليفة المعتضد . ويعزو أحد الباحثين ذلك الى « سوء طالعهِ في قصور الملوك . وجبنه عن اقتحام اجوائهم . واستهانتهم به لضآلة شخصه . وميوعة أسلوبه . المتجافى عن القعقة والجلباب » (٥٣٥) . ولا نظنُّ هذا هو السبب الرئيس . ولعل الواقع السيء الذي كانت عليه الخلافة زمن المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والدسائس الكثيرة في قصورهم نفرتهم عن اجوائهم وابعدهت عن ابوابهم . والبيتان الآتيان في مدح المعتضد يدلان على الاستبشار بعهد جديد : (٥٣٦)

هنيئاً بني العباس ان امامكم امام الهدى والباس والجود : أحمدُ
كما بأبي العباس أنشيء ملككم كذا بأبي العباس أيضاً يُجددُ

ان لابن الرومي ممدوحين كثيرين . يتجاوزون الاربعين . من وزراء . وكتاب . وحجَّاب . وحكَّام . وقوَّاد . وتجار . واصحاب جاهٍ ونفوذ ... ومع هذه الكثرة فانه لم يحظ بنوالٍ كبيرٍ منهم . وربما يتعلَّق ذلك بابن الرومي نفسه . فانه لم يكن دقيقاً

(٥٣٣) الامتاع والمواصلة ٢٧٠١ وينظر الديوان ١٠١ ٣٩٧ .

(٥٣٤) ينظر ديوانه ٥٦٢٠٢ .

(٥٣٥) ابن الرومي في الصورة والوجود ص ٢٨٢

(٥٣٦) ديوانه ١٠٢ ٦٦٠ .

في الدخول الى نفوس المدوحين وتشخيص مواطن الفضائل والمناقب التي يرتاحون لها وينتعشون لسماها كما كان يفعل أكثر شعراء عصره . فلو نظرنا مثلاً في قصيدته البائية في مدح احمد بن ثوبة التي تجاوزت مئة وثمانين بيتاً لما وجدنا فيها الا ابياتاً قليلة في موضوع المدح الخالص مثل قوله : (٥٧٧)

بوجهك أضحي كل شيء منوراً
وأبرز وجهاً ضاحكاً غير قاطب

وله شعر كثير في الهجاء . صب فيه حقه وغبه على كثير من الناس . وجردهم من انسانيته بأسلوب ساخر لاذع . وألصق بهم عيوباً ونواقص مثينة . وصوّر بعضهم تصويراً مضحكاً يكاد يكون منفرداً فيها . وقد عدّه العقاد من أشهر هجائي القرن الثالث مع الشاعر دعبل الخزاعي . (٥٧٨) مثل قوله وهو يفضل الكلب على المهجو : (٥٧٩)

والكلب وافٍ وفيك غدرٌ ففـيـك عن قدره سـفـولٌ
وقد يحامي عن المواشي وما تحامي ولا تصولُ
وأنت من أهل بيتٍ سوءٍ قـصـتـهم قـصـةً تطولُ
وجوههم للورى عـظـاتٌ لكنْ أـقـفاءهم طـبولُ (٥٨٠)

وأوقف ابن الرومي قسطاً من شعره على المرأة . ووصفها وصفاً بديعاً . وأضفى عليها ألوان الطبيعة وظلالها . وحياناً لولا القرينة لما أدركت أنه يصف امرأة . مثل قوله في بستان المغنية . (٥٨١)

بستانٌ : يا حسرتا على زهرٍ فيك من اللهو بل على ثمر
بستانٌ : لم يستعر لك اسمك يا بستان لذاتنا ولم يغر

واسلوبه في الغزل شفاف ورقيق لا يخدش السمع مثل قوله وهو يرد على اولئك الذين يلومون العاشقين . لأن لومهم يغيرهم بزيادة الحب والامعان فيه . كما تغري الريح النار بشدة الاحراق : (٥٨٢)

(٥٧٧) ديوانه ١ : ٢٢٢ .

(٥٧٨) ابن الرومي ، حياته ، من شعره ص ٢٢٢

(٥٧٩) ديوانه ٥ : ٢٠٤

(٥٨٠) اي القفاوم تصلح للضرب والصفع عليها كالضرب على الطبول .

(٥٨١) ديوانه ٢ : ٩١٨

لأكثرن ملامة العَشَّاقِ فكفاهسم بالوجد والأشواق
أنَّ البلاءَ يطاقُ غير مضاعفٍ فاذا تضاعفَ كان غيرَ مُطاقٍ
لأتظفئسنَّ جوى بلوم. أنه كالريح تُغرى النارَ بالإحراق
ما للمحبِّ اذا تفاقمَ داؤهَ غيرَ الحبيبِ يزورُهُ من راقبي

وكانت له عمقيرة فذة في وصف المرئيات والمعنويات . بما أتيح له من دقة
التصوير وبراعة التشخيص وحسن التعبير . فقد وصف الرياض والأزهار والثمار
والأطيوار والحيوان . كما وصف أنواع الطعام ومجالس المنادمة والمغنيات . ومظاهر
ال عمران . والطبائع والعادات والعاهات . وأصحاب المهن والحرف ... مثل قوله في
وصف الخباز ومهارته في صنع الخبز بسرعة فائقة تشبه اللمحة الخاطفة : (٥٣٣)

ما أنس لا أنس خبازاً مررتُ به يدحو الرُقاقةَ وشكَّ الملح بالبصرِ
مابين رؤيتها في كفه كرةً وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الأب بمقدار ماتسنداخ دائرةً في صفحة الماء يرمى فيه بالحجرِ
واليك هذا المشهد الرائع الذي يُصوِّرُ الشمسَ ساعة غروبها وتوديعها
للطبيعة : (٥٣٤)

اذا زَنَّتْ شمسُ الأصيلِ ونَفَّضَتْ على الأفقِ الغربيِّ ورُساً مُذعدعاً (٥٣٥)
وودَّعتِ الدنيا لتتقضي نحبها وشوَّلَ باقيَ عمرها فتشعشعا (٥٣٦)
ولاحظتِ النَّوازَ وهي مريضةٌ وقد وضعت خدّاً الى الارض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مُدنبٍ توجع من أوصابه ما توجعا

(٥٣٣) ديوانه ٤ ، ١٦٦٢

(٥٣٣) ديوانه ٢ ، ١١١٠

(٥٣٤) ديوانه ٤ ، ١٤٧٥

(٥٣٥) رنقت ، يقال رنق الطائر اذا ولف صافاً جناحيه لا يمضي ، وترنق الشمس مستعار
من ترنيق الطائر وهي ميلها الى المقيب ودنوها من الافق . الورس : نبات اصفر .
مذدع : محرك ، لعله يريد به اهتزاز الأشعة في بصر الناظر .

(٥٣٦) النعب : النوم . شول : نقص ، قل ، وشولت الناقة : جفت البانها . تشمّع : يقال
تشمّع الشهر اي بقي منه قليل .

وظلّت عيونُ النورِ تخضُّلُ بالندی
يراعينها صوراً اليها روانيا
كما اغرورقت عين الشَّجِيّ لتدمعا
ويلحظن الحاظاً من الشجورِ خشعاً (٥٢٧)
وبين اغضاء الفراقِ عليهما
كأنهما خلا صفاءً توذعاً (٥٢٨)

مأجمل هذه اللوحة وأروعها : انها رُسمت بريشةً دقيقةً مظهره شمس
الأصيل وهي مائلةٌ نحو الأفق استعداداً للرحيل تاركه الأرض الخضراء
بزروعها وورودها حزينةً متوجعةً بعد مودةٍ ومحبةٍ ولقاء .

وكان ابن الرومي ينقلب في ساعاتٍ من حياته الى انسانٍ متفجعٍ ينتزى
جرحاً ويتفجرُ ألماً وحزناً بعد أن يرصد الدهر سهامه له في أسرته واحداً بعد
الأخر . ويُقدِّمُ فيهم شعراً حزيناً . ولاسيما في ابنه الأوسط محمد . اذ نراه
يبكيه بأشجى الحان الابوه المفجوعة في فلذة الكبد ومصيبة الولد . مثل
قصيدته الدالية التي لاتقل روعةً من قصيدة ابي ذؤيب الهذلي في عينيته
المشهورة التي رثى فيها ابناه السبعة الذين ماتوا الأطفالاً . قال ابن الرومي
من قصيدة تتجاوز اربعين بيتاً : (٥٢٩)

بكاؤكما يشفي وان كان لايجدي
بني الذي أهدته كفاي للثرى
فجودا فقد أودى نظيركما عندي
فياعزة المهدي وياحسرة المهدي
من القوم حبات القلوب على عمد
فله كيف اختار واسطة العقيد
وأنست من افعاله آية الرشد
بعيداً على قرب قريباً على بعد (٥٣٠)
لذاكره ما حنت النيب في نجد (٥٣١)

(٥٢٧) يراعينها ، يلاحظها . صوراً ، موالد . روانيا ، مديحات نظرهن .

(٥٢٨) بين ، تبين اغضاء الفراق ، دنوه

(٥٢٩) ديوانه ٢ ، ٦٢٤

(٥٣٠) يقول : ان ابنه صار بعيداً على الرغم من قرب مكان دفنه . قريب المكان ولكنه بعيد
المنال الا بالذكريات

(٥٣١) النيب : جمع ناب وهي الناقة .

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع النيين الفقد لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه في جزوع و لا جلد (١١٢) هل العين بعد السمع تكفي مكآته " ام السمع بعد العين يهدي كما تهدي ؟

ومن شعره الرثائي المشهور قصيدته الطويلة التي بكى فيها على مدينة البصرة الفيحاء التي ضربها الزنج بقساوة وعنف . وخربوها . وأدلوا أهلها . وعصفوا بمنجزات الحضارة فيها سنة ٢٥٧ للهجرة في خلافة المعتمد . وكانت هذه الحادثة من أسوأ الحوادث التي وقعت على هذه المدينة . وجاءت قصيدة ابن الرومي التي ترددت بين الغضب والحزن تشرح هذه المأساة الدامية التي أذهلت الناس آنذاك .
منها قوله : (١١٣)

لهف نفسي عليك ايتها البص	رّة لهفأ كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك ياقبة الـ	لام لهفأ يطول منه غرامي
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً	ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه	وهو يعمل بصارم صمام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة مصونة قد سبوا	بارزاً وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم	طول يوم كأنه ألف عام

ولابن الرومي شعر لطيف في الحنين الى الأوطان . والشكوى والعتاب . والشيب والشباب . والحكمة والمثل . لم يكن متخلفاً فيه ولا مقصراً . بل يبلغ في بعضه مرتبة لا نظير لها . مثل قوله : (١١٤) .

ولبي وطن أبيت إلا أبيعـه	وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة	كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
فقد أفتة النفس حتى كأنه	لها جسد أن بان غودزت هالكا
وحبب أوطان الرجال اليهم	مأرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عدود الصبا فيها فحنوا لذلكا

(٥٤٢) الجزوع ، هو الكثير الجزع ، والجلد ، هو الصبور على العوادث .

(٥٤٣) ديوانه ١ ، ٦ ، ٢٣٧٧ .

(٥٤٤) ديوانه ١ ، ٥ ، ١٨٢٥ .

خصائص شعره :

عُرف عن ابن الرومي بكثرة النظم . وإطالة النفس . حتى يصل في بعض قصائده الى ثلاث مئة بيت تقريباً وقد ضاع جزءٌ من شعره كما يرى المستشرق روفون جست . ويقول في المتبقي منه : « ونستطيع أن نقدره بما لا يقل كثيراً عن ضعف شعر البحتري . وثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف شعر أبي تمام » (٥١٥)

إن أميز خصائص شعره التعمق في المعاني . والتحليل . والاستقصاء . واستعمال المنطق . قال المرزباني هو « أشعر أهل زمانه بعد البحتري . وأكثرهم شعراً . وأحسنهم أوصافاً . وابلغهم هجاءً . وأوسعهم افتتاناً في سائر اجناس الشعر وضروبه وقوافيه . ويركب من ذلك ما هو صعب متناوله على غيره . ويلزم نفسه ما لا يلزمه . ويخلط كلامه بالألفاظ منطقية يجعل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ » (٥١٦) . إنه كان يدخل الى أعماق المعاني بفكره الثاقب ويستخرج منها النوار والدرر . وقد عرف له هذا ابن خلكان فقال : « صاحب النظم العجيب . والتوليد الغريب . يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة » (٥١٧) .

وكان ابن الرومي صاحب ثروة لغوية كبيرة . يعرف دقائقها وأسرارها . ويحسن اختيار الألفاظ والعبارات منها . أما المحسنات اللفظية فقد استعان بها في تحسين صورته . ولكنه لم يسرف فيها اسراف أبي تمام .

ومع براعته . ودقته . ومعانيه . وبديع صورته وأخيلته لم يسلم من النقد . فطه حسين يقول : « طول وقوف ابن الرومي عند المعاني يضطره الى أن يطيل النظر فيها . فهو يتصرف فيها ويعبثُ بها أكثر مما كان أبو تمام يتصرف في معانيه » (٥١٨) . إن كل شاعر مهما كان مقتدرًا ومتمكناً من ناحية القريض لا بد أن تقع في شعره هنات يؤاخذ عليها . وقد أدرك ابن الرومي ذلك . وعرف ان النقد سوجه اليه . ولذلك شبه شعره بالشجر . ي يرى فيه اللحاء والخشب والشوك والثمر : (٥١٩)

(٥١٥) ابن الرومي ، حياته وشعره ص ٨١ .

(٥١٦) معجم الشعراء ص ١٤٥ .

(٥١٧) وفيات الاعيان ٢ ، ٣٥٨ .

(٥١٨) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٨ .

(٥١٩) ديوانه ٢ ، ١٠٢٩ .

قولا لمن عاب شعرا مادحه
رُكِبَ فِيهِ اللُّحَاءُ وَالْخَشْبُ الـ
وكان أولي بأن يسهب ما
فلم يكن ذلك بل سواه من الـ
والله أدري بما يدبره
فليعذر الناس من أساء ومن
مطلبه كالمغاص في درك اللجج
وليدكروا أنه يكذ له الـ
وفيه ما يأخذ التخير من
وليس بد لمن يغوص من الـ

أما ترى كيف رُكِبَ الشجر؟
يا بئس والشوك بينه الثمر
يخلق رب الأرباب لا البشر
أمر لشيء جرى به القدر
منا . وفي كل ما قضى الخير
قصر في الشعر . إنه بشر
ة من دون ذرها خطر
عقل وتنضى في قرصه الفكر
غال ثمين وفيه ما يذر
جرف لما يسطفى ويحتقر

عبدالله بن المعتز

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

ظهر في بني العباس مجموعة من الشعراء الجيدين . كانت لهم منزلة رفيعة في دنيا الأدب . ويكاد عبدالله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ للهجرة . والراضي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة (٥٠٠) . من أشهر رجال هذه الأسرة في قرض الشعر والاجادة فيه .

سيرته :

أبو العباس عبدالله بن الخليفة المعتز بالله محمد بن الخليفة المتوكل على الله جعفر . يصل نسبة إلى علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم . وقد افتخر بهذا النسب قائلاً : (٥٠١)

أبها السائلي عن الحسب الأط يب ما فوقه لخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الح ق وأهل القربى فماذا تريد
ولنا ما أضاء صبح عليه واتته رايات ليل سود
وملكنا رق الإمامة ميرا ثا . فمن ذاعنا بفخر يحد
وأبونا . حامى النبي وقد أد بر من تعلمون وهو يذود

في مدينة سامراء ، مدينة الخليفة المعتصم . وعاصمة الخلفاء العباسيين من بعده . ومركز الاشاع الحضاري في القرن الثالث للهجرة . ولد ابن المعتز سنة ٢٤٧ للهجرة بعد مقتل جدّه المتوكل بأربعين يوماً على أرجح الآراء والروايات (٥٠٢) .

فرح الأب بهذا المولود . وضرب باسمه الدنانير . وتولّى تربيته وتنشئته في حجر العز والكرامة . ودوحة العلم والمعرفة . ولكن هذا الأمر لم يدم . إذ قتل هذا الأب

(٥٠٠) وصل الينا المختار من ديوانه مرتباً حسب الحروف الهجائية (أخبار الراضي بالله والمتقى لله ص ١٥٤ - ١٨٢) .

(٥٠١) ديوانه ٨٠١١ .

(٥٠٢) تاريخ بغداد ٩٥ : ١٠ ، وفيات الاعيان ٣ ، ٧٦ .

غداً في شعبان سنة ٢٥٥ للهجرة . ولم يتجاوز عمر ابنه ثمانية أعوام وقد سكنت المصادر عن ذكر أمه . فلم تعطنا شيئاً عنها سوى انها كانت جارية لجدته قبيحة (٥٥٣) .

توجه ابن المعتز نحو الدرس والتعلم منذ الصغر . وكان والده قد اختار له أبا جعفر محمد بن عمران الضبي النحوي الكوفي ليؤدبه . (٥٥٤) وسارت جدته في هذا الاتجاه . فهيات له مستلزمات الدراسة . واختارت له مجموعة من الأساتذة في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والنحو والأدب ... قال ابن النديم : « كان يقصد فصحاء الأعراب . ويأخذ عنهم . ولقي العلماء من النحويين والخباريين » (٥٥٥) . ومن أشهر العلماء والأدباء الذين درس عليهم : أحمد بن سعيد الدمشقي . وأبو العباس المبرد إمام البصريين في اللغة والأدب . وأبو العباس ثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة . وأحمد بن يحيى البلاذري المؤرخ المشهور . والتقى بكثير من رجال المعرفة . وجالسهم امثال : قدامة بن جعفر . وأبي بكر الصولي . وابن خلاد البصري . وأبي سعيد محمد بن هبيرة الأسدي . وأحمد بن أبي قنن ...

لم يترك ابن المعتز علماً من علوم عصره إلا قرأه بينهم وأخذ منه . حتى الموسيقى . قال أبو الفرج الأصبهاني : « كان عبدالله حسن العلم بصناعة الموسيقى . والكلام على النغم وعللها » (٥٥٦) . وظهرت ثمرة دراسته في وقت مبكر . إذ نراه وهو في الثالثة عشرة من عمره بنظم أبياتاً يخاطبُ بها أستاذه ومؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقي . منها (٥٥٧) :

سَرَّ بِلْتَنِي حِكْمَةً قَدْ هَدَّبَتْ شِمِي وَأَجَّجَتْ غَرْبَ ذَهْنِي فَهُوَ مُشْتَعَلٌ
أَكُونُ إِنْ شِئْتُ قُتاً فِي خَطَابَتِهِ أَوْ حَارِثاً وَهُوَ فِي يَوْمِ الْفَخْرِ مَرْتَجَلٌ
وَإِنْ أَشَأُ فَكَزِيدٍ فِي فَرَائِضِهِ أَوْ مِثْلَ نَعْمَانَ لَمَّا ضَاقَتِ الْحَيْلُ
أَوْ الْخَلِيلِ عَرُوضِياً أَوْ فِطْنِ أَوْ الْكَسَائِي نَحْوِياً لَهُ عِلَلٌ
تَغْلِي بَدَاهَةَ ذَهْنِي فِي مَرَاكِبِهَا كَمِثْلِ مَا عَرَفْتُ آبَائِي الْأَوْلُ

(٥٥٣) ذيل الأملح والنوادر ص ٩٩ .

(٥٥٤) معجم الأدباء ٥٢٠٧ .

(٥٥٥) الهرست ص ١٦٨ .

(٥٥٦) الأغاني ١٠٠٣٦٦ .

(٥٥٧) ديوانه ٣٠٣٤٦ .

هذا الشعر - كما قال الدكتور طه حسين (٥٥٨) - على خلوه من الجمال الفني . أو على خلوه من الشعر . كثير على فتى في الثالثة عشرة من عمره . ولكنه على كل حال يمثل غرور الصبي . وأعجاب الفتى بنفسه ... يرى انه يكون خطيباً كقس . وشاعراً كالحرث بن حنيفة . وبارعاً في الميراث كزيد بن ثابت . وبارعاً في الفقه وحيله كأبي حنيفة . وماهراً في العروض كالخليل . وماهراً في النحو كالكسائي . ويشكُّ الدكتور سعد شلبي بهذه القدرة على النظم في هذا العمر فيقول : « يغلب على ظني أنّ هذه الأبيات مما نحل عليه . ويرشح ذلك انها أسمى من ان يقولها غلام في الثالثة عشرة . هذا من حيث هو شعر . ومن حيث مضمونها أيضاً . فيندر ان يلمَّ صبي بهذه المعارف كلها » (٥٥٩) . ومهما قيل في هذه الأبيات الشعرية . فإنَّ أكمّام غرسه تفتحت في أول شبابه وأصبحت تعجب الناظرين . وقد روى له أبو الفرج الأصبهاني شعراً قاله في مجلس عمه أبي عيسى بن المتوكل نال استحسان العارفين بقواعد الشعر وأصوله وهو دون عشرين سنة . (٥٦٠)

توزعت حياة ابن المعتز بين الدرس والقراءة والتأمل والتأليف وبين اللهو واللعب والمناذمة والغناء والموسيقى ومغازلة الحسان وركوب الخيل والصيد والاستمتاع بجمال الطبيعة بعيداً عن الحياة السياسية والصراع على السلطة .

لقد كان عهد شبابه ناضراً بهياً رخياً . عبّر بشعر كثير عن هذا العهد المملوء بالانشراح والانفتاح على عالم اللهو والأنس والطرب . ومع كل هذا الابتعاد عن جو السياسة والسلطة لم يسلم من واقعة وخيمة كان فيها حتفه . فإن القواد الذين كانت بأيديهم مقاليد الأمور تأمروا على الخليفة المقتدر وخلعوه ونصبوا مكانه ابن المعتز . وبايعوه بالخلافة . واستجاب لهذه المبايعة على شرط « ألا يكون في ذلك سفك دم

(٥٥٨) من حديث الشعر والنثر ص ١٥٦ .

(٥٥٩) ابن المعتز العباسي ، صورة لصوره ص ١٠٢ .

(٥٦٠) الأملاني ١٠ ، ٢٨٢ .

ولا حربٍ . فأخبروه أَنَّ الأمرَ يَسَلَّمُ إليه عفوًا . وَأَنَّ جميعَ مَنْ وراءهم من الجند والقوَاد والكتَّاب قد رضوا به . فبايعهم على ذلك «(٥١١)» . والغريب أَنَّ القواد أنفسهم اختلفوا فيما بينهم وأعادوا المقتدر إلى السلطة وخلصوا ابن المعتز بعد يوم ليلة من تنصيبه على كرسي الحكم . وقبص عليه . وادع السجن . وقتل بعد ان عَذِبَ عذاباً شديداً . وكان ذلك يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٦ للهجرة وله من العمر تسعة وأربعون عاماً ودفن في خربة بازاء داره .(٥١٢) . وَفَجَّعَ فِيهِ رَجَالُ الْأَدبِ والقريض ورثوه بشعر حزين . منهم أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن بسام في قوله : (٥١٣)

للهِ دَرْكٌ مِنْ مَيْتٍ بِمُضِيْعَةٍ نَاهِيكَ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَابِ وَالْحَسْبِ مَا فِيهِ لَوْ . وَلَا لَيْتَ . فَتُنْقِصَهُ وَإِنْسَمَا أَدْرَكْتَسُهُ حِرْفَةَ الْأَدَبِ

بقي ابن المعتز مذكوراً بعد رحيله بكتبه النفيسة التي تركها وراءه . وقد ضاع بعضها ووصل إلينا بعضها الآخر . منها : كتاب طبقات الشعراء . وكتاب البدع . وكتاب أشعار الملوك . وكتاب الآداب . وكتاب فضول التماثيل في تبشير السرور الى جانب ديوانه الكبير ورسائله .

نغ ابن المعتز في نظم الشعر . واشتهر فيه . حتى أصبح احد أعلام الأدب في العصر العباسي . قال ابن رشيقي : « ليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نواس . ثم حبيب والبحتري . ويقال : إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد . ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز . فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين وامريء القيس في القدماء . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ لَا يَكَاذُ يَجْهَلُهُمْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ » (٥١١) .

(٥١١) تاريخ الطبري ١٠ ، ١٤ .

(٥١٢) وفيات الأعيان ٣ ، ٧٧ .

(٥١٣) فوات الوفيات ٢ ، ٢٤٠ .

(٥١٤) العمدة ١ ، ١٠٠ .

إن هذه الشهرة جاءت من إجادته في الشعر . بل كل أغراض الشعر . وبلوغه فيه مرتبة رفيعة حتى عدُّ « أشعر قریش ؛ لأنه قال في الخمر . والطرده . والغزل . والمديح . والهجاء . والمذكر . والمؤنث . والمعانيب . والزهد . والأوصاف . والمراثي ... فأحسن في جميعها » (٥١٠) .

لم يتخذ ابن المعتز المديح وسيلة للعيش وسبيلاً لكسب المال . وإنما نظم فيه وفاة وإخلاصاً لأصدقائه ومحبيه . أو مجاملة للخلفاء والوزراء . أو تطميناً للنفس وابعاداً للشبهات من رجال السلطة الذين أطاحوا برأس جدّه وأبيه . فمن شعره مثلاً قوله في مدح صديقة يحيى بن علي المنجم أحد رجال الأدب آنذاك (٥١١) :

إنّ يحيى - لازل يحيى - صديقي
زاد وذي له صفاء كما في
ومن مديحه للخليفة المعتضد قوله (٥١٢) :

فأهلاً بذاك وسهلاً به
ويوحى الصواب إلى قلبه
وبالحق ينعمش قوماً به
ويسهر والناس في غفلة
وتخضر من سلمه أوجه الـ
ولم يرقط شبية له
إذا الدهر لاقى لــــه عزمة
يقصّر جهدي عن شكره

إنّ القاريء لهذا الشعر القريب من النثر يلمس أنّ صاحبه قد دفع نفسه دفعاً إلى نظمه . فلا يجد فيه عمق العبارات وصدقها . وقوة المعاني وحرارتها كما يجدها مثلاً في مديح إبراهيم بن هرمة للمنصور . ومسلم بن الوليد للرشيد . وأبي نواس للأمين . وأبي تمام للمعتصم . والبحري للمتوكل ... ولا يعني هذا أن ابن المعتز كان مقصراً في فن المديح . بل العكس . إذ نجد له قصائد جيدة شكلاً ومضموناً مثل رأيته التي مدح بها المعتضد وعرّج فيها على تهنئته بقصر « الثريا » الذي أبداع الفنانون في بنائه . قال في أولها : (٥١٨)

(٥٦٥) أثمار أولاد الخلفاء ص ١١٢ .

(٥٦٦) ديوانه ١١٠١ .

(٥٦٧) ديوانه ١٠٢٧ .

(٥٦٨) ديوانه ١٠٢٤ .

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دارٍ ومنزلٍ فلا زال معموراً وبورك من قصر
وقال في خاتمتها :

فكل أناس يشهرون أكفهم دعاء له بالعز فيهم وبالنصر

وهو كثير الفخر بمآثر أسرته وفضائلها . وبنفسه التي جعل منها بطلاً مغواراً وفارساً
هماماً في الوغى . مع إنه - على علمنا - لم يشارك في حرب ولم يقاتل في معركة .
مثل قوله (٥٦٩) :

هاشمي إذا نسيت ومخضو ص بيت من هاشم غير عار
ولي الصافات تردى إلى الموت ولا تهدي سبيل الفرار
وسيوف كأنها حين هزت ورق هزة سقوط القطار
وسهام تهدي الردى من بعيد واقعات مواقع الأبصار
أنا جيش إذا غدوت وحيداً ووحيداً في الجحفل الجزار

انشغل ابن المعتز في جانب من حياته بالحنان والحنانوات . وقد استأثرت
محبوته « شرة » بجزء كبير من شعره الغزلي الذي بث فيه لوعته وهيامه وصابته
فيها . وهو - في الغالب - لم ينفرد بشيء جديد في هذا الفن الذي اشتهر به الكثيرون
في العصر العباسي . مثل قوله : (٥٧٠)

عصيت في شرٍ فما أنساها وخجبت عني فما أراها
وطويت نفسي على جواها وغصة يذب حنني شجاها
فذاك من حالي وما أسلاها ليست ترى عين الهوى سواها
وقوله (٥٧١) :

يقولون لي والبعد بيني وبينها بانأت نأت عنك شرٍ وانطوى سبب القرب
فقلت لهم والحب يفضحه البكا لئن فارقت عيني لقد سكنت قلبي

وانشغل أيضاً إلى جانب الغزل بالخمرة وتحدث عنها حديثاً مهلباً . وتوسّع في
وصف مجالسها وندمائها وسقاتها وأباريقها وفعالها في الشاربين ودبيبها في المنتشين .

(٥٦٩) ديوانه ١٠٣ ، ١

(٥٧٠) ديوانه ١٠٧ ، ١

(٥٧١) ديوانه ١١٧ ، ١

وصرح كثيراً بحبه لها وولعه بها ومقارعة كؤوسها مع صحبه وسُمّاره . مثل قوله وهو يدعو نديمة لقيام الليل على هديها(٥٧٢) :

قد أظلم الليل يا نديمي فاقدح لنا السنار بالمدام
كأن نني والورى رقود أقبل الشمس في الظلام

وانظر كيف يدعو إلى شربها جهراً وعلانية في مجلس أنس وطرب وغناء بلا
اكتراب إلى عتاب أو عقاب . حالة كحال الوليد بن يزيد الذي عُرف بمصاحبة
الراح والوجوه الملاح(٥٧٣) :

عللاني بصوت ناي وعود واقنياني ذم ابنه العنقود
أشرب الراح وهي تشرب عقلي وعلى ذلك كان قتل الوليد
رب سكر جعلت موعده الضح وساق حثثته بمزيد

ولم يقتصر ابن المعتز في الوصف على الخمرة . بل وصف كل شيء بديع
وجميل وقعت عينه عليه . ولعل الوسط الذي كان يعيش فيه . بما فيه من ثروة
وفيرة ووسائل للترفيه كثيرة . أثر في الاقبال على هذا اللون من النظم . وانظر إلى ما
يقوله في الأبيات الآتية حينما أقبل الربيع ولبت الأرض وشياً مطرئاً بالألوان
الزاهية وغنت الأطيبار بأصواتها الشجية(٥٧٤) :

جد ربح الربيع وازدوج الطير ز ولاحت بوارق الأنواء
وترى الروض لابأثوب وشي نسجته للهو أيدي السماء
فتجلى مصفره بأخضرار واحمرار لكثرة الأنداء
فاسقنا يا غلام إذ غنت الطير ز وجاء الربيع راحاً بسماء

ان غرام ابن المعتز بالطبيعة دفعة أن يصورها تصويراً بارعاً بلا
تكلف او افتعال بأشكالها والوانها ويقدمها للقارئ في إطار جذاب بهيج . قال
الدكتور طه حنين انه « يصور جمال الرياض والبساتين تصويراً هو آية في الابداع
الفني . لا أظن أحداً قد استطاع أن يأتي بمثله في تشبيهاته واختراع المعاني
البديعة التي تثيرها هذه الرريض «(٥٧٥) . انظر الى هذه الأبيات في وصف
الرجس : (٥٧٦)

(٥٧٢) ديوانه ٢ : ٢٢٥ .

(٥٧٣) ديوانه ٢ : ١٠١ .

(٥٧٤) ديوانه ٢ : ٤٩٢ .

(٥٧٥) من حديث الشعر والنثر ص ١٦٤ .

(٥٧٦) ديوانه ٢ : ٥٨٨ .

عيونٌ إذا عاينتها فكأنما
مدامعها من فوق أجفانها دُرٌّ
محاجرُها بيضٌ وأحداقها صفَرٌ
لدى روض بستان كأن نباته
تقنع وشياً باكرة القطر

ويأخذ الطرد جانباً كبيراً من ديوانه . فهو وِصافٍ بارعٍ يصاحبه خيالُ خصبٍ
في تصوير رحلة الصيد والحيوانات والطيور التي تُستخدم في القنص . مثل قوله في
وصف كلاب الصيد : (٥٧٣)

ولما غدتْ خيلنا للطرادِ
وقاد مكلبنا ضمراً
معلّمة من بنات الريا
وتخرج أفواهاها السنناً
جعلنا الى الذير ميعادها
سلوقية طالما قاذها
ح إذا سألست غدوها زادها
كفتق الخناجر أعمادها
وأمكن صيداً ولم تدمه
كضم الكواعب أولادها

ويملك ابن المعتز طاقةً شعريةً متدفقةً في مواقف الأسي والبكاء على الموتى من
أهله وذويه وأصحابه الذين أخلصوا له الودَّ ووقفوا الى جانبه في أيام حياته العسبية .
وكثيراً ما يث في هذا اللون من الشعر الأمامه ويشير الى العظماء من قومه الذين
طواهم الزمن . ويُلح الى عصره المملوء بالغدور والوقعة بالأشراف . مثل قوله في رثاء
أهله : (٥٧٨)

لله أوقامٌ فقدتْهم
أين السبيل الى لقائهم
أسد الوعى وبدوز أندية
هيها لا ألقاهم أبداً
سكنوا بطون الارض والحفرا
أم من يحدث عنهم خبراً
تهوى العيون إليهم النظراً
سقياً لهم ولعصرهم غصراً
تركوا الزمان مرقباً خلسقا
والناس لا جناً ولا بشرأ
وكأنما الأخلاق في خلسق
لاعين من كرم ولا أثراً
كم فورق بالبشر مبتسم
لا أجتني من غصنه ثمرأ

ولم تمنع رفعة منزلته . وعلو مكائته . وسمو أسرته من الهجاء والذم والتفريع .
وهو في غالب هذا اللون من النظم لا ينزلق الى مهاوي الفحش المستكره والسب
المستقبح مثل قوله في هجاء أحد جلسائه : (٥٧٩)

(٥٧٧) ديوانه ١٢ ، ٤٢٢ .

(٥٧٨) ديوانه ٢ ، ٢٦ .

(٥٧٩) ديوانه ١١ ، ٦٥ .

اقطع وصالي فلست مني وذم على جفوتي وهجري
لا أشتهي الخل عند عيني صديق وفري عدو فقري
وقوله في آخر :

أقول وقد صد عنني امرؤ وما كنت بالصد منه جدير
كما لم أر النفع في وصله كذلك هجرانه لا يضير

ونجد في ديوان ابن المعتز شعرا في الزهد والوعظ والنصح والحكمة ، وهي - كما
يبدو - منترعة من تجاربه وتجارب الآخرين الذين سبقوه وقد صبها في قوالب جميلة
متساعة مثل قوله : (٥٨١) :

اصبر على حسد السعد و فأن صبرك قاتل
فالنار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله
وقوله : (٥٨٢)

تجاوز عن جناية كل دهرٍ وصاحب يوم حادثة بصير
وان نابتك نائبة فشاوِر فكم حصد المشاور غب أمر
وقنم هم نفسك في نفوس ولا تنفردن بطول فكر

خصائص شعره :

كان ابن المعتز يتدفق شعراً منذ مطلع حياته ينظم في كل شيء يثيره أو
يلفت نظره ومن هنا كثر هذا الشعر في كل الأغراض . وقد سلك فيه مسلكاً سهلاً
ميسوراً لاوعورة فيه ولاتعقيد . ارتفع في بعضه الى مستوى رفيع يضاهي المستوى
الذي بلغه كبار شعراء الامة العربية قال الدكتور طه حسين : « هو مطبوع ليس
متكلفاً ولا متعملاً في شعره . وهو يؤثر السهل على القريب . وهو حريص ما استطاع على
جزالة اللفظ . وهو يعنى بهذه المعاني المترفة . التي تلائم حياته وبيئته . وهو
شغوف بفن خاص من فنون الشعر . يظهر أنه قد تفوق فيه على الشعراء . وهو فن
الوصف والوصف المادي بنوع خاص ووصف الأشياء المادية الجميلة التي تلائم
هواه . وهو من أكثر الشعراء تشبيهاً . ومن أبرعهم في هذا التشبيه ... يبحث عن
طرائف الاشياء . ووجوه تشبيهه قريبة . يفهمها كل انسان في سهولة ويسر . وفي
غير مشقة ولا عناء » (٥٨٣) مثل قوله في الهلال والنجوم : (٥٨١)

(٥٨٠) ديوانه ١ ، ٦٥٨ .

(٥٨١) ديوانه ٢ ، ١٩٤ .

(٥٨٢) ديوانه ٢ ، ١٦٨ .

(٥٨٣) من حديث الغر والنثر ص ١٥٨ .

(٥٨٤) ديوانه ٢ ، ٦٥٥ .

انظر الى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحنسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا
ومثل قوله: (٥٨٥)

لي بكاء وللسحاب بكاء فدموعـــــــــــــــــي هوى وذاك هواء
نحن في الحالتين شتى وفيما قد بدا لللعيون مناً سواء
ياجفون السحاب دمعك يفنى عن قليل وما لدمني فناء
أنا أبكي طوعاً وتبكين كرها ودموعي دمٌ ودمعك ماء
بك يحيا العباد من بلل القط رويحياً بمقلتي الشراء

لقد كان ابن المعتز بارعاً في رسم الصورة الشعرية ووضعها في اطار جذاب حتى
عدّه الدكتور مصطفى الشكعة: « فنان الشعر العربي . وأستاذ الشعراء العرب في
مجال التشبيه الرائق والصورة الأنيقة التابعة من طبيعة الفن الكامنة فيه . ومملكة
الشعر والموسيقى التي خلقت معه ورافقتاه منذ أن كان فتىً صغير السن غضَّ الإهاب »^(٥٨٦)
واستعان الى جانب صور البيان . بالبديع في ابراز معانيه وتجميلها . ولكنه لم
يكن مغالياً فيه كأبي تمام واتباعه . وانما تناوله تناولاً محبباً مقبولاً وقد شهد له
ابن رشيق في ذلك فقال : « وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنعاً من عبدالله بن
المعتز . فإنَّ صنعته خفيفة لطيفة لاتكاد تظهر في بعض المواضع إلاّ للبصير بدقائق
الشعر . وهو عندي ألطف أصحابه شعراً . واكثرهم بديعاً واقتنائاً واقر بهم قوافي
وأوزاناً ولا أرى وراءه غاية لطالها في هذا الباب » (٥٨٧) .

ومن نعم النظر في شعره يجده موزوناً على البحور المعروفة جميعها . طويلها
وقصيرها . تامها ومجزؤها الى جانب قوافيه فإنها - على تنوعها - لطيفة الوقع على
السمع .

وجملة القول : إن ابن المعتز أديب كبير موهوب امتلك طاقة شعرية كبيرة في
التعبير عن المشاعر والأحاسيس بلغة واضحة وجميلة تجاوبت مع نفوس القراء
قديماً وحديثاً .

(٥٨٥) ديوانه ١٢ : ٤٩٣ .

(٥٨٦) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٧٨٩ .

(٥٨٧) الصمدة ١ : ١٢٠ .

النشر

المقدمة :

زاد الاهتمام بالنشر منذ انبثاق نور الاسلام وقيام الدولة الجديدة زمن الرسول محمد صلى عليه وسلم . وأخذ ينمو ويتطور ويزداد اتساعاً في عهد الخلفاء الراشدين ثم في دولة بني أمية . ولا سيما بعد الفتوحات الكبيرة وتوسّع رقعة الحكم الاسلامي شرقاً وغرباً . وزيادة مصالح مركز الخلافة . وحاجة الخلفاء الى الاتصال بالولاة والعمال والقواد .

وبدأ كثير من الكتاب بتجويد الكتابة واتقانها واطهارها بأسلوبٍ جزل متين . وقد كانت في أول أمرها تميل الى الایجاز الشديد . واختصار المعاني بأقل العبارات وأقصرها . والتمسك بالأمانة والصدق والصرحة التي درج عليها العرب وأوصى بها الدين الحنيف .

وحينما تقدم العهد بالدولة الأموية . ومضى الجيل الأول . مالت الكتابة الى التنوع والإطناب والتوسع في المعاني والتأنق في صياغة الجمل والعبارات . حتى أصبح لها أصول محددة وقواعد مقننة . وقد ظهرت ثمرتها جليّة واضحة عند عبدالحميد بن يحيى (ت ١٣٢ هـ) كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في دمشق . وقد أجمع النقاد والمؤرخون على أنه واضع أسس الكتابة الفنية الأول في النشر العربي . قال ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا . وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل » (٥٨٨) . وقال المسعودي : « صاحب الرسائل والبلاغات . وهو أول من أطال الرسائل . واستعمل التحميدات في فصول الكتب . فاستعمل الناس ذلك بعده » (٥٨٩) .

كان عبدالحميد يعنى في كتاباته بتنسيق العبارات وتوازنها . وأخذ الجمل بعضها برقاب بعض . والتبسط والاطناب . واستخدام السجع والازدواج من غير تكلف . وقد تجلّت طريقته في رسالته الدقيقة المحكمة التي وجهها الى الكتاب ليتخذوها دليلاً لهم في عملهم الكتابي (٥٩٠) . ومن جميل ما وصل الينا من نشره أيضاً رسالة الى عبدالله

(٥٨٨) الفهرست ص ١٧٠ .

(٥٨٩) مروج الذهب ٢ : ٦٤٨ .

(٥٩٠) تنظر الرسالة كاملة في صبح الأعشى ١ : ٨٥ - ٨٩

ابن مروان على لسان أبيه الخليفة مروان بن محمد وكان قد أرسله لمحاربة الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي ، وهي طويلة تقع في تسع وثلاثين صفحة (٥٩١) . وله رسالة قصيرة بعث بها الى أهله وذويه وهو منهزم مع مروان بن محمد من بطش العباسيين . منها قوله : « كتبت اليكم والأيام تزيدنا منكم بعداً . واليكم صباةً ووجداً فإن تمّ البلية الى أقصى مدتها . يكنّ آخر العهد بكم وبنا . وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع اليكم بذلّ الاسار والصغار . والذلّ شرُّ دار . والأمّ جار . يائسين من روح الطمع وفسحة الرجاء نسأل الله الذي يُعزُّ من يشاء . ويذلُّ من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار أمنة . تجمع سلامة الأديان والأبدان . فانه ربّ العالمين وأرحم الراحمين » (٥٩٢)

ولما قامت الدولة العباسية عظم شأن الكتابة وزاد الإقبال عليها بعد أن انفتح أمامها مجالات واسعة . وأصبح للكتاب مقام محمود لدى الخلفاء والوزراء والولاة . وكان للموهوبين منهم دور بارز في تسيير شؤون الدولة السياسية والادارية والمالية .

كان الكتاب في العصر العباسي مثقفين ثقافة عالية ومزودين بصنوف المعرفة . تراهم يحفظون القرآن الكريم وشيئاً كبيراً من الحديث النبوي وكلام البلغاء وخطب الصحابة والخلفاء ووصاياهم وقصائد كبار الشعراء اضافة الى تزودهم بثروة لغوية ووقوفهم على علوم الأمم الأخرى مباشرة أو بعد ترجمتها الى اللغة العربية .

لقد توسّعت الآفاق أمام الكتابة بعد أن احتضنت الدولة العباسية الأمة الاسلامية وتولّت رعايتهم وحمائتهم والنظر في شؤونهم السياسية والثقافية والعمرائية .. فنجد هناك كتابات في التفاويض ، والتقاليد ، والمبايعات ، والعهود ، والعقود ، والتهانى ، والتعازي الى جانب التواقيع . والخطب . والرسائل . والمنشورات . والوصايا . وهناك أيضاً كتابات اخوانية كالشفاعة . والعتاب . والشكوى . والاعتذار . واستنجاز الحاجات .. وكتابات في أغراض تأديبية بأسلوب القصص أو السير على السنة الحيوان .

وقد سلك الكتاب آنذاك أسلوبين في كتاباتهم . الأول الأسلوب السهل المرسل العذب مع القصد في الألفاظ بقدر ما يتطلبه المعنى من الوضوح والجلء . ورائد هذا الأسلوب ابن المقفع . وهاهو ذا يوصى أحد الكتاب بقوله : « اياك والتتبع لحوشي

(٥٩١) (صبح الأعشى ١٠ ، ١٩٥ - ٢٢٢ .

(٥٩٢) (الوزراء والكتاب ص ٤٦ .

الكلام طمعاً في نيل البلاغة . فإنَّ ذلك هو العميُّ الأكبر « وقوله لآخر : « عليك بما سهّل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السّفلة » : وسار على هذا الدرب الكثيرون منهم عمرو بن مسعدة . وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف ...

أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب التأنق واستيفاء المعنى باستقصاء أجزائه . وتقطع الكلام الى فقر مرسلة ومسجعة . والاستطراد الى الأخبار والنوادر والترجم والاكثار من الشواهد الشعرية ومأثور الكلام كما نرى ذلك في أسلوب الجاحظ الذي سنتناوله بالشرح والتوضيح في ترجمته .

الفنون النثرية : الرسائل :

تطورت الفنون النثرية في العصر العباسي تطوراً ملحوظاً . وقطعت شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والتقدّم بعد الانفتاح الكبير على أمم أخرى وتمازج الثقافات . وكما هو معروف فإنَّ الإنشاء رهين برقي الحياة وتطورها . وكانت الرسائل بأشكالها المختلفة في مقدمة هذه الفنون ازدهاراً واتساعاً ؛ لأنها مرتبطة أشد الارتباط بحياة الناس جميعاً ولا سيما العاملين في مرافق الدولة والقائمين بشؤون السلطة . يقول الدكتور طه حسين : « ليس غريباً اذن أن تتغير طبيعة النثر في آخر القرن الثاني وطول القرن الثالث . وأن تكثر موضوعاته . وأن يزاحم الشعر حتى يسبقه . فقد كان النثر لا يكاد يتجاوز النثر السياسي والتاريخ ... أما في القرن الثاني وطوال القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً تؤدي فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها ... وهذا طبيعي مفهوم لأنَّ النثر أيسر وأبسط . وهو أقدر وأوسع للمعاني . فيستطيع الكاتب اذا عرض لفن أو لمسألة أن يتناولها من جميع وجوهها دون أن يحول بينه وبين الاتجاه فيما يريد ورن أو قافية . أو شرط من هذه الشروط التي كانت تقيد الشعراء . ونجد هذا واضحاً عندما نقرأ الرسائل الكثيرة التي صدرت عن كتاب القرن الثالث » (٥٩٤)

ويمكن تقسيم الرسائل آنذاك الى نوعين . الأول : الرسائل الديوانية أو مايسمى بال مكاتبات الرسمية . وغالباً تكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد بأقلام المتخصصين بصناعة الكتابة . وهم كما قال الجاحظ : « لا يقفون الأ على الألفاظ المتخيرة . والمعاني المتخبة . وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة . والديباجة

(٥٩٢) النضان في أمالي المرزباني ١١٠١٠١٧٧ .
(٥٩٤) من حديث الغمر والنشر ص ٥٥ .

الكريمة . وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد . وعلى كل كلام له ماء وروثق . وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور غمرتھا وأصلحتها من الفساد القديم . وفتحت لسان باب البلاغة . ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ . وأشارت الى حسان المعاني (٥١٥) .

وكانت الرسائل اما طويلة تميل الى الشرح والتفصيل . مثل رسالة الخليفة المعتصم الى ملوك المسلمين بعدما قبض على بابك الخرمي وقضى على ثورته التي دامت عشرين عاماً (٥١٦) أو قصيرة موجزة نستطيع أن نطلق عليها عبارة « ماقلاً ودلاً » مثل الرسالة التي كتبها يوسف بن صبيح عن عبدالله بن علي الى ابن أخيه السفاح يعزيه عن ابن له : « أما بعد . فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلّ وعزّ من كان إماماً لخلق الله وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعزّ أمير المؤمنين بفهمك . وارجع في وعد الله جلّ وعزّ من الصابرين الى علمك (٥١٧) » . ومن الرسائل الموجزة جداً ماكتبه طاهر بن الحسين الى الخليفة المأمون بعد مقتل على ابن عيسى بن ماهان : « كتابي الى أمير المؤمنين . ورأس علي بن عيسى بن ماهان بين يدي . وخاتمة في يدي . وعسكره مُصرف تحت أمري . والسلام (٥١٨) »

والنوع الثاني من الرسائل التي شاعت في العصر العباسي . الإخوانية التي يتبادلها الأصدقاء فيما بينهم في مناسبات شتى . وكانوا يتأنقون في صياغتها ويعنون بدبيجاتها . ويسندونها بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين والأشعار والأمثال والحكم ... وقد اشتهر الكثيرون بها امثال ابن المقفع . ومحمد بن زياد الحارثي . وكثوم بن عمرو العتابي الذي قال عنه ابن قتيبة : « كان شاعراً محسناً . و كاتباً في الرسائل مجيداً . ولم يجتمع هذان لغيره (٥١٩) . فمن رسائله اللطيفة ما كتبه الى أحد أصدقائه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة وقطيعة : « لو اعتصم شوقي إليك بمثل سلوك عني لم أبتذل وجه الرغبة إليك . ولم أتجشم مرارة تماديك . ولكن استخفتنا صابتنا . فاحتملنا قسوتك . لعظيم قدر مودتك . وأنت أحق من اقتصر لصلتنا من جفائه . ولشوقنا من إبطائه (٦٠٠) » .

(٥١٥) البيان والتبيين ٢٤١٤ .

(٥١٦) ينظر صبح الأعشى ٤٠٠١٦ - ٤٠٤ .

(٥١٧) جمهرة رسائل العرب ٩١٣ .

(٥١٨) المثل السائر ٣٢٨١٢ . وينظر الوزراء والكتاب ص ٢٤٠ .

(٥١٩) الحر والحرء ٧٤٠١٣ .

(٦٠٠) زهر الآداب ٩٨٦١٢ .

ودبّج بعض الكتاب رسائل طريفة ومفيدة شبيهة بما يعرف الآن بالخواطر الأدبية . تناولت موضوعات كثيرة تتعلق بالأخلاق والتهديب والتوجيه والنصح والارشاد وشؤون الحياة المختلفة . مثل رسالة عَمان بن عبد الحميد في الأخوة والوفاء وحفظ العهد : « أمّا بعد . فإن الله جعل العباد أطواراً في أخلاقهم . كما جعلهم أطواراً في صورهم . وجعل بينهم أموراً يتألفون عليها ويعملون أحلامهم فيها : من حَرَم يتجاللون بها . وحقوق يتنازعونها . ومودة يتعاطونها : وأخوة يتداولونها . ترعى بوفاء . وتؤدّى بأمانة . وتضع بتقصير . وتنتقص بخيانة . ليس من أديت إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه . وليس من ضيعت منه بأشقى ممن ضيعها فيما يدخل من التقصير عليه . فإن من أخطأ الوفاء من أخيه فانما يدخل عليه تقصير غيره . ومن ضيع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النقص في خاصّة نفسه . والمرء يجد من أخيه اذا خانته بدلاً . ولا يجد عن نفسه اذا قصرت به متحوّلاً . وليس نقص يستبدل به كنقص لا يستطيع مزايلته (٦٠١) »

الخطابة :

اشتهر العرب منذ عصر ما قبل الاسلام بالخطابة . وعرفوا بفصاحة اللسان . وقوة البيان . وبراعة التعبير . وشدة التأثير . وازدادت الخطابة ازدهاراً في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . وبلغت القمة في عصر بني أمية لتوفر دواعيها الدينية والاجتماعية والسياسية . وظلت رائجة في العصر العباسي الأول . وبقيت المناير قائمة تدوي بأصواتها الهادرة . تدعو الناس للدولة الجديدة . وتلمهم حولها . وتجمع قلوبهم في حُبها . وتندد بالدولة السابقة وتزري برجالها . وقد اشتهر الخليفة الأول أبو العباس السفاح بالقدرة الفائقة على اثاره الناس والهاب مشاعرهم في خطبه . من ذلك قوله حين بوع بالخلافة : « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه . وكرمه وشرفه وعظمه . واختاره لنا . وأيدّه بنا . وجعلنا أهله وكهفه . وحصنه والقوام به والذابين عنه . والناصرين له : وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله . وأنبتنا من شجرته . واشتقنا من نبعته . وأنزل بذلك كتاباً يتلى . فقال سبحانه : (قل لا أسألكم عليه أجرأ إلا المودة في القربى) . (٦٠٢) فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله . قام بالأمر أصحابه (وأمرهم شورى بينهم) (٦٠٣) فعدلوا وخرجوا

(٦٠١) جمهرة رسائل العرب ١٢ ، ١١٢ .

(٦٠٢) سورة الشورى ، الآية ٢٢ .

(٦٠٣) سورة الشورى ، الآية ٢٨ .

خمصاناً (٦٠٤). ثم وثب بنو حَرْبٍ وبنو مروان فابترؤوها . واستأثروا بها . وظلموا أهلها . فأملى الله لهم حيناً . فلما أسفوه (٦٠٥) انتقم منهم بإيدينا ورد علينا حقنا . فأنا السَّفاح المبيح والثائر المبير « (٦٠٦) .

وبرز عدد من ولاة الدولة العباسية وقوادها بالخطابة . وقد وصلت إلينا مجموعة كبيرة من خطبهم . منهم داود بن علي والي مكة والمدينة لأبي العباس السفاح . قال الجاحظ : « كان أنطق الناس واجودهم ارتجالاً . واقتضاباً للقول . ويقال انه لم يتقدم في تحجير خطبة قط » (٦٠٧) .

وظلت الخطابة السياسية نشطة قرابة قرن من الزمن في البيت العباسي . فكان فيه خطباء بارزون من الخلفاء أمثال المنصور والمهدي والرشيد والمأمون . وكلهم تؤكد أحقية العباسيين بالحكم وصلتهم بآل الرسول صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك ضعفت . ولم نعد نجد خليفة يملأ السمع بخطبة . ولا سيما بعد ذهاب هيبة الخلافة وسيطرة الأعاجم على مقاليد السلطة . وتصريف شؤون الدولة بأنفسهم .

ونجد الى جانب الخطب السياسية خطباً دينية وجهادية وحفلية . وكانت الخطب الدينية تفيض بالوعظ والنصح والارشاد . وتلقى في الغالب أيام الجمع والأعياد . وقد شارك فيها عدد من الخلفاء . منهم المأمون في قوله من خطبة له في يوم جمعة : « الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه . ومستوجبه على خلقه . أحمدته واستعنيه وأومن به وأتوكل عليه . وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده . والعمل لما عنده . والتنجز لوعده . والخوف لوعيده : فانه لا يسلم الا من اتقاه ورجاه . وعمل له وأرضاه . فاتقوا الله عباد الله . وبادروا آجالكم بأعمالكم . وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم . وترجلوا بقدر جد بكم . واستعدوا للموت فقد أظلمكم . وكونوا قوماً صيخ بهم فاتبها . وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا : فإن الله لم يخلقكم عبثاً ولم

(٦٠٤) خمصاناً ، جياعاً .

(٦٠٥) أسفوه ، اغضبوه .

(٦٠٦) شرح نهج البلاغة ١٧ ، ١٥٤ .

(٦٠٧) البيان والتبيين ١١ ، ٣٣١ .

يترككم سدى ... نسأل الله أن يجعلنا واياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصُر به عن طاعته غفلة ، ولا تحلُّ به بعد الموت فزعة ، انه سميع الدعاء . وبيده الخير . وانه فعال لما يريد «(٦٠٨)

أما الخطب الحربية أو الجهادية فكانت تأخذ طابع الاستنهاض والاستبسال وشحن الهمم وبذل النفوس . مثل قول عبد الله بن طاهر في تحريض الجند على قتال الخوارج : « إنكم فئة الله المجاهدون عن حقّة ، الذائبون عن دينه . الذائدون عن محارمه . الداعون الى ما أمر به . من الاعتصام بحبله . والطاعة لولاة أمره . الذين جعلهم رعاة الدين . ونظام المسلمين . فاستنجزوا موعود الله ونصره . بمجاهدة عدوه وأهل معصيته . الذين أشروا وتمردوا . وشقوا العصا . وفارقوا الجماعة . ومرقوا في الدين . وسعوا في الأرض فساداً . فإنه يقول تبارك وتعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . فإنه الوزر المنيع . الذي دلّم الله عليه . والخنة الحصينة التي أمركم الله بلباسها . غصوا بأبصاركم . واخفتوا أصواتكم في مصافكم . وامضوا قدماً على بصائركم . فارغين إلى ذكر الله . والاستعانة به . كما أمركم الله . فإنه يقول : « اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(٦٠٩) . أيديكم الله بعزّ الصبر . ووليكم بالحيطة والنصر «(٦١٠) .

وهناك خطب تعرف بالحفلية تلقى في المناسبات كاعلان البيعة للخليفة او ولي العهد . والمآتم والأفراح والمواسم والوفود وهي في الغالب قصيرة ومؤثرة على نحو ما قالته احدى الاعرابيات وقد تعرضت للخليفة المنصور في طريق مكة بعد وفاه ابي العباس السفاح : « ياأمير المؤمنين احتسب الصبر . وقدم الشكر ؛ فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين . وأعظم عليك المنّة في الحادثين ؛ سلبك خليفة الله . وأفادك خلافة الله ؛ فسلم فيما سلبك . واشكر فيما منحك . وتجاوز الله عن أمير المؤمنين . وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين «(٦١١) ولما توفي الخليفة المنصور دخل ابن عتبة مع الخطباء على الخليفة المهدي فسلم ثم قال : « أجز الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله . وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده . فلا

(٦٠٨) عبون الاخبار ٢ ، ٢٥٢

(٦٠٩) سورة محمد ، الآية ٧ .

(٦١٠) سورة الأنفال ، الآية ٤٥ .

(٦١١) العقد الفريد ٤ ، ١٢٤ .

(٦١٢) صبح الاعشى ٩ ، ٢٧٨ .

مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين . ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين .
فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطيّة . واحتسب عنده أعظم الزرية « (٦١٣) »

القصص :

راجت في العصر العباسي القصص وكثر الاقبال عليها . وهي - وإن كانت في نظر بعض الباحثين وحسب معاييرهم لا تدخل في باب القصة ، لأن الخصائص المطلوبة غير متكاملة فيها - تروى للتسلية والسمر وقضاء أوقات الفراغ الى جانب ما فيها من عبر وعظات ودروس اخلاقية . ولاسيما التي تتناول البطولة والفروسية قبل الاسلام وبعده .

وكانت بعض القصص تدور على السنة الطير والحيوان . كما هو الحال في كتاب « كليلة ودمنة » الذي نقله الى اللغة العربية عبدالله بن المقفع . وهو أثر نفيس يصور « البهائم والطير كائنات عاقلة مفكرة مدبرة تخضع لنوازع الغرائز وشهوات النفوس خضوعها الى الاعتبار بالاحداث والاحتكام الى الضمير والرغبة في التفلسف واستخلاص العظة أو المثل من المواقف والعلاقات « (٦١٤) » ولسهل . بن هارون كتابان على شاكلة كليلة ودمنة . الأول « ثعلبة وعفراء » . وقد نقل الخصري القيرواني الفقرات الآتية منه : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم . فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهر عن وهن العقيدة . وتقصير الروية . ومضراً بالتدبير . مخلٌ بالاختيار . وليس في نفع محمدته عوض من فساد المروءة ولزوم النقصيصة » وقال معقياً : « وكتابة هذا مملوء حكماً وعلماً « (٦١٥) » والكتاب الثاني « النمر والثعلب » . وهو ممتع طريف الاسلوب . يدور على شخصيات ثلاث : الثعلب الحكيم . والذئب الجحود . والنمر الطاغى وقد وصل الينا منه نصوص كاملة . (٦١٦) »

وكانت مجالس الوعظ آنذاك تميل الى القصص الديني . ولاسيما في تفسير بعض آيات القرآن الحكيم . وقد شاهد الجاحظ طرفاً من هذه المجالس وذكر أسماء مجموعة من قصص العصر العباسي الاول . قال : « ومن القصص موسى بن سيار

(٦١٣) البيان والتبيين ٢ ، ١٩٢ .

(٦١٤) الحكاية الفهمية ص ٤١ .

(٦١٥) زهر الآداب ١١ ، ٥٧٧ .

(٦١٦) العصر العباسي الاول ص ٥٢٠ . وينظر العده الاول من حولية الجامعة التونسية سنة

١٩٦٤ .

الأسواري . وكان من أعاجيب الدنيا ... وعمرو بن فائد . كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات . فكان ربما فسّر آية في عدة أسابيع ... وكان يقصّ في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك ... ثم قصّ من بعده القاسم بن يحيى . وهو أبو العباس الضرير . لم يدرك في القصاص مثله « (١١٣) » وهؤلاء القصاص كانوا يعنون بالأسلوب وضبط الكلام وطريقة الالتقاء كي يقبل عليهم الناس ويلتفتوا حولهم وينصتوا إليهم . قال الجاحظ عن الفضل بن عيسى الرقاشي : « كان سجعاً في قصصه . وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان . وأبان بن أبي عيَّاش . يأتون مجلسه ... وقد كان عبد الصمد بن الفضل . وأبو العباس القاسم بن يحيى . وعامة قصاص البصرة . وهم أخطب من الخطباء . يجلس إليهم عامة الفقهاء » (١١٤)

ويمكن أن نضيف الى ماسوق الحكايات التاريخية التي يندر فيها الحوار وتأخذ طابع السرد المباشر . مثل قصة انتقام قصير بن سعد اللخمي لجذيمة الأبرش الذي صرعه الزباء ملكة تدمر . (١١٥) وقصة معركة القادسية التي صور فيها أبو حنيفة الدينوري أحداثها تصويراً دقيقاً كما وقعت بين المسلمين والفرس من غير تعمل او افتعال . وقد تماسكت فيها الاحداث وان اشتملت على حكايات فرعية مثل حكاية طلحة بن خويلد الاسدي الذي بعثه سعد بن ابي وقاص لياتيه بخبر الفرس . فذهب وتحرى المكان المطلوب واصطدم بعدد من الخصوم وعاد ومعه احدهم اسيراً . وقصة أبي محجن الثقفي الذي خرج من سجنه للقتال بعد أن ركب فرساً بلقاء بمساعدة زوجة سعد بن أبي وقاص . وقاتل قتال الأبطال وأثنى الجراح في الأعداء وعاد ظافراً مرفوع الرأس . (١١٦)

وتجدر الإشارة هنا الى أن هناك حكايات لبعض الأطباء مع مرضاهم فيها نواذر ظريفة وحيل طريفة . وقد نقل لنا علي بن سهل الطبري طائفة منها في كتابه فردوس الحكمة . (١١٧)

(١١٧) البيان والتبيين ١ ، ٣٦٨ .

(١١٨) البيان والتبيين ١ ، ٢٩٠ .

(١١٩) الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية ص ٢١٦ نقلاً عن كتاب (أمثال العرب) لابي

عبيد القاسم بن سلام ، مطبوع بدار الكتب المصرية برقم ١٠٧٩٩ ز .

(١٢٠) الأخبار الطوال ص ١١١ وما بعدها .

(١٢١) طبع في برلين سنة ١٩٢٨ بتصحيح الدكتور محمد الصديقي .

وهي الهوامش او الملاحظات التي يكتبها الخلفاء والولاة والوزراء والقواد والقضاة على الكتب الرسمية او الشكاوى المرفوعة اليهم من افراد الشعب . وتمتاز بجمال الاسلوب والايجاز الشديد والبلاغة المتقنة . وقد وصلت اليها مجموعة كبيرة من هذه التوقيعات في الكتب الادبية والتاريخية . ولاسيما في العقد الفريد لابن عبد ربه . (١٣٢) من ذلك توقيع الخليفة السفاح في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر في الشدة شارك في النعمة » . وتوقيع الخليفة المنصور على كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال فأخذوا أرزاقهم : « لو عدلت لم يشغبوا . ولو وفيت لم ينهبوا » . وتوقيع الخليفة المهدي على كتاب أتاه من صاحب أرمينية يشكو سوء طاعة رعاياه : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وتوقيع الخليفة الرشيد الى عامله على خراسان : « كل من رفع رأسه فأزله عن بدنه » . ومما يروى عن الخليفة المأمون أن ابراهيم بن المهدي كتب اليه في كلام له : « ان غفرت فبفضلك . وان أخذت فبحقك » فوقع في كتابه : « القدرة تذهب الحفيظة . والندم جزء من التوبة . وبينهما عفو الله » .

وكانت التوقيعات تشيع بين الناس . يتناقلونها ويحفظونها . وقد اشتهر جعفر بن يحيى بها . قال الجهشياري : « كان جعفر بليغاً كاتباً . وكان اذا وقع نسختاً توقيعاته وتدورست بلاغاته » (١٣٣) . ومن توقيعاته الى احد العمال : « قد كثر شاكوك . وقل شاكوك . فاما عدلت . واما اعتزلت » (١٣٤) . وكان يقول للكتاب : « اذا استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا » (١٣٥) . وكذلك اشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغة . مثل توقيعته على كتاب مظلوم : « كفى بالله للمظلوم ناصراً » (١٣٦) . وعرف أخوه الحسن بن سهل ايضاً بالتوقيعات الدقيقة . مثل توقيعته على كتاب لامرأة حبس زوجها : الحق يحبسها . والانصاف

(٦٢٢) العقد الفريد ١٤ ، ٢١١ - ٢٢٢ .

(٦٢٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٨

(٦٢٤) العقد الفريد ١٤ ، ٢١٩

(٦٢٥) زهر الاداب ١ ، ١٥٧ وينظر الوزراء والكتاب ص ١٥٥

(٦٢٦) العقد الفريد ٤ ، ٢٢٠

يطلقه « (١٣٣) ولطاهر بن الحسين توقعات كثيرة في كتاب بغداد لابن طيفور .
منها انه وقع في قصة رجل محبوس : « يخرج ولا يحوج » .. وفي قصة قاتل :
« لا يؤخر قتله » . وفي قصة لص : « ينفذ حكم الله فيه » (١٣٨)

وقد بسط عدد قليل من الكتاب في توقعاتهم فبلغت عدة أسطر او مقدار
الرسائل المعتدلة . من ذلك ما كتبه محمد بن عبدالله بن طاهر في رقعة اعتذر اليه
فيها رجل من شيء بلغه عنه . فرأى خطه قبيحاً : « أردنا قبولَ عُذركَ فاقطعنا عنه
ما قابلنا من قبيح خطك . ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك . أو
ما علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه بوضوح الحجّة . ويمكن له ذكركُ
البعيعة ؟ » (١٣٩)

نشر المؤلفات أو المصنفات :

نشط العلماء والادباء في التأليف وتدوين العلوم والمعارف في العصر العباسي
الأول نشاطاً كبيراً . ورفدوا المكتبة العربية بتراث جليل ونفيس أفاد جيلهم
والأجيال اللاحقة في التعليم والتثقيف وتربية العقول . ففي مجال الادب برز عدد
كبير من المصنفين . ومن أشهرهم الجاحظ صاحب المؤلفات الكبيرة ولاسيما البيان
والتبيين والحيوان . وابن سلام الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء . والمبرد
صاحب الكامل ، وابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء ، وابن المعتز صاحب طبقات
الشعراء ... وقد حرص هؤلاء المصنفون على تقديم موادهم بأسلوب واضح ولغة سهلة
فصيحة يفهما القاريء بلا عناء ولا مشقة .

وكانت الدراسات اللغوية والنحوية والصرفية نشطة ايضاً . وقد برز كثير من
العلماء في ميادينها أمثال : سيويه . والكسائي . والفراء . وثعلب . والمبرد ...

واتجه فريق آخر من الكتاب والمؤلفين الى المغازي والسير . وضمنوا كتباً قيمة
فيهما . ويعد محمد بن اسحاق شيخ المصنفين . فله السيرة المشهورة التي استخرجها
الامام ابو محمد عبدالملك بن هشام وعرفت به وشاع ذكره بها . والواقدي صاحب
المغازي . ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى ... واشتهر بتاريخ العرب هشام

(١٣٧) العقد الفرید ٤ ، ٢٢٠ .

(١٣٨) كتاب بغداد ص ٧٢ .

(١٣٩) جمهرة رسائل العرب ٤ ، ٤٦٢ .

بن محمد الكلبي صاحب كتاب الاصنام وجمهرة انساب العرب . ولعت أسماء بكتابة تواريخ الأمم القديمة والأديان . ولعل من أشهرهم : المدائني . واليعقوبي . والبلاذري . والطبري .

وازدهرت الكتابة الجغرافية التي تتناول البلدان والمواقع واحوال السكان وأجناسهم وطبائعهم . وقد لعت أسماء عدد كبير من الكتاب في هذا الميدان لانزال نراجع كتبهم . مثل المسالك والممالك لابن خرداذبة . والبلدان لليعقوبي . والاعلاق لابن رسته . والاكيل وصفة جريرة العرب لابن الحائك ...

وأقبل بعض العلماء على القرآن الكريم . فشرحوه . وتناولوا قراءته . وأظهروا اعجازه وناسخه ومنسوخه . وبعث تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري من أشهر التفاسير التي ظهرت آنذاك سعةً وشمولاً ودقةً . وذهب علماء آخرون الى الاحاديث النبوية الشريفة وجمعوها وثقوها على طريقة الاسانيد . اشتهر منهم أصحاب الصحاح الستة : البخاري . ومسلم . وابن ماجة وابو داود والترمذي . والنسائي .

وتخصص عدد كبير من العلماء بالفقه والشريعة . وألّفوا كتباً كثيرة . شرحوا فيها العبادات . والاحوال المدنية . والقوانين الجزائية . بفروعها المختلفة . ومن أبرز هؤلاء العلماء : مالك بن أنس . وأبو حنيفة النعمان بن ثابت . وابو عبدالله محمد ابن ادريس الشافعي . واحمد بن حنبل . وجعفر بن محمد الصادق .

وكان لعلم الكلام الذي يبحث في الأنشطة العقلية والمسائل العقائدية نصيب من الكتابات آنذاك . وكان المعتزلة من أنشط الجماعات في هذا المجال . فانهم كانوا يعتمدون المنطق والفلسفة في مناقشاتهم ومحاججاتهم . وقد اشتهر منهم واصل بن عطاء وبشر بن المعتمد . وأبو هذيل العلاف . وابراهيم بن سيار النظام .

لقد انفرجت امام الكتابة في العصر العباسي الاول كما لاحظنا ميادين كثيرة رحبة الجوانب . وهي في جملتها تتسم بدقة الماخذ وبساطة العرض . تُمَتِّعُ النفس والعقل معاً بخلاف الاسلوب الغارق في الصنعة الذي شاع في العصور اللاحقة .

حدث امتزاج كبير بين العرب والأمم الأخرى بعد قيام الدولة العباسية . ووقف الناس آنذاك على ثقافات كثيرة وَقَدَّتْ عن طريق الترجمة . وأقبل المترجمون الذين يحسنون اكثر من لغة الى نقل كتب مفيدة في الطب والفلك والفلسفة والرياضيات والسياسة وسواها . وقد اشتهرت في ذلك الوقت مراكز لهذه الترجمة امثال حران والرُّها ونصيبين وانطاكية والاسكندرية وُجِدَ يسابور . وكان لتشجيع الخلفاء دور بارز واثر كبير في نشاط الترجمة والاقبال عليها . اذ نراهم يُخصِّصون الاموال الطائلة لها . ويبعثون الرجال الماهرين بالترجمة لجلب الكتب النافعة من مواطنها . وينشؤون دوراً خاصة لها . ويهيؤون مستلزمات الإقامة والراحة للعاملين فيها . وكان ابو جعفر المنصور من اوائل الخلفاء المشجعين على الترجمة فان ابن المقفع ترجم له كتباً في السياسة والأداب وتدبير الملك والفلسفة والمنطق بعضها في الاصل يونانية او هندية منقولة الى اللغة الفارسية وترجم له محمد بن ابراهيم الغزاري كتاب « السند هند » في علم الفلك . واستدعى جورججوس بن جبرائيل رئيس اطباء جند يسابور ونقل له مجموعة كتب في الطب وطلب من أبي يحيى البطريرق ترجمة عدد من كتب ابقراط وجالينوس في الطب .

وكان هارون الرشيد من الخلفاء المتميزين في حب المعرفة واکرام أهل العلم . وهو الذي أنشأ خزانة الحكمة ومركزاً للترجمة يضمُّ مجموعة من المترجمين باشراف يوحنا بن ماسويه . ووصلت الترجمة زمن الخليفة المأمون إلى عصرها الذهبي . إذ رعى العلماء المترجمين وقربهم إليه . وأرسل فريقاً منهم لاستقصاء الكتب النفيسة في بلاد الروم وقبرص . واهتم بدار الحكمة وخضَّص لها مالاً وفيراً وضمَّ إليها نخبة من المترجمين البارزين وعهد بادارتها إلى حنين بن اسحاق . وكانت ثمرة تلك الرعاية وذلك الاهتمام ترجمة مجموعة كتب لاقليدس وأفلاطون وأرسطو ... وبقيت حركة الترجمة نشطة بعد وفاة المأمون . وظهر علماء كبار في ميدانها . ومن أشهرهم الفيلسوف يعقوب بن أسحاق الكندي قال عنه ابن أبي أصيبعة : « كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق . وتأليف اللحن والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم . ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره . احتذى في تواليفه حذو أرسطو طاليس . وله تواليف كثيرة في فنون من العلم . وخدم الملوك فباشرهم بالأدب . وترجم من كتب أرسطو الكثير » (١٣٠)

ان من أكثر الكتب المترجمة تداولاً منذ العصر العباسي الاول . كتاب « كليلة ودمنة » (١٦١) . وقد سبق الإشارة اليه في حديثنا عن ثقافة العصر . والملاحظ في هذا الكتاب ان المترجم سلك فيه اسلوباً لطيفاً . تتدفق المعاني بيسر وسهولة بحيث لا يجد القارئ صعوبة أو عسراً في فهمه . وليس بصحيح ما يرجحه بعض الباحثين من أن ابن المقفع أنشأه وكتبه مباشرة . فان قدرة هذا الكاتب وتمكنه من اللغة العربية وتضلعه فيها وسعة ثقافته وفهمه للغة المترجم عنها جعلته أن يقدم مادته بصيغة مشرقة واضحة . والبك هذا المقطع منه : « قال دمنة : زعموا انه كان في بعض المدن طبيباً له رفق وعلم . وكان ذا فطنة فيما يجري على يديه من المعالجات . فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره . وكان للملك تلك المدينة ابنة قد زوجها لابن أخ له . فعرض لها ما يعرض للحوامل من الأوجاع . فجيء بهذا الطبيب . فلما حضر سأل الجارية عن وجعها وما تجد . فأخبرته . فعرف داءها ودواها . وقال : لو كنت أبصر لجمعت الأخلاط على معرفتي بأجناسها . ولا أتق في ذلك بأحد غيري . وكان في المدينة رجل سفيه . فبلغه الخبر . فأتاهم وادعى علم الطب . وأعلمهم انه خبير بمعرفة اخلاط الادوية والعقاقير . عارف بطبائع الادوية المركبة والفرده . فأمره الملك ان يدخل خزانة الادوية فيأخذ من اخلاط الدواء حاجته . فلما دخل السفية الخزانة . وعرضت عليه الادوية . ولا يدري ماهي ولا له بها معرفة . أخذ في جملة ماأخذ منها صرة فيها سم قاتل لوقته . وخلطه في الادوية . ولا علم له به . ولا معرفة عنده بجنسه . فلما تمت اخلاط الادوية . سقى الجارية منه . فماتت لوقتها . فلما عرف الملك ذلك . دعا بالفية . فسقاه من ذلك الدواء . فمات من ساعته » (١٦٢)

(١٦١) ورد اسماً كليلة ودمنة . وهما ابنا أوى . في بايين فقط من ابواب الكتاب الاساسية . وعددها خمسة عشر باباً . احدها باب « الاسد والثور » والاخر باب « الفحص عن امر دمنة » . اما سائر ابواب الكتاب فلا علاقة لها بهذين الاسمين . وهذا يعني ان تسمية الكتاب باسمهما من قبيل اطلاق الجزء على الكل .

(١٦٢) كليلة ودمنة ص ١٧٦

الكتاب

عمرو بن بحر الجاحظ

١٦٠ - ٢٥٥ هـ

تميز العصر العباسي الاول بالثراء والرخاء . والانفتاح على ثقافات مختلفة . والاقبال على العلوم والآداب . والتوجه الى التأليف والتصنيف والترجمة . وقد نبع رجال عظام في شتى المعارف . رقدوا المكتبة العربية بتراث قيم تعاقبت الاجيال على الاحتفاظ به والافادة منه . ويعد الجاحظ - وهو من رواد الاساليب الرفيعة في الكتابة - من ابرز هؤلاء الرجال العظام الذين خلدوا انفسهم بعطائهم الفكري من خلال الكنوز النافعة التي خلفوها .

مولده ونشأته :

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى . لقّب بالجاحظ لبحوث عينيه ولد في البصرة حوالي سنة ١٦٠ للهجرة . وتوفي ابوه وهو صغير . وفي مدينته التي كانت آنذاك محج طلاب المعرفة تعلم مبادئ القراءة والكتابة في أحد كتاتيبها . وحينما اصبح يافعاً أخذ يتردّد على حلقات العلم التي تعقد في المساجد . ويختلف الى سوق المربد . يتلقّى الفصاحة من شفاه العرب الذين يفدون الى هذه السوق قال ياقوت الحموي : « سمع من أبي عبيدة . والأصمعي . وأبي زيد الانصاري . وأخذ النحو عن الأخفش وكان صديقه . وأخذ الكلام عن النظام . وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد » (١٣٣) . وأفاد من أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب ابى حنيفة . وصالح بن جناح اللخمي . وثمامة بن أشرس النميري . ويزيد بن هرون . والسري بن عبدويه . والحجاج محمد بن حماد بن سلمة . وسواهم ... وكان مفرطاً في القراءة . يكتري دكاكين الوراقين . ويعتكف فيها . ليقف على ما يأتي اليها من كتب . ويستوعب معارفها . ويحفظ ما يروق له منها . ولم ييخل بالمال حينما يتوفر لديه لشراء الكتب قال محمد بن سليمان الجوهري : « كنا نصحّب الجاحظ على سائر احواله من جدّ وهزل . قال . فخرجنا يوماً لنزهة . فبينما نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه . اذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة . فعرضت علينا فلم نجد فيها طائلاً . فتركناها وانصرفنا .

وتخلفَ معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال . ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً ، وأخذ الاوراق وقال : انتظروني ومضى بها الى منزله . فلما عاد اخذنا نهراً به ويقول : فَرَّتْ بقطعةٍ من العلم وافرته . وضحكنا فقال : أتمت حمقى والله . ان فيها ما لا يوجد الا فيها . ولكنكم جهالاً لاتعرفون النفيس من الخسيس « (١٧٤) . وقال ابو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ . فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ماكان » (١٧٥)

والى جانب طلب العلم والمعرفة كان يلتمس اسباب العيش عن طريق العمل . وقد قيل : انه كان يبيع الخبز والسك على ضفة نهر صغير بالبصرة يعرف بسيحان . ويبدو أن أمه كانت في باديء امره تتولى الاتفاق عليه . وقد زوي انها ضاقت به حين رأته منهماً في اقتناء الكتب والجلوس اليها ساعات طوالا . فطلب منها يوماً طعاماً . فجاءته بطبق مليء بكراديس أودعها البيت « فقال : ماهذا ؟ قالت هذا الذي تجيء به . فخرج مغتماً . وجلس في الجامع ومويس بن عمران جالس . فلما رآه مغتماً قال له : ماشأنك ؟ فحدثه الحديث . فأدخله المنزل وقرب اليه الطعام واعطاه خمسين ديناراً فدخل السوق . واشترى الدقيق وغيره . وحمله الحمالون الى داره . فأنكرت الام ذلك وقالت من اين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قديمتها اليّ » (١٧٦) . ولكن هذه الحالة لم تدم . اذ انهالت عليه الهدايا والعطايا بعد ان اشتهر أمره وعرف بين كتاب عصره بقلمه الرفيع وانشائه البديع . وحينما زار بغداد حضر مجلس المأمون . فنال اعجابه واثنى عليه وقربه وولاه رئاسة ديوان الرسائل . وكان هذا المنصب مهماً في الدولة لا يتولاه الا من له مقدرة كبيرة ومعرفة واسعة بشؤون الكتابة . ولكن الجاحظ لم يبق فيها اكثر من ثلاثة ايام . اذ بادر الى الاستعفاء معتذراً للخليفة . فأعفاه . وانصرف الى التأليف الذي اكسبه شهرة عظيمة وجعله ذا مقام محمود عند ارباب الدولة والمعينين بالثقافة . وكان في اثناء ذلك يتنقل بين البصرة وبغداد وسامراء . وقام برحلات الى ديار الشام وزار دمشق وانطاكية . وكان الناس يتفاخرون بصداقته ومجالسته لحسن عشرته ووافر علمه وظرافة نواذره . ويعتزون بكتبه ويفرحون حينما تُوشح بأسمائهم . قال : « أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبدالمملك فاعطاني خمسة آلاف دينار . واهديت كتاب

(١٧٤) امراء البيان ص ٢٨٧

(١٧٥) معجم الادباء ١٦٠٦ . ٥٦ .

(١٧٦) طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٨ .

البيان والتبيين الى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار. وأهديت كتاب
الزروع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار. (٦٣٧)

اعتنق الجاحظُ مذهبَ الاعتزال ونصره في كتاباته ، وخالف أستاذه ابراهيم بن
سيار النظام ببعض الآراء ، وأيده في هذه الآراء طائفة من المتكلمين عرفوا
بالجاحظية نسبة إليه . (٦٣٨)

وكان صديقاً مخلصاً للوزير محمد بن عبدالمك الزيات ، وحينما نُكِب هذا
الوزير وقُبضَ عليه زمن المتوكل سنة ٢٣٣ هـ « هرب الجاحظ . فقيل له : لم
هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثاني اثنين اذ هما في التنور ! يُريد : ما صنع بمحمد
بن عبدالمك من ادخاله تنوراً فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه . فعذب
به حتى مات » (٦٣٩)

استقر في البصرة . وطالت به الحياة ، وأصيب بالفالج والتقرس . (٦٤٠) قال المبرد
« دخلت على الجاحظ في آخر ايامه وهو عليل ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال :
كيف يكون من نصفه مفلوج ولو نشر بالناشير لما أحسن به . ونصفه الآخر منقرس ،
ولو طار الذباب بقربه لآلمه . والأمر في ذلك أني قد جزت التسعين وأنشدنا :

أترجو أن تكونَ وأنتَ شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ليس ثوبٌ خليق كالجديد من الثيابِ (٦٤١)

وأدركه الموت سنة ٢٥٥ للهجرة . وقيل وقعت عليه كتبه وهو شيخ ضعيف قد
جاوز التسعين فقضت عليه .

أخلاقه :

كان الجاحظُ يمتلك شخصيةً قويةً وإرادةً فذةً . وكان متفائلاً يبدو عليه
السرور . بسيطاً . متواضعاً . يخالط الناس جميعاً سواء كانوا اغنياء أم فقراء .
حريصاً على مواعيده وأوقاته . وفيأ لاصدقائه . صادقاً في أقواله . محباً للنظام .

(٦٣٧) معجم الادباء ٦ / ٦٦

(٦٣٨) ينظر الملل والنحل للشهرستاني ص ٧١

(٦٣٩) امالي المرتضى ١ / ١٥٥

(٦٤٠) الفالج ، الفلج . التقرس ، نوع من مرض المفاصل .

(٦٤١) نزهة الالباء ص ١٢٤ . تاريخ بغداد ١٢ ، ٢١٩ .

صوراً متقناً لعمله ومتفانياً فيه . بعيداً عن الفوضى وما يُقلق الانسان . متجنباً الحاسدين والموتورين . ولم يكن مترمماً . يقوم بما فرض عليه الاسلام من واجبات . يرفق بالضعفاء حتى يقووا وبالجهلاء حتى يتعلموا . يبذل جهده في رفع شأن المسلمين . ويحبب اليهم دينهم وديناهم ليستقيموا امة عزيزة فاضلة ذات شأن عظيم . (٦١١) —

تهكمه وتندرته :

عُرف الجاحظ بالظُرف والمفاكحة والمداعبة والتندر . واخباره في ذلك كثيرة نجدها مبثوثة في كتبه ورسائله . وقد استطاع أن يجعل ظُلة خفيفاً عند الجمع مع انه كان دميم الوجه قبيح الشكل جاحظ العينين .

لقد كان مرحاً . مقتدراً على الضحك والاضحاك . متمكناً من تلطيف النفوس وابعاد السأم والضرر عنها . وتهذيها . والانسان يتعلم بالضحك اكثر مما يتعلم بالتجهم والعبوس . ومثال ذلك ماجاء في قصة محمد بن أبي المؤمل . قال الجاحظ : « اشترى مرة شبوطة . (٦١٢) وهو ببغداد . وأخذها فائقة عظيمة . وغالى بها . وارتفع في ثمنها . وكان قد يعد عهده بأكل السمك - وهو بصري لا يصير عنه - فكان قد اكبر أمر هذه السمكة . لكثرة ثمنها . ولسمنها وعظمها . ولشدة شهوته لها . فحين ظن عند نفسه انه قد خلا بها . وتفرد بأطايها . وحسّر عن ذراعيه . وصد صمدها . هجمت عليه ومعى السدري . (٦١٣) فلما رآه رأى الموت الأحمر . والطاعون الجارف . ورأى الحتم المقضي . ورأى قاصمة الظهر . وأيقن بالشر . وعلم أنه قد ابتلى بالتنين فلما أكل السدري جميع أطايها ... ولم يبق في يده مما كان بأمله في تلك السمكة ... تولد الفيظ في جوفه ... وتم عزمه في أن لا يؤاكل رغيباً أبداً .

(٦١٢) للتوسع ينظر كتاب الفكر العربي عند ابن المقفع والجاحظ وعبد الحميد الكاتب ص ٢٥٢ - ٢٨٦ . وأمرام البيان ص ٢٩١ - ٢٩٤ . والجاحظ في حياته وادبه وفكره ص ١٥٢ . (٦١٣) الفيظ . نوع من السمك . دليق الذنب . عريض الوسط . لين المس . وفي كتاب الحيوان للجاحظ شرح واف عنه .

(٦١٤) السدري . محمد بن همام بن أبي خصيصة . شاعر مقل . كان يصحب الجواز . وعبد الصمد بن الحضل . والجاحظ وأدهاء البصرة (معجم الفراء ص ٢٧٥ . وينظر ذيل الأبيال للقالي ص ١٢٠) .

ولا زهيداً ، ولا يشتري سمكةً ابداً . رخيصةً ولا غالية . وان اهدوها اليه ان لا يقبلها . وان وجدها مطروحة لا يمساها « (١١٥) .

موقفه من الشعوبية :

شاعت حركة الشعوبيين في العصر العباسي الاول . ووقف الخلفاء منهم ولاسيما المهدي موقفاً متشدداً ، والى جانب الخلفاء وقف عدد من الادباء والعلماء يحاربونهم بالسنتهم ويردونهم بالحجج والبراهين . وكان الجاحظ واحداً منهم ، فهو يحب العرب ويكره من يعاديهم او يطعن فيهم ؛ لذلك نراه يهيبُ بما أوتي من بيانٍ وحكمةٍ يقاتل الشعوبيين ويستصغرفهم ويحط من قدرهم . ومن يرجع الى كتاب البيان والتبيين وكتاب الموالي والعرب (١١٦) يستجلي ذلك بوضوح . يقول مثلاً : « واعلم انك لم ترَ قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى على دينه . ولا أشد استهلاكاً لعرضه . ولا أطول نصباً . ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم . وتوقد نار الشنان في قلوبهم . وغليان تلك المراحل الفائرة . وتسعرُ تلك النيران المضطربة ولو عرفوا اخلاق اهل كل ملّة . وزيّ أهل كل لغةٍ وعللهم . على اختلاف شاراتهم وآلاتهم ، وشمائلتهم وهيئاتهم . وما عله كل شيء من ذلك . ولم اجتلبوه ولم تكلفوه . لأراحوا انفسهم . ولخفت مؤونتهم على من خالطهم » (١١٧) .

مؤلفاته :

كان الجاحظ نابغة عصره . لم يدع باباً من ابواب المعرفة الا طرقة . وأصدق مايوصف به انه موسوعة او دائرة معارف . فقد بلغت مؤلفاته مايقارب المئة والستين (١١٨) . ولعل في كلام سبط ابن الجوزي مبالغة حين قال : ألف خمسين وثلاثمئة مؤلف بين رسالة في بضع صفحات وكتاب في بضعة مجلدات وذكر انه رآها في اول القرن السابع في مشهد ابي حنيفة في بغداد . (١١٩)

(١١٥) البغلاء ص ٢٢٨ .

(١١٦) ينظر كتاب الجاحظ حياته وآثاره ص ٢٢٢ .

(١١٧) البيان والتبيين ٢ ، ٢٩ .

(١١٨) ينظر : معجم الادباء ١ ، ٧٥ - ٧٨ .

(١١٩) أمراء البيان ص ٢٨١ .

إن مؤلفات الجاحظ مفيدة ونافعة . بعضها رسائل أشبه ما نسميها اليوم بالبحوث . مثل : التربيع والتدوير ، مناقب الترك ، المعاش والمعاد . كتمان السر وحفظ اللسان . فخر السودان على البيضان . في الجد والهزل . في نفي التشبيه . في كتاب الفتيا . الى أبي الفرج بن نجاح الكاتب . فصل بين العداوة والحسد . صناعات القواد . في النابتة . كتاب الحجاب . مفاخرة الجوارى والغلمان . ذم أخلاق الكتاب . كتاب نبذة الحنين الى الاوطان . كتاب التبصر بالتجارة كتاب البلدان . كتاب النساء . كتاب القيان . كتاب حجج النبوة . فضل هاشم على عبد شمس ... وبعضها الآخر كتب في مجلد واحد أو عدة مجلدات . مثل : الحيوان . والبيان والتبيين . والبخلاء . والعثمانية . والمحاسن والأضداد . والبرصان والعرجان والعميان والحولان ...

لقد وقعت كتبه ورسائله موقع الاستحسان والرضا عند القراء والباحثين على مر العصور السابقة . ولا تزال تُراجع وتُعمد في الدراسات الأدبية والعلمية والسياسية والاجتماعية ؛ لأنها رصينة وموثوقة . ومكتوبة بلغة سليمة وأسلوب واضح وممتع ولطيف .

نثره وأسلوبه :

كان الجاحظ كاتباً بارزاً مشهوراً في جميع الأوساط في العصر العباسي . وبقيت شهرته الى يومنا هذا . له طريقة خاصة عُرف بها . امتدت أثارها الى آحاد بعيدة . يتداولها جيلاً بعد جيل . حتى أصبحت مدرسة من مدارس الكتابة لها خصائصها ومميزاتها . يعود اليها الباحثون في دراساتهم ينهلون منها المواد الأولى في الإنشاء العربي . ومن أبرز صفات هذه الطريقة :

١ - مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فهو يقول : « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني . ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً . ولكل حالة من ذلك مقاماً . حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني . ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات . وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات (٦٥٠) » .

٢ - البيان والابتعاد عن حوشي الكلام وغيريه ووضوح الدلالة . فهو يقول : « على قَدْر وضوح الدلالة وصواب الإشارة . وحسن الاختصار . ودقّة المدخل . يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح . وكانت الإشارة أبين وأنور . كان أنفع وأنجح . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله عز وجلّ يمدحه . ويدعو إليه . ويحثّ عليه ... والبيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى . وهتك الحجاب دون الضمير . حتى يُفضي السامع الى حقيقته . ويهجم على محصله كائناً ما كان ذلك البيان . ومن أيّ جنس كان الدليل : لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع . إنما هو الفهم والإفهام : فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى . فذلك هو البيان في ذلك الموضع » (٦١١)

٣ - الاستطراد . وأراد به دفع الملل والسآمة عن القاريء . وتفكيهاً . للنفس وترويحاً لها من التعب والعناء . وتنشيطاً لمتابعة القضايا والمسائل التي يتناولها بالبحث والاستقصاء . جاء في كتاب الحيوان قوله : « قد عرّمت - والله الموفق - أنني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قاريء هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل . فاني رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة » (٦١٢)

٤ - مزج الجد بالهزل والضحك والمرح . لتجيب القراءة والمتابعة وشحذ الذهن وتجديد النشاط . قال : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف . وعلى العقل المحض . وعلى الحق المرّ . وعلى المعاني الصعبة التي تستكبد النفوس وتستفرغ المجهود . وللبصير غاية ولللاحتمال نهاية . ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل » (٦١٣)

٥ - العناية بالالفاظ وتركيب العبارات والجمل بلا تكلف أو تصنع . فهو يقول : « إذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . وكان صحيح الطبع . بعيداً من الاستكراه . ومنزهاً عن الاختلال . مصوناً عن التكلف . صنع في القلوب صنع

(٦١١) البيان والتبيين ١٠١ و٧٥

(٦١٢) الحيوان ١٠٢ و٧١

(٦١٣) رسالة في النساء . مجموعة رسائل الجاحظ ط الرحمانية - القاهرة ١٩٢٢ . ص ٣٧٥ .

الغيث في التربة الكريمة . ومتى فَصَلْتُ على هذه الشريطة . ونفذت من قائلها على هذه الصفة . أصبحها الله من التوفيق ومنحها من التأيد . ما لا يمتنع من تعظيمها صدور الجبابرة . ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة « (٦٥٤) »

٦ - التلوين الصوتي أو الموسيقي الذي يعتمد على السجع . يأتي عفو الخاطر . والمزاوجة والترادف والجمال الاعتراضية مثل قوله : « لا أعلم قريباً أحسن موافاة . ولا أعجل مكافاة . ولا أحضر معونة . ولا أخف مؤونة . ولا شجرة أطول عمراً . ولا أجمع أمراً . ولا أطيب ثمرة . ولا أقرب مُجتنى . ولا أسرع ادراكاً . ولا أوجد في كلِّ إبانٍ من كتاب . ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه . وقرب ميلاده . ورخص ثمنه . وإمكان وجوده . بجمع من التداير العجيبة . والعلوم الغريبة . ومن آثار العقول الصحيحة . ومحمود الأذهان اللطيفة . ومن الحكم الرفيعة . والمذاهب القويمه . والتجارب الحكيمه . ومن الاخبار عن القرون الماضية . والبلاد المتنازحة . والأمثال السائرة . والأمم البائدة . ما يجمع لك الكتاب (٦٥٥) »

لقد رَزَقَ أسلوبه القبول في القلوب . لصدقه وواقعيته ودقته وتوافقه بين اللفظ والمعنى . ولذلك اكتسب الخلود . واستحق أن يكون المعلم الاول في الإنشاء العربي . وخير ما نختم هذه الدراسة الوجيرة عن سيرته وانشائه الأبيات الآتية من نظمه : (٦٥٦) :

يَطِيبُ العيشَ أَنْ تَلْقَى حَكِيمًا غَدَاةَ العِلْمِ وَالظَّنُّ المَصِيبُ
فِيكشِفُ عَنْكَ حَيْرَةً كُلَّ جَهْلٍ وَفَضْلُ العِلْمِ يَعْرِفُهُ الأَدِيبُ
سَقَامَ الحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءٌ وَدَاءُ الجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طِيبُ

(٦٥٤) البيان والتبيين ١ ، ٨٢

(٦٥٥) الصيوان ١ ، ٤٢ .

(٦٥٦) تاريخ بغداد ١٢ ، ٦١٥ .

سهل بن هرون

٢ - ٢١٥ هـ

سيرته :

سهل بن هرون . ويكنى أبا عمرو . من كتّاب العصر العباسي الأول المشهورين . وهو عراقي المولد والمنشأ . ولد في ميسان (٣٧٠) بين البصرة وواسط . وقيل ، ذستميان (٦٥٨) بين البصرة وواسط والأهواز . في أواخر النصف الأول من القرن الثاني للهجرة تقريباً . ترك مسقط رأسه مع أسرته وانتقل الى البصرة مدينة العلم والمعرفة آنذاك . وفيها درس وتثقف وظهرت مواهبه في الكتابة ونظم الشعر . وقد أثنى عليه الجاحظ ونقل كثيراً من اخباره في كتبه . وصفه بقوله : « كان حسن الشارة . بعيداً عن الغدامة (٦٥٩) . معتدلاً القامة . مقبول الصورة . يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة . وبرقة الذهن قبل المخاطبة . وبدقة المذهب قبل الإمتحان . وبالنبيل قبل التكتشف » (٦٦٠)

وكان ظريفاً محبوباً . زويت له طرائف ونوادير كثيرة مع رجال عصره (٦٦١) . ونال شهرة كبيرة بأدبه وكثرة مصنفاة . قال الجاحظ : هو « من الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر والخطب . والرسائل الطوال والقصار . والكتب الكبار المخلّدة . والسير الحسان المدونة . والأخبار المولدة » (٦٦٢)

جاء سهل الى بغداد حاضرة العلماء والادباء واستقر فيها وتفتحت امامه آفاق الشهرة والمجد حيث تقرب من الخليفة الرشيد والتحق بالدواوين . وحظي بصداقة ذي الوزارتين الفضل بن سهل وأصبح من مقربيه وهو الذي قدّمه للخليفة المأمون وأعجب بذكائه وفطنته وبلاغته وجعله خازناً لكتب الفلسفة في دار الحكمة . قال ابن نباتة المصري : « كان في أول أمره خصباً بالفضل بن سهل . ثم قدّمه الى المأمون فأعجب ببلاغته وعقله . وجعله كاتباً على خزانة الحكمة . وهي كتب

(٦٥٧) زهر الآداب ، ١ ، ٥٧٧ .

(٦٥٨) الفهرست ص ١٧٤ .

(٦٥٩) الغدامة ، العي .

(٦٦٠) البيان والتعيين ، ١ ، ٨٩ .

(٦٦١) ينظر الحيوان ، ٢ ، ٦٦٠ . شرح الميوز ص ٢٤٢ .

(٦٦٢) البيان والتعيين ، ١ ، ٥٢ .

الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة . أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان .. فأرسلها إليه . واغتنب المأمون وأمر العلماء بتعريبها . وجعل سهل بن هارون خازناً لها . فتصفحها ونسج على منوال كتب منها «(١١٣)» . وبقي في منصبه العلمي الى أن توفي سنة ٢١٥ للهجرة . وترك مجموعة من الكتب والرسائل مثل ، ثعلة وعفراء على نسق كليلة ودمنة ألفة للمأمون . وكتاب الإخوان . وكتاب المسائل . وديوان رسائل . وتديير الملك والسياسة . والواقم والعذراء . والنمر والثعلب . والهذلية والمخزومي . وسحرة - أو شجرة - العقل . وسواها .

نشره وطريقته :

كان سهل بن هرون كاتباً بليغاً مشهوراً برصانة الأسلوب وجودة الديباجة . وقد سلك طريقة ابن المقفع في تأليف الكتب التي تُعنى بشؤون الحكم والسياسة وتديير الملك . وكذلك قصص الحيوان . ولعل من أطرف كتبه «النمر والثعلب» . وقد وصل إلينا قسم منه «(١١٤)» . يعتمد الحوار فيه على الثعلب الحكيم . والذئب الجاحد . والنمر الطاغى . من ذلك أن الذئب حينما استتب أمره في السلطة وقوي شأنه تمرّد على النمر وقطع عنه المعونة . فكتب النمر رسالة إليه يهدّده فيها ويُنذره بالعقاب . فردّ الذئب بهذه الرسالة : « بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم . أما بعد . فإن كتاب الملك - أمتع الله به - وصل إليّ بما حذّر فيه وأنذر وقدم وأخّر . وفهمته . وقد كان الملك - حفظه الله - أسند إليّ أمر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدو به . وانتطاع من سبّله . واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه . فرأيت «(١١٥)» صدع الآفة . وجمعت شمل الطاعة . وكشفت دُخية «(١١٦)» الفتنة . وأسفت الريق بعد الشجا «(١١٧)» . وقمعت أولي العداوة والبغضاء . وأقمت حقاً كان معلّمه متروكاً . ودفعتم ضلالة كان محرّمها مسلوكاً . أتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده . فعاد ما عملته هباءً . ولم أجد منه شيئاً مشكوراً . وما يُقَفِّع لثلي بالشنان «(١١٨)» . وإني لألوى بعيد

(٦٦٢) صرح العيون ص ٢٤٢ .

(٦٦٤) حولية الجامعة التونسية . العدد الأول ١٩٦٤ .

(٦٦٥) رأيت ، أصلحت .

(٦٦٦) الدجية ، الظلمة .

(٦٦٧) الهجا ، الغصة .

(٦٦٨) الشنان ، الجلد اليابس . وقطع ، ضرب . وكانوا اذا ضربوا عليه نفرت الابل . ويضرب

المُستمر (١٦٦). فإن يستم الملك ضيعته ويرب (١٦٧) نعمته فأنا بين العسا
ولحائها (١٦٨). والآ فسيجدني جدل حكاك (١٦٩). إذا نكأت (١٧٠) قرحة أدميتها.
أحمر (١٧١). ضرباً بالسيف. والسلام»

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه. وكانوا
ثلاثة. فاستشارهم في أمره. فأشار الأول بالكتابة اليه في ايجاز لتبين دخيلة أمره
وحقيقة موقفه إن سلماً فليتم. وإن حرباً فحرب. وأشار الثاني بالصفح عن زلته.
فإن الحرب سجال. وهي حتى على الظافر خسارة في الاموال والرجال. وأشار
الثالث بمحاربه قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر
ضعفاً. فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه. وأخذ النمر بقول
الوزير الأول. فكتب الى الذئب رسالة. نسختها: «بسم الله الرحمن الرحيم. صلى
الله على سيدنا محمد النبي الكريم. أما بعد. فاني رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر
أخرى. فإذا نظرت في كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت فإن كنت سلماً فأقبل
والأ فاذن بحرب. والسلام».

إن طريقتة في الكتابة واضحة وجلية. لا تكلف فيها ولا التواء. الى جانب
الفصاحة. والدقة في اختيار الألفاظ وملاءمتها في سياق العبارات. والتقطيع الصوتي
الجميل الذي يبهر السامع. مثل قوله: «لو أن رجلين خطبا أو تحدثا. أو اجتبا أو
وصفا. وكان احدهما جميلاً جليلاً بهياً. ولئاساً نبيلاً. وذا حسب شريفاً. وكان
الأخر قليلاً قميئاً. وباء الهيئة. وخامل الذكر مجهولاً. ثم كان كلامهما في مقدار
واحد من البلاغة. وفي وزن واحد من الصواب. لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي
للقليل الدميم على النبيل الجسيم. وللباد الهيئة على ذي الهيئة. ولشغلهم التعجب
منه عن مساواة صاحبه به. ولصار التعجب منه سبباً للعجب به. ولصار الاكثار في
شأنه علة للاكثار في مدحه: لأن النفوس كانت له أحقر. ومن بيانه آياس. ومن
حسده أبعاد. فإذا هجموا منه على مالم يكونوا يحسبونونه. وظهر منه خلاف ما

(١٦٦) الومي ، عسر ، يلتوي على خصمه ، بعيد المستمر ، قوى بها العصومة .

(١٦٧) يرب ، ينمي ، ويزيد .

(١٦٨) لها العسا ، لهرها ، والكناية واضحة .

(١٦٩) الجدل ، أصل الهجرة . حكاك من الحلك وهو الدلك ، وجدل حكاك ، مثل يضرب لمن

يستشفى برأيه .

(١٧٠) نكأ القرحة ، لهرها قبل أن تجرا .

(١٧١) كنى بالعصرة على البأس الشديد .

قَدْرُوهُ . تَضَاعَفَ حُسْنُ كَلَامِهِ فِي صَدُورِهِمْ . وَكَبُرَ فِي عَيُونِهِمْ ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِ مَعْدَنِهِ أَغْرَبَ . وَكُلَّمَا كَانَ أَغْرَبَ كَانَ أْبَعَدَ فِي الْوَهْمِ . وَكُلَّمَا كَانَ أْبَعَدَ فِي الْوَهْمِ كَانَ أَطْرَفَ . وَكُلَّمَا كَانَ أَطْرَفَ كَانَ أَعْجَبَ . وَكُلَّمَا كَانَ أَعْجَبَ كَانَ أْبَدَعَ وَإِنَّمَا ذَلِكَ كِنُودَارِ كَلَامِ الصَّبِيَّانِ وَمُلْحِجِ الْجَانِينِ ؛ فَإِنَّ ضَرْبَ السَّامِعِينَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدُّ . وَتَعْجِبُهُمْ بِهِ أَكْثَرُ . وَالنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ الْغَرِيبِ . وَاسْتِطْرَافِ الْبَعِيدِ . وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَوْجُودِ الرَّاهِنِ . وَفِيمَا تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ مِنَ الرَّأْيِ وَالْهَوَى . مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ فِي الْغَرِيبِ الْقَلِيلِ . وَفِي النَّادِرِ الشَّاذِّ . وَكُلُّ مَا كَانَ مِلْكَ غَيْرِهِمْ . وَعَلَى ذَلِكَ زَهْدُ الْجِيرَانِ فِي عَالِمِهِمْ . وَالْأَصْحَابُ فِي الْفَائِدَةِ مِنْ صَاحِبِهِمْ . وَعَلَى هَذَا السَّبِيلِ يَسْتِطْرَفُونَ الْقَادِمَ عَلَيْهِمْ . وَيَرْحَلُونَ إِلَى النَّازِحِ عَنْهُمْ . وَيَتْرَكُونَ مَنْ هُوَ أَعْمُ نَفْعاً وَأَكْثَرُ فِي وَجْهِهِ الْعِلْمِ تَصَرُّفاً . وَأَخْفُ مَوْوَنَةً وَأَكْثَرُ فَائِدَةً . وَلِذَلِكَ قَدَّمَ بَعْضُ النَّاسِ الْخَارِجِيَّ عَلَى الْعَرِيقِ . وَالطَّارِفَ عَلَى التَّلِيدِ (١٦٠) .

إِنَّ بَرَاعَةَ الْأَسْلُوبِ وَالصِّيَاغَةَ الْمُحْكَمَةَ وَالِدِيَابِجَةَ الْمَشْرُوقَةَ فِي نَثْرِهِ رَفَعَتْ مِنْ شَأْنِهِ وَأَنْزَلَتْهُ مِنْزَلَةً رَفِيعَةً بَيْنَ أَرْبَابِ الْبَيَانِ وَالسَّيْفِ . وَسَرَتْ أَقْوَالُهُ بَيْنَ الْقُرَّاءِ كَالْحَكْمِ . مِثْلُ قَوْلِهِ : « الْعَقْلُ رَائِدُ الرُّوحِ . وَالْعِلْمُ رَائِدُ الْعَقْلِ . وَالْبَيَانُ تَرْجِمَانُ الْعِلْمِ (١٦١) . وَقَوْلِهِ : « اللَّسَانُ الْبَلِيعُ وَالشَّعْرُ الْجَيِّدُ لَا يَكَادَانِ يَجْتَمِعَانِ فِي وَاحِدٍ . وَأَعْسَرَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَجْتَمِعَ بِلَاغَةُ الشَّعْرِ . وَبِلَاغَةُ الْقَلَمِ (١٦٢) »

(١٦٥) الْبَيَانُ وَالْتَّبْيِينُ ١ ، ٨٩ .

(١٦٦) نَفْسُهُ ١ ، ٧٧ .

(١٦٧) نَفْسُهُ ١ ، ٢٤٢ .

عمرو بن مسعدة

٢ - ٢١٧ هـ

سيرته :

هو عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول . وكنيته أبو الفضل . وهو ابن عم ابراهيم بن العباس الصولي الشاعر الكاتب (ت ٢٤٣ هـ) . اعتنق جدّه الاسلام زمن بني أمية . وكان أبوه مسعدة كاتباً بليغاً يشتغل في ديوان الرسائل زمن الخليفة المنصور . وقد نقل ياقوت قطعةً نثريةً له في تعظيم الاسلام تتميزّ بالبلاغة وحسن الصياغة . وهي : « الحمد لله الذي عظم الاسلام واختاره . وأوضحه وأناره . وأعزه وأنافه وشرفه وأكمله وتممه وفضله وأعزه ورفع . وجعله دينه الذي أحبه واجتبه . واستخلصه وارتضاه واختاره واصطفاه . وجعله الدين الذي تعتد به ملائكته . وأرسل بالدعاء عليه أنبياءه . وهدى له من أراد اكرامه واسعاده من خلقه . فقال جل من قائل ، (ان الدين عند الله الاسلام) وقال جل وعلا : (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) وقال : (ملّة أبيكم ابراهيم هو سماء المسلمين من قبل) . فهذا الاسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله الى رضوان الله ورحمته وجواره في جنته . وبه تحرّروا من غضبه وعقوبته . وأمنوا نكال عذابه وسطوته » (٢١٨)

وكان لمسعدة أربعة بنين : عمرو . ومحمد . ومسعود . ومجاشع الذي يقول فيه أبو العتاهية : (٢١٩)

عَلِمْتَ يامجاشع بن مسعدة أن الشباب والفراع والجده
مفسدة للمرء أي مفسدة

لم يصل الينا شيء عن مولد عمرو بن مسعدة ونشأته وأساتذته . ولا نعلم نوع الدراسة التي انصرف اليها . ولعلّ أباه وجهه منذ الصغر نحو القراءة والكتابة والدرس . وعلمه صنعة الكتابة التي كانت الطريق للمصود الى المجد والعلى والغنى :

أقبل على أعمال الخلافة . فاشتغل كاتباً للتوقيع بين يدي جعفر بن يحيى . قال عن نفسه : « كنت أوقّع بين يدي جعفر بن يحيى . فرفع اليه غلمانة ورقة يستزيدونه في روايتهم . فرمى بها اليّ وقال : أحبّ عنها . فكتبت : قليل دائم خير

(٢١٨) معجم الادباء ١ : ٨٨٠

(٢١٩) معجم الادباء ١ : ٨٨٠

من كثيرٍ منقطع . فضرب بيده على ظهري وقال : أيُّ وزيرٍ في جلدك (١٣٠) . ولما شاع ذكره في صنعة الكتابة ومهارته فيها وبلغ خبرة الى المأمون قرَّبه اليه وأكرمه وأخذه معه حينما زار دمشق . واختلفت الروايات في تولُّيه الوزارة . فقال ياقوت الحموي : « قد ولي للمأمون الأعمال الجليلة . وألحق بذوي المراتب النبيلة . وسَمَّاه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً (١٣١) » . وقال المسعودي : ان المأمون استوزره (١٣٢) . ومهما كان . فالمرتبة التي وصل اليها كانت جليلة وعظيمة . حيث اشتغل في ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والأزمة .

كان الخليفة المأمون يُجله ويحترمه . ويسميه الرومي لبياض وجهه وجمال صورته . وقد « أقبلت عليه الدنيا اقبالاً عظيماً . فنعم ولدٌ واعتبَط . وقصده القاصدون . وطابت نفسه باصطناعهم والاحسان اليهم . وعطف على العفاة والقصاد . فاستكثر من الأنصار وانبسطت نفسه ويده بالعتاء . فتعشقتة نفوس الناس وأهل الدولة . والخليفة من وراء ذلك يمدّه . ويطلق يده في المال والنوال (١٣٣) » .

خرج مع المأمون في غزوة في بلاد الروم وتوفي بمدينة أذنة (١٣٤) سنة ٣١٧ للهجرة . (١٣٥) « وزُفِعَتْ الى المأمون رقعةً أنه خَلَّفَ ثمانين ألف درهم . فوَقَّعَ في ظهرها : هذا قليلٌ لمن اتصل بنا وطالتْ خدمته لنا . فبارك الله لولده فيما خلف . وأحسن لهم النظر فيما ترك (١٣٦) » .

نثره وأسلوبه :

كان عمرو بن مسعدة أحد البلغاء المعروفين في عصر الخليفة المأمون . قال ابن النديم : « كان بليغاً شاعراً مُترسلاً وله كتاب رسائل كبير (١٣٧) » . وقال ابن خلكان : « كان كاتباً بليغاً جَزَلَ العبارة وجيزها . سديد المقاصد والمعاني (١٣٨) » .

(١٣٠) امرء البيان ص ١٧٥ .

(١٣١) معجم الادباء ١٦ : ٨٨ .

(١٣٢) مروج الذهب ٢ : ٤١٧ .

(١٣٣) امرء البيان ص ١٧٦ .

(١٣٤) أذنة : بلدة في بلاد الروم قريبة من البحر الابيض المتوسط . لها نهر يقال له سيحان .

(١٣٥) واليل توفي سنة ٢١٥ للهجرة (وفيات الاعيان ٣ : ٤٧٦) .

(١٣٦) معجم الادباء ١٦ : ٨٩ .

(١٣٧) الفهرست ص ١٧٨ .

(١٣٨) وفيات الاعيان ٣ : ٤٧٥ .

أن أسلوبه يتميز بالمتانة والوضوح والايجاز . وهو من السهل المتنع . وصفه الفضل بن سهل بقوله : « هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كلَّ أحد إذا سمع كلامه ظنَّ أنه يكتب مثله . فاذا رآه بعدُ عليه(٦٨١) » . مثل قوله في رسالة له الى الحسن بن سهل : « أما بعدُ . فإني ممن إذا غرس سقى . وإذا أسس بني ليستتم تشييد أسه . ويجتني ثمار غرسه . وثأؤك عندي قد شارف الدروس . وغرسك مشف على اليبوس . فتدارك بناء ما أسست وسقي ما غرست . ان شاء الله تعالى(٦٨٠) » .

لقد كان ثره الموصوف بالإيجاز الدال على المعنى الكثير موضع إعجاب أرباب البيان . قال أحمد بن يوسف الكاتب : « دخلت على المامون . وهو يمسك كتاباً بيده . وقد أطال النظر فيه زماناً وأنا ملتفت إليه . فقال : يا أحمد . أراك مفكراً فيما تراه مني . قلت : نعم . وفقى الله أمير المؤمنين من المكاره . وأعاده من المخاوف . قال : فإنه لامكروه فيه . ولكنني قرأت كلاماً وجدته نظير ماسمعه من الرشيد يقوله في البلاغة . كان يقول : البلاغة التباعد عن الإطالة . والتقرب من معنى البغية . والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على المبالغة في هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب . ورمى به إلي . وقال : هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إليه . قال : فقرأته فإذا فيه : (كتابي الى أمير المؤمنين ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جندي تأخرت أرزاقهم . وانقياد كفاة تراخت(٦٨١) أعطياتهم . واختلت لذلك أحوالهم . والتأثت(٦٨٢) معه أمورهم) فلما قرأته قال : إن استحساني إياه بعثني على أن أمرت للجندي قبله ببعطائهم لسبعة أشهر . وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محلّه في صناعته(٦٨٣) »

وقد رأى الفلقشندي أن طريقة مجموعة من كتاب العصر العباسي الأول ومنهم عمرو بن مسعدة شبيه بطريقة الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تجويد الالفاظ وصحة المعاني وتقويم المباني . فقال : « لقد كان المتقدمون لا يحتفلون بالسجع جملة . ولا يقصدونه الا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام . وانفق من غير قصد ولا اكتساب . وانما كانت كلماتهم متوازية . وألفاظهم متساوية . ومعانيهم

(٦٨٩) معجم الادباء ٦ ، ٨٩ . صبح الاعشى ٢ ، ٢٢٠ .

(٦٩٠) معجم الادباء ٦ ، ٩٠ .

(٦٩١) تراخت ، تقاعست وتأخرت .

(٦٩٢) التأثت ، اختلطت .

(٦٩٣) وفيات الاعيان ٢ ، ٤٧٨ . وينظر المقدم الفريد ٢ ، ٢٧٢ .

ناصعة . وعباراتهم رائعة . وفصولهم متقابلة ، وجملُ كلامهم متماثلة ؛ وتلك طريقة الامام علي رضي الله عنه ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام . كابن المقفع ، ويزيد بن هارون ، وابراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وأبي عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء (٦٩١) .

- اشتهر عمرو بن مسعدة بالحكم البليغة مثل قوله :
- عليكم بالاخوان فانهم زينة في الرخاء وعدة للبلاء .
- قلة الزيارة امان من الملامة .
- أسرع الأشياء انقطاعاً مودة الأشرار .
- اخوان السوء كشجر في النار يحرق بعضه بعضاً .
- ظاهر العتاب خير من باطن الحقد .
- كمون الحقد في الفؤاد ككمون النار في الزناد .
- القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته .
- لا تأمنن عدوك وان كان مقهوراً ، واحذره وان كان مفقوداً ، فان حد السيف فيه وان كان مغموراً .
- نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .
- الود أعطف من الرحم .
- النفس بالصديق أنس منها بالعشيق .
- من حقوق المودة عفو الاخوان ، والاعفاء عن تقصير ان كان
- يبقى الودما بقي العتاب (٦٩٠) .

(٦٩٤) صبح الاعشى ٢ ، ٣٦٧ .

(٦٩٥) ثمة شواهد أخرى في كتاب أمراء البيان ص ١٨٠ .

محمد بن عبد الملك الزيّات

١٧٢ - ٢٢٢ هـ

سيرته :

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة . ويكنى أبا جعفر . ويُعرف بابن الزيّات . كان جدّه من قرية يقال لها الدُّشكرة القرية من بغداد . يجلب الزيت من مواضعه ويبيعه في بغداد فغلب هذا التلقب على بيته .

ولد ابن الزيّات في بغداد سنة ١٧٢ للهجرة من أصل عربي . ونشأ فيها . وكان أبوه من الاغنياء الموسرين في بغداد بجانب الكرخ . حثّه على التجارة والتعلق بها وملازمتها . ولكنه رفضها وامتنع عنها وأقبل نحو علوم اللغة العربية وأدائها ينهل من ينابيعها حتى نبع في الشعر والنثر على السواء . نقل عن ابنه عمر بن محمد بن عبد الملك أنه قال : « كان جدّي موسراً من تجار الكرخ . وكان يريد من أبي أن يتعلّق بالتجارة . ويتشاغل بها . فيمتنع من ذلك ويلزم الادب وطلبه . ويخالط الكتاب . ويلزم الدواوين . فقال له ذات يوم : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك : وليضرنك : لأنك تدع عاجل المنفعة . وما أنت فيه مكفي . ولك ولأبيك فيه مال وجاه . وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه . فقال : والله لتعلمن أئنا ينتفع بما هو فيه : أنا أم أنت ؟ ثم شخص الى الحسن بن سهل يقيم اسلح (١٦١) . فامتدحته بقصيدة . فأعطاه عشرة آلاف درهم . فعاد بها الى أبيه . فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه (١٦٢) »

ويبدو أنّ ابن الزيّات لم يكن قانعاً بما حصل عليه من مال . وانما كان طامعاً في منصب يتولاه في الدولة . فأقبل على الحسن بن سهل وأنشده (١٦٣) :

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه لكن لتبسيني التحجيل والغفرا
وليس ذلك إلا أنسي زجل لا أطلب الورد حتى أعرف الصدرا

(١٦١) فم الصلح : موضع على نهر الصلح . وهو فوق واسط . والصلح كانت دار الحسن بن سهل .

(١٦٢) الاغانى ٢٢ ، ٤٦ .

(١٦٣) الاغانى ٢٢ ، ٤٧ .

وتحقق له ما أراد . اذ عُيِّنَه كاتباً بالدواوين . وأخذ نجمه يعلو . واشتهر أمره بين الأدباء والعلماء . فقد ذكر الرواة « أَنَّ عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم . كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو . فاذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان : ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب . يعني محمد بن عبد الملك . فأسألوه واعرفوا جوابه . فيفعلون ويصدرُ جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه(٦٩٩) » .

بقي ابن الزيات يشتغل كاتباً في دواوين الدولة زمن الخليفة المأمون . ولما ولي المعتصم الخلافة استوزره وأصبح الرجل الأول في دولته لعلمه وذكائه وقدرته على تسيير أمور الحكم . وحظي بتقدير الناس واحترامهم . ووفد عليه كثير من العلماء والأدباء . أمثال أبي تمام والبحتري والجاحظ والحسن بن وهب وحنين بن اسحاق ...

ظَلَّ ابن الزيات وزيراً في خلافة الواثق . وكانت بينه وبين قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد منافسةً انقلبت فيما بعد الى جفوة وبغضاء وعدواةٍ وشحناءٍ وتهاجٍ بالشعر . « وكان الواثق قد أمر أن لا يرى أحدٌ من الناس محمد بن عبد الملك الزيات الوزير إلا قام له . فكان ابن أبي دؤاد اذا رآه قامَ واستقبل القبلة يُصَلِّي . فقال ابن الزيات :

صَلَّى الصُّحَى لما استفاد عدواتي وأرأه يَنْسُكُ بعدها وَيَصُومُ
لا تَعُدُّ مَنْ عداوةً مَسْمُومَةً تركتكَ تَعُدُّ تارةً وتقومُ(٧٠٠) »

وحينما جاء المتوكل الى الخلافة . كان في نفسه شيء منه : لأن ابن الزيات حاول أن يصرف الخلافة عنه الى ابن الواثق . وقيل كان يتجهم للمتوكل ويغلف عليه القول(٧٠١) .

استوزره المتوكل أربعين يوماً . ثم قتله مخدوعاً بأقوال ابن أبي دؤاد وغيره من الحاقدين عليه بحجة أنه جمع أموالاً طائلة في أثناء توليه الوزارة .

(٦٩٩) وفيات الاعيان ٢ : ٩٤ .

(٧٠٠) وفيات الاعيان ١ : ٨٥ وينظر ديوان ابن الزيات ص ٦٦ .

(٧٠١) ينظر الكامل لابن الاثير ٧ : ٢٦ .

قضى ابن الزيات نحبه في التنور الذي اتخذه أيام وزارته . وكان فيه مسامير يُعذَّبُ فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال . وكان موته سنة ٢٣٣ للهجرة . وقد ندم المتوكل على مقتله . وعلم أن أقوال الوشاة كانت كاذبة ومُلفَّقة . وقال لابن أبي دؤاد : أطمعتني في باطل . وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً (٧٠٢) .

أسلوبه في الكتابة :

كان ابن الزيات عالماً أديباً . ترك ديوان رسائل (٧٠٣) . وديوان شعرا (٧٠٤) . وقد أشاد به ابراهيم بن المدير الوزير فقال : « أن محمد بن عبد الملك من ألطف الناس ذهناً . وأرقهم طبعاً . وأصدقهم حساً . وأرشفهم قلماً . وأملحهم إشارة . اذا قال أصاب . واذا كتب أبلغ . واذا شعر أحسن . واذا اختصر أغنى عن الاطالة (٧٠٥) » . ووصف أبو عبادة البحرني بلاغته في الكتابة بقوله (٧٠٦) :

لَتَفَنَّنَتْ فِي الْكِتَابَةِ حَتَّى
فِي نِظَامٍ مِنَ السَّبَلَاةِ مَا شَءَ
وَبَدِيْعٍ كَأَنَّه زَهْرُ السُّبَا
مَشْرُقٌ فِي جَوَانِبِ السَّمْعِ مَا يَخُ
مَا أُعِيرَتْ مِنْهُ بَطُونُ الْقِرَاطِي
مُسْتَمِيلٌ سَمِعَ الطَّرُوبِ الْمَعْنَى
حَجَجٌ تُخْرِسُ الْأَلْدُ بِالْفَا
وَمَعَانٍ لَوْ فَضَّلْتَهَا الْقَوَافِي
حُزْنٌ مُسْتَعْمَلُ الْكَلَامِ اخْتِبَاراً
وَرَكْسَنُ اللَّفْظِ الْقَرِيبِ فَأَدْرَكَ
كَالْعَذَارَى غَدُونََ فِي الْحَلْلِ الصَّفِ

عَطَّلَ النَّاسَ فَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ
لَكَ امْرُؤٌ أَنَّهُ نِظَامٌ فَرِيدِ
حِكْ فِي رَوْتِي الرِّبِيعِ الْجَدِيدِ
لَلْقَا عَوْدَةَ عَلَى الْمُسْتَعْمِيدِ
رَ وَمَا حُمِلَتْ ظَهْرُ الْبَرِيدِ
عَنْ أَغَانِي مَخَارِقِ وَعَقِيدِ
ظَ فِرَادِي كَالسُّجُوهْرِ الْمُسْعُودِ
هَجَّجْتَ شِعْرَ جِرْوَلٍ وَلِبِيدِ
وَتَجَنَّبْتَ ظِلْمَةَ التَّعْقِيدِ
نَ بِهِ غَايَةَ الْمِرَادِ السَّبْعِيدِ
رَ إِذَا رُحْنَ فِي الْخَطُوطِ السُّودِ

(٧٠٢) امرء البيان ص ٢٧١ .

(٧٠٣) الفهرست ص ١٧٧ .

(٧٠٤) طبع في القاهرة سنة ١٩٤٩ بتحقيق الدكتور جميل سعيد .

(٧٠٥) امرء البيان ص ٢٥٩ .

(٧٠٦) ديوان البحرني ١ ، ٦٢٦ .

أن من أبرز سمات نثر ابن الزيات الأيجار في الألفاظ مع الاتساع في المعاني .
وحسن اختيار الكلمات الفصيحة ودقّة استخدامها في الجمل والعبارات وكأنّها حبات
منصّدة مُتسِّقة . مثل قوله : « أن حقّ الأولياء على السلطان تنفيذُ أمورهم . وتقويمُ
أودهم . ورياضةُ أخلاقهم . وأن يميز بينهم . فيقدّم مُحسنهم . ويُؤخّر مسيئهم ;
ليزداد هؤلاء في احسانهم . ويزدجر هؤلاء عن اساءتهم(٧٧) » .

كان ابن الزيات معجباً بالاسلوب الفصيح البليغ . فها هو ذا يطرب لسماع
قصيدة . لما تطويه من معنى . وتحويه من بلاغة . وتعلن عنه من فصاحة . لأبي
تمام في مدحه . فيقول له : « يا أبا تمام ؛ والله انك لتحلّي شعرك من جواهر
لفظك وبدائع معانيك ما يزيد حسناً على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب ؛ وما
يُدخّر لك من جزيل المكافأة ألا يُقصر عن شعرك في الموازنة(٧٨) » .

أن غزير علمه . وكثرة محقوظاته . ووافر ثروته اللغوية . وسعة اطلاعه على
ثقافة عصره . جعلت الألفاظ تنقاد له والمعاني تطاوغه بيسر وسهولة في كلّ الموقف .
فمن جميل ما وصل إلينا من نثره قوله : « الحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين معقود
النيت بطاعته . منطوي القلب على مناصحته . مشحوذ السيف على عدوه ؛ ثم وهب له
الظفر . ودوّخ له البلاد . وشرّد به العدو . وخصّه بشرف الفتح شرقاً وغرباً . وبرأ
وبحرأ(٧٩) » وقوله : « أن الله أوجب لخلفائه على عباده حقّ الطاعة والنصيحة .
ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة . واحياء السنن الصالحة . فاذا أدى كلّ الى
كلر حقّه كان سبباً لتمام المعونة . واتصال الزيادة . واتساق الكلمة . ودوام
الألفة(٨٠) » وقوله : « أفعال الأمير عندنا معسولة كالأماني . متصلة كالأيام . ونحن
نؤاتر الشكر لكريم فعله . ونواصل الدعاء له مواصلة برّه ؛ انه الناهض بكلّنا .
والحامل لأعبائنا . والقائم بما ناب من حقوقنا(٨١) » .

(٧٧) العقد الفريد ٤ : ٢٤٠ .

(٧٨) زهر الآداب ١١ : ٧٦ .

(٧٩) العقد الفريد ٤ : ٢٤١ .

(٨٠) نفسه ٤ : ٢٤٠ .

(٨١) نفسه ٤ : ٢٤١ .

ابن قتيبة

٢١٢ - ٢٧٦ هـ

بلغت الثقافة الاسلامية مرتبةً رفيعةً ومنزلةً عاليةً في القرن الثالث للهجرة . وقد مثل ابن قتيبة بعد الجاحظ هذه الثقافة خير تمثيل . وورث المكتبة بشرة كبيرة تتصل باللغة والنحو والادب والتفسير والحديث والفقه والتاريخ وسواها من علوم اللغة العربية وآدابها . انتفعت منها الاجيال انتفاعاً كبيراً حتى قبل « كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لاخير فيه » (٧١٢) .

سيرته :

هو عبد الله بن مسلم قتيبة الدينوري . يكنى ابا محمد . اختلف الدارسون في مكان ولادته . قال ابن الانباري وابن النديم وابن الاثير : انه ولد في الكوفة . وقال آخرون . منهم السمعاني والقفطي : انه ولد في بغداد سنة ٢١٣ للهجرة . اما نسبه الى مدينة دينور فلأنه ولي القضاء فيها مدة (٧١٣) .

نشأ وشب في بغداد . وكانت يؤمئذ مهد العلم . ومنتدى الادب . ومدينة الحضارة . فأكب على الدرس . وجد في التحصيل على علماء التفسير والحديث وأئمة اللغة والرواية وشيوخ الادب . امثال ابي حاتم السجستاني . واسحاق بن راهويه . وابراهيم بن سفيان الزياتي . وألهم بما ترجم عن اليونانية والهندية والفارسية . واتصل بالجاحظ وقرأ كتبه (٧١٤) . وحضر مجالس المعتزلة . ولكن سرعان قلاهم ورد عليهم وبين سقطاتهم التي هووا فيها حين غالوا في اعتماد العقل وفرطوا في التزام النص (٧١٥) .

لزم ابن قتيبة مدينة بغداد . وكانت له صلة بابي الحسن عبيدالله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكل وباسمه الف كتابه « أدب الكاتب » (٧١٦) . وارتحل الى

(٧١٢) تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ص ١٢٢ .

(٧١٣) تنظر مصادر ترجمة في هامش نزهة الالباء في طبقات الادباء ص ١٤٢ . وهامش انباء

الرواة على انباء النخاعة ٢ ، ١٤٢ . وابن قتيبة العالم الناقد الاديب للدكتور محمد

عبد الحميد الجندي . وابن قتيبة للدكتور محمد زغلول سلام .

(٧١٤) عيون الاخبار ٣ ، ٢٤٩ .

(٧١٥) ينظر تأويل مختلف الحديث ص ١٣ وما بعدها

(٧١٦) تنظر مقدمة ادب الكاتب ص هـ

دينور لولاية القضاء عليها . ورجع الى بغداد منصرفاً الى التأليف والتدريس . ولم يخرج منها إلا مدة يسيرة قصد فيها الى الحج . ثم عاد ليواصل التدريس الى ان توفي سنة ٢٧٦ للهجرة .

كتبه واسلوبه :

اجمع الذين ترجموا لابن قتيبة على انه كان احد العلماء الادباء . والحفاظ الاذكياء . وان مصنفه نليمة القدر وجليلة النفع (٧١٧) . ففي الادب صنف عيون الاخبار . وادب الكاتب . والشعر والشعراء . وكتاب المعاني . والمعارف . ووصية الى ولده . وكل هذه الاثار مطبوعة . وصنف عيون الشعر . وطبقات الشعراء . والمناقضة . وديوان الكتاب . وصناعة الكتابة . والحكاية والمحكي . وفرائد الدر . وحكم الامثال . واداب العشرة .

والف في اللغة والنحو كتاب الجرائيم . والوحش . وخلق الانسان . والاشقاق . وجامع النحو .

وكتب في التفسير تأويل مشكل القرآن . وتفسير غريب القرآن وهما مطبوعان . ومعاني القرآن . واعراب القرآن . وكتاب التفسير .

واختص الحديث بكتاب تأويل مختلف الحديث . والمسائل والاجوبة وهما منشوران . وغريب الحديث . واصلاح غلط ابي عبيد في غريب الحديث .

وافرد في الفقه كتاب الاشربة . والميسر والقдах . وكلاهما مطبوعان . وجامع الفقه . وتأويل الرؤيا . واستماع الغناء بالالحن . والتفقيه . والصيام .

وعمل في القراءة كتاب القراءات . واداب القراءة . وصنع في الكلام الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة . والرد على الشعوبية . والكتابان محققان . ودلائل النبوة من الكتب المنزلة على الانبياء عليهم السلام . والرد على القائل بخلق القرآن .

ودون في التاريخ مناقب الخلفاء الراشدين . وسير العجم . وكتاب الوزراء . وفي الفلك كتاب الانواء وهو مطبوع . وفي الزرع كتاب النبات . وثمة اسماء اخرى لمصنفاته لا يتسع المقام لذكرها (٧١٨) .

(٧١٧) الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجري ص ١٨٢ .

(٧١٨) انظر ثبناً باسماء مؤلفات ابن قتيبة في مقدمة كتاب عيون الاخبار ١١ - ٢٢ - ٤٢ .

ومقدمة كتاب تأويل مشكل القرآن ص ٨ - ٢٩ .

من اميز خصائص اسلوب الكتابة عند ابن قتيبة الوضوح والسهولة والسلاسة مع العناية بجودة المعنى والاسترسال في الكلام دون التقييد باغلال الصنعة. والاستشهاد بالايات والاحاديث والامثال والحكم والشعر. جاء في مقدمة كتابه المشهور « الشعر والشعراء » قوله : « كان حقُّ هذا الكتاب ان اودعه الاخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره . وعمن رفعه الله بالمدح ، وعمن وضعه بالهجاء . وعما اودعته العرب من الاخبار النافعة . والانساب الصحاح . والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة . والعلوم في الخيل . والنجوم وانوائها والاهتداء بها . والرياح وما كان منها مبشراً او خائلاً . والبروق وما كان منها خُلباً او صادقاً . والسحاب وما كان منها جهاماً او مطراً . وعما يبعثُ منه البخيل على السماح . والجبان على اللقاء . والدنيء على السمو . غير اني رايت ما ذكرت من ذلك في كتاب العرب (٧١١) كثيراً كافياً فكرهت الاطالة باعادته . فمن احبَّ ان يعرف ذلك ليستدل به على حلو الشعر ومُرّه . نظر في ذلك الكتاب (٧٢٠) .

ان كتابات ابن قتيبة الى جانب الترسل وتوخي السهولة والزهد في السجع الا ماجاء عفواً ، جيدة الصياغة . لطيفة التعبير . مثل قوله في ابي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، « الحمد لله الذي اعاد الوزير ابا الحسن - ايده الله - من الرذيلة . وابانه بالفضيلة . وجاهه بخيم السلف الصالح (٧١١) . ورداه رداء الايمان . وغشاه بنوره . وجعله هدى من الضلالات . ومصباحاً في الظلمات . وعرفه ماختلف فيه المختلفون . على سنن الكتاب والسنة ؛ فقلوب الخيار له معتلقة ، ونفوسهم اليه مائلة ، وايديهم الى الله فيه مظان القبول ممتدة ، والسنتهم بالدعاء له شافعة . يهجع ويستيقظون . ويغفل ولا يغفلون ؛ وحق لمن قام لله مقامه . وصبر على الجهاد صبره . وتوى فيه نيته . ان يلبسه الله لباس الضمير . ويُرذبه رداء العمل الصالح . ويصور اليه مختلفات القلوب (٧٢٢) . ويسعده بلسان الصدق في الاخرين (٧٢٢) . »

(٧١٩) من هذا الكتاب قطعة نشرها الاستاذ محمد كرد علي في رسائل البلغاء ص ٢٦٩ .

(٧٢٠) الشعر والشعراء ١ : ١١ .

(٧٢١) اياه : ميزه وفضله عن غيره ، حياه ، منحه وخصه ، الجيم : الطبع والهيمه والسجية .

(٧٢٢) ان يلبسه الله لباس الضمير : اي يظهر الله عز وجل ضميره الجميل . يصور : يميل .

(٧٢٣) ادب الكاتب ص ٥ .

العصر العباسي الثاني

٢٢٤ - ٦٥٦ هـ

توطئة :

ضعفت الخلافة العباسية . وذهبت هيبتها . بعد مقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ للهجرة بمؤامرة مدبرة من ابنه المنتصر مع الغلمان الأتراك (٢٢٤) وأخذت الأوضاع تتدهور وتتردى . وأصبحت أمور الخلفاء بيد القواد والخدم من غير العرب . يعزلون ويولون حسب أهوائهم ورغباتهم . ففي أثناء أربعة عشر عاماً (٢٢٠ - ٢٢٤ هـ) عزلوا ونصبوا خمسة خلفاء . منهم من قُتل . ومنهم من خُلع أو أُهين وسُجن وسُمِلت عيناه .

وظهرت في هذه الحقبة إمارات ودويلات في الشرق والغرب . انسلخت من جسد الدولة العباسية . لها سلطانها ونفوذها . وقوتها وسيطرتها . وقوادها وجنودها . مثل السامانية فيما وراء النهر . والزيارية في جرجان . والغزنوية في أفغانستان والهند . والبويهية في فارس . والحمدانية في حلب والموصل . والفاطمية في مصر ...

في أثناء هذا التفكك والانحلال . وضعف مركز الخلافة . انتهز البويهيون الفرص . ووجدوها سانحة لتحقيق مآربهم والوصول إلى غاياتهم . فخرجوا من ديارهم . وزحفوا بجيوشهم على بغداد . وقد رحبَّ بهم الخليفة المستكفي بالله (٢٢٢ - ٢٢٤) . ومنح رؤساءهم ألقاب التكريم ظناً منه انه يستعين بهم في ردِّ مكانة الدولة العباسية وهيبتها إلى سابق عزها بعدما أنهكتها قوى الترك الذين اعتمد عليهم المعتصم وابتنى لهم مدينة سُرَّ من رأى . واستفحل أمرهم يوماً بعد آخر . وأصبح الحل والعقد بأيديهم . يتصرفون في شؤون الدولة كما يشاؤون . حتى أصبحوا مهيمين على واجبات الخلفاء من بعد .

دخل احمد بن بويه بغداد في الحادي عشر من جمادى الاولى سنة ٢٢٤ للهجرة . وجعله الخليفة المستكفي بالله اميراً للامراء ولقبه معز الدولة . ولقب اخاه على بن بويه الذي استقل بادارة اقليم فارس عماد الدولة . ولقب الحسن بن بويه الذي اصح حاكماً على ولايتي الري والجيل ركن الدولة . ثم امرا ان تُضرب القابهم وكناهم على التقود الى جوار اسمه . وسرعان ماتنكر معز الدولة البويهي للخليفة المستكفي بالله بعد شهر واحد من وصوله الى بغداد . وغدر به . وسجنه . وسمل

(٧٢٤) مختصر التاريخ ص ١٤٧ .

عينه . ونهب داره . وكانت هذه اقبح فعلة واشنع بداية سيئة ومنكرة اقترفها البويهيون بحق الخلافة العباسية . والذي فعله معز الدولة مع الخليفة المستكفي بالله . فعله بعد ذلك بهاء الدولة مع الخليفة الطائع لله سنة ٣٨١ للهجرة واخذ ما في قصره من دخائر وجواهر .

ظل البويهيون ممسكين بزمام الامور اكثر من مئة عام . يرفلون مع حاشيتهم في ترف ونعيم وعيش كريم . اما عامة الناس فقد عاشوا في ظل الغلاء والخوف والرعب والمصادرة .

لقد ازدادت مكانة الخلافة تدهوراً وانحطاطاً وتوزعت الاقاليم المختلفة الى دول كبيرة والى دويلات صغيرة تركز كل منها حول مدينة كبيرة . حتى اننا نجد الجزيرة الفراتية تتوزع بين ثلاث اسر . تستقل كل منها بما تحت يدها . هي اسرة العقيليين بالموصل . واسرة المرديسين بالرققة . واسرة الروانبيين بديار بكر . وقد حمل هذا التدهور المذل للخليفة العباسي القائم بأمر الله التطلع الى منقذ للدولة والخلافة من هذه الحالة السيئة . فكان هذا المنقذ جماعة السلاجقة الاتراك . الذين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة بادئين مرحلة جديدة من مراحل تاريخها (٧٢٥) .

دخل السلاجقة بغداد بقيادة طغرل بك . واستقبله الخليفة القائم بأمر الله استقبالا حافلاً . وخاطبه بلقب ملك الشرق والغرب (٧٢٦) . وكان هذا بدءاً لما يعرف في التاريخ بعصر نفوذ السلاجقة . وامتدت سلطتهم على الاراضي التي كانت خاضعة للخلافة العباسية بقوة السلاح . وكانت سياستهم مع الخلافة اقل وطأة من البويهيين . فانهم احترموا الخلافة ووقروا الخلفاء والرؤساء الروحانيين للدولة (٧٢٧) .

شجّع السلاجقة نظام الاقطاعات والتابكيات . واسندوها الى شخصيات من اسرهم . وكثيراً ما كانت تقوم بينهم منازعات وحروب يذهب ضحيتها الناس الآمنون . ومن هنا فلم يتقدم العراق عما كان عليه سابقاً من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

(٧٢٥) الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ١٧٤

(٧٢٦) ينظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٢ . المنتظم لابن الجوزي ١٨٠٨ - ١٨٢٠ ، تاريخ ابن

الاثير ٩ ، ٤٢٥ ، الشهر المبرهي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ٢٩٠١ - ٤٤ .

(٧٢٧) الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ١٨٠ .

بدأ التفكك الداخلي في الاسرة السلجوقية . يعامل نظام الوراثة الذي اتبعوه . وبموت سلطانهم مسعود سنة ٥٤٧ هـ للهجرة أنهت كياناتهم ولم يستطع من جاء من بعده اعادة مكانتهم . اذ استطاع الخليفة المقتضى لامر الله (٥٢٠ - ٥٥٥ هـ) وبمؤازرة وزيره يحيى بن هبيرة ان يعيد للخلافة هيبتها واستقلالها . وكذلك ابنه المستنجد بالله الذي ثبت قاعدة الاستقلال .

اعقب خروج السلاجقة من العراق صحوّة عادت فيها مكانة الخليفة الى سابق حرمتها وعزّها . ويكفي هذه الحقبة فخراً ظهور خليفتين عظيمين . كان لهما دور بارز ومشرف في نهوض الامة بعد رقودتها . وسيرها حثيثاً نحو الرقي والتقدم . الاول : الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) الذي وحّد العرب وجدّد نظام الفتوة . والثاني : المستنصر بالله (٦٢٢ - ٦٤٠ هـ) باني اكبر مدرسة آنذاك تشعّ منها الثقافة وتستقطب الاساتذة والطلبة من كافة ارجاء العالم الاسلامي .

واخيراً جاء المستعصم بالله المعروف بقلّة الخبرة والدراية بأمور السياسة . وعدم تهئية جيش قوي لمحاربة القوى الزاحفة على البلاد الاسلامية . فكانت نهايته بيد التتر القادم من الشرق سنة ٦٥٦ للهجرة

ولا بدّ من الاشارة هنا ان التفكك والانحلال الذي اصاب الدولة العباسية بعد حكم البويهيين ثم السلاجقة وتحول البلاد الى فئات مبعثرة لا يجمع بينها اتحاد ولا يضمها سلطان قوي . جعل الغرب يضم اليه اقاليمه وادانيه . ويلمّ شعته . ويرتق فتقه . ويرأب صدقه . وينتهي للانقضاض على الشرق المتداعي . طمعاً في خيراته ووافر ثرواته

جاء الصليبيون الى الشرق في موجات متتابعة . وفي فترات متقاربة . ابتداءً من سنة ٤٩٢ للهجرة . فأهلكوا الحرث والنسل . واشاعوا الخراب والدمار في القرى والامصار حتى قدّر المؤرخون عدد الذين قُتلوا في مذبحه أنطاكية بعشرة الاف شخص . وفي معرة النعمان بمئة الف . وفي بيت المقدس بسبعين الف (٧٢٨) . وقال ريموند دي اكليس الذي شاهد المذبحة الاخيرة : ان الدماء قد وصلت في رواق المسجد الى الركب (٧٢٩) . فما لم يشاهده قد يربو التقدير ويفوق النعت والتعبير .

(٧٢٨) مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٩ .

(٧٢٩) نفسه ص ٢٨٧

وقف المسلمون بوجه الحملات الصليبية بشجاعة وصلابة ، وكان للزنكيين دور بارز ومُشرف في محاربتهم ، فقد ظهر فيهم البطلان عماد الدين زنكي ونور الدين محمود اللذان حاربوا الأعداء بلا هوادة ، ثم جاء الأيوبيون وحملوا راية الجهاد والكفاح والنضال . وكان للبطل الغيور صلاح الدين الأيوبي وجنوده الميامين الدور الأكبر في محاربتهم وإخراجهم من القدس وردهم إلى نحورهم . وقد رافقت هذه الحروب نهضة فكرية كبيرة أغنت المكتبة العربية بانتاج ضخم في مختلف فروع المعرفة . وكان للادب دور فعّال في هذه الحروب إلى جانب السلاح ، إذ تصافر شعراء كثيرون من الشام ومصر والعراق واليمن والمغرب على معاودة الأبطال ، واطهار مناقبهم . ورسم بطولاتهم في محاربة الفرنج وجولاتهم في جلاء الغاصبين عن المواقع التي احتلوها والمدن التي استباحوها (٣٠) .

الادب في ظل البيئات الجديدة :

بلغت الدولة العباسية أوج قوتها ، وذروة مجدها ، وغاية عظمتها ، وبالغ هيبتها وعزتها ، زمن الخلفاء الأوائل ، أمثال : المنصور ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتمد . ثم أخذت تضعف وتتفكك ، وبدأت القوى الطامعة أو المعادية تتحرّك وتتكتّل للانفصال عن جسد هذه الدولة وإقامة دويلات لأنفسها بعيدة عن سلطة بغداد . وقد تمّ لها ما أرادت ؛ لأن الخلافة لم تستطع أن تقف بوجهها ، وتكسر شوكتها ، وتقضي على مآربها ، وتمنعها من انشاء حكومات لها . وكانت هذه الدويلات بين معترفٍ - بصورة شكلية - بالخلافة أو غير معترفٍ .

تنافست الدويلات المستقلة في جذب العلماء والأدباء ، واستقطاب المفكرين ، والاستكثار منهم . والاعداق عليهم الاموال والصلوات والهدايا . واسناد الوظائف الهامة لهم وجعلهم موضع الثقة والاستشارة (٣١) .

وكانت غالبية ملوك الدويلات وامرائها يتقنون اللغة العربية ، ويهتمون بالمجالس العلمية والأدبية ، ويشاركون ارباب الاقلام في الكتابة ، فعضد الدولة البويهية كان مهتماً بالاداب وله مشاركة فيه . وقد قرّب عدداً كبيراً من الشعراء

(٣٠) ينظر بحثنا ، النشاط العلمي والادبي في عهد الاسرة الايوبية . مجلة اداب الرافدين العدد ٨ لسنة ١٩٧٧ ، وشعر العرب في عصر بني ايوب . مجلة اداب الرافدين ، العدد ١٥ لسنة ١٩٨٢ ، والقدس في شعر القرن السادس للهجرة . مجلة المورد ، العدد (١) لسنة ١٩٨٢ .

(٣١) ينظر ، اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري

والكتاب امثال ابي اسحاق الصابي . وابي علي النحوي . وابي الطيب المتنبى . وابي الحسن محمد بن عبدالله السلامي . واعتمد ركن الدولة البويهى على كاتب كبير هو ابو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد . قال ابو منصور الثعالبي هو : « اوحذ العصر في الكتابة . وجميع ادوات الرياسة . والات الوزارة . والضارب في الآداب بالسهام الفائزة . والآخذ من العلوم بالاطراف القوية . يدعى الجاحظ الاخير . والاستاذ . والرئيس . يُضرب به المثل في البلاغة . وينتهي اليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة . مع حسن الترسُّل وجزالة الالفاظ وسلاستها . الى براعة المعاني ونفاستها(٣٢٢) » . واستوزر مؤيد الدولة البويهى الاديب الشاعر العالم صاحب بن عباد الذي « احتفَّ به من نجوم الارض . وافراد العصر . وابناء الفضل . وفرسان الشعر . من يربى عددهم على شعراء الرشيد . ولا يقصرون عنهم في الاخذ برقاب القوافي وملك رقَّ المعاني ... مثل ابي الحسن السلامي . وابي بكر الخوارزمي . وابي الطيب المأموني . وابي الحسن البديهي . وابي سعيد الرستمي . وابي القاسم الزعفراني . وابي العباس الضبي . وابي الحسن بن عبدالعزيز الجرجاني . وابي القاسم بن ابي العلاء . وابي محمد الخازن . وابي هاشم العلوي . وابي الحسن الجوهري ... وابي ذلف الخزرجي . وابي حفص الشهرزوزي . وابي معمر الاسماعيلى وابي فياض الطبري . وغيرهم(٣٢٣) .

واشتهر عدد من وزراء السلجوقيين بحب العلماء الادباء واکرامهم والانفاق عليهم . منهم الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن علي . قال ابو شامة المقدسي : « كان عالماً فقيهاً دينلاً خيراً متواضعاً عادلاً . يحبُّ أهل الدين ويكرمهم ويُجزل صلاتهم . وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء . وكان يناظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثة مدَّة . وأما صدقاته ووقوفه فلاحداً عليها ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد منها »(٣٢٤) . واشتهر في عصر السلاجقة الشاعر الكاتب أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي الذي وزر للسلطان مسعود ابن محمد السلجوقي في الموصل له ديوان شعر جيد . وقد اشتهرت قصيدته المعروفة بلامية العجم التي يقول في أولها(٣٢٥)

أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ وحلية الفضلِ زانتني لدي العطلِ

(٣٢٢) يتيمة الدهر ٢ : ١٥٨ .

(٣٢٣) يتيمة الدهر ٣ : ١٩٢ .

(٣٢٤) الروضتين ١ : ٦٢ .

(٣٢٥) ديوانه ص ٢٠٦ .

ومن الامارات التي عنيت بالعلم والأدب إمارة بني ميكال في نيسابور ومن أشهر رجالها أبو محمد عبدالله بن اسماعيل الميکالي ، قال الثعالبي : « هو أشهر . وذكره أسير . وفضله أكثر . من أن يُنبه عليه . وله - مع كرم حربه وتكامله شرفه - فضيلة علمه وأدبه . وكان من الكتابة والبلاغة بالمحل الأعلى . وله من سائر المحاسن القُدح المَعْلَى . فكان يحفظ مئة ألف بيت للمتقدمين والمحدثين يهدها في محاضراته . ويحلها في مكاتباته . وله شعر كتابي يُشير الى شرف قائله » (٧١٨) .

وعرقت الاسرة الزيارية التي كانت تحكم جرجان وطبرستان وماحولهما برعاية العلوم والآداب . ويُعدُّ قابوس بن وشمكير من أبرز رجالها . (٧٣٦) . اذ كان معروفاً ببيانه وفضاحته وحسن كتابته . وقد زاره البيروني وقدم له كتابه الآثار الباقية كما قدم له الثعالبي كتابيه : المبهج . والتمثيل والمحاضرة .

واشتهر اقليم خوارزم بكثرة مدارسه ووفرة علمائه وأدبائه (٧٣٨) . أمثال : الزمخشري . والمطرزي . والبيروني . وابن سينا . وأبي بكر الخوارزمي . وأبي محمد القاسم بن الحسين الخوارزمي . وأبي محمد عبدالله بن ابراهيم الرقاشي . السكّاكي . ورشيد الدين الطوطا .

وكانت لامارة المزيديين التي ضمت الحلة والبصرة والكوفة والبطائح وواسطاً والأنبار وحديثة وعانة . شأن كبير في الحركة الأدبية والعلمية في القرن الخامس للهجرة . وقد برز فيها مجموعة من الشعراء والكتاب أمثال منصور بن ديبس . وصدقة بن منصور بن ديبس . ومحمد بن خليفة السنبي . وعلى بن أفلح العبسي (٧٣٩)

وارتقى الأدب والعلْمُ مكاناً مرموقاً في اماره الحمدانيين (٣١٧ - ٣٩٤ هـ) التي سيطرت على الموصل وديار بكر وحلب وحمص وحماة وأنطاكية ومنبج ومعرة النعمان وبعض الثغور . وقد جمع بلاط سيف الدولة بحلب جماعة كبيرة من الشعراء والكتاب واللغويين والفلاسفة أمثال أبي الطيب المتنبي . وأبي فراس الحمداني . وأبي بكر الصنوبري . وابن نباتة السعدي . والسري الرفاء . والوَأواء

(٧٣٦) يتيمة الدهر ٤ ، ٤١٧ .

(٧٣٧) ينظر معجم الأديباء ٦ ، ١٤٢ - ١٥٢

(٧٣٨) الأدب العربي في اللّيم خوارزم ص ٦٢ - ٨٤ .

(٧٣٩) تنظر ، العريفة ، لسم المرابي ، ٤ / ١٢٢ ، ١٨٢ ، أدياء حليون ص ٩ - ٦٧ .

الدمشقي . والبغاء . والنامي . والسلامي . وكشاحم . والخالدين . وأبي علي النحوي . وابن جنبي . وابن خالويه . وأبي الفرج الأصبهاني . وعبدالرحيم بن نباته . والفارابي (٧٠٠)

وقامت في مصر والشام دولة الاخشيديين (٣٢٣ - ٣٥٨) . وظهر فيها عدد من الشعراء والكتاب (٧١١) . من أبرزهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا . وابراهيم بن عبدالله الجيزي اللغوي الاخباري . كاتب كاقور . وصالح بن مؤنس . والحسن بن علي الأسدي ...

وحكمت دولة الفاطميين مصر والشام بعد سابقتها الإخشيدية (٣٥٨ - ٥٦٦) وحظيت العلوم والآداب في عهدها رعاية وعناية . وقد نبغ عدد من ملوكها بنظم الشعر والاجادة فيه . أبرزهم المعز لدين الله (٧١٢) . وكان للشعراء الذين اتصلوا بهم ووضعوا شعرهم بين أيديهم منازل رفيعة وهبات سنية وأعطيات سخية . وقد زخرت كتب الأدب والتراجم والسير بأسماء كثيرة من الأدباء الذين عاصروا هذه الدولة (٧١٢) . أمثال : الحسن بن علي بن وكيع التتيسي . وعلي بن عباد الاسكندري . ومحمد بن قادوس . والجلس بن الحباب . والمهذب بن الزبير . والرشد بن الزبير . وأحمد محمد الأنطاكي المعروف بأبي الرعمق . وأبو الصلت أمية بن عبدالعزيز . وطلّاع بن رزيك . وظافر الحداد ...

وازدهرت الحركة الفكرية في عصر الزنكيين الذين حكموا الموصل وحلب والاماكن التي كانت بيد الحمدانيين (٤٨٩ - ٥٧٠ هـ) . فقد شجعوا أهل العلم والادب . ولا سيما نورالدين محمود . وهو أعظم ملوكهم . فإنه كان لا يفتأ يجمع العلماء في مجلسه ويستشيرهم في أمور دينه ودنياه . ويحيطهم بعنايته ورعايته . ويهيء لهم المناخ الملائم لعيشهم وعملهم . ويُعد في نظر الدارسين أول منشيء لدار الحديث في التاريخ الحديث في التاريخ الاسلامي (٧١٤) . ومن مشاهير

(٧٤٠) ينظر : سيف الدولة الحمداني أو مملكة السيف ودولة الألام من ١٨١ - ١٩٧ . فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين من ١٤٥ - ١٧٨ . الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني من

٢٨ - ٤٦ .
(٧٤١) ينظر : الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الأيوبي من ١٥٩ - ٢٠١ .

(٧٤٢) طبع ديوانه بتحقيق محمد حسن الأعظمي .

(٧٤٣) ينظر : مصر الشاعرة في العصر الفاطمي ٨ - ١٧ .

(٧٤٤) الدارس في تاريخ المدارس ١٠١ - ٩٩ .

الشعراء الذين سجلوا بطولاته وتغنوا بفتوحاته أبو الحسن أحمد بن منير الطرابلسي (٧٤٥) ومحمد بن نصر القيسراني (٧٤٦).

وشهد عصر الأيوبيين في مصر والشام (٥٦٧-٦٤٨) نهضة علمية وأدبية كبيرة . وكان مؤسس دولتهم صلاح الدين الأيوبي يتذوق الشعر ويهتز له . وظهرت في أسرته مجموعة من الشعراء وصلت الينا دواوينهم أمثال الملك الأمامجد مجد الدين الأيوبي (٧١٧) . والملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي (٧٤٨) . والملك المظفر الدين عمر الأيوبي (٧١٩) . وقد تضافر شعراء كثيرون من الشام ومصر والعراق واليمن والمغرب على معاودة صلاح الدين ورسم بطولاته في محاربة الفرنج وجولاته في جلاء الغاصبين عن المواقع التي احتلوها والمدن التي استباحوها (٧٥٠) . ولا عجب حين قال ابن العديم : ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة الحمداني ما اجتمع ببابه من الشعراء - رحمه الله - وزاد على سيف الدولة في الجباء والفضل والعطاء (٧٥١)

ونشطت الحركة الأدبية في ظل الامارة البكتيكية في أربيل في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع للهجرة ويُعد السلطان مظفر الدين كوكبري من أعظم رجال هذه الامارة . فانه اهتم بالعلوم والاداب . وشجّع الدارسين . وبذل لهم سخاء . وأنشأ لهم مدرسة . وانتجع مدينة أربيل في زمنه الكثيرون . ولكثرة من جاءها من الوافدين - طلاباً وأساتذة - ألف شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد بن المبارك المعروف بابن المستوفي الاربلي كتاباً كبيراً بأربعة مجلدات سماه

(٧٤٥) تنظر : مقدمة شعره ٥ - ٢٢ .

(٧٤٦) ينظر : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٠٢ - ١٢١ . ومحمد بن نصر القيسراني ، حياته وشعره ص ١٢٤ - ١٢٧ .

(٧٤٧) طبع ديوانه بتحقيقنا سنة ١٩٨٢ .

(٧٤٨) كتبت دراسة مطولة عنه وحققته ديوانة الموسوم بـ (الفوائد الجليلة في الفوائد الناصرية) .

(٧٤٩) الهريدة ، بداية شعراء الشام ، ص ٨٢ - ١١٠ .

(٧٥٠) ينظر بحثنا (جهاد صلاح الدين الأيوبي ، التاريخ والشعر) مجلة المورد ، العدد ٤ ، سنة ١٩٨٧ .

(٧٥١) زبدة العلب من تاريخ حلب ٢ : ١٢٥ .

« نباهة البلد الخامل بمن ورده من الامائل (٧٠٤) ». ويكفي هذه الامارة فخراً أن يكون ابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأيمان » أحد أبنائها. ومن شعرائها المشهورين مجد الدين أسعد بن ابراهيم النشابى (٧٠٣). وعيسى بن سنجر الحاجري (٧٠٤). وابن الظهير الإبلي (٧٠٥). والصاحب بهاء الدين علي بن عيسى المنشيء الإبلي (٧٠٦).

ان حكام الدويلات والامارات - كما لاحظنا - يحبون المعرفة. ويقدرّون العلماء والأدباء. ويشجعون قدامهم اليهم. ويجلونهم ويكثرّون من احترامهم. ويسطون في عطائهم واکرامهم. ولم يكن نظم الشعر مزدهراً فقط في ظلال الحكام. بل التأليف والتصنيف أيضاً. وقد لمت أسماء كثيرة. نذكر منهم على سبيل المثال: أبا منصور الثعالبي. وأبا العلاء المعري. والخطيب البغدادي. وابن الأنباري. والباخرزي. وابن الجوزي. وأسامة بن منقذ وعماد الدين الأصبهاني. والقاضي الفاضل. وابن شداد. والعكبري. والخطيب التبريزي. وأبا الفضل الميداني. وأبا القاسم الزمخشري. وأبا منصور الجواليقي. وأبا السعادات ابن الشجري. وأبا محمد القاسم بن علي الحريري. وابن عساكر. وأبا طاهر السلفي. ومحبي الدين النووي. وسيف الدين الأمدي. وتاج الدين الكندي. وابن الحاجب النحوي. وأبا شامة المقدسي. وشهاب الدين الشهرودي. وياقوتاً الحموي. وأبناء الأثير: مجد الدين وعزالدين الدين. وضياء الدين.

ومن معالم الحركة الفكرية في هذا العصر كثرة المكتبات. والتنافس في إنشائها. واقتناء الكتب الكثيرة لخزائنها مهما بلغت أثمانها وبعدت أوطانها. وتعيين الأمناء على تنسيقها وتنظيمها وحفظها. ومن هذه المكتبات المشهورة مكتبة سيف الدولة الحمداني بحلب وكان الشاعر أبو بكر الصنوبري أميناً عليها. ومكتبة أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان في الموصل. قال الصفدي: « وكانت له في بلده دار علم. قد جعل فيها خزانة. فيها جميع العلوم. وفقاً على كل طالب علم. ولا يمنع

(٧٥٢) وصل اليها الجزء الثاني منه فقط وطبع باسم « تاريخ اربل » في مجلدين.

(٧٥٣) حقق ديوانه عبد الله محمد طه في رسالة جامعية باشراف الدكتور عبد الوهاب الصرواني. آداب الموصل ١٩٨٥.

(٧٥٤) حقق ديوانه صاحب شئون الزيدي في رسالة جامعية باشراف الدكتور يونس السامرائي. آداب بغداد ١٩٨٨.

(٧٥٥) نشر ديوانه بتحقيقنا سنة ١٩٨٨.

(٧٥٦) من كتبه المطبوعة، رسالة الطيف، وكشف الغمة في معرفة الأئمة. والتذكرة الفخرية.

أحداً من دخولها اذا جاءها . وان كان معسراً أعطاه ورقاً . يفتحها كل يوم ويجلس فيها(٧٥٧) . ومكتبة علي بن سوار من حاشية عضد الدولة في مدينة رام هرمز على شاطئ الخليج العربي . ومكتبة العزيز بالله الفاطمي في القاهرة وكانت تضم آلاف الكتب في شتى العلوم والمعارف . ومكتبة المدرسة النظامية . ومكتبة مدرسة المستنصرية في بغداد . ومكتبة الملك المعظم عيسى بن أبي بكر في دمشق . وكانت تحتوي كتباً نادرة وثمينة بعضها بخط مؤلفيها . وقد شاهدها ياقوت الحموي وأطلع على نفاثها . منها صحاح الجوهري . فقال : « ووقفت على نسخة للصحاح بخط الجوهري بدمشق عند الملك المعظم بن العادل بن أيوب صاحب دمشق . وقد كتبها سنة ٤٣٣ هـ » (٧٥٨) . وقال في موضع آخر عند ترجمته لمحمد بن أحمد العميدي المتوفى سنة ٤٣٣ هـ : « وله تصانيف في الأدب منها تنقيح البلاغة في عشر مجلدات . رأيت

بدمشق في خزانة الملك المعظم - خلد الله دولته - وعليه خطه وقد قرئ عليه في شعبان سنة ٤٣١ هـ (٧٥٩) . ومن المكتبات الكبيرة في بلاد الشام . مكتبة حماة التي أنشأها الملك المنصور محمد بن عمر . وكان فيها من الكتب مالا مزيد عليه (٧٦٠) . وبقيت هذه المكتبة عامرة تنمو وتزداد الى زمن الملك المؤيد اسماعيل بن علي المشهور بأبي الفداء . « قيل انها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون . فإنه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً (٧٦١) . »

ومن مظاهر الحركة الفكرية أيضاً كثرة المدارس التي أنشأها الخلفاء والملوك والأمراء والأثرياء . والانفاق على طلبتها وأساتذتها . منها كانت خاصة لتدريس علم واحد كالحدِيث أو النحو أو الفقه ... ومنها عامة لتدريس جميع علوم اللغة العربية . ولم يمنع ذلك من تدريس علوم أخرى الى جانب المواد الأصلية كالطب والصيدلة والكحالة والهندسة . والفلك والتاريخ والجغرافية .. وتعد المدرسة النظامية من أشهر المدارس آنذاك أنشأها في بغداد نظام الملك الذي سبق ذكره . ثم المدرسة المستنصرية

(٧٥٧) ينظر مقالنا (ابن حمدان الموصلية ٢٤٠ هـ - ٢٢٢ هـ) مجلة الجامعة ، الموصل ، العدد ٢ سنة ١٩٨١ .

(٧٥٨) معجم الأدياء ٢ ، ٢٧ .

(٧٥٩) معجم الأدياء ٦ ، ٢٢٨ .

(٧٦٠) فوات الوفيات ٤ ، ١٢٠ .

(٧٦١) ثمرات الأوراق ص ١٢٥ .

التي شيدها الخليفة المستنصر بالله . والنورية الكبرى التي أنشأها الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي في دمشق . وفيها قال الشاعر عرقله دمشقي (٧٢) :

ومدرسة سيدرس كل شيء وتبقى في جمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقاً وغرباً بنورالدين محمود بن زنكي

ولنورالدين مدارس أخرى في الموصل وحلب . واشتهرت المدرسة الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في القدس وهي غير المدرسة الصلاحية التي أنشأها في القاهرة بجوار ضريح الامام الشافعي وقد سماها السيوطي بتاج المدارس . ومن مدارس دمشق المشهورة العزيزية التي أسسها الملك الأفضل على بن صلاح الدين الأيوبي ثم أتمها أخوة الملك العزيز عثمان . ومن أشهر مدرسيها عبداللطيف البغدادي . وسيف الدين الأمدي شيخ المتكلمين في وقته . قال عنه ابن أبي أصيبعة : « وكان اذا نزل وجلس في المدرسة ، وألقى الدرس والفقهاء عنده . يتعجب الناس من حسن كلامه في المناظرة والبحث . ولم يكن أحدًا يماثله في سائر العلوم (٧٣) » . والأشرفية التي بناها الملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل ومن أشهر رجالها أبو شامة المقدسي صاحب كتاب الروضتين . وفي أربيل اشتهرت المدرسة المظفرية التي أنشأها مظفر الدين كوكبيري . ولم يكن حظ النساء بأقل من حظ الرجال في انشاء المدارس مثل المدرسة الخاتونية في دمشق أنشأتها عصمة الدين بنت معين الدين أنر زوجه نورالدين محمود . ومدرسة الفردوس في حلب أنشأتها مؤنسة خاتون بنت أبي بكر العادل . وربت فيها خلقاً من القراء والفقهاء وكتبت على حائط فنائها بعد البسلة آيات من سورة الزخرف (٧٤) . وبنّت مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر نفي الدين محمود مدرسة في حماة ووقفت عليها وقفاً جليلاً وكتبت (٧٥)

لقد كانت المدارس كثيرة لا يمكن ذكرها جميعاً (٧٦) . ويستطيع الباحث ان يقف على أسماء منشئها والعلماء والأدباء الذين درّسوا فيها في كتاب « المدارس في تاريخ المدارس » للنعمي .

(٧٢) ديوان عرقله الكلبى ص ٧٠

(٧٣) عيون الأنباء ٢ ، ٢٨٥ .

(٧٤) خطط الشام ٩ ، ١٠٧ .

(٧٥) خطط الشام ٩ ، ٨٦ .

(٧٦) ينظر بحثنا (التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية) ، مجلة آداب الراعيين ،

العدد ١٠ سنة ١٩٧٩ .

ومن الوسائل التي نُسرتُ نشر العلم والإقبال عليه . ازدهار صناعة الورق في العالم الإسلامي . وكانت بغداد وسمرقند ومصر من مراكز هذه الصناعة . ومن العلماء من كان ينسخ الكتب بنفسه . ومن كان ينسخها لغيره بالأجرة . فازدهرت الوراقة . وحمل تجار الكتب نتاج العلماء والأدباء إلى الأقطار . وقد أوردت المصادر أخباراً كثيرة عن الوراقين . وأشادت بأسماء لامعة تعاطوا هذه المهنة واتخذوها وسيلة للعيش والحصول على المال . نذكر منهم : أبا سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) وكان « لا يأكل إلا من كسب يده . ولا يخرج من بيته إلى مجلس الحكم . ولا إلى مجلس التدريس كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر وركات . يأخذ أجرها عشرة دراهم . تكون قدر مؤونته ثم يخرج إلى مجلسه » . (٧١٧) وأبا الفرج محمد بن اسحاق المشهور بابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) وكان وراقاً يبيع الكتب (٧١٨) . وهو صاحب كتاب « الفهرست » جمع فيه أسماء الكتب التي عُرفت باللغة العربية حتى أواخر القرن الرابع للهجرة . وأبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) الذي قال عن نفسه : « لقد استولى عليَّ الحرف . وتمكَّن مني نكد الزمان . إلى الحد الذي لا استرزق مَع صحة نقلِي . وتقيبد خطي . وتزويق نسخي . وسلامته من التصحيف والتحريف بمثل ما يسترزق البليد الذي يمسُخُ النسخ . ويفسُخُ الأصل والفسر » (٧١٩) . ويحيى بن محمد الأزري (ت ٥١٥ هـ) وكان - كما يقول ياقوت - « اماماً » في العربية . مليح الخط . سريع الكتابة . كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد . فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصح لثعلب ويبيعه « (٧٢٠) . وموهوب بن أحمد الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ) وكان دقيقاً في عمله كثير الضبط « وخطه مرغوب فيه . يتنافس الناس في تحصيله . والمغالاة له » (٧٢١) . والشَّيخ سعد بن علي الحظيري الوراق الملقب بدلال الكتب (ت ٥٦٨ هـ) . وهو عالم جليل له مصنفات كثيرة وكان له دكان خاص في سوق الوراقين (٧٢٢) . وصدقة بن الحسين (ت ٥٧٣ هـ) . وقد نسخ بخطه كثيراً للناس في

(٧١٧) انبأ الرواة ١ ، ٣١٢ .

(٧١٨) معجم الأدباء ١ ، ٦ ، ٤٠٨ .

(٧١٩) معجم الأدباء ١ ، ٥ ، ٢٨٤ .

(٧٢٠) معجم الأدباء ١ ، ٧ ، ٢٩١ .

(٧٢١) انبأ الرواة ٢ ، ٢٢٥ ، ذيل طبقات الحنابلة ١ ، ٣٠٥ .

(٧٢٢) الخريدة ، قسم العراق ، ٤ ، ٢٨١ / ٤ .

سائر الفنون (٣٣) . وعلى بن عبد الرحيم بن الحسن المعروف بابن العصار (ت ٥٧٦ هـ) « وكانت طريقته في النسخ حسنة . والناس يتنافون في خططه ويغالون به » (٣٤)

ان نسخ الكتب وبيعها شملت مختلف العلوم اللسانية والشرعية والعقلية . والفنون والصناعات والطبيعات والرياضيات والجغرافية والطب والأدوية والعقاقير والنبات والحيوان والمعارف والموسيقى والغناء والتصوير والنقش وسواها .

لقد بقي العالم الاسلامي متماسكاً من الناحية الثقافية وان كان منقسماً سياسياً في عصر البويهيين ثم السلاجقة . فاللغة العربية كانت لغة الدواوين ولغة الآداب في بلاط الامارات على مختلف لغاتها وأجناسها . وسبب ذلك أنهم لم ينظروا الى اللغة العربية على أنها لغة غزاة فاتحين تزحف تحت أعلام جيوشهم . وتنتشر بتشجيع من حكامهم . ثم تذل وتتلاشى عند ضعف نفوذهم . ولكن على أنها لغة ذلك الدين الجديد الذي ارتضته الغالبية من أهل تلك البلاد . لغة القرآن الكريم المعجز بأسلوبه ومعانيه معاً . وتلاوته والاستماع اليه . ودراسته عبادة من العبادات . ولذا نجد اللغة العربية تنتشر بين الطبقات المثقفة . وتصير لغة الكتابة . والآداب نظماً ونثراً بين جميع الأقسام (٣٥) .

(٧٧٢) ذيل طبقات العنابلة ١ ، ٢٢٩ .

(٧٧٤) إنباه الرواة ٢ ، ٢٩١ .

(٧٧٥) ينظر تاريخ العصر العربي للكفراوي ٢ ، ٢٢٠ .

الموضوعات الشعرية :

كثُر عدد الشعراء . وَغَزَرَ نتاجهم . في العصر العباسي الثاني . وقد عاشوا في ظل الخلافة في بغداد . أو في ظل الملوك والأمراء في الممالك والدويلات التي قامت آنذاك في الشرق والغرب . وكانوا من أجناس متباينة وأقوام مختلفة تجمعهم اللغة العربية التي كتبوا ما جادت به قرائحهم شعراً ونثراً .

إن الإغراض الشعرية في هذا العصر غالباً ما كانت امتداداً لما هي عليه في العصور السابقة . ومن يرجع الى الدواوين الشعرية والكتب الأدبية يجد كفة المديح هي الراجحة وكميته هي الفائقة ؛ ولعل ذلك يعود الى كثرة المدّاحين الذين سخروا شعرهم لكسب المال والجاه . حتى ان الكثيرين منهم في أواخر العصر العباسي اقتصوا بالخلفاء عُرفوا بشعراء الديوان (٣٣) كانوا يتقاضون أجوراً شهرية من الدولة . وينالون عطايا وهدايا من الخلفاء أنفسهم في مناسبات كثيرة . ومثال على ذلك الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد الصيفي المعروف بـ « حيص بيص » فانه نال من المستضيء بأمر الله على أبيات مدحه بها حين تولّى الخلافة ثلاث مئة دينار وخلعة وضيفة كبيرة . منها قوله : (٣٣)

أقول وقد تولّى حـــــــبْرٌ وليُّ لــــم يزلْ تــــقــــيًّا
وقد كُشِفَ الظَّلَامُ بمــــســــتــــضيء غدا بالناس كُــــلُّهُمُ حــــفــــيًّا
وقاض الجود والمــــعــــروفُ حــــتــــى حــــســــبــــتــــهُمــــا عــــبــــاباً أو أــــتــــيًّا
بلغنا فوق ماكنًا نــــزــــجــــي هــــنــــيئاً يابــــنــــي الدُّنــــيا هــــنــــيئاً

ولانسى في هذا المجال دور فريق من رؤساء الدويلات آنذاك في اجتذاب الشعراء وايوائهم والانفاق عليهم وتحفيزهم على نظم الشعر . مثل سيف الدولة الحمداني . فانه ضرب دنانير خاصة للصلات . وزن كل دينار عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته . فأمر يوماً لأبي الفرج البغواء بعشرة دنانير . فقال ارتجالاً :

(٣٣) ينظر الجامع المختصر ٩٠٩ .

(٣٣) ديوانه ٣ ، ٢٧٩ ، وتنظر العريفة . قسم العراق ، ١٠ ، ٢٢٠ .

نَحْنُ بِجُودِ الْأَمِيرِ فِي حَرَمٍ نَرْتَعُ بَيْنَ السُّعُودِ وَالنَّعَمِ
أَبْدَعُ مِنْ هَذِهِ الدَّنَاتِيرِ لِمِ يَجْرُ قَدِيمًا فِي خَاطِرِ الْكِرَمِ
فَقَدْ عَدَّتْ بِاسْمِهِ وَصُورَتِهِ فِي دَهْرِنَا عَوْدَةً مِنَ السَّعْدِ

فزاده عشرة أخرى (٧٨٠) وكانت للمتنبى منزلة خاصة عند هذا الأمير. فقد كان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينارارزاء ثلاث قصائد ينشده إياها كل عام (٧٨١) ودفعت هذه الشهرة أن نُنْشِئَ بِبَدِيعِ الزَّمَانِ مَقَامَهُ سَمَاهَا « المَقَامَةُ الْحَمْدَانِيَّةُ ». صَوَّرَ فِيهَا جُودَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَسِرْمَهُ لَجَلَسَائِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ مِنْهُ. (٧٨٠)

ومن الرجال البارزين المشهورين باكرام أرباب الفكر. صلاح الدين الأيوبي. فانه كان لا يردُّ قاصداً ولا يصدُّ وافداً. وقد تجمَّع حوله عدد كبير من الشعراء. يمدحونه. ويشهرون مناقبه. ويتغنون ببطولاته. حتى نعته أحدهم برب الملاحم (٧٨١).

رَبُّ الْمَلَاْحِمِ لَمْ يُوْرَخْ مِثْلَهَا أَلْ عِلْمَاءُ قَدِمًا فِي قَدِيمِ الْأَعْصِرِ
مَنْ رَأَى مِنْ كُلِّ الْمُلُوكِ مِرَامَةً تُخْفِقُ مَسَاعِيَهُ وَيَكْبُ وَيَعْشِرُ
وَأَشَادَ آخِرَ بَكْرَمِهِ وَكَثْرَةَ عَطَائِهِ. فَقَالَ: (٧٨٢)

مَخْضِرَةٌ أَكْنَافُهُ لَوْفُودِهِ وَالْعَامُ مُحْمَرُ الذَّوَابِ أَشْهَبُ
أَرْضُ بَرُوضِ الْمَكْرَمَاتِ أَرِيضَةٌ وَتَرَى بُنُورَ الْفَضَائِلِ مُعْشِبُ
صَبٌّ بِتَشْيِيدِ الْمَأْتَرِ مُتْعَبٌ فِيهَا وَمَنْ شَادَ الْمَأْتَرُ يَتْعَبُ
مَلَكْتُ سَجَايَاهُ الْقُلُوبِ مَحَبَّةٌ إِنَّ الْكَرِيمَ إِلَى الْقُلُوبِ مُحَبَّبُ
كَسَفَ تَكْفُفِ الْحَادِثَاتِ وَرَاحَةٌ تَرْتَاخُ لِلْجُدَى وَقَلْبُ قَلْبُ
بِكَ يَا صِلَاحَ الدِّينِ يُوْسُفَ أَكْثَبُ أَلْ نَائِي وَرَفَّ الْمَقْشَعْرُ الْمَجْدِبُ
وَأَقَمْتَ سَوْقًا لِلْمَدَائِحِ مُرْبِحًا فِيآلِيهِ أَعْلَاقُ الْفَضَائِلِ تُجْلِبُ

إنَّ الشُّعْرَاءَ الْمَذَاحِينَ يَبَالِغُونَ - فِي الْغَالِبِ - فِي كَرَمِ الْمَدْمُوحِ وَعَطَائِهِ. فَيَجْعَلُونَ يَدَهُ كَالْفَيْثِ أَوْ الْبَحْرِ مِثْلَ قَوْلِ الْأَبِي يُوْرْدِي فِي الْوَزِيرِ نِظَامِ الْمَلِكِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ (٧٨٣):

(٧٨٠) يَتِمَّةُ الدَّهْرِ ١٠١ ٢٢

(٧٧٩) الصبح المنبهي عن حيشية المتنبى ص ٤٩ .

(٧٨٠) تنظر مقامات بديع الزمان ص ١٥٨ .

(٧٨١) ديوان فتيان الشاطوري ١٤١ .

(٧٨٢) ديوان سبط ابن التماويدي ص ٢٤ .

(٧٨٣) ديوان الأبيوردي ١٠١ ٩٠٦ .

ويخجل من راحتيه الغمام إذا در نائلة الصَّيْب
أتى في السُّمَاحَة مالم يدع لأهل الندى سيرا تُعجب

وقد شدد أبو المعري نعيه على أولئك الذين يتخذون من صناعة الشعر مجالاً
للتكسب. فقال: «ومن بغى أن يتكسب بهذا الفن. فقد أوع شراية في سن (٧٨١)
غير ثقة على الوديعه. بل هي منه في صاحب خديعة» (٧٨٠). ووقف في الأبيات الآتية
ناقداً أولئك الشعراء المتكسبين. فقال: (٧٨١)

لاخـــــير في جزل العطاء أتى رجلاً بأن كلامه جزل
يرجو فيمدخ غير مرتقب رباً. وكلُّ مقالته إزل
شهرت سيوف السقول طائفة كذب. وأفضل منهم الغزل

وشاع المديح النبوي في أواخر العصر العباسي ولعل سوء الحياة الاجتماعية
وتدهور الأوضاع الاقتصادية وجثوم الخطر على البلاد من الأعداء الطامعين في الشرق
والغرب كان وراء هذا الشروع (٧٨٧). فان الشعراء اتجهوا الى الرسول طالبين منه
العون على ماأصاهم مثل قول الشيخ الزاهد الضرير يحيى بن يوسف
الضُرْصري: (٧٨٨)

أشكو اليك وأنت تعلم فتنه كادت لها الصم الصلاب تصدع
فمن أعزك واصطفاك فأجزل الـ نعمى عليك فحوض فضلك مترع
سل جبر أمتك الكسيرة إنه لم يبق في قوس التجلد منزع

ومن الفنون التقليدية في هذا العصر الهجاء. إذ لم يسلم منه الملوك والامراء
والوزراء والقضاة والحجاب وكتاب الديوان ... ومصدره في الغالب البغض والكراهية
والحد والمنافسة. وقد حاول الشعراء في هذا الفن تجريد المهجوين من الفضائل
والمحامد. مثل قول أبي اسحاق ابراهيم بن عثمان الغزلي في هجاء أحد ملوك
بلاد فارس واتهامه باللوم والاحتيال والكذب والبخل: (٧٨٩)

(٧٨٤) الفن ، القرية البالية .

(٧٨٥) رسالة الففران ص ٤١١ .

(٧٨٦) اللزوميات ٢ ، ١٦٢ .

(٧٨٧) ينظر بحثنا (المدائح النبوية لـي. عصر العروب الصليبية) مجلة آداب الرافدين ،
العدد ٥ سنة ١٩٨١

(٧٨٨) لغات الوفيات ٤ ، ٣٠٤ .

(٧٨٩) ديوان الغزلي ص ٢٦ نقلاً عن الحياة الأدبية في العام ص ١٠١ .

رَأَيْتُ لَوْمًا مُضَوَّرًا رَجُلًا مُهَجَّتُهُ الْاِحْتِيَالُ وَالْكَذِبُ
 عَلَى سُرِيرٍ كَالنُّعُشْرِ . لَارْهَبُ يَعْلُوهُ مِنْ هَيْبَةٍ وَلَا رَغْبُ
 وَهُوَ عَبُوسٌ كَالْفَهْدِ مَجْتَمِعٌ يَكَاذُ مِنْ قَبْحِ خَلْقِهِ يَثْبُ
 إِنْ لَمْ تَكُنْ هَمَّةً فَإِنَّ لَهُ هَمَّهُمَّةً فِي خِلَالِهَا صَخْبُ
 يَفْرُخُ مَا صَامَ ضَيْفُهُ وَبَشَ مَ الْخَبِزِ . قَبْلَ الدُّوقِ . يَكْتَسِبُ
 يَلْتَهَبُ الْقَلْبُ مِنْهُ بِالْجُوعِ وَالِ يَاقُوتُ فِي التَّاجِ مِنْهُ يَلْتَهَبُ

وثمة شعراء أوغلوا في أهاجيهم في الفحش والقذف ورخيص القول وبذي الكلام . ومن أكثرهم شراً وأقذرهم لساناً وأشدهم على الناس جراً على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام . قال المسعودي : « كان شاعراً لساناً . مطبوعاً في الهجاء . ولم يسلم منه وزير ولا أمير . ولا صغير ولا كبير . وله هجاء في أبيه واخوته وسائر أهل بيته . فمما قاله في أبيه :

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشِيدَهَا وَمِثْلُهُ لَخِيَارِ الدُّورِ بِنَاءُ
 فَالْجُوعُ دَاخِلَهَا . وَالدَّلُّ خَارِجَهَا وَفِي جَوَانِبِهَا بؤُسٌ وَضُرَاءُ
 مَا يَنْفَعُ الدَّارَ تَشْيِيدَ حَائِطِهَا وَلَيْسَ دَاخِلَهَا خَبِزٌ وَلَا مَاءُ » (٧٩٠)

ومن المشهورين بالهجاء أيضاً الشاعر أبو القاسم الحسين بن الحسين المعروف بالواساني . فانه كان يخلتق لخصومه قصصاً مليئةً بألفاظ سخيفة ومعانٍ سوقيةً مردولة وهو في نظر الثعالبي « أحد الفضلاء المجيدين في الهجاء . وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه (٧٩١) » . وقصائده في هذا الفن طويلة جداً . وقد بلغت احداها مئة وأربعة وتسعين بيتاً . وكذلك اشتهر بالهجاء المقذع المليء بالشتائم أبو عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبلة البغدادي (٧٩٢) . وشرف الدين محمد بن نصر المشهور بابن عُنَيْنٍ . فله أهاج كثيرة في اشراف الناس وسراتهم (٧٩٣) . ولم يتورع من نظم قصيدة منحطة سافلة تقبح النفس من سماع صورها سماها « مِقْرَاضُ الْاِعْرَاضِ » .

وتجدر الاشارة الى أن هناك شعراء كباراً لم يُعْطُوا للهجاء اهتماماً . فالقاري لا يجد شيئاً ذا بال في ديوان الطغرثائي والارجاني والأبيوردي وظافر الحداد والبهاء

(٧٩٠) مروج الذهب ٤ ، ٢٠١

(٧٩١) يتيمة الدهر ١١ ، ٢٥١

(٧٩٢) ينظر ديوانه ص ٧١ - ٨١ .

(٧٩٣) الباب السابع في ديوانه كله هجاء ص ١٧٩ - ٢٢٨ .

زهير ... ونزّه آخرون دواوينهم منه أمثال علي بن مُقَرَّب العيوني ، والشريف أبي الحسن علي بن الحسين العُقيلي ، وأبي بكر أحمد بن سعيد العُماني المعروف الستالي ، وأسامة بن منقذ ، وابن الدهان الموصلي ، وابن النبيه المصري ...

ولسوء الأوضاع الاقتصادية وتدهور الحياة السياسية ولاسيما في القرن الرابع للهجرة ، عاش كثير من الناس في شظف العيش ، يتجرعون مرارة البؤس والحرمان والآم الجوع والهوان ، وقد لجأت فئة منهم - تحت وطأة الفقر - الى الاستجداء والاحتيال على ابتزاز الأموال بطريقة خاصة ، يدعون أهل الكدية أو الساسانيين ، وظهر فيهم شعراء مجيدون مثل أبي الحسن عقيل بن محمد الملقب بالأحنف العكبري . ومسر بن مهلهل المعروف بأبي ذُلف الخزرجي ، كانوا يُصَوِّرون في شعرهم الحالة المزرية التي هم فيها . وتنقلهم من بلد الى آخر مشردين .. يطوي بطونهم الجوع . هائمين بلا مسكن . بلغة تثيرُ العطف والشفقة وتستدرُّ العون والمساعدة . مثل قول الاحنف العكبري(٣٢) :

العنكبوتُ بَنَتْ بيتاً على وهنٍ تأوي اليه ومالي مثله ووطنُ
والخناء لها من جنسها سَكَنٌ وليس لي مثلاً الف ولا سَكَنٌ(٣٠)

ويلمسُ القاريءُ في شعرهم انتقاداً ولاسيما للفئة الحاكمة التي ملأت جيوبها بالمال والجواهر وتركت الناس في فقر مدقع مثل قول العكبري(٣١) :

تري العِقيانَ كالذهبِ المُصَفَّى تُرَكَّبُ فوقَ أثفارِ الدوابِ(٣٧)
وكيسي منه خَلَوُ مثل كفي أما هذا من العَجَبِ العُجَابِ ؟ !

إن الثورة على الواقع الاجتماعي في ذلك العصر دفع عدداً من الشعراء أن ينظموا قصائد ، مظهرين فيها معاناتهم في مجابهة الحالة المأساوية التي يَمُرُّون بها من فاقة وضنك . مثل محمد بن عبد العزيز السوسي الذي دَبَّحَ قصيدة طويلة تربو على أربعمئة بيت . شرح فيها الظروف العسيرة التي يتعرض لها فبي ظل القهر والحرمان(٣٨) .

(٣٩٤) يتيمة الدهر ٢ ، ١٢٢ .

(٣٩٥) سكن ، زوجة .

(٣٩٦) يتيمة الدهر ٢ ، ١٢٤ .

(٣٩٧) الشعر ، السير الذي في مؤخرة السرج .

(٣٩٨) يتيمة الدهر ٢ ، ٤٢٧ .

وظهر الى جوار شعر الكدية ، شعر هزلي خليع ماجن(١٧٩) ، نتيجة شيوع البطالة ، وفشو الفساد الاجتماعي والتردي الخلفي في جانب من المجتمع آنذاك . فلم تتورع طائفة من الشعراء من أن تخلع قناع الحشمة والوقار وتلج باب السخف والدعارة ، متخذة هذا اللون من الشعر وسيلةً للارتزاق وكسب المال . تضحكُ به أهلُ اللهو والفراغ من الرؤساء والأغنياء . ولعلَّ طريقة هذه الطائفة امتداد لطريقة أبي دلامة زيد بن الجون الذي عُرف بنوادره ومجونه زمن السفاح والمنصور والمهدي(٨٠٠) . وقد اشتهر بها في القرن الرابع أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي ، ومحمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة الهاشمي ، وفي القرن الخامس الشريف أبو يعلى محمد بن صالح المعروف بابن الهبارية ، وفي القرن السادس هبة الله بن الفضل المشهور بابن القطان .. ولم يكن هؤلاء الشعراء مُقصرين في الموضوعات الشعرية الأخرى . ولكنهم تهافتوا على الدعابة والفكاهة والمجون ، لأنهم وجدوا فيها نفعاً ورواجاً . وقد صرَّح بذلك ابن الحجاج ، فقال(٨٠١) :

لو جدُّ شعري رأيتَ فيه كواكبَ الليل كيف تُسري
وانما هزلُكهُ مُجُونٌ يمشي في المسعاشِ أمري

ومن مظاهر الفساد الخلفي في طرف من المجتمع ذبوع الغزل بالعلمان . الذي عُرف من قبل على يد أبي نواس ومن سار في ركبهِ . وقد لاحظ آدم متر هذه الظاهرة فقال : « لاشكُّ أن الغزل الذي قيل في التوجُّع من هوى العلمان يعادل ما قيل في هوى النساء على الأقل(٨٠٢) » . ونحن لانستبعد ماذهب اليه أحد الباحثين من « أن كثيراً من الشعراء قد استعملوا ضمائر المذكر مع أنهم في الواقع كانوا يوجهون شعرهم الى معشوقات لا الى معشوقين(٨٠٣) » أو أنهم كانوا ينظمونه تظرفاً(٨٠٤) . مثل قول الشاعر صالح بن رشدين(٨٠٥) :

(٧٩٩) ينظر الادب في ظل بنى بويه ص ٢٤٨ - ٢٩٠ ، العصر العربي في العراق وبلاد العجم ص ١٢٨ ، عصر الدول والامارات ص ٢٩٦ ، العصر العراقي في القرن السادس الهجري ص ٢٧٧ .

(٨٠٠) ينظر أبو دلامة الرجل الشاعر والناقد السافر ص ٤٩ .

(٨٠١) يتيمه الدهر ص ٢٢٠٢ .

(٨٠٢) الحضارة الاسلامية ص ١١٠١٢٥ .

(٨٠٣) تاريخ العصر العربي للكفراوي ص ١٣٦٠٢ .

(٨٠٤) الحياة الادبية في القام ص ٩٩ .

(٨٠٥) يتيمه الدهر ص ٤١٥٠٢ .

أنت أعطشتني إلي — ك وأبكيتهني دما
 فاذا شئت أن ترى عاشقاً سيئاً ظمما
 فأدِرْ فسِي ناظري — ك تجذني توهُمما

والى جانب الغزل بالذكر يجد القاريء شعراً في المونث . وقد جاء في مقطوعات وقصائد مستقلة . أو في مقدمات بعض القصائد المدحية . ومن عيون هذه المقدمات ما قاله ابن الخياط الدمشقي (٨٦) :

خذا من ضبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد ريثاها يطير بلُبه
 وياكما ذاك النسيم فأنه اذا هب كان الوجد أيسر خطبه
 خليلي : لو أحببتما لعلمتما محلّ الهوى من مُغرم القلب صبه
 تذكّر والذكرى تشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

ثم يصف الحبيبة وصفاً حسياً يذكر ثناياها ورضاها وزيارتها لها ومكوثه عندها بلغة رقيقة عذبة . وقد استحسّن ابن خلكان هذه القصيدة وعدّها من الغرر . ورأى أنه لو لم يكن للشاعر غيرها للكفاه ذلك (٨٧)

ومن الشعراء الذين اشتهروا بالغزل الرقيق العفيف الملك الأبد مجدالدين الايوبي . اذ بلغ فيه ذروة نضجه الفني المشفوع بالداتية والطبع السليم (٨٨) . وحسام الدين الحاجري الاربلي الذي يمثل — كما يقول الدكتور شوقي صيف — « مرحلة جديدة للغزل بالبديوات الذي قرأناه عند المتنبي والشريف الرضي ومهيار . وكان الحاجري استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً (٨٩) . » مثل قوله (٩٠) :

سليمى وإن لم أقض منها ماربياً أعزّ الى قلبي خليلاً وصاحباً
 وأتفق لي من بارد الماء غلّة وأغنى من الدنيا لقلبي مواهباً
 أخاف عليها من عيونٍ وشاتها وأخذ عنها حين تقبل جانباً
 ولي شغف لا يبرخ الدهر قائداً زمامي اليها بالصباية جاذباً

(٨٦) ديوانه ص ١٧٠ .

(٨٧) وفيات الأعيان ، ١ ، ١٤٥ .

(٨٨) ينظر ديوانه بتحقيقنا ، وبحث الدكتور مصطفى جواد (أغزل شعراء الكرد في العربية الملك الامجد) مجله الكتاب ، العددان ٢٠١ ، سنة ١٩٥٨ .

(٨٩) عصر الدول والامارات ص ٢٩١ وينظر بحثنا (حسام الدين الحاجري الاربلي ، حياته وشعره) مجله آداب المستنصرية ، العدد ١٠ سنة ١٩٨٤ .

(٩٠) ديوانه ص ١٤٨ .

أعاتب سلمي بالقطيعة والجفا أعيذك أن تهدي إليها المعاتباً
واقسم لو أن المنايا بكفها كؤوس فأسقاها لطابت مشارباً
أجل نظراً في وجهها تر بهجة تنسي قلوب العاشقين الحبايباً
أطلب من سلمي بديلاً وأبتغي نلوأ؛ ألا لانت قصدي طالباً

إن شاعرية الحاجري في الغزل فيأضة . ترفدها عاطفة صادقة . وخيال خصب .
وميدان هذا الغزل في الجزء الأكبر من شعره الديار الحجازية . فنراه يذكر - على
طريقة الشريف الرضي في حجازياته . وأبي المظفر الأبيوردي في نجدياته -
ملاعب عالج . ورمال كاظمة . والعذيب . وحاجر . ومرابع رضوى والعقيق .
وفاتنته التي تسكن هذه المواقع أتق من الماء القراح . وأطيب من كل لذة ومرح
وجبه لها دائم بلا انقطاع . ووثيق بلا انفصام مهما كلفه ذلك من أذى ويح
وسقام ؛ لأنه ألفها كما يآلف الوليد الرضاع . ويمن إليها حنين النياق الى مرابع
خبها : (١١١)

ألفتك إلف الوليد الرضاع وقد يالفن الرضيع الفطام
سأبكيك ما بكست الثالكات وهيها يبرد مني الأوام
وأحنو إليك حنين النياق لهن بأكتاف نجد غرام

وشاع في هذا العصر لون من الشعر يُعبر عن صور المودة والمحبة والعملة المتينة
بين الخلان والأصحاب . ينظمه الشعراء في المناسبات المفرحة والمحنة . وتقلب
عليه المقطعات . ومثال ذلك ما كتبه أبو فراس الحمداني الى أخيه أبي الهناء حرب
بن سعيد : (١١٢)

حلت من المجد أعلى مكان وبلغك الله أقصى الأمان
فأنك لاعدمتك الفلبي أخ لا كاخوة هذا الزمان
صفاؤك في البعد مثل الدنو وودك في القلب مثل اللان
كسونا أخوتنا بالصفاء كما كسيت بالكلام المعاني

واتسع نطاق شعر الشكوى الذي عبر فيه الشعراء عن مشكلاتهم الخاصة . ولاسيما
قوة الحياة ومشتتها . ومعاناة الضنك وسوء الحالة الاقتصادية . وكان كثير منهم
يلقي اللوم على الزمان ويسب جفته على الدهر . مثل قول ابن نباتة السعدي (١١٣)

(١١١) ديوانه ص ٣٣١ .

(١١٢) ديوانه ص ٢٩٧ .

(١١٣) ديوانه ص ٧٥ ، ٧٦ .

هي الخرقاء تنقُضُ بعد نسج
يؤولُ به الشبابُ الى مشيبٍ
وقد فُتِنَ الأنامُ بها وغرَّوا
وتأخذُ من جوانبنا الليالي
أما في أهلها رجلٌ لبيبٌ
أرى التشميرَ فيها كالتواني

ومَنْ لبسَ الترابَ كمن علاه
وكيف يكذُّ مهجتهُ حريصُ
فلا تفرِّزْكَ انْفاسَ الرِّياحِ
يرى الارزاقُ في ضربِ القداحِ

وكذلك راج شعر الحنين الى الوطن الذي تتضح فيه العاطفة وتتجلى فيه لوعة الفراق . فراق الوطن والاهل والاحباب . ونجد مثل هذا الغرض عند المتغربين من الشعراء مثل الامام الزمخشري الذي يحنُّ الى مسقط رأسه زمخشر . حينما كان بعيداً عنها في مكة مجاوراً بيت الله الحرام (٨١١) :

أفضت اليك شكاة الواجد الكميد
حُبُّ الدنوِّ من البيتِ الحرامِ رمى
هَمَّانُ انْ تكفني ياربَّ خطبهما
فأشكُ ياربُّ صنعَ الواحدِ الصميدِ
بِالجمرِ فيها وحبُّ البعدِ عن بلدي
شكرتُ مادام تجري الروحُ في جسدي

وهام ابن سنان الخفاجي بحب الشام . وحنَّ الى موطنه حلب بعد ان طوحت به الغربة بعيداً عن اهله واخوانه . فقال في مستهل قصيدة (٨١٥) :

فؤاد يهيمُ بذكر الوطن
ودمعُ بعيدِ رسومِ الدَّمَنِ
دليل كما علم الساهرون
أسير الصباحِ عصيِّ الوسَنِ

وللشاعر ابي اسحاق الغزي شعر كثير في الحنين الى الوطن . وذلك امر طبيعي نظراً لطول المدة التي قضاها في بلاد العجم . مثل قوله في قصيدة يذكر أيام صباه في غزّة . مسقط هامته . ومقام هواه . ومعنى اقاربه : (٨١٦)

مقامُ هوى قلبي ومسقط هامتي
ومعنى صباباتي ومعنى اقاربي
ذكرت بذاك الربيع عيشاً طويتهُ
على غزّةِ والعيشُ كسوةُ سالبِ

(٨١٤) الادب العربي في الليم خوارزم ص ١٢٢ نقلا عن ديوان الزمخشري ، ورقة ٢٦ .

(٨١٥) ديوان ابن سنان ص ١١٢ .

(٨١٦) الحياة الادبية في الشام ص ١٥٥ نقلا عن ديوان الغزي ص ٢٠ .

ومن الاغراض الشعرية الواسعة في هذا العصر الرثاء . ويلاحظ ان المعاني فيه لاتكاد تخرج عما درج عليه الشعراء السابقون من ذكر مآثر الفقيده وما خلف من حزن وأسى في القلوب . ويُعدُّ ابو الحسن التهامي من الشعراء المتميزين في الرثاء . فله اربع مرثيات في ابنه ابي الفضل تفيض بالصدق المزوج بالالم الشديد . ولعل اكثرها شهرة قصيدته التي استهلها بقوله (٨١٧) :

حكْمُ النِيَّةِ فِي البرِّيَّةِ جَارِي ماهذه الدنيا بدار قرار
طُبِعَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صفواً مِنَ الاقْدَاءِ والاكْدَارِ
وَمَكْلُوفِ الايَامِ ضِدَّ طَبَائِعِهَا مُتَسَطِّلِبٌ فِي المَاءِ جِدْوَةٌ نَارِ
وَالعَيْشِ نَوْمٌ وَالنِّيَّةِ يَقْظَةٌ والمرءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٌ سَارِي
فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ عَجَالاً أَنْتُمْ أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الأَسْفَارِ
لَيْسَ الزَّمَانُ وَإِنْ حَرَضَتْ مَسَالِمًا خُلِقَ الزَّمَانُ عِدَاوَةً الاَحْرَارِ

وقد نالت هذه القصيدة استحسان ابي العلاء المعري . وكان يستنشدُها من يرد عليه . وقد استنشدُها التهامي نفسه دون ان يعرفه . فلما انشدُها عرف انه التهامي . وشهد له بانه اشعر الشام . وعلل معرفته بالتهامي بقوله : « سمعت منه القصيدة سماعاً يدل على ان صاحبها بخلاف سماعي اياها من غيره (٨١٨) » . ورأها ابن خلكان في غاية الحسن (٢١٩) .

ومن الملاحظ في هذا العصر رثاء العلماء والادباء والبكاء عليهم بقصائد تصور خسارة الامة فيهم وخلو ساحة المعرفة منهم . ومن اوضح الامثلة على ذلك ما قاله ابن ابي خصينة في رثاء ابي العلاء المعري (٨٢٠) :

العلم بعد ابي العلاء مُضِعٌّ والارضُ خاليةٌ الجوانبِ بِلِقْعِ
أَوْذَى وَقَدْ مَلَأَ البلادَ غَرائباً تسري كما تسري النجومُ الطَّلَعِ
وَعَجِبْتُ اِنْ تَسَعُ المَعْرَةُ قَبْرَهُ وَيَضِيقُ بَطْنُ الارضِ عَنْه الاَوْسَعِ
تَنْصَرُمُ الدُّنْيَا وَيَأْتِي بَعْدَهُ أُمَّمٌ وَأَنْتَ بِمِثْلِهِ لا تَسْمَعُ

(٨١٧) ديوانه ص ٤٧ .

(٨١٨) اوج التحري ص ١٢٧ .

(٨١٩) وفيات الاعيان ٢ ، ٣٧٩ .

(٨٢٠) ديوان ابن ابي خصينة ١ ، ٣٧٢ .

وكان لريثاء ابطال الحروب الصليبية وتمجيد مآثرهم نصيب وافر من الشعر . ولا سيما في رثاء عماد الدين زنكي . ونور الدين محمود . صلاح الدين يوسف بن ايوب (٨٣١) . ولعل قصيدة العماد الاصبهاني التي بلغت مئتين واثنين وثلاثين بيتاً في رثاء صلاح الدين من اطول القصائد التي نظمت آنذاك . ومطلعها :

شمل الهدى والملك عم شتاة والدهر ساء وأقلعت حسناته

انها قصيدة جيدة في نوعها . فهي تحكي - في معرض الحزن والاسى - قصة بطل عاش حياته كلها في نضال وكفاح من اجل احقاق الحق وازهاق الباطل . ودفع الاذى عن الامنين ورفع الحيف عن المظلومين .

بعد هذه الالمامة الموجزة في فنون الشعر تقف عند الشعر القومي . ووصف الطبيعة . وشعر التصوف . وفترة طويلة كما هو منصوص عليه في مفردات خطة الكتاب .

الشعر القومي :

وقعت الدولة العباسية بعد العز والرفعة والاباء والشم تحت نير الحكم البويهي ثم السلجوقي . واستولى الاعاجم على مقاليد السلطة . واصبح بايديهم الحل والشد . ودب الطمع بين بعض رجال العصر آنذاك . فأقططعوا لانفسهم اجزاء من جسم هذه الدولة واقاموا عليها امارات مستقلة . وتضافرت ثورات شعبية حاكمة على تقويض السلطان العربي الاسلامي . وقد هزت هذه الاحداث المريعة مشاعر الشعراء الشرفاء ودفعتهم الى نظم الشعر المعبر عن الالم الذي اصابهم من جراء ذلك .

ان بواد الشعر المعبر عن الوعي القومي ظهر في قصائد الشاعرين الطائيين ابي تمام وابي عمادة البحرني : اذ نجد في شعر الاول اسماء عدد من القادة العرب الذين سطروا اروع ملاحم البطولة والشجاعة والشهامة والفروسية . امثال الخليفة المعتمد بالله الذي لبي نداء المرأة العربية التي صرخت « وامعتصم » . وابي ذلف العجلي ومحمد بن خميد الطائي اللذين حاربا بابك الخرمي . وابي سعيد محمد بن يوسف الثعري القائد المظفر الذي بلغ اسوار القسطنطينية . وخالد بن يزيد البطل الشهيم الذي قاتل الروم ببسالة . وكذلك تتجلى في شعر البحرني الروح العربية الاصلية والدفاع عنها وعن قيمتها ومبادئها ورجالها . ونجد مثل هذا في شعر ابن

المعتز . ولا سيما ما قاله في الخليفة المعتضد . إذ « وجد فيه الشخصية المحببة اليه بما انطوى عليه من شجاعة فذة وحنكة سياسية نادرة وكسر لشوكات كثير من الثائرين والخارجين (٨٢٢) .

ان التجزئة التي اصابته الامة آنذاك . وضياح وحدتها . وتشتت شملها . وذهاب هيبتها . اثار حفيظة الشعراء الغيورين . وكان ابو الطيب المتنبى من ابرز هؤلاء الشعراء . اذ نراه يتغنى بالمجد العربي . ويتوق ان يرى العرب سادة بلادهم . وحاكمي ديارهم . وقد انشد شعرة الذي يُعبر عن هذا الاحساس من خلال شخصية سيف الدولة الحمداني الذي « رأى فيه رمز دولة العرب المفقودة ... والدرع الذي يحمي البلاد العربية ضد دولة الروم الشرقية ... ومدائح له تُغد في الذروة لا من شعره وحده . بل من الشعر العربي عامة . فقد صورَ فيها وقائمه وحرابه تصويراً تشيع فيه البهجة والاعتزاز بالعرب والعروبة (٨٢٣) » . مثل قوله (٨٢٤)

رفعت بك العرب العماذ وصيرت قمن الملوك مواقد النيران
أنساب فخرهم اليك وانما أنساب اصلهم الى عدنان
وقوله (٨٢٥) :

اذا العرب العرباء (٨٢٦) رازت نفسونها فانت فتاها والمليك الحلال
أطاعتك في ارواحها وتصرفت بأمرك والتفت عليك القبائل

وكان المتنبى يرى ان امته لن يستقيم امرها وتستعيد مجدها التليد وايام عزها وفخارها المجيد مادام حكامها من غير اهلها (٨٢٧) :

وانما الناس بالملوك وما تفلح غزب ملوكها عجم

ومن الشعراء الذين نلمس في شعرهم الغيرة على قومهم ابن نباتة السعدي . اذ نراه يتألم من سيطرة الاعاجم ولا سيما في قصيدته التي يقول في مطلعها (٨٢٨) :

(٨٢٢) شعر ابن المعتز ، القسم الثاني ، ص ١٦٤

(٨٢٢) الفن ومناهب لي الشعر العربي ص ٢٠٦

(٨٢٤) شرح ديوان المتنبى ٢ ، ٤٢٢

(٨٢٥) شرح ديوان المتنبى ٢ ، ٩٥

(٨٢٦) العرب العرباء ، القديمة الطالعة ، رازت ، اختبرت وجربت . العلال ، السيد .

(٨٢٧) شرح ديوان المتنبى ٢ ، ٣٢٠

(٨٢٨) ديوانه ١ ، ٢٥٥ .

أعذر قومسي والرمّاح تسلّموا وذلك خطب في الزمان عظيم

واشتهر في هذا الميدان ايضاً الامير ابو الفتيان محمد بن سلطان المشهور بابن
خيوس . فها هو ذا ينتظر اليوم الذي تتخلص فيه الديار من الدخلاء . فيقول (٨٢٩) :

يومٌ لعمرك لم تزلْ أخبازة مسموعةً من منجدٍ او متهم
عزّتْ به عزبُ البلاد كعزها بالقادسية يوم مقتلِ زئيمِ (٨٣٠)

وكان الشاعر الامير شهاب الدين ابو الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص
بيص يمتلك حياً قومياً صادقاً . فهو في كثير من شعره يُحرض قومه ويستنهضهم
للذود عن الحمى . ويدعوهم الى التكاتف والتعاقد لمحاربة الخصوم والتخلص منهم
مثل قوله مخاطباً اهله بني دارم :

بني دارم ان لم تغيروا فبدلوا عمامكم يوم الكريهة بالخمر
فان القرى والمدن حيزتْ لأعبد ولا سلمتْ أفحوصةً لفتى خراً (٨٣١)
ربطتم بأطناب البيوت جيادكم وخيلُ العدا في كل ملحمة تجري
إذا ماشيتم نار حرب وقودها صدور المواضي البيض والاسل السم
ضمنت لكم ان ترجعوها حميدة تواجف غب الروع بالنعم الحمر (٨٣٢)

ودافع ابو المظفر محمد بن احمد الابيوردى الاموي عن قومه واراد لهم العز
والرفعة . والظفر والمنعة . فقال (٨٣٣) :

سأطلب العز ولو رفرفتْ على حواشيه عوالي الرماح
بضربة رغلاء او طمعنة تخاوصت منها عيون الجراح
ويصرح في ابيات اخرى بانه يدافع عن احباب قومه بشعره (٨٣٤) :

ادافع عن احبابكم بقصائد غدا المجذ في اثنائها يتصرف
ولم اخترعها رغبة في نوالكم وان كان مشمولاً به المتصيف
ولكن غريق في من عربية يذل لنا ذو السؤدد المتعطف

(٨٢٩) ديوانه ١٢ ، ٥٧٤ .

(٨٣٠) ديوانه ١ ، ١٦١ .

(٨٣١) حيزت ، من الحيازة ، ضمت . الافحوصة ، مجثم القطة ، واراد هنا الموضع

(٨٣٢) تواجف ، اي تسير الوجيف ، وهو ضرب من السير السريع ، غب الروع ، بعد الحرب

المفرزة ، النم ، الابل

(٨٣٣) ديوان الابيوردى ١ ، ٤٦٥

(٨٣٤) نفسه ١ ، ٥٣٥

وبلغ الايبوردي القمة في الشعر القومي في قصيدته التي نظمها اثر المذبحة التي
اقتربها الافرنج في القدس سنة ٤٩٣ للهجرة . ومطلعها (٨٣٥) :

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجِم فلم يبقَ منا غرضةٌ للمراجِم
اطلق الشاعر صيحته المدوية من اعماق قلبه المكتوي بنار الحزن والاسى على
ماحلَّ بالقدس الشريف . وما اصاب مَنْ سكن في حماها . ونراه يشخذ العزائم .
ويستنهض الهمم . ويشير الحفايظ . ويحذر الناس من وقائع ادهى واعظم . ومصائب
انكى واجسم . انْ هم استكانوا الى الدعة والراحة . وجنحوا الى السلم . وخذلوا الى
السكينة . واستظلوا بظل العيش الرغيد . دون الالتفات الى هبوات الغرب :

فأيتها بني الاسلام . انْ وراءكم وقائعٌ يلحقنَ الذُّرا بالمناسِم (٨٣٦)
أتهويمهً في ظلِّ أمرٍ وغبطةٍ وعيشٍ كنوَّارِ الخميِّلةِ ناعمٍ (٨٣٧)
وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها على هبواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمٍ

وكشف الشاعر صورة دامية . مؤثرة ومثيرة . ليجلب انتباه الناس الى الخطر الذي
ينتظرهم . والبلاء الذي سيدهاهمهم . والمذلة التي ستنتابهم . انْ هم لم يهبوا بعددهم
وعُددهم الى انقاذ القدس من الفئة الباغية . ولات ساعة مندم :

وتلك حروب مَنْ يغبُ عن غمارها ليسلمَ . يقرعُ بعدها سنَّ نادمٍ

استنفر الى الجهاد . وتحريض على اقتحام غمار هذه الحروب الاجماعية . وعدم
التخلف عنها طلباً للسلامة : لانَّ الحرب الاجماعية تقاوم بمثلها . والاغليت الامة .
ونزل البلاء في كلِّ من نكص عن القتال .

ويطيل الشاعر من حديث الظلم . والتهيب من الظالم . والميل الى السكون .
ومعبةً ذلك . ويكرر دعوته الى القيام بغارة شعواء . تعاضدها العزيمة والثبات .
ويساندها الايمان بالحق . وتوازرها الكرامة والعزة . غارة تعطى الاعداء درساً .
وتجعلهم يعطون على اصابعهم ندماً . ويقولون ليتنا لم نأت الى هذه الديار . ولم
نعمل تلك الافعال التي تأبأها الانسانية :

(٨٣٥) نفسه ٢ ، ١٥٦

(٨٣٦) ايها : لفة لي هيبات بمعنى بعد . الذرا : المرتفعات . المناسِم : جمع منسم وهو خوف
البحير .

(٨٣٧) التهوية : هز الراس من النعاس . الفبطة : المسرة بالنمعة وحسن الحال . النوار : زهرة
الفسج .

دعوناكم ، والحربُ ترنو ملحَّةً الينا بألحاظِ النُسورِ القشاعِمِ
تراقبُ فينا غارةً عربيةً تُطيلُ عليها الرومُ عَضَّ الأباهِمِ

وتألم ابن الخياط الدمشقي على ضياع القدس ، مهوى أفئدة المسلمين ، وقبلتهم
الاولى ، ومسرى الرسول محمد بن عبدالله ، صلى الله عليه وسلم ، ونظم قصيدة تم
على تأثر عميق ، وانفعال شديد ، وهو - على ما يبدو - متأثر بقصيدة الايبوردي
التي سبق ذكرها ، قال فيها (٨٢٨) :

أنوماً على مثلِ هذِ الصفاةِ ؟ وهزلاً ، وقد أصبح الأمرُ جدأ ؟
وكيف تنامونَ عن أعين وترثمُ ، فأسهرتموهنَّ حِقدا ؟
ومنها :

فكم من فتاةٍ بهم أصبحت تدقُّ من الخوفِ نحرأً وخذا
وأُم عواتقٍ ، ما إن عَرَفَ حَرَأً ولا دُقنَ بالليلِ برِدا ؟
تكاذَ عليهنَّ من خيفةٍ تدوبُ وتُتلفُ حُزناً ووجدأً
فحاموا على دينكم والحريم محاماةً من لا يرى الموتَ فقداً

إنه أنكر على المسلمين النوم الهانئ ، وشهاب الحرب يلمع ، والخصم لا يهجع .
وصور الحالة النفسية آنذاك أصدق تصوير وأدقّه ، فالفتيات يلطنن خدودهنَّ على ما
دهاهن ، ويضربن على صدورهنَّ من خوف ما سيدهمهن ، والأمهات أصابهنَّ الذهول
من الواقع الذي أصبح فيه ، فحرمن من راحة البال ، واطمئنان النفس ، لأنهنَّ
يخشين على أولادهنَّ من السلب والتهك والهوان .

وحرض الشاعر في قصيدته على النهوض والاستبسال لمواجهة الاعداء ، وقطف
رؤوسهم ، وحصدها من الأراضى التي دقوا فيها أوتاد خيامهم ، وأقاموا عليها
مستمراتهم :

فدونكم ظفراً عاجلاً لكم جاعلاً سائر الأرضِ مهداً
فقد أينعتْ رؤوسٌ للفرنَج فلا تُغفلوها قِطافاً وحصداً

وفي عصر الحروب الصليبية في مصر والشام برز مجموعة من الشعراء تغنوا
بأمجادهم السابقة ، وأظهروا مكانة العرب الأوائل وقوتهم وشهامتهم وغيرتهم على
شرفهم وأرضهم (٨٢٩) . منهم الوزير المصري طلائع بن زُربك الذي حارب الصليبيين

(٨٢٨) ديوان ابن الخياط الدمشقي ص ١٨٢

(٨٢٩) لمة نادج كثيرة في بحثنا (القدس في شعر القرن السادس للهجرة) ، مجلة المورد ،
العدد الأول ، سنة ١٩٨٢ .

وأوقع فيهم خسائر فادحة . وكان يتألم أن تكون ديار العرب بيد الفاصيين من الفرنج . مثل قوله (٨١٠) :

وَالعَرَبُ أَقْتَلُ دَاءً يَهْلِكُونَ بِهِ أَنْ تَمْلِكَ الْحَكَمُ فِي أَعْنَاقِهَا عَجَمٌ

وصف الطبيعة :

الوصف من الموضوعات الشعرية الهامة التي عالجها الشعراء منذ عصر ما قبل الاسلام . وأخذ يتطور بمرور الزمن . حيث اتسع أفقه . وكثرت أشكاله وألوانه . وقد وصل في العصر العباسي الثاني مرحلة مزدهرة . شمل الإنسان والحيوان والنبات . وجميع مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية . وتناول الأدوات العلمية والكتابية . والآلات الحربية والقتالية ...

لقد حظيت الطبيعة بنصيب وافر من الشعر . اذ وصف الشعراء السحاب والمطر والأنهار والبرك والرياح والأزهار والأشجار والثمار والليل والأفلاك . والمآكل والمشارب . والدور والتصوير . والفرش والأثاث وأدوات الزينة وسواها . وخير مثال للطبيعة الزاهية برياضها وأزهارها البهيمة وثمارها الشهية نجدها في قصيدة ابن وكيع التنبسي (٨١١) .

أسفر عن بهجته الدهر الأغز وابتم الروض لنا عن الزهر
أبدى لنا فضل الربيع منظرأ بمثلِه تُفتنُ ألبابُ البشر
وشياً ولكن حاكّة صائفة لا لايتذالِ اللبسُ لكنْ للنظر
عائنة طرف السّماء فانثنى عشقاً له يبكي بأجفانِ المطر
فالارضُ في زي عروسٍ فوقها من أدمع القطرِ نثارٌ من دُرر
وشي طواه في الثرى صوانه حتى إذا ملّ من الطيِّ نثر
أما ترى الورد كخذي كاعب راودها - فامتعت منه - ذكر
كأنما الخمر عليه نفضت صباغها أو هي منه تُفتنصر
أخجله النرجس إذ جادلهُ فأحمر من فوط حياء وخفر
قال له . العين وما الخد لها موازناً في عظم قدرٍ وخسطر
ماذا الذي يرجى لخذي بهج مستحسن صاحبه أعمى البصر ؟

(٨١٠) ديوان طلائع بن زبلك ص ١٢٤ .

(٨١١) ابن وكيع التنبسي شاعر الزهر والهمر ص ٧٥ .

فاحمر من حَجْتِه إِذْ ظَهَرَتْ وَالْحَقُّ لَا يَدْفَعُ يَوْمًا إِنْ ظَهَرَ
 وَاَنْظُرْ إِلَى النَّارِجِ فِي بَهْجَتِهِ يَلُوحُ فِي أَفْئَانِ هَاتِيكَ الشَّجَرِ
 مِثْلَ دَانِيرِ نِضَارِ أَحْمَرٍ أَوْ كَمَقِيْقِ خُرْطُتٍ مِنْهُ أَكْرَمُ (٨١٢)
 وَاَنْظُرْ إِلَى الْمَشْوَرِ فِي مِيدَانِهِ يَرْنُو إِلَى النَّاطِرِ مِنْ حَيْثُ نَظَرُ (٨١٣)
 كَجَوْهَرٍ مُخْتَلَفِ الْوَانِهِ أَسْلَمَهُ سَلْكُ نِظَامٍ فَاَنْتَشَرَ

ويترسل الشاعر بعد هذه الأبيات في قصيدة طويلة وبلغت سهلة مأنوسة يصف أنواعاً كثيرة من الأزهار والأثمار بالوانها البديعية ويقدمها للقارئ في ثوب مشرق بهي تطيب له النفس وينشرح له الصدر .

لم يترك الشعراء فاكهة الا وصفوها وصفاً دقيقاً وشبهاها تشبيهاً لطيفة تليق بشكلها ولونها وطعمها كالنارج والسفرجل والكمثرى والرمان والتفاح والغنب ... ومثال على ذلك أرجوزة أبي الحسين الممشوق في المشمش (٨١١) :

أَمَا تَرَى الْمَشْمَشَ يَاحِلُّ الْأَدْبُ مُشْطَبًا أَكْرَمُ بِهَاتِيكَ الشُّطْبِ
 مُتَّقِبُ الْهَامَاتِ مِنْ غَيْرِ تَقَبِّ كَأَنَّهَا بِنَادِقُ مِنَ الذَّهَبِ
 قَدْ صَاعَهَا صَائِعُهَا بِلَا تَعَبِّ

واستحسن الشعراء منظر الأنهار والجداول والبحيرات وخزير المياه وانسابها . ووصفوها أحياناً مع ضوء القمر الجميل في الليالي الصافية . قال أبو منصور الثعالبي : « وقد أكثروا في وصف القمر على الماء ... وأحسن ما سمعتُ فيه - على كثيرته - قول القاضي التنوخي :

أَحْسَنُ بَدِجَلَةٍ وَالذُّجَى مُتَّصُوبٌ وَالْبِدْرُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ مُغْرَبٌ
 فَكَأَنَّهَا فِيهِ بِسَاطٌ أَزْرَقٌ وَكَأَنَّهُ فِيهَا طَرَازٌ مَذْهَبٌ (٨١٥)

وانبهر الشعراء بمنظر الثلج . وتقننوا في وصفه . وفي بيان جمال حباته الكروية البيضاء الشبيهة باللؤلؤ المنثور على بساط الأرض . منهم أبو بكر الصنوبري (٨١٦) .

(٨١٢) النضار : الذهب . الأكر : الكرات .

(٨١٣) المنثور : نبات جميل طيب الرائحة ، وله زهر مختلف ، بعضه ابيض وبعضه أصفر .

(٨١٤) يتيمة الدهر : ١ ، ٢٠١

(٨١٥) يتيمة الدهر : ١ ، ١٠٨

(٨١٦) عده الدكتور سيد نوفل أول من تفنن بالثلج . ينظر : شعر الطبيعة في الأدب العربي

وكشاجم (٨١٧) . وأبو الفضل الميكالي (٨١٨) . وأبو الحسن علي بن أبي الطيب
الباخرزي (٨١٩) . والصاحب بن عباد الذي أورد له الثعالبي عدة ثلجيات وعلق عليها
بقوله : سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول : كل هذه الثلجيات عيال على قول
الصنوبري :

ذَهَبٌ كَوَسْوَكَ يَاغْلَا م فَإِنَّهُ يَوْمٌ مُفْضَضٌ
وَالجَوُّ يُجَلِي فِي السَّمَا ض وفي خُلْسِي الدَّرُّ يُعْرَضُ
أظننت ذا ثلجاً وذا ورداً من الأغصان يُنْفَضُ
ورد الربيع مسلونٌ والورد في كانون أبيض (٨٢٠)

وعني الشعراء بفصول السنة من شتاء وربيع وصيف وخريف . وعقدوا مقارنات .
وأقاموا مفاضلات بينها . ويُعدُّ ابن وكيع التَّنِيسِي من كبار شعراء هذا اللون من
النظم . إذ نجد له مزدوجة طويلة تجاوزت مئة بيت . تناول فيها سمات كل فصل
ومزاياه وتأثيره على الناس بلغة ميسورة وأسلوب واضح وكأنه درس في الجغرافية
والاجتماع . اليك ما قاله بعد أن استوفى حديثه الشيق عنها (٨٢١) :

دونك هذي صفة الزمان مشروحة في أحسن التبيان
فأصغ نحو شرحها كي تسمعا ولا تكن لحقها مضيعا
وارض بتقليدي فيما قلتُ فَإِنِّي أدري بما وصفته
ولا تعارضني في هذا العملُ فَإِنِّي شيخُ الملاهي والغزلُ

والربيع سيد الفصول في الجمال واللهو والبهجة والحبور : لذلك حظي بأوفر
كمية من الشعر المنظوم في الوصف قال الصنوبري في تفضيله على سائر
الفصول (٨٢٢) :

ما الدهر إلا الربيع المستبهر إذا أتى الربيع أتاك النور والنور
الأرض ياقوتة . والسمجج لؤلؤة والنسبت فيروزج . والماء بلور
فيه لنا الورد منضود مؤزر ما بين المجالس . والمشور مشور

(٨٤٧) ديوان كشاجم ص ٢١١

(٨٤٨) يتيمة الدهر ٤ ، ٣٧٢ .

(٨٤٩) ديوان الباخرزي ٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

(٨٥٠) يتيمة الدهر ٢ ، ٣٦٥ ، وينظر ديوانه ص ٢٥٥ .

(٨٥١) ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر ص ٧٤

(٨٥٢) ديوان الصنوبري ص ٤٢ ، وينظر ١ من غاب عنه المطرب ص ٢٨ .

هذا البنفسجُ ، هذا الياسمينُ ، وذا الد نسرينُ ، ذا سوسنَ في الحسنِ مشهورُ
تظُلُ تنشرُ فيه السُحْبُ لؤلؤها فالأرضُ ضاحكةً ، والطيرُ مسرورُ
تبارك الله ما أحلى الربيعُ فلا تُغزِرُ فقايسةَ بالصُيفِ مغرورُ

وكان حظ الدور والقصور كثيراً في أوصاف الشعراء ، فلهم فيه صور فنية رائعة .
وتشبيهات دقيقة بارعة . تدلُّ على ذوق رفيع وخيال خصب . وقد أورد الثعالبي بضع
عشرة قصيدة (٨٥٣) سماها بـ « الداريات » تغنى فيها الشعراء بالدار الفخمة التي
شيدها الصاحبُ بن عباد . منهم أبو العباس الضبي . وأبو سعيد الرستمي . وأبو
الحسن الجرجاني . وأبو القاسم الزعفراني . وأبو القاسم بن أبي العلاء . وأبو محمد
بن المنجم . وأبو العلاء الأسدي . وأبو القاسم عبد الله بن محمد بن المعلّى . وأبو
عيسى بن المنجم . وأبو الحسن الغويري ... وعلق على الهواء المنعش والماء الجاري
في ممرات هذه الدار والمناظر الجميلة التي ورد ذكرها في قصيدة أبي سعيد
الرستمي بقوله : « وهو أحسن ما سمعتُ فيه على كثرته » . منها الأبيات الآتية :

هواة كأيام الهوى فَرَطَ رَقَّةً وقد فقد العشاقُ فيها العوذلا
وماءً على الرضاضِ يجري كأنه صفائحُ تَبْرُ قد سَبَكْنَ جدولا
كأن بها من شدة الجري جنةً فقد ألبستهن الرياحُ سلا

وللآثار الشاخصة التي خلفتها الأمم البائدة نصيب في شعر الوصف . ومن أجمل
ماورد في ذلك قصيدة للأرجاني في وصف تماثيل منحوتة رآها في سفح جبل بالقرب
من مدينة يقال لها قرميسين . منها : (٨٥٤)

رأينا عجيباً - والزمانُ عجيبٌ -
تماثيل في صخرٍ نحيبتُ كأنها
يرينك من تحت الحوادثِ أوجهاً
وقاموا على الأقدام لا يعترِبهم
عليهم ثياب لسنٍ مجتابٍ لابسٍ
تعجبُ منها كيف جرَّ مثلها
وقد شخصتُ للناظرين بوادياً
كما تصفُ الاعضاء يوماً غلائلُ

رجالاً . ولكن مالهن قلوبُ
بنو زمنٍ لم يلف فيه أريبُ
بها من تصاريِفِ الزمانِ شحوبُ
مدى الدهر من طول القيام لغوبُ
ولكن من الصخر النحيبتُ مجوبُ
ذبول لهم أم كيف زُرَّ جيوبُ
صدورُ لهم من تحتها وجنوبُ
إذا كان فيها للرياح هبوبُ

(٨٥٣) بعمامة الدهر ١٠١ - ٢٠٧ - ٢١٨ .

(٨٥٤) ديوان الأرجاني ١٣٠٠١

لم يترك الشعراء شيئاً وقع بصرهم عليه الا وصفوه وتعاطفوا معه وشاركوه بمشاعرهم واحاسيسهم ، مثل الشمعة التي تناولوها بشعر رقيق ينم على صدق في التعبير ، كما نرى ذلك عند السري الرفاء ، والصنوبري وأبي العلاء المعري ، والظفرائي ، والارجاني والحسن بن أسد الفارقي الذي قال فيها : (٨٥٥)

ونديمة لي في الظلام وحيدة مثلي مجاهدة كمثل جهادي
فاللون لوني والدموع كأدمعي والقلب قلبي والسهاد سهادي
لا فرق فيما بيننا لو لم يكن لهبي خفياً وهو منها بادي

لم يكتف الشعراء بوصف الطبيعة الساكنة بمظاهرها المختلفة ، بل التفتوا الى الطبيعة الحية ايضاً ووصفوا ما وقع بصرهم عليه من حيوانات وطيور وحشرات مثل الحصان ، والناقة ، والكلب ، والذئب ، والأسد ، والفهد ، والفيل ، والهر ، والسماك ، والديك ، والبيغاء ، والصقر ، والنمل ، والنحل ، والبعوض ، والبرغوث ولعل أطرف ما نلحظه في هذا اللون من الوصف « الفيليات » ، وهي قصائد اتفقت في الوزن وهو « مجزوء الكامل » والقافية وهي « الدال » ، تضافر مجموعة من الشعراء على نظمها ، (٨٥٦) منها قصيدة ابي الحسن الجوهري التي تناولت الفيل ووصفت جميع أعضاء جسمه وصفاً ظريفاً منها الآيات الآتية :

يزهى بخرطوم كمش	لِ الصَّوْلَجَانِ يَرُودَا
مُتَمَرِّدًا كالأفْعُوا	ن تَمُدُّهُ الرُّمَسَاءُ مَدَا
أَوْ كُمِّ رَاقِصَةٍ تُشِي	رُ إِلَى الصُّنْدَمَانِ وَجَدَا
وَكَأَنَّهُ بوقٌ تُحَرِّ	كُهُ لَتَنْفِخَ فِيهِ جَدَا
أُذْنَاهُ مَرُوحَتَانِ أَسْ	سِنْدَتَا إِلَى الفُؤُودَيْنِ عَقْدَا
عَيْنَاهُ غَائِرَتَانِ ضَيُّ	قَتَا لَجْمَعِ الضَّوْءِ عَمْدَا

الشعر الصوفي :

نما التصوف وتطوُّر بعد أن غرس مبادئه أئمة كبار ، مثل ذي النون المصري (ت ٢٤٥) الذي فسَّر اشارات المتصوفة وتحدث عن احوالهم ومقاماتهم ، وقد عدَّه ابن تغري بردي رأس الطريقة الصوفية بمصر ، (٨٥٧) وهو القائل : (٨٥٨)

(٨٥٤) ديوان الارجاني ١٠١

(٨٥٥) الحسن بن أسد الفارقي ، حياته والصبابة من شعره ص ٨١ .

(٨٥٦) يتيمة الدهر ص ٢٢٢ - ٢٢٩ .

(٨٥٧) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٢٠ .

(٨٥٨) حلية الاولياء ٩ : ٢٤٩ .

حُبّ المحبين في الدنيا بأن لهم مع ربهم سبباً يندني الى سبب قوم جومهم في الأرض سارية نعم . وأرواحهم تختال في الحُجُب لهفي على خلوة منه تُسدني اذا تضرعت بالاشفاق والرغب يارب يارب أنت الله معتمدي متى أراك جهاراً غير مُحتجب

ان سبيل الرؤيا عند ذي النون هو الخلوة والذكر الممتزج بالحُب . ورؤية الله تتم بالقلب عن طريق الحُب . والرؤيا القلبية هذه لاتتعدى القرب من الله والانس به ؛ لأنه تعالى عن ان يحيط به شيء او أن يحد بأمد او مقدار . وان تراه عين او يبلغه وهم . لانه تعالى عن الاشياء . (٨٥٩)

ومن رواد المتصوفة في العراق الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣) . ويعد كتاباه « الرعاية لحقوق الله » و « التوهم » من أهم الكتب التي تناولت الاخلاق وتطهير النفس . (٨٦٠) ويأتي بعد المحاسبي السري السقطي (ن ٢٥١) شيخ المتصوفة في بغداد وامامهم في وقته . وقد عرف بالمبالغة في رياضة النفس ومجاهدتها . وهو القائل : « من خاف الله خافه كل شيء » . (٨٦١) . وسئل : كيف أنت ؟ فأنشأ يقول : (٨٦٢)

من لم يبت والحُب حشو فؤاده لم يدر كيف تفتت الاكباد
واشتهر من المتصوفة يحيى بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨) وهو اول من حاضر الناس في التصوف . (٨٦٣) ومن أقواله : « من أشخص بقلبه الى الله انفتحت ينابع الحكمة من قلبه وجرت على لسانه » (٨٦٤) . وقال في الحب : (٨٦٥)

نفس المحب الى الحبيب تطلّع وفؤاده من حبه يتقطع
عز الحبيب اذا خلا في ليله بحبيبه يشكو اليه ويضغ
ويقوم في المحراب يشكو بثه والقلب منه الى المحبة ينزع

(٨٥٩) حلية الاولياء ٩ ، ٢٨٨ ، وينظر : الشعر الصوفي ص ٦٦

(٨٦٠) طبع الأول بتحقيق عبدالحليم محمود ، وطه عبدالباقى سرور ، نشرته دار الكتب
العديشة بالقاهرة ومكتبة المثني ببغداد . وحقق الثاني آرثر اربري وطبع في القاهرة

سنة ١٩٣٧ .

(٨٦١) طبقات الصوفية ص ٣٠

(٨٦٢) حلية الاولياء ١ ، ١١٩

(٨٦٣) في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢٠

(٨٦٤) حلية الاولياء ١٠ ، ٥٢

(٨٦٥) نفسه ١٠ ، ٦١

وعرف ابو حمزة محمد بن ابراهيم البغدادي (ت ٢٨٩) بالتصوف. قال عنه الخطيب البغدادي : « كان أستاذ البغداديين . وأول من تكلم ببغداد في صفاء الذكر . وجمع الهمة . والمحبة . والشوق . والانس . لم يسبقه الى الكلام بهذا على رؤوس الناس ببغداد أحد » . (٨١٦) وقد ظهرت البواكير الاولى للنزوع نحو الاتحاد في شعره . سئل مرة : أيفزع الحب الى شيء سوى محبوبه ؟ فقال : لا . انه بلاء دائم . وسرور منقطع . وأوجاع متصلة . لا يعرفها الا من باشرها . وأنشد

يلاقى الملقى شجوه دون غيره وكل بلاء عند لاقيه أوجع (٨١٧)

وأخذت معالم التصوف ومبادئه تتضح يوما بعد آخر . وازداد عدد المتصوفة وكثر مريدوهم . منهم : أبو الحسن لنوري (ب ٢٩٥) . والجنيد البغدادي (ت ٢٩٧) . وسحنون الخواص (ت ٣٠٣) . وأبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩) . وأبو علي الروذباري (ت ٣٢٢) . وأبو بكر الشبلي (ت ٣٣٤) ...

كان الحلاج مثالا للمتصوف المثقف الذي يرى ان درجة القداسة لا يتم احرازها الا بتجرع غصص الآلام وأن العلاقة الحقيقية بين الله والانسان هي علاقة الحب ليس غير . ومن اجل الحب خلق الله الانسان على صورته . وبناء على ذلك يمكن لهذا المخلوق ان يجد في نفسه حقيقة الصورة الالهية التي طبعها الله فيه . اذا هو نقى نفسه ووطهرها . وبلغ بها أقصى درجات المعاناة من حب الله . (٨١٨) وكان يرى أن في العالم جاذبية فطرية تحرك المخلوق للمقاء الخالق . وتحرك الخالق لحب المخلوق . باعتبارها جوهر الحركة في هذا الكون . (٨١٩) وقد قتل مصلوبا بسبب ارائه التي أنكرها علماء الشريعة ولم يجيزوها ولا سيما مسألة اعتقاده في الحلول والاتحاد . (٨٢٠) . مثل قوله : (٨٢١)

أنا من أهوى . ومن أهوى أنا
نحن . مذ كنا على عهد الهوى
فاذا ابصرتني ابصرته
نحن روحان حللنا بدنا
تضرب الأمثال لئلا بنا
واذا ابصرته ابصرتنا

(٨١٦) تاريخ بغداد ١ ، ٢٩٢ .

(٨١٧) تاريخ بغداد ١ ، ٢٩٢ .

(٨١٨) الضمير الصوفي ص ٨١ .

(٨١٩) الحلاج موضوعا ص ١٨ .

(٨٢٠) ينظر كتابه الطوايسين ص ١٢٩ - ١٣٠ . وينظر تاريخ متصوفة بغداد ٧٠ - ٧٩ .

(٨٢١) ديوان الحلاج ص ٥٥ .

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ قِصَّتِنَا : لو ترانا لم تُفَرِّقَ بَيْنَنَا
رُوحَهُ رُوحِي . وَرُوحِي رُوحَهُ مِنْ رَأَى رُوحِينَ حَلَّتْ بَدْنَا ؟!

وكان أبو بكر الشبلي زميل العلاج وصديقه وقرينه في ميدان المجاهدة
والرياضة والسلوك . وها هو ذا يلتقي معه في مقطوعة متنازعة بينهما . وهي : (٨٧٢)

يا موضع الناظر من ناظري ويا مكان السر من خاطري
يا جملة الكل التي كلها أحب من بعضي ومن سائري
ترك ترثي للذي قلبه معلق في مخلبي طائر ؟
موله حيران مستوحش ينهرب من قفر الى قفر
يسري وما يدري وأرارة تسري كلمح البارق النائر
كبرعة الوهم لمن وهمه على دقيق الغامض السابِر
في ليج بحر الفكر تجري به لطائف من قدرة القادر

ان تشدد رجال الدين لم يقصر على الحركة الصوفية . بل بقيت رائجة عند
طائفة من الناس . وظهرت كتب كثيرة في عقائدهم وافكارهم واخبارهم . مثل كتاب
« اللع » للسراج الطوسي (ت ٣٧٨) . وكتاب « التعرف لمذهب اهل التصوف »
للكلاباذي (ت ٣٨٠) . وكتاب « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦) .
وكتاب « حلية الاولياء » لابي نعيم الاصبهاني (ت ٤٣٠) ...

ان عاطفة الحب ولواعج الشوق والهيام بارزة بشكل واضح في أغلب الشعر
الصوفي . وكانت المرأة عند المتصوفة رمزاً موحياً دالاً على الحب الالهي . ذلك الحب
الذي انكره علماء الشريعة . لأنه في رأيهم يقتضي تشبيه الله بخلقه . وقد اشتهر به
الكثيرون امثال ابي الحسن النوري . وأبي منصور الحلاج . وابي العباس احمد بن
سهل بن عطاء (ت ٣٠٩) . وابي علي الروذباري . واحمد بن محمد بن موسى
المشهور بابن العريف (ت ٥٣٧) . وابي علي التلمساني (ت ٥٩٤) . وشهاب
الدين يحيى بن حبش السهروردي الملقب بالشيخ المقتول (ت ٥٨٧) . وقد عبر هذا
الاخير بشعر حافل بالتلويحات والرموز الغزلية عن نظرية « الاشراق » التي تذهب
الى « ان الله نور الأنوار . ومصدر جميع الكائنات . فمن نوره خرجت أنوار أخرى

هي عماد العالم المادي والروحي . والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار .
تحرك الأفلاك وتشرف عليها « (٨٧٢) ولعل قصيدته الحائية التي تداولها الصوفيون في
أروقتهم من اجمل شعره الذي عبر به عن شوقه وحنينه وحالات وجدته وهو اجس
نفسه . منها قوله : (٨٧٤)

أبدأ تحنُّ السِّكَمِ الأرواحِ ووصالكم ريبانها والراخ
وقلوبُ أهلِ وداكم تشتاكنم والى لذيد لقتائكم ترتاخ
وارحمننا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة . والهوى فضاخ
بالرُّ ان باحوا تبأخ دماؤهم وكذا دماء العاشقين تبأخ
وإذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع الحاج (٨٧٥)
وبدت شواهد للسقام عليهم فيها لمشكل أمرهم ايضاخ
خفض الجناح لكم . وليس عليكم للصب في خفض الجناح جناخ (٨٧٦)
فالى لقاكم نفسه مشتاقه والى رضاكم طرفه طماخ (٨٧٧)
عودوا بنور الوصل في غسق الجفا فالهجر ليل والوصل صباح

وقد تطور شعر الحب الالهي وبلغ الذروة في النضوج والازدهار في مطلع القرن
السابع للهجرة . وزعيمه في الأدب العربي أبو حفص عمر بن الفارض (ت ٦٣٢)
الذي سندر شعره بالتفصيل في ترجمته . وكذلك اشتهر محيي الدين بن عربي
(ت ٦٣٨) بالشعر المليء بشوق المتصوفة وحنينهم وغرامهم ووجدهم . مثل
قوله : (٨٧٨)

سلامٌ على سلمى ومن حل بالجمى وحقٌ لثلي . رقة أن يسلماً
وماذا علسيها ان ترد تحية علينا . ولكن لا احتكام على الدمى
سروا وظلام الليل أرخى سدوله فقلت لها صباً غريباً متيماً
احاطت به الاشواق صوناً وأرصدت له راشقات النبل أيان مما

(٨٧٢) هياكل النور ص ٢٨ . ٢٩ . ٣٢ .

(٨٧٤) معجم الادباء ٧ . ٢٨٠

(٨٧٥) في رواية اخرى ، السفاح

(٨٧٦) الجناح ، بضم الجيم ، الائم

(٨٧٧) في رواية اخرى ، مرتاحة بدلاً من مشتاقه

(٨٧٨) ترجمان الاشواق ص ٢٥ .

فأبدت . ثناياها . وأومضَ بَارِقُ فلم أدر من شقَّ الحنادسَ منهما
وقالت : أما يكفيه أني بقلبه يشاهدني في كلِّ وقتٍ أما أما ؟

لقد عبر المتصوفة عن مواجدهم واحوالهم بشعر يفيض بالفاظ المحبين
وتعابيرهم . وقد أشار محيي الدين بن عربي الى هذا الامر . فقال في مقدمة كتابه
ترجمان الاشواق : « لما نزلت مكة سنة خمس مئة وثمان وتسعين ... استخرتُ الله
تعالى تقييد هذه الاوراق . وشرحتُ ما نظمته بمكة المشرفة من الابيات الغزلية في
حال اعتماري في رجب وشعبان ورمضان أشير بها الى معارف ربانية . وأنوار الهية .
وأسرار روحانية . وعلوم عقلية . وتشبيهات شرعية . وجعلت العبارة عن ذلك بلسان
الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبرات فتتوفر الدواعي على الاصغاء اليها .
وهو لسان كل اديب ظريف . وروحاني لطيف » (٨٧٩)

وتجدر الاشارة الى أن الخمرة عند المتصوفة كانت من رموز الوجد الصوفي
والحب الالهي . وقد وصلت اليها نماذج خميرية كثيرة . نقرأ منها أبيات ابي مدين
التلمساني (ت ٥١٤) من قصيدة طويلة : (٨٨٠)

أدركها لنا صرفاً ودغ مزجها عنا
وغن لنا فالوقت قد طاب باسمها
عرفنا بها كل الوجود ولم نزل
هي الخمر لم تعرف بكرم يخصها
مشعشة يكسو الوجوه جمالها
حضرنا فغبنا عند دور كووسها
وأبدت لنا في كل شيء اشارة
ولم تطوق الأفهام تعبير كنهها
نصحتك لاتقصد سوى باب حانها
موانعنا منا حظوظ نفوسنا
تجلت دُتواً واختفت بمظاهرها
وما الكون إلا مظهر لجمالها

فحن أناس لا نرى المزج مذ كنا
لأنا اليها قد رحلنا بها عنا
الى أن بها كل المعارف أنكرنا
ولم يجلبها راح ولم تعرف الذنا
وفي كل شيء من لطافتها معنى
وعدنا كأنا لاحضرننا ولا غبنا
وما احتجبت إلا بأنفسنا عنا
ولكنها لاذت باللطافها الحسنى
فمن وجد الأعلى فلا يطلب الأدنى
فإن قطعت عنا اليها توصلنا
وجلت فما أغنى ودقت فما أسنى
ارتنا به في كل شيء بدا حنا

أن هذه الخمرة التي انتشى بها ليست الخمرة المعصورة من كرم العنب التي تصرع الالباب . بل هي الخمرة الالهية التي تساعده في رؤية نور الحق .

كان المتصوفة يؤثرون الإشارة على العبارة . ويعمدون الى التلميح دون التصريح . سترأ لحقائقهم . وكنماً لأسرارهم . وغيره على هذه الحقائق : (٨١١) لذلك لا يمكن فهم الفاظهم ومصطلحاتهم التي لها مدلولات خاصة إلا بالرجوع الى كتب التصوف مثل الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥) . واصطلاحات الصوفية لمحبي الدين بن عربي . واصطلاحات الصوفية لعبدالرزاق بن جمال الدين الكاشي (ت ٧٣٠) ...

وأخيراً لابد من الإشارة الى أن فريقاً من المتصوفة انحرفوا عن طريق الصواب . ودخلت الاوهام والخرافات والاساطير بينهم . وقد انبرى كثير من العلماء بالرد عليهم واظهار اخطائهم وتفنيده اقوالهم وبيان بدعهم . منهم الامام الغزالي (ت ٥٠٥) وابو الفرج عبدالرحمن بن ابي الحسن علي المشهور بابن الجوزي (ت ٥٩٧) . وكان ابو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الانباري (ت ٥٧٧) يميل الى التصوف وينبذ الخرافات والشعوذات . ومن جميل شعره في هذا المجال قوله : (٨٢٢)

دَعِ الْفَوَازَ بما فيه من الخُرْقِ ليس التصوف بالتلبيس والخرق
بل التصوف صفو القلب من كدر ورؤية الصفو فيه أعظم الخرق
وصبر نفس على أدنى مطامعها وعن مطامعها في الخلق بالخلق
وترك دعوى بمعنى فيه حقه فكيف دعوى بلا معنى ولا خلق

(٨١١) ينظر : السهرودي ص ٤٩ . وبحث الدكتور محمد مصطفى حلمي (كنوز في رموز)

المنثور في الكتاب التذكري ، محيي الدين بن عربي في الذكرى المثوية الثامنة لميلاده

ص ٢٧ - ٦٦ .

(٨٢٢) أنباء الرواة ٤ : ٦٧١ .

م / ١٥ / الادب العربي

الشعراء :

ابو الطيب المتنبي

٢٠٢ - ٢٥٤ هـ

لم يحظ شاعر من شعراء العرب بالاهتمام والدراسة قديماً وحديثاً بقدر ما حظي به ابو الطيب المتنبي . ولعل شهرته في مملكة الشعر جاءت من جودة نظمه الذي يسحر القاريء ويجعله متقاداً له في رضى واعجاب . يُضاف الى ذلك « أنه ينطق عن خواطر الناس » كما قال القاضي الفاضل (٨٣٢)

سيرته :

أبو الطيب احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي الكندي الكوفي . أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي (٨٣١) وجعفي الذي ينسب اليه هو جعفي بن سعد المشيرة من مُذبح من كهلان من قحطان . فهو من أصل عربي قحطاني . خالص النسب أباً وأماً .

فتح ابو الطيب عينيه على الدنيا سنة ٢٠٢ للهجرة في حى . كندة بالكوفة . وهو حى نزله المهاجرون من العرب الذين نرحوا ايام الفتح الى هذه البقاع . وهم من أصل يمانى فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الاولى للذكرى والحنين (٨٣٣) وظن من لاثحيح اعنده أن المتنبي من قبيلة كندة . وفي شعره ذكريات في هذا الحى وكان مفارقاً له . قال يحن اليه :

أُنسِي السُّكُونُ وَحَضْرَمُوتَا ووالدتي وكندة والسَّيِّمَا (٨٣٦)

كان المتنبي فقير المنشأ . قيل ان أباه كان يسمى عيداناً . وكان سقاء بالكوفة يستقي على بعير له . وفقد هذا الأب المعين على بؤس الحياة . ولا نعرف شيئاً عن والدته . ولعلها ماتت في حدائته . ولكن جدته لأمه وهي عربية همدانية كانت من النساء الصالحات سهرت على تربيته وتنشئته والاحتفاء به .

(٨٣٢) الوهم المرقوم ص ٥٧

(٨٣٤) وفيات الاعيان ١٢٠٠١

(٨٣٥) المتنبي للدكتور زكي المحاسني ص ٢٢

(٨٣٦) شرح ديوان المتنبي ١١ ، ١٢٢ . والاسماء المذكورة في البيت هي أماكن في الكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا يكتنونها

شارك المتنبي في الرثاء بمجموعة قصائد . ولعل من أجلها وأكثرها إثارة مرثيتين . أولاهما في جدته التي غُيّت بتربيته . وأظلمته بعطفها وحنانها . بعد وفاة أمه وهو حدث صغير . والثانية في خولة المعروفة بست الناس أخت سيف الدولة لما كانت عليه من صفات حميدة . ولما لها من فضل وإحسان مع أهلها على المتنبي مدة إقامته بحلب . لقد رثاها وفاة ، لأنها كانت تمثل الفتاة العربية الأصيلة المعروفة بكرمها ونبلها وإبائها . بخلاف من ذهب الى انه كان يحبها ويعشقها . (١٩٣) .

كان المتنبي يحب جدته وهي تحبه . وحينما فارقتها تألمت وجزعت وكادت أن تياس بعد طول الفية . فكتب اليها كتاباً فرحت به وأكبت على تقيله حتى أصابتها الحمى من فرط السرور فماتت . وكان لهذه العادة أثر كبير في نفسه . دفعته الى نظم قصيدة تطفح بالحزن والأسى على فقيدته . منها قوله (١٩٣) :

لك الله من مفعوعة بحبيبها قتيبة شوق غير ملجفها وضما
أحن إلى الكأس التي شربت بها وأهوى لمشاها التراب وما ضما
بكيث عليها خيفة في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
أناها كتابي بعد ياس وترجة فماتت سروراً بي فمت بها غمًا
حرام على قلبي السرور فأنني أغد الذي ماتت به بعدها سفا

أما قصيدته في خولة فهي تعبر عن عاطفة صادقة . وحزن عميق . وألم شديد . وقد استهلها بمطلع رائع وجميل هو أقرب الى المديح منه الى الرثاء (١٩٣) :

يا أخت خير أخت يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

وفي القصيدة بيتان يُستشهد بهما كثيراً في مواقف الحزن حتى سارا سير الأمثال في حياة المتنبي نفسه كما يقول الدكتور طه حسين (١٩٢) .

(١٩٢) انظر اسماء هؤلاء الباحثين في كتاب : الفهر في رحاب سيف الدولة الصديقي ص ٧٣ ، ٧٤ .

(١٩٣) شرح ديوان المتنبي ١٢ ، ٣٦٤ .

(١٩٣) نفسه ١١ ، ٦٢ .

(١٩٤) مع المتنبي ص ٢١٢ .

طوى الجزيرة حتى جاءني . خبرٌ فرغت فيه بأمالي الى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقةً أملاً شرقت بالذم حتى كاد يشرق بي

وتراه يعزى سيف الدولة ويسميه « فتى الفتيان » بفقيدته الغالية التي كانت فخر
الفتيات الماجدات . فهي من اللواتي يطلبن المجد والعلى والسؤدد بخلاف اللواتي
ينشدن اللذة واللهو واللعب :

أرى العراق طويل الليل منذ نعتي فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصد والأدب
وهي في العلى والمجد ناشئة وهم أترابها في اللهو واللعب
وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب

وتجدر الإشارة الى أن المتنبي رثى أخت سيف الدولة الصغرى قبل وفاة خولة
بثمانية أعوام بقصيدة مطلعها (٩٢٥) :

إن يكن صبرٌ ذي الرزية فضلاً تكن الأفضل الأعز الأجلأ
وضمن هذه المرثاة . كائن مراثيه الأخرى . نظرات ثاقبة وخطرات قيمة مثل
قوله :

الهُ العيش صحّة وشباب فإذا وألينا عن المرمء ولئى
أبدأ تسترد ما تهب الدن يا . فيا ليت جودها كان بخلا

غزله :

انصرف المتنبي منذ مطلع شبابه الى طلب المجد والعلى . والانشغال بمشكلات
قومه الذين عاشوا تحت وطأة الظلم والقهر . ولم يلتفت الى الغانيات ولم يحفل
بمعاشرتهن والتغزل بهن . وقد وضّح السبب بنفسه فقال (٩٣٧) :

(٩٢٥) شرح ديوان المتنبي ٩٦١٢ .

(٩٢٦) نفسه ٢٧١٠١ .

لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها وحناء خرف ولا جرداك قيود (١٣٧)
 وكان أطيّب من سيفي معانقة أشباه رونقه الغيد الأمايد (١٣٨)
 لم يترك الدهر من قلبي ولا كيدي شيئاً تميمه عين ولا جيد

ومع ذلك نجد له غزلاً رقيقاً شفافاً . ولا سيما في مطالع قصائده . وقد ذهب بعض الباحثين - كما ذكرنا سابقاً - الى أنه كان يحب خولة أخت سيف الدولة . وهو في تقديرنا ظن لا يستند الى دليل ثابت ومقنع . ولعل قدرته الفائقة في التحدّث بلغة العشق والغرام هو الذي دفع هؤلاء الباحثين الى القول بأنه كان محباً عاشقاً . مثل قوله في صباه في مطلع قصيدة يمدح بها أبا المنتصر شجاع بن محمد الأزدي (١٣٩) :

أرق على أرق ومثلي يارق وجوى يزيد وعبرة تترقرق
 جهد الضباية أن تكون كما أرى عين مسهدة وقلب يخفق
 ما لاح برق أو ترثم طائر إلا انثنيت ولي فؤاد شيق
 جربت من نار الهوى ما تنظفي نار الغضى وتكل عما تحرق
 وعدلت أهل العشق حتى ذقتهم فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وكان ذوق المتنبي بدوياً . يميل الى الجمال البدوي الطبيعي البعيد عن البهرجة والافتعال والزينة المصطنعة الممقوتة . مثل قوله (١٤٠) :

ما أوجه الخضر المستحسنة به كأوجه البدويات الرعايب (١٤١)
 حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب (١٤٢)

(١٣٧) الوجناء ، النالة الصلبة الشديدة . الحرف . الضامرة . الجرداء ، الفرس القصيرة الفهر . القيود ، الطويلة الصنق .

(١٣٨) الفيد : جمع فيداء ، وهي المتفنية لينا ، الأمايد ، الناعسات المستويات التامات . يقول : لولا طلب العلى لم اختر معانقة السيف وأعدل عن النساء الحسان اللواتي يهجن رونقه في بياض البصرة .

(١٣٩) شرح ديوان المتنبي ، ١ ، ٤٧٧ .

(١٤٠) نفسه ، ١ ، ١١٦ .

(١٤١) الرعايب : جمع رهوبة ، وهي المرأة الطويلة الممتلئة .

(١٤٢) يقول : ان حسن أهل الحضارة متكلف مجلوب بالعبيلة والعلاج ، أما حسن البدويات فهو خلقة ، لا يعرفن التكلف والحسن المجلوب بالاحتياج .

لم يكن أبو الطيب المتنبي مكثراً في الوصف . وقد جاء به في مطالع القصائد أو في ثناياها ؛ فإنه وصف نفسه في تعاليها وشموخها وطموحها . ووصف أخلاق الناس وطبائعهم . وبعض مظاهر الطبيعة . والوقائع والحروب التي شاهدها مع سيف الدولة ...

إنَّ حظ الطبيعة قليل في شعره . مع إنه عاش في أجواء جميلة . فله أبيات في وصف بحيرة طبرية ذات الماء الهاديء والغور الدافئ(١١٣) . وكذلك وصف شعب بؤان الذي يقع في أحضان الطبيعة الساحرة . فها هو ذا يصف تساقط قطرات الندى من أغصان الأشجار على اعراف الخيل وهو سائر في هذا الشعب وكأنها حَبَاتُ جمانٍ بديدة . وظلال هذه الأشجار دنية حرُّ الشمس ما خلا أقباس من الضياء تطالعه كالذنانير ولكنها لا تَمسُكُ باليد . ويُسحره منظر الثمار المتدلية الجنية وصوت المياه المناسبة على الحصى الذي يشبه صوت الحلبي في معاصم الحان(١١٤) :

غدونا تنفض الأغصان فيها	على أعرافها مثل الجمان
فَسِرْتُ وقد حجبَ الشمس عني	وجئت من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي	دنانيراً تَقَرُّ مِنَ المِنَانِ
لها ثمرٌ تُشِيرُ اليك منها	بأشربة وقف من بلا أوان
وأموءة تصيلُ بها حصاها	صليل الحلبي في أيدي الغواني

ومن بارع وصفه الذي تناقلته الكتب الأدبية وصف الحمى التي شبهها بالفتاة الحناء التي لا تخلف مواعيد زيارتها في الليل(١١٥) :

وزائرتني كأنَّ بها حياة	فليس تزور إلا في السّلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فعاقتها وباتت في عظامي
كأنَّ الصبح يطردُها فتجري	مدامغنها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق	مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شرُّ	إذا ألقاك في الكرب العظيم

(١١٣) ينظر شرح ديوان المتنبي ١٢ ، ٣٣٦ .

(١١٤) شرح ديوان المتنبي ١٢ ، ٤٨٢ .

(١١٥) شرح ديوان المتنبي ١٢ ، ٤٠٠ .

اما الوقائع والحروب فكان بارعاً في وصفها . مجيداً في تصويرها ونقلها
للقاريء (١٩١) . مثل قوله في وصف الفرسان الشجعان الذين تراهم قليلين في عددهم .
كثيرين عند لقاء الأعداء : (١٩٢) :

سأطلبُ حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طولٍ ما التثماومزُد
ثقال إذا لا قوا خفاف إذا دُعوا كثير إذا ثدوا قليل إذا عُدوا
وانظر الى هذا الجو الرائع الذي أبدع المتنبي في تصويره في لوحة كاملة تشغل
العين والسمع والنفس (١٩٣) :

اتوك يجرؤون الحديد كأنهم سراً بجيادٍ ما لهن قوائم
إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم
خمس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم
فخره :

كان المتنبي معتداً بنفسه . فخوراً . لا يظأطيء رأسه لأحد مهما كانت
منزلته . ويلاحظ القاريء بوضوح هذه الظاهرة في شعره . ولا سيما في مديحه . كما
لا يقال انه سائل ذليل أو محروم هو أقل منهم قدراً . وقد ذهب أحد الباحثين الى
انه « كان ناقماً على الناس : لأنه يحب نفسه . ولذا كان يصور نفسه دائماً بصورة
المحسود المغبون . والناس من حوله حدة ظالمون . أقزام يقحمون أنفسهم في
مواكب العماقة (١٩٤) . . ولعل هذه النعمة - كما نرى - متأية نتيجة انتكاسه في
الحصول على مطالبه التي كان يسعى من أجلها ولم ينلها . إضافة الى أنه كان يرى
أناساً لا يضاهونه في شخصيته وعلمه ومؤهلاته قد أخذوا مواقع متميزة في الحياة لا
تليق بهم .

افتخر المتنبي بنفسه كثيراً مثل قوله (١٩٥)

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
إن أكن معجباً فمعجب عجب لم يجذ فوق نفسه من مزيد

(١٩٦) ينظر فصل «شعر العرب عند المتنبي» في كتاب شعر العرب في ادب العرب ص ٢٦٢-٢٨٩ .

(١٩٧) شرح ديوان المتنبي ، ١ ، ٢٢٢ .

(١٩٨) شرح ديوان المتنبي ، ٢ ، ٢٧٢ .

(١٩٩) الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ١٤٢ .

(٢٠٠) شرح ديوان المتنبي ، ١ ، ٢٠٨ .

واقترح بعلو همته ورفعته مكانته (١٥١) :

اذا غامرت في شرفِ مروم فطعم الموت في امرٍ صغير
فلا تقنع بما دون النجوم كطعم الموت في امرٍ عظيم
وتباهي بعلمه وادبه (١٥٢) :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي انام ملء جفوني عن شواردها
واسمعت كلماتي من به صم ويسهر الخلق جزاها ويختصم
واشاد بقوته وجلادته وكثرة صبره (١٥٣) :

اطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت الأ وفي نفسها أمر
تمرت بالآفات حتى تركتها تقول امات الموت ام دعر الدعر

لقد كثر زهو . واسرف في التحدث عن نفسه . واشتد غروره وتعاليه وشعوره
بالعظمة والقوة . حتى انه قال مخاطباً سيف الدولة (١٥٤) :

وما انا إلا سمهري حملته فزيّن معروضاً وراع مسدداً
وما الدهر الأ من رواة فلاندي اذا قلت شعراً اصبح الدهر مُشداً
فساربه من لايسير مشمراً وغنى به من لايعني مغزداً

أجزني اذا أنشدت شعراً فأنما بشعري اتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فاني انا الصائح المكحي والآخر الصدى

حكيمه :

عاصر المتنبي فترة عصيبة من حياة امتنا في النصف الاول من القرن الرابع
للهجرة . وقد اكتسب تجربة طويلة من مشاهدته للناس وتأمله في الاحداث .
وكانت حيلة تلك التجربة . الى جانب ثقافته العميقة . حكماً بليغة سارت على
الالسة حتى قيل : « ما لجمع اثنان يتحدثان الا كان المتنبي ثالثهما » .

(١٥١) شرح ديوان المتنبي ٣٧٨ ، ٢

(١٥٢) نفسه ٢٦٠ ، ٢

(١٥٣) نفسه ٢٥٢ ، ١

(١٥٤) نفسه ١٩٢ ، ١

جاءت حكمه ضمن القصائد متلاحمة مع معانيها . لا يحسُّ القارئُ بأنها غريبة
او دخيلة . بل يراها ركائز جيدة تدعم معانيه وافكاره . واليك من ابياته التي
اجراها مجرى الامثال في الحكم والاخلاق والتربية : (١٠٠)

أعزُّ مكانٍ في الدُّنْيِ سرُّجٌ سابعٌ وخيرٌ جليسٌ في الزَّمانِ كتابٌ
وقوله :

وكلُّ امرئٍ يُؤلي الجميلَ محبَّبٌ وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزَّ طيبٌ
وقوله :

اذا انتَ اكرمتَ الكريمَ ملكتهُ وان انتَ اكرمتَ اللئيمَ تمرداً
وقوله :

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍ مريضٍ يـجـدُ مُراً به الماءُ الزُّلالاً
وقوله :

خيليك انتَ لامنٌ قلتَ خَلِيٌّ وان كثرَ التجمُّلُ والكلامُ
وقوله :

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الهوانُ عليه مالجرحُ بميتِ ايلامٍ
ومن انصاف الابيات قوله (١٠٦) :

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ
اذا عَظَمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المَسَاعِدُ
أنا الغريقُ فما خوفي من البَلِّ
ليس التَّكْخُلُ في العَيْنينِ كالتَّكْخُلِ

وتجدر الاشارة الى ان المتنبي لم يكن فيلسوفاً . وانما له نظرات عميقة وحكيمة
نظمها في اسلاك متينة وجذابة . اما ماذهب اليه ابو علي محمد بن الحسن
العاتمي ان حكمه كلها مقتبسة من ارسطو . فاننا لاننكر تأثره بهذا الفيلسوف في
حكمه التي تسربت الى اللغة العربية عن طريق الترجمة . ولكننا لانستطيع ان
نُجردَ الحكمَ كلها منه . فهو لبيبٌ فطنٌ . له تجاربه الخاصة . وقد تَلتقي مجموعةً
من هذه التجارب مع تجارب الاخرين .

(٩٥٥) ينظر شرح ديوان المتنبي ١ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٩١ ، ٢ ، ١٦٢ ، ٣٤٠ ، ٣٥٧ .

(٩٥٦) ينظر شرح ديوان المتنبي ١ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢ ، ٦٥ ، ٧٢ .

يعدُّ ابو الطيب المتنبي من فحول الشعراء ، وفرسان البيان ، الذين انجبتهم الامة العربية . شغل الباحثين والنقاد في عصره وبعده . وصدق ابن رشيق في قوله : « ملأ الدنيا ، وشغل الناس (١٥٧) » . ولا عجب حين قال المتنبي (١٥٨) :

وتركك في الدنيا دويئاً كأنما تداول سمع المرء انملأه العشرُ

انه حقاً ترك دويئاً ، وخلق ضجةً ، واكبر شاهد على ذلك وفرة شروح ديوانه . وكثرة الدراسات والبحوث التي كتبت في سيرته وشعره بين مادح وقادح . وحسبنا قول ابي منصور الثعالبي : « ليس اليوم مجالس الدرس . اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس . ولا اقلام كتاب الرسائل . اجرى به من السن الخطباء في المحافل . ولا لحن المغنين والقوالين . اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد الفت الكتب في تفسيره . وحلُّ مشكلة وعويصه . وكُتِرَت الدفاتر على ذكر جيدة وردية . وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه . والافصح عن ابحار كلامه وعونه (١٥٩) . وتفرقوا فرقاً في مدحه والقُدْح فيه والنضح (١٦٠) عنه . والتعصب له وعليه . وذلك اول دليل دل على وفور فضله . وتقدم قدمه . وتفردته عن اهل زمانه . بملك رقب القسوافي . ورق المعاني . فالكامل من عدت سقطاته . والسعيد من حسيبت هفواته . وما زالت الاملاك تهجى وتمدح (١٦١) » .

كان المتنبي ذكياً فطناً ذا ثقافة عالية . استطاع ان يجمع في شعره بين الصنعة والطبع . وان يوفق بين الاحساس والخيال . وان يوائم بين العلم والتجربة . ويلائم في اغلب شعره بين المطلع والتخلص والخاتمة . ومن اظهر مزايا شعره الشرح والتوليد . والميل الى الاسلوب الخطابي . والمبالغة التي تخرج احياناً الى المستحيلات . قال ابن رشيق القيرواني : « فاذا صرت الى ابي الطيب صرت الى اكثر الناس غلواً . وابعدهن فيه همة . حتى لو قدر ماأخلى منه بيتاً واحداً . وحتى تبلغ به الحال الى ما هو عنه غنى . وله في غيره مندوحة . كقوله :

(١٥٧) العمدة ١ ، ١٠٠

(١٥٨) شرح ديوان المتنبي ١ ، ٢٥٢

(١٥٩) النون ، المتزوجات من النساء

(١٦٠) النضح عنه ، اراد الدفاع عنه

(١٦١) يتيمة الدهر ، ١ ، ١٢٧ .

(١٦٢) ينظر ، ثقافة المتنبي والرها في شعره ص ٥٥ - ٢٦٧

يترشفتن من فمي رشقاتٍ هن في احلى من التوحيد

وان كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيد غاية المثل في الحلوة بفيه .
وقوله :

اذا قلته لم يمتنع من وصوله جداراً معلّى او خباءً مطنّب

فما وجه الخباء المنطب بعد الجدار المنيف ؟ بينا هو في الثريا صار في الشرى !
وانما اراد الحاضرة والبادية (١٩٣) .

ومن مميزات شعره التماسك الشديد ، والترابط الوثيق ، وتسلسل الافكار
وتناسقها وتأييدها بالحجج المنطقية والبراهين العقلية . مثل قوله معاتباً سيف
الدولة ، (١٩١)

يا عدل الناس الآ في معاملتي فيك الخصام وانت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه وزم
وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم

ويلاحظ انه كان يميل احياناً الى التعقيد . واستخدام الالفاظ الغريبة ، والتصرف
في اللغة . واستعمال مصطلحات المنطق والفلسفة . واخذ معاني السابقين وصياغتها
باسلوبه الخاص (١٩٥) . واللعب بالالفاظ مثل قوله مخاطباً كافوراً الاخشيدي : (١٩٦)

جرى الخلف الآ فيك أنك واحد وأنك ليك والملوك ذئاب
وأنت أن قويست صحف قارئ ذئاباً ولم يخطي فقال ذباب

اما موسيقى شعره فكان رائعاً . وقد جاء ذلك من اختياره الجيد للاوزان
والقوافي وملاءمتها للالفاظ والمعاني . الى جانب استخدام بعض الالوان البديعية مثل
التصريح والجناس وحسن التقسيم ... فمن شواهد الجناس قوله (١٩٣) :

(١٩٢) الصدة ، ١٢ ، ١٢٠

(١٩٤) ينظر ديوان المتنبي ، ١٢ ، ٣٦٠

(١٩٥) ينظر الفصل الذي علقه الثعالبي بعنوان « صدر من سرقات المتنبي » في كتابه

يتيمة الدهر ، ١١ ، ١٤٨ - ١٥٤ . و « سرقات المتنبي » في كتاب الواسطة للجرجاني ص

٢١٦ - ٤١١ .

(١٩٦) شرح ديوان المتنبي ، ١ ، ١٣٩

(١٩٧) شرح ديوان المتنبي ، ١ ، ٤١٨

يُكَلِّفُ لَفْظَهَا الطَّيْرَ الْوَقُوعَا

مَنْعَةً مَمْنَعَةً رَوَّاحٍ

ومن سياق العدد قوله (٩٦٨) :

والسيف والرَّمْحُ والقِرطاسُ والقلمُ

فالخيل والليل والبيداء تعرفني

ابو فراس الحمداني

٣٢٠ - ٣٥٧ هـ

كانت مملكة الحمدانيين تمتد بين الموصل وحلب وديار بكر. ومن أقدّر رجالها أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان المشهور بسيف الدولة. اشتهر - إلى جانب انتصاراته الموهبة على الروم - بحب العلم والادب. قال الثعالبي: «لم يجتمع قطّ بيباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر (٩٩٩)». وذكر العزولي انه قد «اجتمع له مالم يجتمع لغيره من الملوك، كان خطيبه ابن نباته الفارقي، ومعلمه ابن خالويه، ومطربه الفارابي، وطباخه كشاجم، وخزان كتبه الخالدیان والصنوبري، ومُدّاحه المتنبّي واللامبي والأواء الدمشقي والبيغاء والنامي وابن نباته السعدي والصنوبري وغير ذلك (٩٧٠)». وقد ضمت الاسرة الحمدانية مجموعة من الشعراء المجيدين، وفي مقدمتهم الامير الفارس الشاعر الحارث بن سعيد بن حمدان المعروف بأبي فراس.

سيرته:

الحارث بن سعيد بن حمدان. غلبت عليه كنيته «أبو فراس». وهي كنية الاسد. حتى كاد لا يعرف الاّ بها. ولد في مدينة الموصل سنة ٣٢٠ للهجرة. ولم يحظ برعاية ابيه؛ لانه قُتل سنة ٣٢٣ للهجرة وكان والياً على الموصل من قبل الخليفة المقتدر. وتربى في بلاط ابن عمه سيف الدولة امير حلب تربيةً سالحة فيها علمٌ وأدبٌ وفروسيّة. وكانت امه الى جواره تنظر اليه بعطفها وحنانها.

عاش في بلاط الامارة بحلب معزراً مكرماً. يتلمذ على خيرة الاساتذة. ويتدرب على اساليب الفروسية وفنون القتال على يد فرسان مهرة «وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس. ويميزه بالاكرام على سائر قومه. ويصطنعه لنفسه. ويطحبه في غزواته. ويستخلفه على أعماله» (٩٧٠) وحينما اشتدّ ساعده وقوي عوده اتجهت نفسه وهو في السادسة عشرة من عمره الى التطلع للامارة.

(٩٩٩) يتيمية الدهر ١، ٢٧

(٩٧٠) مطالع الجذور ٢، ١٧٦

(٩٧١) يتيمية الدهر ١، ٤٨

فقلده سيف الدولة . بعد أن اطمأن الى قدرته في القيادة والادارة . منبج وحران
واعمالهما جميعاً . (٩٧٢) واخذ يمدح ابن عمه بعد هذا الأمر ويشيد بمآثره . مثل
قوله : (٩٧٣)

وَأَتَّبَعُ فِعْلَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَأَجْعَلُ فَضْلَهُ : أِبْدَأُ . أَمَامَا
وَقَدْ أَصْبَحْتُ مَنْتَسِباً إِلَيْهِ وَحَسْبِي أَنْ أَكُونَ لَهُ غِلَامَا
أَرَانِي كَيْفَ أَكْتَسَبَ الْمَعَالِي وَأَعْطَانِي . عَلَى الدُّهْرِ . الذَّمَامَا
وَرَبَّانِي فَفَقْتُ بِهِ الْبِرَايَا وَأَنْشَأْتَنِي فَمُعِدْتُ الْأَمَامَا
فَعَمْرَةَ الْإِلَهَ لَنَا طَوِيلَا وَزَادَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ دَوَامَا

تعددت مظاهر حياة أبي فراس بعد توليه الحكم . فنراه تارة يقارع البيزنطيين
ويذود الديار من هجماتهم . وتارة أخرى يلهو ويتصيد أو يجلس مع الادباء
ويحاورهم ويتناشد معهم الأشعار . ويروى أنه وقع في الأسر سنة ٣٥١ للهجرة في
إثناء خروجه للصيد . اذا التقى بآبن أخت ملك الروم الذي خرج في ألف فارس الى
نواحي منبج وكان ابو فراس مع سبعين فارساً فنشبت بينهما معركة غير متكافئة في
العدد والغدد . كانت الغلبة للخصوم . بعد ان أئخن ابو فراس الجراح فيهم . ثم
أسر (٩٧١) وقد أشار الى ذلك في أول قصيدة قالها في الأسر : (٩٧٠)

وَلَا كُنْتُ أَتَقَى الْأَلْفَ زَرْقًا عَيُونَهَا بِسَبْعِينَ فِيهِمْ كُلُّ أَشَامٍ أَنْكِدُ
يَقُولُونَ : جَنْبُ عَادَةٍ مَاعَرَفْتَهَا شَدِيدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يُعَوِّدُ
فَقُلْتُ : أَمَا وَاللَّهِ لَا قَالَ قَائِلٌ : شَهِدْتُ لَهُ فِي الْحَرْبِ الْأَمَّ مَشْهَدُ
وَلَكِنْ سَأَلِقَاهَا . فَمَا مَنِيَّةٌ هِيَ الظَّنَّ . أَوْ بِنْيَانَ عَزِ مَوْطِدُ

نقل بعد أسره الى سجن في « خرشنة » . وكانت جراحه تؤذيه . فكتب الى امه .
وهي ملاذه الاول . مايعاني من الام وأحزان : (٩٧١)

(٩٧٢) زبدة العلب ١١٩٠١

(٩٧٣) ديهواره ص ٢٦٧

(٩٧٤) ينظر نفوس المصاحرة ١١١٠١ . تجارب الامم ٢ : ١٩٣ . الكامل لابن الاثير ٧٠٥ . زبدة

العلب ١٣١٠١ .

(٩٧٥) ديهواره ص ٨٥ .

(٩٧٦) ديهواره ص ٢٣٢ .

مصابي جليل . والعزاء جميل وظني بأن الله سوف يُدبّل
جراح . تحاماها الأساءة . مخوفة وسقمان : بإدٍ منهما ودخيل
وأسر أفاسيه . وليلّ نجومه . أرى كلّ شيء . غيرهنّ . يزول
تطول بي الساعات . وهي قصيرة . وفي كـــــــلّ دهر لاسرك طول

ثقل عليه السجن . وبرّح به الشوق . وانحلّه الألم . ولاسيما بعد أن وضعوه في
مكان ضيق وألبسوه الثياب الخشنة . فكتب الى سيف الدولة قصيدة يبدو من كلماتها
أنه يعاتبه : (١٧٣)

اين المعالي . التي عرفت بها تقولها دائماً وتفعلها ؟
يا واسع الدار . كيف توسّعها ونحن في صخرة تزلزلها ؟
ياناعم الثوب . كيف تبدلته ثيابنا الصوف مانبدلها ؟
ياراكب الخيل . لو بضرت بنا نحمل أقيادنا وننقلها
رأيت في الضرّ اوجها كرمت فارق فيك الجمال اجملها
قد أثر الدهر في محاسنها تعرّفها تارة وتجهلها

وتمّ فداؤه بعد أربعة أعوام شداد . ولا نظنّ الابطاء في فك أسره كان يعود الى
تغيّر قلب سيف الدولة عليه كما ذهب بعض الباحثين . (١٧٤) . بل السبب أن الروم
كانوا يحتجزون عدداً كبيراً من اسرى المسلمين . ولم يكن بمقدور سيف الدولة أن
يفديهم جميعاً لضيق مايبده من مال . ولم يُردّ أن يفكّ أسر أبي فراس مع فئة
قليلة دون ذلك العدد الهائل وحينما توفر لديه المال الكافي سنة ٣٥٥ للهجرة تمت
الفداهة . (١٧٥) . وكان من بين الأسرى ابو فراس . ومحمد بن ناصر الدولة .
والقاضي ابو الهيثم عبدالرحمن بن القاضي ابي حصين .

عاد أبو فراس الى حلب ليعيش بين أهله وذويه . وقد عرف من كان معه ومن
كان عليه . . وشاءت الاقدار أن يتوفى سيف الدولة بعد سنة من هذه العودة أي في
اوائل سنة ٣٥٦ للهجرة . فأخذ ابو فراس يطالب بالامارة . فدخل حمص وأقام بها
يصرف امورها مما أوغر عليه صدر ابن اخته ابي المعالي بن سيف الدولة . فأوفد له
جيشاً حاصره حتى قتل قرب حمص سنة ٣٥٧ للهجرة .

(١٧٣) ديوانه ص ٢٤٢

(١٧٤) شاعر بنهي حمدان ص ٧٢

(١٧٥) نهار المعاصرة ١١ ، ٢٨١ ، وينظر الفهر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٨٤ ، واهو

فراس الحمداني للدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي ص ١١٤ .

شعره :

وصل الينا ديوانُ أبي فراسٍ وشرحهُ برواية معلمهِ أبي عبدالله الحسين بن خالويه . والقاريءُ في هذا الديوان يتنقّلُ بين الفخر والحماسة ، والمديح ، والثناء . والغزل ، والوصف ... وهو في أغلبها مُجيدٌ مبدعٌ . يجمع بين السهولة والجزالة والحلاوة .

كان لقومه مجداً عظيماً في المآثر الحميدة والسجايا النبيلة الى جانب شيم الفتوة والفروسية والنضال . وهم كما قال (٩٨٠) :

لئن خُلِقَ الأنام لحسٍ كأسٍ ومزمارٍ وطـنـنـجـورٍ .
فلم يُخْلَقْ بنوحـمـدان الآ لمجيدٍ أو لبأسٍ أو لجود

عاش في كنف ابن عمه الفارس المقدام سيف الدولة . وتعلم في شبابه فنون القتال وضروب المجادلة والمصاولة . وقد بالغ حين جعل تمائم الاطفال في قومه من الرماح والسيوف : (٩٨١)

ونحن أناسٌ . يعلم الله أننا اذا جمع الدهرُ الغشومُ شكائمه
اذا وُلِدَ المولود منا فانما ال أسنةٌ والبيضُ الرقاقُ تمائمه

ويكثر من الاقتخار بنفسه . ومكاته بين قومه . في قرى الضيوف . ومحاربة الاعداء . ضرباً بالسيوف : (٩٨٢)

سلي فتياتِ هذا الحيِّ عني
ألسنتُ أمدهمُ . لذوي . ظللاً
ألسنتُ أقرهم بالضيِّف عينا
متى ما يدنُ من أجلِ كتابي
وموتٌ في مسقام السعز أشهى
يقلنُ بما رأين وما سمعنا
ألسنتُ أعدهم . للقوم . جفنة
ألسنتُ أقرهم في الحرب لهنه (٩٨٣)
أمتٌ بين الأعنة والأسنة
الى الفرسان من عيشٍ بمهنة (٩٨٤)

(٩٨٠) ديوانه ص ٩٧

(٩٨١) ديوانه ص ٢٨٦

٩٨٢) ديوانه ص ٢٩٢

(٩٨٣) اللهنة : الطعام الذي يتحلل به قبل الفداء

(٩٨٤) المهنة : الامتحان والذل

ان شعره أشودة في الفتوة والفروسية والاقدام . ولا عجب حين ينعته ابن شرف
القيرواني بفارس الميدان وصاحب الضرب والطعان (١٨٠) . ويسميه الدكتور زكي
المحاسني شاعر الفرسان وفارس الشعراء . (١٨١)

ومما يلاحظ أن فخره في الغالب يأتي ممزوجاً بمديحه الذي خصّصه لقومه
وأقاربه . ولاسيما لأميره الهمام سيف الدولة الذي فاق الناس سياسةً ورياسةً وجوداً
وبطولةً وفروسيةً . مثل قوله : (١٨٢)

ولبي عند العُدّة بكلّ أرضٍ ديون في كسـفالات الرماح
إذا التفتت عليّ سراً قومي ولاقينا الفوارس في الصّباح
يخفُّ بها إلى الغمّرات طود من الأطوادِ ممتنع النواحي
أشدُّ الفارسيين وأن أبرّوا أخفُّ الفارسيين إلى الصّياح
لسيف الدولة البقدخ المعلى إذا استبق الملوّك إلى القداح
أسيف الدولة الحُكم المرجى أفى مدحي لقومي من جناح ؟

لقد اصبح الشعر عنده عنصراً من عناصر الفروسية أو عنصراً مكملاً لها . فلا غرابة
حين نجد لغة الحماسة تسري الى شعره في مواقف الحزن والاسى واللوعة . مثل قوله
في رثاء ابن عمه أبي وائل تغلب بن داود : (١٨٣)

ما أنا أبكيه . ولكنّما تبكيه أطراف القنا الذابلي
دان إلى نبل الندى والغلى ناء عن الفحشاء والباطلي
أرى المعالي . إذ قضى نجه تبكي بكاء الواله التاكل
الأشد الباسل . والعارض الـ هاطل عند الزمن الماحل
كان ابن عمي . ان عرا حادث كالسليث أو كالصّارم الصاقلي

ونجد لغة الفروسية أيضاً في غزله الذي شغل حيزاً بارزاً في ديوانه . فيها هو ذا
يجعل للهوى خيولاً مغيرة . وقتاً هي كتب الغرام . وسيوفاً هي رسائله ولواظمه .
وسهاماً هي الفاظه . ويصور مواقع الحب كثيرة القتلى دون ان يشهر سيف أو
يهتز رمح : (١٩٠)

(١٩٥) اعلام الكلام ص ٢٥

١٩٦١ شعر العرب في أدب العرب ص ٢٥٠

١٩٨٧ ديوانه ص ٦٨

١٩٨٨ ينظر ابو فراس الحمداني للدكتور النعمان القاضي ص ١٤٩

١٩٨٩ ديوانه ص ٢٠٦ .

١٩٩٠ ديوانه ص ٢١٥ . وينظر ابو فراس الحمداني للدكتور النعمان القاضي ص ٢٧٢ .

كَأَنَّ ابْنَةَ الْقَيْسِيَّ فِي أُخْوَاتِهَا
 وَهَبَتْ سُلُوبِي . ثُمَّ جِئْتُ أَرُومَةَ
 هَوَانًا غَرِيبًا شَرِبْتُ الْخَيْلَ وَالْقَنَا
 أَغْرَنْ عَلَى قَلْبِي بِخَيْلٍ مِنَ الْهَوَى
 بِأَسْمٍ لَفِظَ . لَمْ تَرْكَبْ نِصَالَهَا
 وَقَائِعُ قَتْلَى الْحَبِّ فِيهَا كَثِيرَةٌ
 أَرَامَيْتِي كُلَّ السَّنَاهِمِ مَصِيبَةٌ
 خَذُولٌ تَرَاعِيهَا الظُّبَاءُ الْخَوَاذِلُ (١١١)
 وَمِنْ مَدُونٍ مَارُمْتُ الْقَنَا وَالْقَنَا بَلُ (١١٢)
 لَنَا كَتَبْتُ وَالْبَاتِرَاتُ رَائِلُ
 فَطَارِدٌ عَنْهُمْ السُّغْرَالُ الْمَغَازِلُ
 وَأَسْيَافٌ لِحْظٌ . مَا جَلَّتْهَا الصِّيَاقِلُ
 وَلَمْ يَشْتَهَرْ سَيْفٌ . وَلَا هُرٌّ ذَابِلُ
 وَأَنْتَ لِي الرَّامِي وَكَلْبِي مَقَاتِلُ

ولابي فراس شعر في الوصف . وهو قليل . لم يأت فيه بشيء جديد . من ذلك قوله . وقد جلس في بستانٍ بديع بأشجاره وأزهاره . والماء صافٍ في برك جميلة تهبُّ عليه الرياح فتجعله شبيهاً بحلقات الدروع : (١١٣)

أَنْظُرْ إِلَى زَهْرِ الرَّبِيعِ وَالْمَاءِ فِي بَرَكِ السَّبْدِيِّعِ
 وَإِذَا الرِّيحُ جَرَّتْ عَلَيَّ فِي الذَّهَابِ وَفِي الرَّجُوعِ
 جَرَّتْ عَلَّ بَيْضِ الصِّفَا نَحْ بَيْنَنَا حَلَّقَ الدَّرُوعِ

ولعل رومياته التي نظمها حينما كان أسيراً من أوجود الشعر الذي اتحف به الأدب العربي وهي « لباب شعره . وصفوة انتاجه » (١١٤) حتى قال بلاشير : « وقصائد الروميات ممتازة ببساطتها . وجزالتها . وبالعاطفة الانسانية التي تسودها . وهي التي جعلت أبا فراس سيد شعراء العاطفة الانسانية . وليس في عصره فحسب . بل في كافة عصور الأدب العربي » (١١٥) وقد تنوعت ألحانه الرقيقة التي شدا بها في اسره بين الفخر والحماسة والحنين الى الأهل والاصحاب والشكوى والرتاء والغزل والحكمة ... ولعل أجمل رومية تحمل دِفْقَ العاطفة وفيضَ الخاطر قصيدته التي يقول في مطلعها : (١١٦)

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتِكَ الصَّبْرُ أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ

(١١١) الخذول ، الظبية المتخلفة عن سواحبها المنفردة عن القطيع .

(١١٢) القنابل ، الواحد القنبيل والقنبلة . الطالفة من الناس او العليل .

(١١٣) ديوانه ص ١٨٩

(١١٤) في الادب الباسي ص ٢٩٩ .

(١١٥) الاديب العشر ص ٢٨٢

(١١٦) ديوانه ص ١٥٧

ومنها :

سيدكرني قومي اذا جدّ حدّهم
فان عشت فالطعن الذي يعرفونه
وان مت فالانسان لا بدّ ميّت
ولو سدّ غيري ماسدّت اكتفوا بها
ونحن أناس لا توسّطّ عندنا
تهون علينا في المعالي نفوسنا
أعزّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلى
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
وتلك القنا والبيض والضمر الشقر
وان طالّت الايام وانفسح العمر
وما كان يغلو التبر لو تفقّ الصفر
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
ومن خطب الحساء لم يغلها مهر
وأكرم من فوق التراب ولا فخر

انها صادرة عن معاناة صادقة . تردها تجربة شعورية مريرة . منبعثة من فؤاد
مكلوم . ونفس هذا الحزن . وانها كالألم . ونقّر البعاد الكرى عن عيني صاحبها .
كما يقول في رومية أخرى (١١٧)

أبيت كاني للصباية صاحب
وكم من حزين مثل حزني وواله
ولست ملوماً ان بكيتك من دمي
وللنيوم مذبان الخليط مجانب
ولكنني وحدي الحزين المراقب
اذ قعدت عني الدموع السواكب

لقد أحاطت بروميته مشاعر وأحاسيس نابغة من الحالة المأساوية التي عاشها
تحت وطأة الألم . وعذاب الأسر . ومرارة الاغتراب . في خلال الأعوام الأربعة التي
قضاها مصفداً بين جدران السجن .

ان شعر أبي فراس - على العموم - وجداني يتسم بالعدوثة واليسر وقوة التأثير
في المتلقي . وحسبنا قول أبي منصور الثعالبي : « وشعره مشهور . سائر بين الحسن
والجودة . والسهولة والجزالة . والعدوثة والفخامة . والحلاوة والمثانة . ومعه رواء
الطبع . وسمة الظرف . وعزة الملك . ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا في شعر عبدالله
ابن المعتز ... وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز » (١٩٨) .

ونختتم هذه الترجمة الوجيزة بقول الدكتور زكي مبارك : « أبو فراس الوتر
الحنّان الذي خلد على الدهر مجدّ الألم ومجد الأنين . أبو فراس الذي أبكى كلّ
عين . وأحزن كل قلب . وشغل كلّ بال . ابو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد
الزئير . وعلمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجال » (١٩٩) .

(١٩٧) دهرانه ص ٢٥

(١٩٨) يتيمة الدهر ١٠١

(١٩٩) الموازنة بين الفراء ص ٢٥

أبو بكر الصنوبري

٢٢٤ - ٩ هـ

اشتهر كثير من الشعراء في أدبنا العربي بلون من ألوان الأدب أو بشكل من أشكاله . مثل أبي نواس في خمرياته . وأبي العتاهية في زهدياته . وأبي فراس في روميته . والشريف الرضي في حجازياته . والصنوبري في روضياته ...

سيرته :

هو أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي (١٠٠٠) . يكنى أبا بكر . وقد غلبت عليه نسبة « الصنوبري » . زعم هو نفسه أن جده « كان صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون فجرت له بين يديه مناظرة . فاستحسن كلامه وحدة مزاجه وقال له : « إنك لصنوبري الشكل . يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج (١٠٠١) » . وقيل : انه لقب به اشارة الى صورته المخروطية التي تشبه ثمرة شجرة الصنوبر (١٠٠٢) . ونراه يفخر بهذا اللقب في شعره قائلاً : (١٠٠٣)

إذا غزينا الى الصنوبر لم نغز الى خامل من الخشب
لا بل الى باسق الفروع علا مناسباً في أرومة الحسب
أما نسبة الى قبيلة ضبة العريية المشهورة فقد افتخر به فقال (١٠٠٤) :

لو لم يكن لي في ذؤابة خندف نسب سوى الآداب كنت عريقاً
أو لست أطولها فروعاً في العلى وأمدّها في المـ كرمات عروقا
نحن الذين بنت لنا أبوانا مجداً يجوز بناؤه العيوقا (١٠٠٥)

(١٠٠٠) تهذيب تاريخ ابن عساکر ١١ ، ٤٥٦ ، الوالي بالوليات ٧ ، ٣٧٩ ، قوات الوليات ١١ ، ١٢٢ .

(١٠٠١) ديهوان الصنوبري ص ٥ .

(١٠٠٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ ، ٣٦٤ تاريخ الأدب العربي ،

العباسي الثاني ص ٢٤٧ .

(١٠٠٣) ديهوان الصنوبري ٤٥٦ .

(١٠٠٤) ديهوان الصنوبري ص ٩٤ .

(١٠٠٥) العيوقا ، كوكب مضى ، بحيال الشرايا في ناحية الشمال .

نغشى البلاد بعارضٍ متراكمٍ مُبْلِئَتْ ذُرَاهُ صواعقاً وبروقاً
قوم إذا دلفوا للحربِ مَزُقُوا هَامَ العِدا بسيفوفهم تميزيقاً
فغدوا: فريقاً يقتلون إذا هم راموا النزول. ويأسرون فريقاً

وُلد الصنوبري في أنطاكية . ونشأ وكَبُرَ في حلب . ولم تُشر المصادر الى سنة ولادته وإلى طبيعة الدراسة التي تلقاها . ولكن القاريء يستدلُّ من مراجعة شعره انه كان عارفاً بعلوم اللغة العربية وآدابها معرفةً جيدةً ومتقنةً ، وقد شهد الذين ترجموا له بتفوقه في ميدان المعرفة ، قال أحدهم : كان إماماً بارعاً في الأدب ، فصيحاً مفوها (١٠٦) .

أجاد نظم الشعر وأحسن انشاده . وأخذ يتنقل بين المدن الرئيسة مثل دمشق والموصل وحمص وطرابلس والرقّة .. ويُقدِّمُ شعره بين يدي أمرائها وكبار رجالها ثم يعود الى حلب . وقد تعرّف على سيف الدولة في الموصل قبل تأسيس دولته في حلب (١٠٧) ومدخه بشعره وأشاد ببطولته حينما كان يُنازل الروم مع الجيش الذي يذهب لحماية الثغور وردُّ كيد المعتدين على الديار الاسلامية .

وعندما تولّى سيف الدولة حلب . قرَّب اليه الشعراء وأكرمهم . وكان الصنوبري واحداً منهم . اذا اتخذه نديماً من أخلص ندمائه . وجعله أميناً على مكتبته في قصره . عاش الصنوبري في يسر ونعيم في قصر منيف يحيط به بستان كبير فيه أنواع الأشجار والأزهار والرياحين . وكانت له صلات كثيرة وصدقات وثيقة مع عدد من العلماء والأدباء . مثل الشاعر كشاجم . والعالم اللغوي على بن سليمان بن الأخفش الصغير .

وتوفي سنة ٣٢٤ للهجرة وقد ناهز الستين (١٠٨) .

شعره :

كان الصنوبري مكثراً في نظم الشعر . وقد عُني به الكثيرون وهو على قيد الحياة ورووه عنه . منهم تلميذه الشاعر أبو العباس الصُّفري وعنه رواه القاضي أبو

(١٠٦) النجوم الزاهرة ٤ ، ٢٨٧ .

(١٠٧) وصف الطبيعة في شعر الصنوبري ، فواز أحمد طولان ، مجلة مجمع اللغة العربية

بدمشق ، م . ٤٤ / ٢ ، ٥٧٦ .

(١٠٨) العصر العباسي الثاني ص ٢٥٢ ، العصر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ١٠٦ .

عمر عثمان بن عبدالله الطرسوسي (١٣٠٩) . واهتم به معاصره أبو بكر الصولي فجمعهم ورتبه حسب الحروف الهجائية في مئتي ورقة (١٣١٠) . ولم يصل من هذا الديوان إلا جزء يشتمل على شعره من قافية الراء حتى القاف . واطاف اليه محققه تكملة للشعر الذي وجدته في المصادر المخطوطة والمطبوعة . ثم قام باحثان آخران بصنع تنمة له ونشراها في كتاب مستقل (١٣١١) .

اتصل الصنوبري بكثير من رجال عصره ، وخصهم بمدحيه . وإماتح فضلهم ونوالهم . وكان معجباً بسيف الدولة وشجاعته وشهامته وقوة ارادته وحسن بلائه في محاربة الروم مثل قوله (١٣١٢) :

تركت الروم ، بعضهم قتيلاً يمجُّ دماً وبعضهم أسيراً
ولما طاز بأسك أمس فيهم هفوا جزعاً كما تهفو الطيور
فقد ماتوا وما قُبروا ولكن كأن بيوتهم لهم قبور
لسيف الدولة السيف الذي لل سمانيا في غرازيه زئير

هذه الأبيات كما يلاحظ خلت من التجديد والابتكار ، وهي واضحة المعنى . سهلة الالفاظ . تتلائم مع القافية ذات الجرس المختار . ومن الذين مدحهم بكثرة . وأسع عليهم هالة من الجلالة والعظمة أبو الحسين علي بن محمد بن حمزة الهاشمي . وكان موسراً له ضياع يتوسطها قصر جميل تحف به الرياض البديعة في مكان يسمى « فارث » . وكان الصنوبري يزوره بين حين وآخر ويجالسه ويتنعم معه بأطياب الحياة وينال رفده . ويقدم بين يديه شعره . مثل قوله من قصيدة عينية تجاوزت سبعين بيتاً (١٣١٣) :

يوم بفارث حُسنه لا يدفع يوم أغر من الزمان ملمع
جالست فيه أبا الحسين بمجلس خلغ الربيع على رباة تخلع
جلساؤه فيه هزير ضيفم وغضنفر صار وأغلب أروع

(١٣٠٩) ينظر ديوان الصنوبري ص ١٨٧ هامش ٢

(١٣٠١) الفهرست ص ٢٢٩ .

(١٣١١) . حقق الديوان وصنع له تكملة الدكتور احسان عباس (بيروت ١٩٧٠) ، أما التتمة

لهي من صنع لطفى الصقال ودرة الخطيب (حلب ١٩٧١) .

(١٣١٢) ديوان الصنوبري ص ٧٤ .

(١٣١٣) ديوان الصنوبري ص ٢٢٤ .

فخلعتُ فيه عِذارَ لهوٍ لم يكن في غيره من قبل ذلك يخلعُ
وأخذ الرثاء مكاناً كبيراً في ديوانه . ولا سيما في بنته « ليلي » التي رثاها
بقصائد ومقطوعات تطفح بالحزن والأسى وتمتليء بالبكاء والأنين . يستبكي فيها
كلُّ شيء حتى الطيور (١١١) :

سأبكي . ما بكي القمريُّ . بنتي بحرٍ من دموعي بل بحور
أستُ أحقُّ أن أبكي عليها إذا بكيت الطيورُ على الطيورِ

وكانت ليلي هذه ابنته الوحيدة ؛ ولذلك كان مصابه فيها كبيراً . وقد زُين قبةُ
قبرها بباب قنسرين بحلب بأبيات من نظمه يتجلّى فيها الألم العميق الصادق . إذ
جعل على كل جانب من جوانب القبة الستة بيتين (١١٠) . من ذلك قوله :

أنسَ اللهُ وحشتك رحمةَ اللهِ وحَدَّتْكَ
أنتِ في صحبةِ الليلى أحسنَ اللهُ صحبتك

وكان مرهف الحسِّ . بارعاً في التعبير عن خوالج نفسه . فمن جميل غزله الذي
صوّر فيه شوقه وحنينه قوله في الأبيات الآتية . ويلاحظ القاريء فيها تفننه بالصورة
ومزجها بألوان لطيفة في تشكيل جزئياتها (١١٦) :

تزايد ما ألقى . فقد جاوز الحدا وكان الهوى مزجاً فصار الهوى جدّاً
وقد كنتُ جلدأ ثم أوهنتي الهوى وهذا الهوى مازال يستوهنُ الجلدا
فلا تعجبي من غلبِ ضعفك قوتي فكم من ظبَاءٍ في الهوى غلبتُ أسدا
غلبتم على قلبي فصرتم أحقَّ بي وأملك لي مني فصرتم لكم عبدا
جرى حُبكم مجرى حياي ففقدكم كفقدِ حياتي . لا رأيتُ لكم فقدا

وله شعر في وصف الخمرة يقترن بالغزل . وقد مضى فيه على سنن معاصريه من
الاكثار من التشبيهات . وذكر أوصاف السقاة ومفاتيحهم وجمال هيئاتهم وأثرهم في
نفوس الشاربين . ويبدو أنه قد أقلع عن ذلك في وقت مبكر . وربما كان لموت ابنته
ليلى أثر في ترك اللذة واللهو والشرب . إذ نراه يقول (١١٣) :

(١١٤) ديوان الصنوبري ص ١٠٤ .

(١١٥) ديوان الصنوبري ص ٥١٤ . وينظر تهذيب ابن عساكر ١ ، ٤٥٦ ، اعلام النبلاء بتاريخ

حلب الذهب ١ ، ٢٤ .

(١١٦) ديوان الصنوبري ص ٤٧٢ .

(١١٧) ديوان الصنوبري ص ٢٥٨ .

كُنْتُ أَحِبُّ النَّبِيذَ جِدًّا فَصَارَ حُبِّي النَّبِيذَ بُغْضًا
فَلَسْتُ أَرْضَاهُ لِي شَرَابًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . لَسْتُ أَرْضَى

وينتقل الى نظم أشعار في الزهد . يدعو فيها الى نبذ المعاصي والكف عن الآثام .
ويدعو الى التوجه نحو الطريق القويم والسلوك السليم . مثل قوله : (١٠٨)

فَأَكْثَرُ مَا اسْتَطَعْتُ الْحَلَمَ . اني رَأَيْتُ الْحَلَمَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ
وَلَا تَعَجَّلْ إِذَا حَاوَلْتَ أَمْرًا تَنْلُ مَا زَمَنْتَ مِنْ غَيْرِ امْتِنَاعِ
وَمَا لَمْ تَسْتَطِغْهُ فَعَدُّ عَنْهُ وَأَوْضِعْ فِي سَبِيلِ الْمَسْتَطَاعِ
فَرِزْقِكَ سَوْفَ تَدْرِكُهُ جَمِيعًا وَلَوْ أَضْحَى بِأَقْوَاهِ السُّبُعِ
فَلَا تَتَّبِعْ أَخْسَفَهُ وَذَغَّهُ وَكُنْ لِلْحَرِّ ذَهْرًا إِذَا اتَّبَعَ

أن شهرة الصنوبري ماجأت الأ من الشعر الذي خص به الطبيعة . « حتى
ضرب المثل بروضياته . وحقاً كان ابن الرومي مشغولاً بالطبيعة ووصف الرياض في
الربيع . ولكنه لم يعش لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه
الورود والرياحين والأزهار . ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري . فهو
بحق شاعر الطبيعة . عاش يتغذى خياله وروحه منها . واصفاً لحداثتها وبساتينها
ورياضها . حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكده من حياته » (١٠٩) ولذلك عده آدم
متزاول شاعر للطبيعة في الأدب العربي (١١٠) .

لقد هام بالطبيعة . وانجذب اليها . وتعاطف معها . وتجاوب معها تجاوباً
وجدانياً . وامترج بها حتى أصبح جزءاً متماسكاً منها . وقد لمس ذلك صديقه
الحميم كشاجم . وقال له (١١١) :

فَأَلْهَمَتْكَ بِسَاتِيْنِ سَكَ ذَاتِ السَّنُورِ وَالرُّهْرِ
وَمَا شَيْدَتْ لِلْخَلِوَةِ مِنْ دَارٍ وَمِنْ قَصْرِ
وَمَا جَمَّعَتْ مِنْ غَرَسٍ وَمِنْ حَرْثٍ وَمِنْ بَدْرِ
وَنَارَنْجٍ وَرِيحَانٍ جَنِيِّ طَيِّبِ النَّشْرِ

(١٠٨) ديوان الصنوبري ص ٢٢٢ .

(١٠٩) تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ص ٢٦٢ .

(١٠٢٠) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١١٠١ . ٤٢٠ .

(١٠٢١) ديوان كشاجم ص ٢٢٩ .

كان مولعاً بالربيع . ينتظره بشوق ولهفة « لأنه يُرضي حاسته البصرية المفتونة باستجلاء الألوان . النهمة الى النور والنور . كما يُرضي أذنه التي تطربها أصوات الطبيعة يغنيها القمري والفاخته ... أكثر مما يطربها العود والطنبور . وكما يرضي أنفه الذي يمتليء بأريج الربيع فلا يجد معنى للمسك من بعده ولا للكافور . وكما يُرضي بعد ذلك كل نفسه فتطمئن اليه » (١٢٢) . مثل قوله (١٢٣) :

ياريمُ قومي الآن ويحكِ فانظري مالمسربى قد أظسهرت إعجابها
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فالآن قد كشف الربيع حجابها
وردّ بدا يحكي الخدودَ ونرجسُ يحكي العيونَ إذ رأت أحبابها
والزرغُ شيبه عساكرِ مصطفةً قد فوقت عن قسيها نشابها
والسرورُ تحسبه العيونُ غوانياً قد شمّرت عن سوقها أثوابها
وكانَ إحداهن من نفع الصبا خودّ تلاعب موهناً أترابها
والنهرُ قد هزّته أرواح الصبا طرباً وجرت فوقه أهدابها
لو كنت أملك للرياضِ صيانةً يوماً لما وطئ اللثامُ أترابها

إن لوحاته في الرياض الناضرة جميلة وبهية تستجذب الزائري وتسحره ؛ لأنها مرسومة بيد ماهرة تعرف كيف تُشاكل بين الألوان وتستجليها واليك الأبيات الآتية وهي تعطيك مجموعة من الأزهار في تشكيل لطيف بين أقحوان . وسوسن . وشقيق . وبهار . وأذريون . ونرجس . وخيري . ونسرين . وورد . وياسمين . وخزامى . وقيصوم (١٢٤) :

أقحوان وسوسنُ وشقيقُ وبهارُ يُجنى وأذريونُ
وبدا النرجسُ البديعُ كأماثا ل عيونِ ترنو اليها عيونُ
ماترى جانبَ الهنيّ وقد اش رق فيه الخيريّ والنسرينُ
صاح فيه الهزازُ . ناخ به القم ري . غنى في جوّه الشفنينُ
فلهذا قيصومه وخزاما ه وذا الوردُ فيه والياسمينُ

(١٢٢) شعر الطبيعة في الادب العربي ص ٢٠٦ .

(١٢٣) ديوان الصنوبري ص ٤٥٤ .

(١٢٤) ديوان الصنوبري ص ٤٩٥ .

وحظيت المياه . متمثلةً في السحاب والأنهار والغدران والسواقي والجداول والبرك . بنصيب كبير من شعر الصنوبري . فها هو ذا يصف بركةً وصفاً جميلاً يذكرنا فيها بأبيات أبي عبادة البحتري في وصف بركة المتوكل . وقد حاله التوفيق في عرض صورتها (١٣٥) :

سقى حلباً سافكاً دمه
ميادينهُ بسطهُنَّ الرِّياضُ
تري الرياحُ تنسجُ من مائه
كأنَّ الزجاجَ عليها أذيبُ
هو الجوّ من رِقّةٍ غيرِ أنْ
وقد نَظَمَ الزهرُ نظَمَ النجومِ
كما درجَ الماءُ مرَّ الصُّبَا
بطيئاً الرقوءُ إذا ماسفكُ
وساحاته بينهنَّ البركُ
دروعاً مضاعفةً أو شبكُ
وماء اللجين بها قد سبكُ
مكان الطيور يطير السمكُ
فمفترقُ النظم أو مشتبكُ
ودبج وجه السماء الحبكُ

وفتح الصنوبري الباب للشعراء في وصف الثلج والتغني بجمال منظره . ولا سيما حينما يتساقط على الأرض كاللؤلؤ المنثور أو القطن المندوف . وهذا ماأكده الدكتور سيد نوفل بقوله : « وَيَعُدُّ الصنوبري أول من تغنّى بالثلج وبدائعها » (١٣٦) . مثل قوله (١٣٧) :

تعالى الله خالقُ كلِّ شيءٍ
لقد أضحى جميعَ الأرضِ تجري
ألم تر كيف قد لبست زباها
ثياباً لاتزال تدوبُ لينا
كأنَّ الغيمَ مما بستُ منه
بقدرتهِ وباري كلِّ نفسٍ
كواكبهُ بسعدٍ لا ينحسر
من الثلج المضاعفِ أي لبر
إذا الأيدي عرض لها بلمس
على أرجائها أنداف بَرس

نالت الثلجيات اعجاب شعراء العراق . وكان الوزير الحسن بن محمد المهلبى في بغداد ينشر في مجاله قصائد الصنوبري وينسج على منوالها (١٣٨) .

(١٣٥) ديوان الصنوبري ص ٤٨٤ .

(١٣٦) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢١٥ . وينظر فنون الشعر في مجتمع العماليين ص

٦٥٦ . اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ٢٦٤ .

(١٣٧) ديوان الصنوبري ص ١٧٤ .

(١٣٨) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ ، ٤٧٢ ، وتنتظر أبيات المهلبى في وصف

الثلج في يتيمة الدهر ٢ ، ٢٢٨ .

لقد كان الصنوبري متدفقاً في عطائه الشعري بأسلوب واضح جلي . لا لبس فيه ولا غموض . وكانت الألفاظ والمعاني متناسقه عنده الى جانب توافقهما مع الموسيقى . وكثيراً ما يستعين بالتشبهات والاستعارات في تحسين صوره وتوضيحها مع استخدام المحسنات البديعية ولا سيما الجناس .

السري الرفاء

٢٦٢ هـ - ٢٦٢ هـ

في ظل الدولة العباسية التي بسطت نفوذها على العراق وبلاد فارس وما وراء النهر حتى حدود الصين شرقاً، وبلاد الشام والجزيرة وجزء من شمال افريقيا غرباً. برزت مدن كثيرة لاتقل شأناً عن بغداد. واصبح لها دور بارز في مجالي العمران والثقافة. يؤمها الداني والقاصي للتفيؤ في ظلالها والتزود بزاد المعرفة من مدارسها ومن قطن فيها من العلماء والادباء. والموصل احدى هذه المدن التي انجبت نخبة طيبة من العلماء الفضلاء، والادباء الاجلاء. منهم اديبنا السري الرفاء.

سيرته :

هو السري بن احمد بن السري الكندي. يكنى ابا الحسن. ويعرف بالسري الرفاء. لأنه كان يرفو الثياب ويطرزها في صباه (١٢٩). وقد اشار الى هذه المهنة في شعره، فقال: (١٣٠)

وكانت الابرة فيما مضى سائنةً وجهي واشعاري
فأصبح الرزقُ بها ضيقاً كأنه من ثقبها جاري

وهو عربي من قبيلة كندة المشهورة. وقد افتخر بها في شعره (١٣١). ولد في مدينة الموصل في العقد الاول من القرن الرابع للهجرة. وتعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب. ثم درس القرآن الكريم والحديث الشريف وشيئاً من النحو واللغة والادب. وحينما اشتغل في احد دكاكين الرفائين لم ينقطع عن التعلم والتثقف وحضور مجالس العلماء والادباء والافادة منهم. وكان ينتهز الفرص لمطالعة الكتب وحفظ الشعر حتى برز شاعراً متمكناً من ناصية القريض.

وجد السري الرفاء نفسه غريباً بين الذين يزاولون مهنته. وانها لاتندرج عليه المال الكافي لعيشه. فبدأ يحقرها. واخيراً تركها واحترف مهنة صيد السمك. وله

(١٢٩) يتيمة الدهر ٢، ١١٧، وفيات الاعيان ٢، ٢٥٩

(١٣٠) ديوانه ٢، ٢٨٩

(١٣١) ينظر ديوانه ٢، ٢٢٤

ايات من قصيدة يشير فيها الى الشبكة التي كان يستخدمها وهي عتيقة بالية
غبراء (١٠٣٢) :

وشاحبِ اللَّبْسَةِ والاعضاءِ أشعث نائسِي العهدِ بالرَّخَاءِ
أفضى به العُدْمُ الى الفضاءِ فوجهُهُ للضَّحِّ . والهواءِ (١٠٣٣)
أعجز يحوي الرِّزْقُ من غبراءِ خفيفةً . ثقبيلةِ الارجاءِ
كأنَّها هلهله . لهُ الرِّداءِ كلَّفها لَحْظُ بناتِ الماءِ
فأقبلت تملأ عينِ الرائي بكلِّ صافيِ المتينِ والأحشاءِ
أيضُ مثلِ الفضةِ البيضاءِ او كذراعِ الكاعبِ الحسناءِ

ويبدو ان هذه المهنة ايضاً لم تُجده نفعاً . فاعتزلها . وانصرف الى الشعر يمدح
ويتكسب به . وكانت اول صلته بناصر الدولة واولاده من الامراء الحمدانيين في
الموصل . ونال منهم العطايا والهدايا . ولكن سرعان ما حسده الشاعران الموصليان
الاخوان ابو بكر محمد . وابو عثمان سعيد . ابنا هاشم الخالديان . واخذوا يكيدان
له ويوغران صدور ممدوحيه . وافلحا في سعيهما المقيت . حيث قُطعت عنه المعونة
وساءت حالته . واضطرا الى مغادرة الموصل الى حلب هرباً من شرِّ هذين الخصمين . قال
ابو منصور الثعالبي : « ولم يزل في ضنكٍ من العيش الى ان خرج الى حلب .
واتصل بسيف الدولة . واستكثر من المدح . فطلع سَعْدُه بعد الأقول . وبعُدَ صيته
بعد الخمول . وحنَّ موقع شعره عند الامراء من بني حمدان ورؤساء الشام » (١٠٣٤)

لم تدم ايام النعيم طويلاً في حلب . حيث تبعه الخالديان . واخذوا يُشعلان نار
الحقد والكراهية عليه . واستطاعا بما أوتيا من لباقة وحن منادمة من تقليل شأنه
عند سيف الدولة وابعاده عن مجلسه وحرمانه من كرمه . وقد اشار في قصيدة له الى
ذلك . فقال : (١٠٣٥)

علامِ حرمتنسي انشاذ شعري لديسك وقد تنناشده الانامُ
ولي فيك التي تلغني القوافي اذا ذكرتُ ونبطَرَحَ الكلامُ
تَقصُرُ عن مداها الرِّيحُ جزياً وتعجزُ عن مواقعها السهامُ

(١٠٣٦) ديوانه ١٠١ ٢٧٢

(١٠٣٧) الضح ، الفس ، وقيل هو ضروها .

(١٠٣٨) يتيمة الدهر ١٠٢ ١١٩

(١٠٣٩) ديوانه ١٠٢ ٦٢٢

تَناهِتْ حُسْنُهَا شَادٍ وَحَادٍ فُحِشْتُ بِهَا الْمَطَايَا وَالْمُدَامَ
لَكَ النِّعَمُ الَّتِي جَلَّتْ وَلَكِنْ ذُنُوبِي مِنْكَ وَالْقَرَبُ التَّمَامُ
وَتَشْرِيفِي الْقِيَامَ إِزَاءَ مَلِكِ مَلُوكِ الْعَالَمِينَ لَهُ قِيَامُ
وَاحْضَارِي إِذَا خَبِرْتُ مَدْحاً لَتَسْمَعَنَّ مَا أُخْبِرُ وَالسَّلَامُ
لم ينفع هذا العتاب على نفور الامير منه ومنعه من انشاد شعره بين يديه .
وبقي في حلب مجابهاً خصميه الخالدين بالهجاء . ولكن وجد نفسه في آخر الامر
في حرج . فخرج الى بغداد في اواخر سنة ٣٤٩ للهجرة .

اتصل في بغداد بكبار رجال الدولة مثل الوزير الحسن بن محمد المهلبى
والكاتب ابي اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي . واصبح في رغد من العيش . ولم
يكن يعلم ما تخبئ له الايام من شرور . اذ جاءه نبأ مقدم الخالدين الى بغداد
واتصالهما بالوزير المهلبى . وقد حَقَّقَا نواياهما . حيث نجحا في ابعاده عن هذا
الوزير وعن كبار كتابه .

عاش بعد ذلك فقيراً بائساً لا يستطيع دفع ايجار داره (١٣٩) . والتجأ الى مهنة
الوراقة . واخذ ينسخ الكتب ويبيعها ويقنت من ريعها الى ان ادركته المنية سنة ٣٦٢
للهجرة (١٣٧) . وترك من بعده ديواناً شعرياً . وكتاب « المحب والمحبوب والشموم
والمشروب » وكتاباً آخر باسم « الديرة » لم يصل الينا .

شعره :

كان السريُّ الرِّفَاءُ شاعراً مجيداً . قال ابن النديم : « السريُّ بن احمد الكندي
من اهل الموصل . شاعر مطبوع عمل شعره قبل موته نحو ثلاث مئة ورقة . ثم
زاد بعد ذلك . وقد عمله بعض المحدثين الادباء على الحروف (١٣٨) » . لقد كثرت
نسخ ديوانه بين الايدي آنذاك ؛ لانه كان ينسخه بنفسه ويبيعه . عندما افتقر في
ايامه الاخيرة في بغداد (١٣٩) .

(١٣٦) تاريخ بغداد ٩ ، ١٩٤

(١٣٧) المنتظم ٦٢١ ، ٧ ، معجم الادباء ٤ ، ٢٢٦

(١٣٨) الفهرست ص ٢٤١

(١٣٩) ينظر تاريخ بغداد ٩ ، ١٩٤

طرق الموضوعات الشعرية المعروفة من مديح وهجاء ورتاء وغزل ووصف وفخر وعتاب واعتذار وحكمة . وقد اجاد في جميعها ونال اعجاب الدارسين . قال ابو منصور الثعالبي : « السريُّ وما ادراك من السريُّ ؟ صاحب سر الشعر . الجامع بين نظم عقود الدر . والنَّث في عُقد السَّحر . ولله دُرُه مأعذب بجره . وأصفى قطره واعجب أمره (١٠٠) » . وقال فيه ابو هلال العسكري : « وليس فيمن تأخر من الشاميين اصفى الفاظاً مع الجزالة والسهولة وألزم لعمود الشعر منه (١٠١) » .

نظم السريُّ الرِّفَاء شعراً كثيراً في المديح . وقد افرغ في كثير منه جلُّ طاقته الفنية . كي يستطيع أن يجاري الشعراء المذاهب الكبار امثال ابي الطيب المتنبي . وابي العباس النامي . وابن نباتة السعدي . وابي الفرج البغداد . والوُأواء دمشقي ... فيها هو ذا يشارك الشعراء في مدح سيف الدولة الحمداني . مظهراً دوره النضالي في حماية تربة الوطن . ومبيناً كفاحه في مواجهة الروم (١٠٢) .

يغشى القراع فينشني وسمائه في غرب منْضله وفي جلبايه كالليث اثار اللقاء مبينة في لبدتيه وفي شبا انيابه علمت ملوك الروم أن حياتها ومماتها في عفوه وعقابه في كل عام غزوة يقضي بها وطراً له ويسأل من ارابيه أوفى فسد شعابهم بعمرهم ينسي الفضاء الرحب سيل شعابه كالطود لا يثنيه عن متمنع حتى يكف رقابه برقابه تزجي المنون جياذه محزومة بالحزم او يحدى الردى بركابيه

بهذا الأسلوب الفخم يُعظَّم فارسه الشجاع . ويُعلي من شأنه . ويجعله كالطود الأشم في الصمود والمقاومة . وتجد في ديوانه مدائح للأمرء الحمدانيين الآخرين وكذلك لشخصيات كثيرة في حلب والموصل وبغداد . وهو في جميعها يُشيد بجودهم وكرمهم وحميد صفاتهم كي ينال رضاهم ثم عطاءهم .

وحينما شقَّ طريقة الى رحاب المجد عن طريق الشعر الجيد نافسه الكثيرون وانقلب بعضهم الى خصوم يعادونه . وينتقصون من قيمته ويفضون من قدره . مثل

(١٠٠) هتيمه الدهر ٢ ، ١١٧ .

(١٠١) ديوان المعاني ٢ ، ١٧ .

(١٠٢) ديوانه ١ ، ٣٧٢ .

الخالدين ، وأبي العباس النامي ، وعلي بن العصب الملحي .. واليك الايات
الآتية في هجاء الخالدين بعدما سمع انهما متوجهان الى بغداد ، مُحذراً إياهما من
مغبة الرجوع الى المعادة : (١١٢)

اني نبذت على السواء إليكما فتأهباً للفداح المنتاب
نصبت مجانق الهجاء وإن رأيت لكما ضؤولة منصيب ونصاب
فإذا أصابكما غضاب سهاهما عتبت مدى الأيام عتبر غضاب
فلطفحنكما سائم. منطقي ولتفرقنكما سيول شعابي
ولأضربنكما على ما خيلت بمصارم لالشعر غير نوابي
فأريكما الدنيا به مغبرة حتى تظننا اليوم يوم ضاب

وله شعر لطيف في الغزل . صُوِّر فيه وجده وهيامه بلغة رقيقة شفافة تهز السامع
بمعانيها السامية . مثل قوله في الأبيات الآتية التي عدّها ياقوت الحموي من غرر
شعره الغزلي . وقد جاءت في مطلع قصيدة مدح بها أبا الهجاء حُرِّب بن سعيد بن
حدان : (١١٤)

بلاني الحب فيك بما بلاني فشأنني أن تفيض غروب شاني
أبيت الليل مرتقباً أناجي بصدق الوجد كاذبة الأمانني
فتشهد لي على الأرق الثريا ويعلم ما أجنُ الفرقدان
ومذهبة الخدود بجلنار مفضضة الشفور بأقحوان
سقانا الله من ريك ريساً وحيانا بأوجهك الحسان
ستصرف طاعتي عمن نهاني دموع فيك تلخي من لحاني
ولم أجهل نصيحتة ولكن جنون الحب أحلى في جناني

وشارك في شعر الرثاء . وهو لم يأت فيه بجديد . بل قلّد القدامي في معانيهم
وصورهم . ولعل أجود ما قال في هذا المجال قصيدة في رثاء قوم من بني شيبان
ضُلبوا وكان فيهم صديق مخلص له يكنى أبا الفضل . وكان الوقت شديد الحر فلما
ضربت أعناقهم حادت السماء بوابل مدرار من المطر (١١٥) :

(١٤٣) ديوانه ١ : ٤٦٦

(١٤٤) ديوانه ٢ : ٧١١ ، مجمل الأدياء ٤ : ٢٢٨ .

(١٤٥) ديوانه ٢ : ٦٠٠ .

أبا الفضلِ غالتك الخطوبُ ولم يكنْ
فأصبحتْ مسلوبُ القميصِ وطالما
وحولك من بكرِ بنِ وائلٍ فتيةٌ
أصابهم ريسبُ الزمانِ وإنْ سما
كانهم في الليلِ ركبُ تحيروا
تلقاهم حرُّ الهجيرِ برأفةٍ
وأضحى الحيا في غيرِ حينِ أوأنه
كانَ السماءَ استعبرتْ لمصابهم

وبلغ في شعر الوصف ذروةً نظمه . إذ أبدع في وصف الطبيعة وما فيها من مناظر
خلابة . وأجاد في تصوير مظاهر الحياة آنذاك . وأحسن في تناول الأطعمة والأشربة
ووصفها . ونستطيع القول : إنه أحد المبرزين . شأنه في ذلك شأن الآخرين
المشهورين في هذا الفن مثل الصنوبري وكشاجم . ولعل في قول أحد الباحثين
مبالغة : « إنه أعظم وصافي القرن الرابع إن لم يكن أعظمهم (١٠١٦) » .

كان معجباً بشعر أبي نواس . مفتوناً به . وقد عبّر عن ذلك في وصف الهلال
حين بدا في كبد السماء الزرقاء . مشبهاً به طرف الطوق الجميل في عنق الفتاة
الحسنة (١٠١٧) :

الأعد لي بباطية وكاس ورُع هَمِّي بإبريق وطاس
وذاكرني بشعر أبي نواس على روض كِشعر أبي نواس
وغيمر مرهفات البرق فيه عوارٍ والرياض به كواسي
ولاح لنا الهلال كشطر طوقٍ على لبات زرقساء اللباس

انه كثيراً ما يُشبه مظاهر الحسن والجمال في الطبيعة بالحسناوات اللواتي يبهرن
الناظرين بمفاتهن وزنتهن . مثل قوله في تصوير لطيف لمنظر الثلج (١٠١٨) :

(١٠٤٦) السري الرفاء . يوسف أمين قصير . ص ٤٦ .

(١٠٤٧) ديوانه ٢ ، ٣٢٧ .

(١٠٨) ديوانه ٢ ، ٥٨٢ .

كَأَنَّ ذُرًّا الْفُصُونِ لَيْسَ مِنْهُ خَلِي الْكَافُورِ . رَبَّاتُ الْحَجَالِ
تَلَالِاتُ الرَّبِيِّ لِيَسَاعِلَهَا كَأَنَّ عَلَى الرَّبِيِّ أَثْوَابَ آلِ
تَجَوُّلِ الْعَيْنِ فِيهَا وَهِيَ فِيهِ كَشَبِ الْخَيْلِ رُحْنٌ بِلَا جِلَالِ

وكان يهوى الأماكن القريبة من الأنهار . ولذلك كثر وصفه للأشياء التي تحيط
بها كالأشجار والأزهار والثمار . أو التي تقوم عليها كالجسور والدواليب . أو التي
تجري فيها كالسفن والقوارب . وامتاز بلون طريف آخر يتصل بالأنهار وهو وصف
السك . فانه كَانَ يُبَكِّرُ لصيلده مسروراً مع طلوع الفجر . ويتمتع بمنظر الطبيعة
الساحر . واليك اللوحة الآتية التي تكشف لك عن صيادٍ ماهرٍ يُلقِي شباكهُ في النهر
ويستخرج سمكاً شبيهاً بالمُدَى أو بصغار الخناجر (١٠١٩) :

قَدْ أَغْتَدِي نَشْوَانَ مِنْ خَمْرِ الْكُرَى أَحْبَبُ بُرْدِي عَلَى بَرْدِ الثَّرَى
وَالصَّبْحُ حَمَلٌ بَيْنَ أَحْشَاءِ الدُّجَى وَالرَّيْحُ كَالرَّاحِ نَأَى عَنْهَا الْقَذَى
يَنْنَمُ رِيَاهَا عَلَى زَهْرِ الرَّبِيِّ بَدَاتِ أَحْدَاقِي تَرَى مَا لَا يَرَى
مَلَاةٌ مَا نَسِجَتْ لِسِرْتِي تُرِيكَ ضِعْفًا ظَاهِرًا وَهُوَ قَوَى
وَجِدَةٌ تَحْسِبُهَا الْعَيْنُ بِلَى غِبرَاءِ كَالدَّرْعِ تَفْشَاهَا الصُّدَا
تَعْمُومُ فِي أَبْيَضِ كَالآلِ صَفَا تَرَسَّبُ فِي أَحْشَائِهِ صِفْرَ الْحِشَا
فَتَعْتَلِي مِنْهُ بِأَحْشَاءِ مَلَا تَضْحَكُ عَنْ مِثْلِ صَغِيرَاتِ الْمُدَى
كَأَنَّهَا عَسَقْدُ لَالٍ قَدْ وَهَى يَوْمِضُ فِيهَا كَالخَسَامِ الْمُنْتَضَى

وتجدر الإشارة في هذه الدراسة الموجزة الى شعره الذي نظمهُ شوقاً وحنيناً الى
الموصل . فلو أمعنا النظر في القصائد التي خصصها لهذا الغرض لرأيناها تتدفقُ
بعواطف جياشة . مما يدلُّ على تعلقه الشديد بمسقط رأسه ومرتع صباه ومرجع
شبابه . ووفائه للمدينة التي درج في أكنافها وشمَّ عبير العطر الفواح من المروج
والحدائق التي تحيط بها . ونختار للقارئ الآيات الآتية التي تُعبِّرُ بصدق وحرارة
عن ألمه لفراق منزله الأول (١٠٠٠) :

١٠٤٩ (ديوانه ١١ : ٢٨٩ .

١٠٥٠ (ديوانه ١٢ : ٧٥٦ .

لا أزرَجُ الذَّمْعَ إنْ هَمَّتْ سواكِبةُ
سقى رَبِي الموصل الزهراء من بلد
أندب العيش فيها أم أنوح على
أرض يحن إليها من يفارقها
ميشاء طيبة الأنفاس ضاحكة
تشق دجلة أنوار الرياض بها
لا أملك الصبر عنها إن نأيت ولو
والنفس قد بعدت منها أمانها
جود من الغيث يحكي جود أهلها
أيامها أم أعزي عن لياليها؟
ويحمد العيش فيها من يدانيها
تكاد تهتر عجباً من نواحيها^(١٠٥١)
مثل الصفيحة مصقولاً حواشيها
عوضت عن ظلها الدنيا وما فيها

لقد جاءت قصائده في الحنين الى الموصل حزينة باكية . مصوغة بأحسن أسلوب وأجوده . وقد عدها أحد الباحثين « صورة ناطقة بأبداع ما أنتجه الشاعر وألمع ما دبجته قريحته » (١٠٥٢) .

والى جانب ما ذكرنا من أغراض نجد له شعراً في العتاب والاعتذار والاخوانيات والحكم ، وهو في جميعها لا يهبط عن المستوى الذي شاهدناه في النصوص الشعرية السابقة .

إن شعر السري الرفاء على العموم يجري مع الطبع ، ويسير في طريق سهل منبسط لا أثر للتعقيد والاتواء فيه . وخياله خصب وواسع أشبه بكبار الشعراء . ولاسيما في ميدان الوصف . ولغته سليمة وفضيحة . وصنفته الفنية مقبولة تعجب القاري . ولعل قوله الآتي مصداق لطبيعة شعره (١٠٥٣) :

فهو مثل المدام بين صفاء
منطق يُخجل الربيع اذا حل
عربي روائح الشيخ والقي
سائل من شعاب وجرة ثاور
فهو ما شئت من هدير قروم
وبهائم ونفحة ومذاق
ل عليه الشحاب عقد النطاق
صوم منه والشث والطباق (١٠٥١)
بين أجزاعها وبين البراق
وهو ما شئت من حنين نياق

(١٠٥١) الميشاء ، الأرض السهلة ، ولبل الرابية الطيبة .

(١٠٥٢) السري الرفاء ، للدكتور حبيب حسين الحسن ، ص ٢٢٥ .

(١٠٥٣) ديوانه ، ٢ ، ٤٩٧ .

(١٠٥٤) الشيخ والقيصوم والفث والطباق ، نباتات معروفة بناحية الحجاز

الشريف الرضي

٢٥٩ - ٤٠٦ هـ

القرن الرابع للهجرة - على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية فيه بعد دخول البويهيين العراق - حافل بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة . زاهر بعدد كبير من العلماء والادباء والفقهاء . زاهر بالمكتبات التي تعج بالكتب في مختلف فنون العلم والأدب والتاريخ والطب والفلسفة .. حتى إن الشريف الرضي الذي سنترجم له في الصفحات الآتية كانت له دار سماها دار العلم . هياً لها كل مستلزمات الدراسة وأسباب الراحة .

سيرته :

هو أبو الحسن . الشريف الأجل . الملقب بالرضي . محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه . وأمّه السيدة فاطمة بنت الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الذي يرجع سبه الى الامام علي رض الله عنه .

ولد في بغداد بجانب الكرخ سنة ٣٥٩ للهجرة (١٠٠٠) . ونشأ في بيت عزّ وشرف . وفي بيئة علمية وأدبية . وقد توجه منذ الصغر مع أخيه الشريف المرتضى نحو التعلم والتثقف . وتلمذ على أساتذة أجلاء كثيرين في مختلف العلوم (١٠٠٦) . من ابرزهم ابو سعيد السيرافي النحوي المشهور . وأبو الفتح عثمان بن جني اللغوي النحوي . وأبو علي الحسن بن أحمد النحوي . وأبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري الفقيه المالكي . ومحمد بن عمران المرزباني . والشيخ المفيد ابو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن المعلم . وابن نباتة الفارقي ...

شبَّ الشريف الرضي عالماً شاعراً . طموحاً الى المجد . نزاعاً الى العلى . والقاريء في شعره يلمس ذلك بوضوح . مثل قوله (١٠٥٧) :

(١٠٥٥) المحمودون من الشعراء ص ٢٤٤ .

(١٠٥٦) الفديري ٤ : ١٨٢ - ١٨٥ ، الحماة في شعر الشريف الرضي ٨٢ - ٨٦ .

(١٠٥٧) ديوانه ١ : ٢٥٤ .

لا همُّ قلبي بركوبِ العُلى يوماً ولا بللٌ يَدِي السَّمَاخِ
 إن لم أنلها باشتراطِ كما شئتُ على بيضِ الطُّبا واقتراخِ
 أفوزُ منها باللبابِ الذي يُغني الأمانِي نيلُة والصُّراخِ
 لا بدُّ أن أركبها صعبةً وَقَاحَةٌ تَحْتِ غَلامٍ وَقَاحِ

ولعله كان يبغى الرئاسة لينتقد أئمة من السقوط في الهاوية ولا سيما بعد أن هان أمر الخلفاء العباسيين وأصبحوا لعبة بيد الأعاجم . ها هو ذا يصرح بملء فمه عن نيته فيقول (١٠٥٨) :

سأخطبها بحدِّ السيفِ فعلاً إذا لم يُغنِ قولٌ أو خطابُ
 وأخذها وإن رُغمتُ أنوفَ مُغالبَةً وإن ذلّت رقابُ
 وإن مقامَ مثلي في الأعادي مقامَ البدرِ تنبُحُ الكلابِ
 رموني بالعيوبِ مُلفقاتٍ وقد علموا بأنسي لا أعابِ

كان الشريف الرضي الى جانب ما يحمله من ابااء وعزّة وشمم . موصوفاً بالعمّة والورع والتدين . ووصف أيضاً بالجدود والحدب على قومه ومن اتصل به من الناس (١٠٥٩) . وسمت مكانته . وعلت منزلته عند الخاصة والعامّة . وقد أمر بهاء الدولة البويهبي أن تكون مخاطباته بعنوان : الشريف الأجل . ثم خلع عليه لقب الرضي . وشغل منصب نقابة الطالبيين . والنظر في المظالم . وامارة الحج . والنظر في أمور المساجد بمدينة السلام .

عاصر الشريف الرضي ثلاثة خلفاء : المطيع لله . والطائع لله . والقادر بالله . قضى من عمره أربع سنوات في عهد المطيع . وثمانية عشر عاماً في ظل الطائع . وخمسة وعشرين عاماً من مدة حكم القادر . وكان في عهد المطيع طفلاً . أما في عهد الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) فكان شاباً يافعاً . وكانت علاقته به طيبة ولا سيما بعد أن أطلق سراح والده من السجن الذي وضعه فيه عضد الدولة تنفيذاً لخطته في القضاء على من يخشى بأسهم على ملكه . وحينما جاء القادر الى الخلافة لم تنقطع صلته بدار الخلافة . بل قدّم مديحه لهذا الخليفة وكسب رضاه . وكانت له صلات ببعض الأمراء والوزراء بحكم مكانته في أسرته . فمن الأمراء شرف الدولة وبهاء الدولة البويهيين . ومن الوزراء صاحب بن عبّاد . وعبد العزيز بن يوسف .

(١٠٥٨) ديهوالة ١١ ، ١٢٧ .

(١٠٥٩) ينظر المنتظم ١٧ ، ٢٧٩ . شرح نهج البلاغة ١١ ، ٢٢٠

وكان الشريف الرضي - على كثرة مشاغله - دؤوباً في التأليف والتصنيف . وقد ترك آثاراً جليلة وقيمة (١١٠) . من أهمها : حقائق التأويل في متشابه التنزيل . وتلخيص البيان عن مجازات القرآن . ومجازات الآثار النبوية . وخصائص الأئمة . ونهج البلاغة . وديوان شعره .

توفي الشريف الرضي يوم الأحد السادس من شهر المحرم سنة ٤٠٦ للهجرة . ورثاه ثلاثة شعراء كبار ، الشريف المرتضى . والوزير أبو القاسم الحسين بن علي . ومهيار الديلمي .

شعره :

كان الشريف الرضي شاعراً فصيحاً . كما كان كاتباً مترسلاً . وإماماً في النحو واللغة والتفسير . قال الشعر بعد أن جاوز العشرين من سني عمره بقليل كما ذكر الشعالبي (١١١) . واستمر في نظمه طيلة حياته . وكانت آخر قصيدة له في رثاء صديقه أحمد بن علي البتّي في شعبان سنة ٤٠٥ للهجرة . أي قبل وفاته بعدة أشهر . وقد صنع ديوانه أبو حكيم عبد الله بن ابراهيم الخيري (ت ٤٧٦ هـ) مرتباً على الأغراض . فجعل باباً للمدح . وباباً للافتخار وشكوى الزمان . وباباً للمراثي . وباباً للنسيب . وباباً للفنون المتنوعة . ورتب القصائد في داخل كل باب على القوافي حسب حروف الهجاء . وقد عدل من جاء بعد أبي حكيم الى ترتيب الديوان كله حسب حروف الهجاء .

أخذ المديح قطعاً وافرأ من شعره . خصّصه للكثيرين من أفراد أسرته . وأصدقائه . وأرباب السلطة وأصحاب السلطان . وقد جاء بعضه خالياً من الصدق . وإن ظهر في اطار فخم مجملٍ بحلية الألفاظ . وقد اعترف الرضي نفسه بأنه كان يَهْدُبُ خواطره في مدح اللثام . فتأتى المعاني مُغلَفةً بثوب الصدق . ولعله فعل ذلك دريعةً من أذى المتسلطين على الحكم آنذاك : (١١٢) .

أهدَّبُ في مدح اللثام خواطري فأصدَّقُ في حُسن المعاني . وأكذبُ

(١٠٦٠) ينظر الفديري ٤ ، ١٨٦ - ٢٠٠ . الشريف الرضي وجهوده النحوية ٢٢ - ٢٨ .

(١٠٦١) يتيمة الدهر ٢ ، ١٣٦ .

(١٠٦٢) ديوانه ١ ، ١١٢ .

مدح الشريف الرضي من الخلفاء الطائع لله والقادر بالله . ومن بني بويه شرف الدولة وبهاء الدولة . ومن الوزراء أبا منصور محمد بن الحسن بن صالح ، وأبا علي الحسن بن حمد بن أبي الزمان . وأبا سعيد بن خلف . والصاحب بن عباد وسواهم . ومن أصدق مدائحه وأخلصها ما قاله في أبيه الحسين . وخاله أحمد بن الحسين وفي صديقه الحميمين أبي اسحاق الصابي . وأبي الحسن أحمد بن علي البتي الكاتب .

إن أكبر حادثة أثرت في نفسه أبلغ الأثر سجن أبيه في بلاد فارس (٣٦٩-٣٧٥هـ) ومصادرة أملاكه . فراح يمدح هذا الأب بقصائد كثيرة . وهي تنقسم الى ثلاث طوائف : الطائفة الاولى في التوجع لأبيه وهو سجين . والطائفة الثانية في تهنئة أبيه بالخلاص ورد أملاكه اليه . وطائفة الثالثة في تهنئته بالأعياد بعد أن لأن الزمان . ولكل طائفة من هذه الاشعار خصائص : فالطائفة الاولى تصور الحزن والجزع والتفجع . والثانية يغلب عليها الإنفتاح والإنشراح . والثالثة تخلع على أبيه رداء الملوك ؛ فهو يدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك (١٠٦٣) . وكانت أول قصيدة قالها في مدح أبيه مطلعها : (١٠٦٤)

نُصافي المعالي . والزمان معانِدُ ونهضُ بالآمال ، والجُدُّ قاعدُ

تقع القصيدة في ثمانية وسبعين بيتاً . وهي - وإن كان الرضي في أول نظمه للشعر - جيدة في عرض معاناة الألم والغربة بعد غياب والده . وقد تحدث في بعض آياتها حديث الحكماء :

ينالُ الفتى من دهره قَدْرَ نفسه وتأتي على قدرِ الرجالِ المكابِدُ
فدئى لك يامجدُ المعالي وبأسها ففعالُ جبانٍ شجعتُهُ الحقائقُ
فما تركت منك الصوارمُ والقنا ولا أخذتُ منك الحسانُ الخرائدُ
عزِلتُ ولكن ما عزَلتُ عن الندى وجودك في جيدِ الفلَى لك شاهدُ

وحيثما أطلق سراحه . وبارخ السجن . ووصل الى بغداد . رآه وخفق قلبه . وانهلث مدامعه فرحاً . وقابله بقصيدة تتشع بالسرور . منها قوله : (١٠٦٥)

(١٠٦٣) ينظر عبرية الشريف الرضي ١٠٦١

(١٠٦٤) ديوانه ١٠٦٥

(١٠٦٥) ديوانه ١٠٦٥

مِازَالٌ مِنْكَ عَلَى النَّائِبَاتِ مَقَامَ عَظِيمٍ وَيَوْمَ عَصِيبِ
 فَيَوْمَ حَسَامِكَ فِيهِ الْخَطِيبُ وَيَوْمَ لِسَانِكَ فِيهِ الْخَطِيبُ
 طَلَبْتُ لِنَفْسِكَ . فَاطْلُبْ لَنَا مِنَ الْعِزِّ . إِنَّ الْمَحَامِي طَلُوبُ
 وَإِنْ كُنْتَ تَتَأَنَّفُ عَنْ حُبِّهِ فَإِنَّ الْعِلَاءَ السَّيْنَا حَبِيبُ
 وَمَا نَحْنُ أَنْتَ . وَكُلُّ إِلَى دَعَاءِ الْعُلَى طَرِبُ مُسْتَجِيبُ

انه يريد جاه أبيه طريقاً الى « العز » . يريد نصيبه الخاص منه . لأن عز الأب ليس ملكاً للابن . وقوله « وما نحن أنت » وهو في السابعة عشرة من عمره يدل على نحو من الشعور بالاستقلال الذاتي يحسن بنا أن لا نغفله (١٠٦٦) .

أَنَّ شَخْصِيَةَ الرَّضِيِّ بَارِزَةٌ فِي مَدَائِحِهِ . تَظْهَرُ شَامِخَةً أَبْيَةً . تَطْلُبُ الْعِزَّ وَالرَّفْعَةَ .
 مِثْلَ قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ : (١٠٦٧)

فَإِنِّي رَأَيْتُ السَّيْفَ أَنْصَرَ لِلْفَتَى إِذَا قَالَ قَوْلًا مَاضِيًا أَوْ تَوَعَّدَا
 أَرَى بَيْنَ نَيْلِ الْعِزِّ وَالذَّلِّ سَاعَةً مِنَ الطَّعْنِ تَقْتَادُ الْوَشِيخَ الْمُقْصِدَا
 فَمَنْ أَخْرَجَتْهُ نَفْسُهُ مَاتَ عَاجِزًا وَمَنْ قَدَّمَتْهُ نَفْسُهُ مَاتَ سَيِّدَا
 إِذَا كَانَ إِقْدَامُ الْفَتَى ضَائِرًا لَهُ فَمَا الْمَجْدُ مَطْلُوبًا وَلَا الْعِزُّ مُفْتَدَى

ان فخره بنفسه . وزهوه بمقامه وشعره وشجاعته وفروسيته ومضاء عزمه وقوة ارادته . كثير في شعره . ولعل قصيدته الحماسية الآتية خير دليل على ذلك . ومطلعها : (١٠٦٨)

نَبِهْتُمْ مِثْلَ عَوَالِي الرِّمَاحِ إِلَى الْوَعْيِ قَبْلَ نَمُومِ الصُّبْحِ
 فَوَارِسٌ نَالُوا الْمَسْنَى بِالْقَنَا وَصَافِحُوا أَعْرَاضَهُمْ بِالصَّفْحِ
 وَمِنْهَا :
 وَخَطْبَةٌ يَضْحَكُ مِنْهَا الرُّدَى عِرَاءَ تَبْرِي الْقَوْمِ بَرِي الْقِدَاخِ
 صَبْرْتُ نَفْسِي عِنْدَ أَهْوَالِهَا وَقَلْتُ : مِنْ هَبْوتِهَا لَا بَرَاخِ
 إِمَافَتِي نَالَ الْعُلَى فَاشْتَفَى أَوْ بَطَلَ ذَاقَ الرُّدَى فَاسْتَرَاخِ

(١٠٦٦) وينظر الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ٧٧

(١٠٦٧) ديوانه ، ١ ، ٢٨١

(١٠٦٨) ديوانه ، ١ ، ٢٥٤

وقد أحسن الدكتور زكي مبارك في قوله : « ان هذا القصيد خليق بأن يكون نشيد الفتوة العربية . وأهل لأن يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية . فهو جذوة من الفتوة . وقبَس من الرجولة . وشهاب من العزم المصمم الذي يطيح المصاعب والأهوال » (١٠٦٦)

كان الشريف الرضي يعتز بقومه ويفخر بأرومتهم . (١١٧٠) ويريد لهم السمو والمقام الرفيع . ويسمى نفسه « الفتى العربي » . كما ورد في المقطوعة الآتية : (١١٧١)

اني لأكرم نفسي أن يقال جنى على الفتى العربي الخرد العرْبُ
اني على شغفي بالحب معتر من أن يقال شجاع فله الوصب
إنا معاشر لاتبلى مطارفنا الآ وهن لطلاب الندى سلب

انه يريد من الفرد العربي أن يكون شجاعاً ماضياً مثل سيفه كي لا ينكره الاجداد الذين عرفوا بالشهامة والاقدام والنبيل والغيرة : (١١٧٢)

إذا عربي لم يكن مثل سيفه مضاء على الاعداء أنكره الجد

وترى الشريف الرضي - وان كان نزاعاً الى المجد - يصبو الى الجمال . ويتنزل بالمرأة الحسنة بقلب رقيق . قال الباخري : « له شعر اذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه . وعقد بالنجم نواصيه . واذا نسب انتسب الرقة الى نسيبه . وفاز بالقدح المعلقى من نصيبه » (١١٧٣) .

أن غزله الجميل التمثل بقصائده المعروفة بالحجازيات (١١٧٤) في غاية الرقة والعدوبة . « قالها في أماكن لا يحل فيها الرفث ولا الفسوق . وقالها وهو نقيب الأشراف وامام الحج . لكنه نفَس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف . وجاش بها ويفورانها فما استطاع لها كتماناً . فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة : فغفر له معاصره هتافه للجمال واشادته بصوات نفسه ولوعات هواه » (١١٧٥) .

(١٠٦٦) عبقرية الشريف الرضي ١١ ، ١٨١

(١٠٧٠) ينظر الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ص ٧٩ - ٨٧ .

(١٠٧١) ديوانه ١١ ، ١٩٠

(١٠٧٢) ديوانه ١١ ، ٢٢٥

(١٠٧٣) دمية القصر ١١ ، ٢١١ .

(١٠٧٤) ينظر الشريف الرضي . دراسات في ذكراه الالفية ص ٦ - ٢٢ .

(١٠٧٥) في موكب الخالدين ص ٦٦ .

أن غزله يمتاز بسمو العاطفة . والوقار والعفة . الى جانب « جمال الانسياب . وحلاوة الموسيقى - في أغلب الأحيان - وهو من أقرب فنونه الى البساطة البدوية التي تتجلى في شعر العذريين وعشاق الاعراب . رجالاً ونساءً . وفيه نفحة من نفحاتهم في الحنين الى المراح ومعاهد الصبوات » . (١٣٦) . وقد سار غزله بين عشاق الادب وحفظوه ورددوه في محافلهم ومنتدياتهم . ومن بديع قصائده الكافية التي عارضها كثير من الشعراء (١٣٧) وهي : (١٣٨)

ياظبية البانِ ترعى في خمائله
الماء عندك مبدولٌ لشاربه
هبت لنا من رياح الغور رائحة
ثم اثنيينا . اذا ما هزنا طرب
سهم أصاب وراميه بذى سلم
وعدٌ لعينيك عندي ماوفيت به
حكمت لحاظك ما في الريم من ملج
كأن طرفك يوم الجزع يُخبرنا
أنت النعيم لقلبي والعذاب له
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها
سقى منى وليالي الخيف ماشربت
اذ يلتقي كل ذي دِين وماطلة
لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
هامت بك العين لم تتع سواك هوى
ليهنك اليوم أن القلب مرعك
وليس يُرويك . إلا مدمعي الباك
بعد الرقاد عرفناها برباك
على الرجال . تعللنا بذكراك
من بالعراق . لقد أبعدت مرمك
ياقرب ماكدبت عيني عينك
يوم اللقاء فكان الفضل للحاكمي
بما طوى عنك من أسماء قتلاك
فما أمرك في قلبي وأحلاك
لولا الرقيب لقد بلغتها فك
من الغمام وحياها وحياك
منأ . ويجتمع المشكو والشاكي
ماكان فيه غريم القلب الأك
من علم البين أن القلب يهواك

وكان الشريف الرضي من الشعراء المجيدين في فن الرثاء . المحسنين في اظهار اللوعة والأس على الراحلين . قال الثعالبي : « ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه » . (١٣٩) . وسماه الدكتور محمد عبدالغنى حسن « شاعر الدموع » (١٤٠) . وعقد الدكتور احسان عباس فضلاً عن رثائه بعنوان « النائحة الثكلى » (١٤١) ومن ينظر في ديوانه يجد كمية المراثي كبيرة . وهي في رثاء أهل

(١٣٦) (الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ٢٢٥)

(١٣٧) ينظر الوالي بالوفيات ١٢ ، ٣٧٨ ، فهرس ابن خبير ص ٤٢٤

(١٣٨) ديوانه ٢ ، ١٠٧ .

(١٣٩) هجيمة الدهر ٢ ، ١٤٩ .

(١٤٠) (الشريف الرضي للدكتور محمد عبدالغنى حسن ، ص ٧٠ .

(١٤١) (الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ١٩٢ - ٢٢٢ .

بيته . ورتاء الاصدقاء والرؤساء والملوك . وتعدُّ مرثيته لأمه من المرثي الحارة التي تفيض بالشعور الصادق . وتعبّر عن نفس مجروحة . وتبعث في القلب حزناً وتجعل القارئ يشاركه في مصابه الأليم . ونورد هنا الأبيات الأولى منها : (١٠٨٣)

أبكيك لو نقع الغليل بكائي وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرتني الدموع وتارة أوي الى أكرومتني وحيائي
كم عبرة موهنتها بأناملي وسترتها متجملاً بردائي
ما كنت أذخر في فداك رغبةً لو كان يرجع ميتاً بفدائي
لو كان يدفع ذا الحمام بقوة لتكدت غضب وراء لوائسي

وكثيراً ما يعبر في مرثيته عن آلامه وهمومه . ويرسل في ثناياها حكماً وأمثالاً تدل على نظرات عميقة في الحياة . مثل قوله من قصيدة يعزي فيها الخليفة عن عمر ابن اسحاق بن المقتدر سنة ٣٧٧ للهجرة : (١٠٨٣)

ولا ترج أن تعطى من العيش كثرةً فكل مقام في الزمان قليل
ومن نظر الدنيا بعين حقيقة درى أن ظلاً لم يزل سيزول
إذا لم يكن عقل الفتى عون صبره فليس الى حسن العزاء سبيل
وإن جهل الاقدار والدهر عاقل فأضع شيء في الرجال عقول
وموت الفتى خير له من حياته إذا جاور الأيام . وهو ذليل

وهكذا كان الشريف الرضي . متمكناً من ناصية القريض . في كل أغراضه . تراه يجيد عرض فكرته في بناء سليم . وأسلوب رشيق . وطرح شيق . ويحسن التوازن والتقابل بين الألفاظ والعبارات . كما يحسن اتیان التشبيهات والصور في مواضعها وتتجلى في شعره روح البداوة ممزوجة بروح الحضارة . ولا عجب حين يضع شعره في موازاة شعر الفرزدق وجرير في قوله : (١٠٨٤)

(١٠٨٣) ديوانه ٢ ، ١٩١

(١٠٨٤) ديوانه ١ ، ٤٣١

وقصيدة عذراء مِثْــه لـ تَأْلُقُ الرّوضَ النَّضِيرَ
فَرِحْتُ بِمَالِكِ رِقْهَا فَرَحَ الْخَمِيلَةِ بِالسُّغْدِيرِ
وكأنه في رصفها جَارُ الْفَرَزْدَقِ أَوْ جَرِيرِ

وتجدر الإشارة الى أنّ شعره يتميز بضبط عروضي محكم . وهندسة موسيقية تدل
على رهاقة حسّه . وبراعته في السيطرة على نظام البيت الشعري وفق القواعد
والأصول (١٠٨٥) .

أبو العلاء المعري

٣٦٢ - ٤٤٩ هـ

سيرته :

هو أبو العلاء أ . بن عبدالله بن سليمان ، ولد يوم الجمعة لثلاث ايام مضت من شهر ربيع الاول سنة ٣٦٢ ، الهجرة بمعرة النعمان القريبة من حلب . من اسرة عربية يرجع نسبها الى قبيلة تنوخ اليمانية . قال ابن العديم : « وتنوخ اكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها مفاخر وأدباً . فيهم الخطباء العظام . والبلغاء الشعراء » (١٨٦) . وكانت أمه بنت محمد بن سبيكة من بيت مشهور من بيوتات حلب .

كانت أسرته مليئة بالأمجاد من قضاة وحكام ورجال ثروة . فأبوه من العلماء وجده وأبو جده تولوا قضاء المعرة . وبقي القضاء في بني اخيه الى أن دخلها الفرنج سنة ٥٩٢ للهجرة . وكان له أخوان شاعران هما أبو الهيثم عبدالواحد . وأبو المجد محمد . وأورد ياقوت الحموي أسماء الشعراء المشهورين من أبناء أسرته مع نماذج من شعرهم (١٨٧) .

حرم أبو العلاء من نعمة البصر وهو في الرابعة من عمره بعد اصابته بمرض الجدري وكانت لهذه الصدمة اثر كبير في فكره وسلوكه طيلة أيام عمره . وقد أشار في احدي رسائله الى عماء . فقال : « وقد علم الله ان سمعي ثقيل . وبصري عن الابصار كليل . قضى علي وأنا ابن أربع . لا أفترق بين البازل والربيع . ثم توالى محني . فأشبهه شخصي العود المنحني » (١٨٨) .

كان والده المعلم الاول له . اذ رسم له طريق الدرس وتحصيل العلم . وأقرأه القرآن . وعلمه النحو واللغة والأدب . ثم تتلمذ على جماعة من علماء المعرة مثل أبي بكر محمد بن مسعود النحوي ويحيى بن مسعر التنوخي . وانتقل الى حلب وبها اخواله من آل سبيكة من أصحاب الشراء والسقاء . فاتصل بمحمد بن عبدالله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي . والتقى بتلاميذ ابن خالويه وابن جني واستمع الى ماكانوا يرددون من علوم في اللغة والادب والصرف . وكذلك اتصل

(١٨٦) الانصاف والتحريري ص ٤٨٩ (ضمن كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء) .

(١٨٧) مجمع الادباء ١ ، ١٦٢ - ١٦٩ .

(١٨٨) مجمع الادباء ١ ، ١٩٨ . البازل ، البعير في تاسع سنه . الربيع ، الفصيل .

بتلاميذ الفارابي وتلقف منهم علوماً في الفلسفة . وبعد عشر سنوات من اقامته بحلب ينهل من موارد المعرفة انتقل الى انطاكية واتصل بعلمائها وتردد على مكنتاتها . ثم بارحها الى اللاذقية واستمع فيها الى الذين كانوا يتدارسون العلوم الدينية والمعارف الفلسفية . ومنها عاد الى مسقط رأسه معرة النعمان .

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره قام برحلة الى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ للهجرة ودخلها في اوائل سنة ٣٩٩ للهجرة . وأقام فيها سنة وسبعة أشهر ليستزيد من طلب العلم ويستكثر من شيوخه على عادة رجال عصره ويتعد عن الحالة السياسية السيئة التي كانت عليها الشام آنذاك وبعد أن حقق غايته في مراجعة خزائن الكتب ومشاهدة العلماء والادباء قرّر العودة الى معرة النعمان . (١٠٨١) ولعل عسر اليد . لأنه كان أيبأ لا يقبل معونة من أحد اضافة الى ما وصل اليه من خبر مرض امه . عجل في هذه العودة . أما ما يرويه ياقوت الحموي أن لشريف المرتضى أهانه وأمر بطرده من مجلسه فلا يطمئن الى صحته . (١٠٩٠) وننقل هنا مقاله المعري في رسالته الى خاله من اكرام البغداديين له وحزنهم على فراقه : « ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد . فلقد أفردوني بحسن المعاملة . وأثنوا عليّ في الغيبة . واکرموني دون النظراء والطبقة . ولما أنسوا تسميري للرحيل . وأحسوا بتأهبي للظعن أظهروا كسوف بال . وقالوا من جميل كل مقال . وتلفعوا من الأسف ببرد قشيب . وذرفت عيون اشياخ شيب . » وقال في ختام رسالة أخرى : « ويحسن الله جزاء البغداديين . فلقد وصفوني بما لا أستحق . وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم . وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجد . فصادقوني غير جذب بالصفات . ولا هش الى معروف الأقسام . ورحلت وهم لرحيلي كارهون . وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون » (١٠٩١) .

اختار بعد عودته العزلة الا عن تلاميذه وقاصديه . وسمى نفسه « رهين الحسبين » . اي العمى ولزوم البيت . وقال في ذلك : (١٠٩٢)

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن النبأ النبيث (١٠٩٣)
لفقدي ناظري . ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

(١٠٨٩) ينظر : دار السلام في حياة ابي العلاء ص ٢٨

(١٠٩٠) ينظر : معجم الادباء ١ ، ١٦٩

(١٠٩١) رسائل ابي العلاء المعري ١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٢

(١٠٩٢) اللزوميات ١ ، ٢٤٩

(١٠٩٣) النبيث : الفرير وهو ايضاً من نبت التراب ، اخرجته ونبث عن السر ، بحث عنه .

وبذلك أضاف سجناً ثالثاً ، وهو الحياة ذاتها اي كون نفسه محبوسة في جسده ويبدو أن صدقه وصراحته خلقا له مشكلات واستفزا الكثيرين من حساده لرميه بالتهم وتحريض الناس عليه . لذا أثر العزلة والاعتكاف في منزله (١٢٤١) .

لبث تسعاً واربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان . لم يفادره إلا مرة واحدة لم تتكرر . حين حمله قومه على الخروج ليشفع لهم لدى أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب وكان قد خرج الى المعرة ليخمد حركة عصيان من أهلها (١٢٥٠) .

جلس في داره على طريقة الفلاسفة المتقشفين . منصرفاً الى التأليف والتصنيف والتدريس . قال ابن العديم : « وما زالت حرمة أبي العلاء في علاء . وبحر فضله مورداً للوزراء والامراء . وما علمت أن وزيراً مذكوراً . وفاضلاً مشهوراً . مر بمعرة النعمان في ذلك العصر والزمان . إلا وقصده واستفاد منه . أو طلب شيئاً من تصنيفه . أو كتب عنه » (١٢٦٦) .

وطال به العمر . وناء بأثقال الشيخوخة . ووهن جسده . وتخاذلت اعضاءه . فما عاد يستطيع النهوض إلا بمعاونة سواه . وعجز عن القيام للصلاة فانما يصلحها قاعداً . (١٢٧٧) . وفي شهر ربيع الاول سنة ٤٤٩ للهجرة خبث تلك الجدوة تاركاً وصيته . ان تكتب على قبره :

هذا جناة أبي علي وما جنيت على أحد
وشيعوه الى مثواه الأخير في حشد غفير من أهل العلم والأدب . وراثه اربعة
وثمانون شاعراً : (١٢٨٨)

آثاره :

كان أبو العلاء عالماً جليلاً واديباً فاضلاً . ذكر ابن العديم من قرأ عليه وروى عنه من العلماء والادباء والمحدثين . وقال معقباً على اسمائهم : « هؤلاء كلهم أئمة وقضاة وعلماء اثبات . وأدباء رواة وحفاظ ثقات . رووا عن أبي العلاء وكتبوا عنه .

(١٢٩٤) ينظر : الفكر الديني عند أبي العلاء المبري ص ٦٦

(١٢٩٥) فنظر التفاصيل في كتاب : مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ١٧٥ - ١٧٩

(١٢٩٦) الانصاف والتحري ص ٥٦٥

(١٢٩٧) مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ٢٧٠

(١٢٩٨) مجمع الأدباء ١ ، ١٧١ .

واخذوا العلم واستفادوا منه . لم يذكره أحد منهم بطعن . ولم ينسب حديثه الى
ضعف ولا وهن « (١٩٩) »

ان مصنفات ابي العلاء كثيرة ونافعة . قال ابن فضل الله العمري : « اني وقفتُ
على جملة من مصنفات عالم معرفة النعمان . ابي العلاء احمد بن عبدالله بن
سليمان المعري . فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان . مودعة فنوناً من الفوائد
الحسان . محتوية على أنواع الآداب . مشتملة من علوم العرب على الخالص
واللباب ؛ لا يجد الطامح فيها سقطاً . ولا يدرك الكاشح فيها غلطة « (١٣٠) . وقد
أحسن أحد الباحثين المعاصرين في الامام بأسماء كتبه ورسائله . (١٣١) واليك المطبوع
منها : رسالة الصاهل والشاحج . رسالة الهناء . رسالة الغفران . رسالة ابن القارح .
رسالة الاخرسين . رسالة الملائكة . رسائل ابي العلاء المعري . رسالة في تعزية ابي
علي الرجال . زجر النابج . عبث الوليد . الفصول والغايات . ملقى السبيل . سقط
الزند . اللزوميات . الدرعيات . شرح ديوان ابن ابي حصينة

شعره :

عرف أبو العلاء بحدة الذكاء . وقوة الحافظة . وتوقد الخاطر . وكثرة الحفظ .
وسرعة البديهة . قال ابن العديم : « كان أبو العلاء على غاية من الذكاء والحفظ
قيل له : بِمَ بلغت هذه الرتبة في العلم ؟ فقال : ماسمعتُ شيئاً إلا وحفظته . وما
حفظتُ شيئاً فنسيته « (١٣٢) ويروى عن الشاعر ابي الحسن علي بن مأمون المصيبي
انه قال : « لقيتُ بمعرة النعمان عجباً من العجب ؛ رأيتُ أعمى شاعراً ظريفاً .
يلعبُ بالشطرنج والنرد . ويدخل في كل فن من الجد والهزل . يكنى ابا
العلاء « (١٣٣) »

كان ابو العلاء موهوباً منذ الصغر . يروى انه نظم الشعر وهو في الحادية عشرة
من عمره ونيف على الثمانين وماسلاه . وقد توزع شعره في « سقط الزند » و
« اللزوميات » و « الدرعيات » . ويعد سقط الزند ديوان شعره . واللزوميات ديوان

(١٠٩٩) الانصاف والتحري ص ٥٢٠

(١١٠٠) مسالك الابصار (ضمن كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء) ص ٢١٨

(١١٠١) كهاف مصادر دراسة ابي العلاء المعري ٢٩٧ - ٢٠٥ .

(١١٠٢) الانصاف والتحري ص ٥٥١

(١١٠٣) تلمة يتيمة الدهر ٤١١

فلسفته وحكمته . أما الدرعيات فهي قصائد في وصف الدرع . ولعله رمز بها الى ماكان يترتب على قومه من وقاية انفسهم من الاعداء (١١٠١) .

ان شعره في سقط الزند يمثل نتاجه في سني شبابه و أيام قوته وفيه قصائد مما نظمه ايام اعتكافه في منزله بمعرة النعمان وأرسل به الى بعض اصدقائه ببغداد . وقد سماه بسقط الزند تشبيهاً بالشر الذي يتطاير من الزند . وفي هذا الديوان اغلب موضوعات الشعر المعروفة ماعدا الهجاء والعبث والمجون والخمر والغزل بالمذكر . وهي أغراض كانت شائعة في عصره . ولكن أخلاقه وسلوكه وتربيته منعتة من النظم فيها .

أما لزومياته فأكثرها مقطوعات نظمها بعد عودته من بغداد . (١١٠٥) تناول فيها الحديث عن مشكلات الحياة وانتقادها . وبث فيها آراءه الخاصة . وانطباعاته الشخصية . وتأملاته الذاتية . ونظراته الفلسفية في الكون وال عمران . وقد سميت باللزوميات لأنه ألزم نفسه بأربع كلف : التزم في قوافيها حرفاً لايلزم قبل حرف الروي . ونظم حروف المعجم كلها مرتبة . واستوفى في كل حرف الحركات الثلاث والوقف . ورتب الاوزان في كل فصل من فصولها على ترتيب الدوائر والبحور عند العروضيين .

ان القاريء في ديوانه « سقط الزند » يجد شعراً في المديح . وهو قليل لا يشكل غرضاً بارزاً . لم يسخره للتكسب وطلب الجاه . بل العكس من ذلك . فانه انتقد الشعراء المتكسبين الذين يلهثون وراء المنفعة . وعدّ مديحهم كذباً ورياءً . فقال : (١١٠٦)

لاخير في جزل العطاء . أتى رجلاً بأن كلامه جزل
يرجو . فيمدح غير مرتقب رباً . وكلّ مقاله ازل (١١٠٧)
شهرت سيوف القول طائفة كذب . وأفضل منهم العزل

ويحتل الرثاء مكانة بارزة في شعره . وهو يتسم بالصدق والحزن العميق . كما نلاحظ ذلك في رثاء والدته . كانت توفيت قبل قدومه من العراق بمدة يسيرة . فانه

(١١٠٤) ينظر ، النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري ص ١٩٨ - ٢٠٧ .

(١١٠٥) ينظر ، المعري ، وجوالب من اللزوميات ص ٦٤ ، المعري ذلك المجهول ص ٨٩ - ١٠٤ .

(١١٠٦) اللزوميات ٢ ، ٣٧٨ وينظر الى نقده للمتكسبين من الشعراء في رسالة الغفران ص ٤١١ .

(١١٠٧) الازل ، الكذب .

يشعر بحاجة إليها . ويرى نفسه كالرضع لم يصحبها ولم يتمتع بحياتها على الرغم من انها مضت وهو كهل . ويتمنى لقاءها ، ويتساءل عن ذلك اللقاء . ومتى يتم : (١٣٨)

مضت وقد اكتهلت فخلتُ أنبي رضيع ما بلغتُ مدى البِطام
فياركب المنون . أما رسولُ يبلغ روحها أرح السّلام
سألتُ : متى اللقاء؟ فقبل حتى يقومُ الهامدون من الرّجام (١٣٩)
فليت أذين يوم الحشر نادى فأجهت الرّمائم إلى الرمام (١٤٠)

وقد سبق لأبي العلاء أن فجع بوفاة والده . فرتاه بقصيدة تطفح بالأسى والأنين ، مثل قوله . وهو يحمل الحزن في فؤاده ويطوى المسرة جانباً : (١٤١)

فهل أنت . ان ناديتُ رمك سامع نداء ابنك المفجوع . بل عبدك القن (١٤٢)
سأبكي اذا غنى ابن ورقاء بهجةً وان كان ما يعنيه ضد الذي أعني
وأحمل فيك الحزن حياً . فان أمتُ وألقك . لم أسلك طريقاً الى الحزن
وبعدك لا يهوى الفؤادُ مسرةً وان خان في وصل السرور فلا يهني (١٤٣)

ونجد في شعره فخراً . ولاسيما بنفسه وبمواهبه العلمية . وخير شاهد على ذلك قصيدته اللامية المشهورة التي يقول في مطلعها : (١٤٤)

ألا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلٌ عسفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ
وفيها يقول مفاخراً متحدباً

وقد سار ذكرى في البلادِ فمن لهم ياخفاء شمسٍ ضوءها متكاملٌ؟
يهمُّ الليليُّ بعضُ ما أنا مضمّرٌ ويثقلُ رضوى دونَ ما أنا حاملٌ
وأنبي . وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ لآب . بما لم تستطعهُ الأوائلُ
وأغدو . ولو أنّ الصباحَ صوارمُ وأسري ولو أنّ الظلامَ جحافلُ

(١٤٥) سقط الزند ص ٢٩

(١٤٦) الرجام ، القبور

(١٤٧) الأذنين ، المؤذن ، أجهت ، فرغت الى غيرها ، أي اجتمعت العظام البالية وتلاقت

(١٤٨) سقط الزند ص ١٧

(١٤٩) عبد القن ، العبد العالص العبودية

(١٥٠) يهني : يدعو عليه بعدم الهناء والسرور .

(١٥١) سقط الزند ص ١٩٢ .

وَأَسِي جَوَادَ لَمْ يُحَلِّ لِحَامَهُ وَنَضَوْ يَمَانٍ أَغْفَلْتُهُ الصِّيَاقِلُ
 وَإِنْ كَانَ فِي لِبْسِ الْفَتَى شَرَفٌ لَهُ فَمَا السَّيْفُ إِلَّا غَمْدُهُ وَالْحَمَائِلُ
 وَلِي مَنْطِقٌ لَمْ يَرْضَ لِي كُنَّةَ مَنْزِلِي عَلَى أَنْبِي بَيْنَ السَّمَائِكِ نَازِلُ
 لَدَى مَوْطِنٍ يَشْتَاقُهُ كُلُّ سَيِّدٍ وَيَقْصُرُ عَنِ إِدْرَاكِهِ الْمَتَنَاوِلُ

ولم يتخلف أبو العلاء - وإن كان ضريباً - عن الوصف فله شعر رائق يشارك فيه بأحاسيه بعض مظاهر الطبيعة الجميلة . ويتعاطف معها بكل جوارحه . ويبرزها في صور مرئية تبهر الناظر وتعجبه . مثل قوله وهو يشدو بذكريات ليلة طريفة: (١١١٥)

رُبُّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصُّبْحُ فِي الْحَسَنِ نِ . وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ الطَّيْلِيسَانِ
 قَدْ رَكَضْنَا فِيهِ إِلَى اللَّهْوِ لَمَّا وَقَفَ النَّجْسُ وَقَفَةَ الْحَيْرَانِ
 وَكَأَنِّي مَا قَلْتُ وَالْبَدْرُ طَفَلٌ وَشَبَابُ الظُّلْمَاءِ فِي عَسْفَوَانِ :
 لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزُّدِّ جَ عَلَيْهِمَا قَلَانِدٌ مِنْ جُؤْمَانِ
 هَرَبَ النَّوْمُ عَنْ جَفُونِي فِيهَا هَرَبَ الْأَمْنِ عَنْ فَوَادِ الْجِيَانِ
 وَكَأَنَّ الْهَلَالَ يَهْوِي الشُّرْبِيَا فَهَمَا لِلدَّوَاعِ مَعْتَنِقَانِ
 وَسَهْلٌ كَوْجِنَةُ الْجَبِّ فِي اللَّوِّ نِ وَقَلْبُ الْمَحَبِّ فِي الْخَفْقَانِ
 يُسْرِعُ اللَّمَحَ فِي احْمِرَارِهِ كَمَا تُسْرِعُ رَغً فِي اللَّمَحِ مَقْلَةُ الْغَضْبَانِ

وشارك أبو العلاء في شعر الغزل . وقد استأثر بعضه بقصائد كاملة . ولا نعلم من أخباره . ما ينم عن حبه لامرأة ما . وليس في آثاره إشارة من قرب أو بعد . إلى أنه عانى التجربة حسيًا في الواقع المادي . ولعل أن يكون غزله من الشعر الرمزي الذي يخفي وراء ظاهر لفظه دلالة مستورة على آمنيات تعلق بها في شبابه الطامح . كأن تكون هذه الحبيبة رمزاً إلى الدنيا . أو إلى المجد . أو إلى نعمة البصر التي حرم منها (١١١٦) ... مثل قوله: (١١١٧)

حَيٌّ مِنْ أَجْلِ أَهْلَهُنَّ الدِّيَارَا وَابِكِ هِنْدَا . لَا النَّوِيَّ وَالْأَحْجَارَا
 هِيَ قَالَتْ لَمَّا رَأَتْ شَيْبَ رَأْسِي وَأَرَادَتْ تَنْنَكْرَا وَازْوَرَارَا :
 أَنَا بَدْرٌ . وَقَدْ بَدَا الصُّبْحُ فِي رَأْيِ سِكَ . وَالصُّبْحُ يَطْرُدُ الْأَقْمَارَا
 لَسْتُ بَدْرًا . وَإِنَّمَا أَنْتِ شَمْسٌ لَا تُرَى فِي الدُّجَى . وَتَبْدُو نَهَارَا

(١١١٥) سقط الزند ص ٩٤ .

(١١١٦) ينظر : مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ٦٧ - ٧١ .

(١١١٧) سقط الزند ص ٩٧ .

ولابد من الاشارة الى ان شيخ المعرّة نظر في شؤون الناس وأمر المجتمع آنذاك . وقد أفضّ مضجعه كما أفضّ مضجع المتنبي من قبل الوضع السياسي المتدهور وغياب السلطة عن أصحابها الشرعيين . وقد ربط أحد الباحثين بين آمال المتنبي وآمال المعري في قوله : « والمتنبي كان جباراً تام الرجولة . وأبو العلاء كان كيف البصر . فأعدته هذه العلة عن السير في السبيل الذي طرّقه المتنبي لبلوغ أمانيه . وإن كانت المرامي البعيدة والأوطار الكبيرة هي هي عند كليهما . وليس ذلك بغريب في عصر كان الناس فيه في حاجة إلى « رجل » . بل الأصح إلى « رجل عربي » صحيح العروبة . يدرأ عن الإسلام الفرس والروم والديلم » (١١٨) .

لقد كانت لأبي العلاء رغبة صادقة في إصلاح المجتمع وقيام حكم عادل مطهر من الظلم . والعدوان . يتصرف القائمون على شؤون الرعية بعقل راجح . وها هو ذا يتساءل (١١٩) :

متى يقوم إمامٌ يستقيد لنا فتعرف العدل أجيالٌ وغيطان ؟
ويقول (١٢٠) :

يرتجى الناس أن يقوم إمامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساء (١٢١)
كذب الظن لا إمام سوى الـ عقلٍ مشيراً في صبحه والمساء
ويغضب من أولئك الذين يسوسون الناس بغير عقل (١٢٢) :

يسوسون الأمور بغير عقلٍ فينفذ أمرهم ويقال : ساسة
فلفي من الحياة . وأف مني ومن ومن رئاسته خاسرة

لقد كان أبو العلاء يعتزُّ بالعقل . ويحكمه في كل مشكلة . ويرجع إليه في كل معضلة . ويتمنى أن يعيش الناس سعداء بعيدين عن الأذى (١٢٣) :

ما أحسن الأرض لو كانت بغير أذى ونحن فيها . لذكر الله . سكان

(١١٨) المتنبي والمعري ، ابراهيم ناجي ، الهلال لسنة ١٩٢٨ ، ص ٩٢٩ .

(١١٩) اللزوميات ٢٠٢ .

(١٢٠) اللزوميات ١٠١ .

(١٢١) الكتيبة الخرساء ، التي لا يسمع فيها صوت لكثرة الجلبة

(١٢٢) اللزوميات ١٠٢ .

(١٢٣) اللزوميات ١٠٢ .

إنه أراد لمجتمعه الخير والسعادة . والعدل والأمان . والبعد عن الجهل والضلال .
ولذلك كثر شعره في النقد الاجتماعي الذي سبق إليه أبو الطيب المتنبي (١١٢٤) .

وكلمة أخيرة نقولها : إنَّ نظمه صورة واضحة لحياته وتأملاته . رسمها بصدق
وأمانةٍ وصراحةٍ وشعره قبل العزلة المتمثل بسقط الزند قريب من شعر الشعراء
السابقين المجودين في الصياغة والتنسيق والصورة الشعرية . ولا عجب حين يقول
ابن حجر : « وأشاعره في المدح والغزل والرثاء التي في سقط الزند في نهاية الجودة .
وأما في لزوم مالا يلزم فمتوسط » (١١٢٥)

أما شعره في عزلته المتمثل باللزوميات الذي تناول فيه موضوعات عامة شغلت
عقول الناس آنذاك فيغلب عليه التصنع ويفتقر إلى البهجة الفنية . وهو صعب
الأسلوب . كثير الغريب والشاذ من الألفاظ . محشو بالمصطلحات العلمية والاشارة
إلى اشخاص أو أحداث تاريخية .. وقد انتقد طريقته عبدالله بن محمد بن سعيد بن
سنان الخفاجي . فقال : « وليس يغتفر للشاعر اذا نظم على هذا الفن لأجل ما ألزم
نفسه ما لا يلزمه شيء من عيوب القوافي . لأنه إنما فعل ذلك طوعاً واختياراً من
غير إكراه ولا إكراه . ونحن نريد الكلام الحسن على أسهل الطرق وأقرب السبل .
وليس بنا حاجة إلى المتكلف المطرح . وإن ادعى علينا قائله أن مشقة نالته وتعباً مرُّ
به في نظمه » (١١٢٦) . ومن الدارسين المحدثين الذين وجهوا نقداً للزوميات الدكتور
شوقي ضيف . اذ يقول : « إن أبا العلاء لم يكن يعني بتجويد شعره وتحبيره في
اللزوميات . فهو لا يعطيه المهلة الكافية للصلل والانتخاب والتنقيح . ثم التأليف
والتنسيق . فخرج شعره مهلهلاً ضعيف النسيج ليس فيه شيء من حبكة التعبير ولا
جمال التصوير إلا في القليل الأقل . وليس هذا فقط هو كل الأسباب . فهناك سبب
آخر ربما كان أهم من السبب السابق . وهو الطريقة التي أخرج بها أبو العلاء
لزومياته . أو بعبارة أدق الغاية التي أرادها للزومياته . فقد كان - فيما يظهر -
يريد ان يخرجها في شكل خطب وعظٍ وإرشاد : يقول في مقدمتها : « إنها تمجيد
لله الذي شرف عن التمجيد ووضع المنن في كل جيد . وبعضها تذكير للناسين
وتنبيه للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا » . فهو يقصد بها إلى الوعظ . وهي لذلك
تمتليء بما تمتليء به أساليب الوعظ من التكرار الملل . ومن أجل ذلك كنا نشعر

(١١٢٤) ينظر مع أبي العلاء في سجنه ص ١٥١ .

(١١٢٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢١٨ .

(١١٢٦) سر الفصاحة ص ١٧٢ .

حين قراءتنا اللزوميات بملل وسأم شديد . لأن الشاعر يتنقل بين أفكار يديء
فيها ويعيد . وقد أخرجها في أسلوب وإه . ليس فيه جمال فني ولا طرافة فنية إلا
قليلاً « (١١٢٧) .

سبط ابن التعاويذي

٥١٩ - ٥٨٤ هـ

عادت للخلافة العباسية هيبتها وعزتها بعد انتهاء الحكم السلجوقي في العراق سنة ٤٤٧ للهجرة . وظهر خلفاء عظام انتعش الأدب في ظلهم وراج سوقه في عهدهم . وبرز شعراء كثيرون أجادوا في النظم . ولعل من أشهرهم أبو الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص بيص . و أبو عبدالله محمد بن بختيار المعروف بالأبلة البغدادي . وأبو الغنائم محمد بن علي المعروف بابن المعلم الواسطي الهريثي . وأبو الفتح محمد ابن عبدالله بن عبدالله المشهور بسبط ابن التعاويذي .

سيرته :

أبو الفتح . محمد بن غبيدالله بن عبدالله . عُرف بسبط ابن التعاويذي نسبة إلى جدّه لأمه أبي محمد المبارك بن المبارك بن علي بن نصر السراج الجوهري الزاهد المعروف بابن التعاويذي (١١٣٨) . والتعاويذ : الحروز . ولعل أباه كان يرقّي ويكتب التعاويذ .

ولد في بغداد يوم العاشر من رجب سنة ٥١٩ للهجرة . ونشأ في حجر جدّه المذكور وتكفّله بالرعاية والتنشئة على حُب العلم والمعرفة . فأرسله إلى الكتاب . ولما أصبح يافعاً أخذ يتردّد على علماء عصره ليتزود بعلوم اللغة العربية وآدابها . حتى استطاع أن يجمع بين الكتابة والشعر .

وصل أسبابه بالخفاء والوزراء والأكابر الأمثال . أمثال الخليفة المستنجد بالله . وابنه الخليفة المستضيء بأمر الله . وحفيده الخليفة الناصر لدين الله - ومن الوزراء الذين اتصل بهم ومدحهم . أبو المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة . وعضد الدين أبو الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء .. وله مديح في البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي ووزيره المشهور القاضي الفاضل .

اشتغل سبط ابن التعاويذي كاتباً في ديوان المقاطعات في بغداد والحلّة . ويبدو ان هذه الوظيفة كانت تُرهبه وتعبه إذ نراه يتشكّى منها كما جاء في قوله (١١٢٩) :

(١١٢٨) ينظر ، الغريدة ، قسم العراق ، ٢٠ / ٢ ، ٧ ، وفيات الأعيان ، ٤ ، ٤٦٦ .
(١١٢٩) ديوانه ص ٢٢٢ .

كم أنفق الأيام في خدمة أحرزت فيها صفة المخسر
وليل حظي ما انجلي صبغة وغرس مدحي بعد لم يُثمر
في كل يوم سفر راتب إلى مكان شاسع مقفر
كأنسي من حره واضع أخص رجلي على مجمر

ولما وجد نفسه في ظنك من العيش ، وأن مهنته لاتسد متطلبات الحياة . اتصل
بديوان الخلافة وأصبح أحد شعرائه الرسميين (١١٣٠) له راتب شهري حاله كحال
مجموعة من الشعراء آنذاك عرفوا باسم « شعراء الديوان العزيز » أو شعراء « ديوان
الخلافة » . كانوا يحضرون في الأعياد والمآتم وأيام الفتوح إلى الديوان المذكور
فينشدون قصائدهم بحسب مراتبهم (١١٣١) . وبقي راتبه يجري عليه ثم التمس ان
ينقل باسم أولاده . ولما وجدهم قد استأثروا به . سأل الخليفة الناصر لدين الله ان
يحدّد له مبلغاً آخر يتقاضاه مدّة حياته . وشرح الأسباب في قصيدة له . منها
الآيات الآتية (١١٣٢)

نقلت رسمي جهلاً إلى وُلد لست بهم ماحييت أنتفع
نظرت في نفعهم وما أنا في اجت لا بنفع الأولاد مُبتدع
وقلت هذا بعدي يكون لكم فما أطاعوا أمري ولا سمعوا
واختلسوه مني فما تركوا عيني عليه ولا يدي تقع
فبئس والله ما صنعت فأض ررت بنفسي وبئس ما صنعوا
فإن أردتسم أمراً يزول به الخصام من بيننا ويرتفع
فاستأنفوا لي رسماً أعود على ضنك معاشي به فأتسع

استجاب الخليفة إلى طلبه . وأنعّم عليه بالمال الكافي لعيشه . وفي السنوات
الأخيرة من حياته فقد بصره وعمى ولزم داره إلى ان أدركته المنية سنة ٥٨٤ للهجرة .
شعره :

ترك سبط ابن التعاويذي بعد وفاته كتاباً بعنوان « الحجة والحجاب » لم
يصل إلينا . وديواناً شعرياً جمعه بنفسه قبل أن يضر . وافتتحه بمقدمة لطيفة
يستشف منها ألوبه في الكتابة . وربّبه على أربعة أبواب . وما نظمه بعد العمى
سمّاه « الزيادات » وطلب من ناسخي الديوان ان يلحقوه به . وقد حقّق هذا

(١١٣٠) ينظر أسماء الكثيرين منهم في : الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى

سقوط بغداد ص ٨٩ - ٩١ . وينظر : الشعر العراقي في القرن السادس الهجري ص ٨٩ .

(١١٣١) سبط ابن التعاويذي (مسكوني) ص ٥٠ .

(١١٣٢) ديوانه ص ٢٧٢ .

الديوان المستشرق الانكليزي مرجليوث وطبعه عام ١٩٠٣ عن نسختين جمع بينهما . ولم يكن أميناً في عمله ، فتمصّف فيه حذفاً وتقديماً وتأخيراً ، وأغفل ذكر اختلاف الروايات ، ووقع له شيء غير قليل من التحريف والتصنيف . (١١٣)

كان سبط ابن التعاويذي شاعراً مُجيداً في سبك الشعر وحبكه . وقد أقرّ له القدامى بالفضل والتقدم (١١٤) . قال ابن خلكان : كان شاعر وقته . لم يكن فيه مثله . جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ، ورقة المعاني ودقّتها . وهو في غاية الحسن والحلاوة . وفيما أعتده لم يكن قبله بمثتي سنة من يُضاهيه . ولا يؤاخذني من يقف على هذا الفصل . فإن ذلك يختلف بميل الطبايع . والله القائل .

وللناس فيما يعتقدون مذاهب (١١٥)

وهذا الحكم - وإن كان فيه شيء من المبالغة - جيد . فإن سبط ابن التعاويذي شاعر متمكن من ناصية القريض . وشعره رصين الأسلوب . متين الديباجة . واضح المعنى . غير مفرط في الصنعة . قال محقق ديوانه : « والمرجو من القاريء الكريم ألا يمعن النظر في الزلات . بل يلتفت إلى ما في الشعر من السحر . وكم في هذا الديوان من مدحة رافعة للقدر . وأرجوزة شارحة للمصدر . ومن أهجية جارحة للأعراض . وشكايمة مصيبة للأعراض . ومرثية مبكية للعيون . وقطعة مختلفة الفنون . فإن القصائد كأنها مرايا تظهر فيها أسرار القلوب وخفايا الخطوب . وتكاد تعيد الأموات وتجعلهم ذوي حياة وتُظهر من غير وسلف نصب عين من خلف حتى يشترك فيما كان يداخلهم من المقة والمقت عند قديم الوقت . ويشاهدهم في السراء والضراء عند اختلاف الشؤون ويسمع حديثهم ذا الشجون » (١١٦) .

طرق سبط ابن التعاويذي أغلب موضوعات الشعر المعروفة من مديح وهجاء ورتاء وغزل وشكوى ووصف واخوانيات .. وقد أخذ المديح القسط الأوفر من شعره . صب فيه جلّ اهتمامه فجاء رصيناً متيناً في الفاظه ومعانيه . وأول خليفة مدحه كان المستنجد بالله . إذ نراه يُضفي عليه هالة من العظمة والجلالة . ويبالغ في كرمه وسخائه . فيقول (١١٧) :

(١١٢٢) تنظر ، خريدة العراق ٢ / ٧٠٢ .

(١١٢٤) مضمار الحقائق ص ٦ ، معجم الأدهاء ١٧ ، ٢٠ . تاريخ دول الإسلام ٤ ، ١٢٥ ، شذرات الذهب ٤ ، ٢٨١ .

(١١٢٥) وفيات الأعيان ٤ ، ٤٦٦ .

(١١٢٦) مقدمة الديوان ص ٤ .

(١١٢٧) ديوانه ص ١٧٨ .

كريم المغارس من هاشم
جواز إذا لم يكن يتديك
أمان السؤال وأحيا النوال
هنية الموارد جم الحياض
يجيز العبدى وَيَقْبَلُ العشارا
قبل السؤال رأى الجود عارا
وراض الجماح وخاض الغمارا
يدنو قطفوا ويحلوا ثمارا

وبعد وفاة الخليفة المستنجد بالله (ت ٥٦٦ هـ) تقرب من ابنه الخليفة المستنفي بأمر الله ووثق علاقته به . وقدم بين يديه مجموعة من القضاة أشاد فيها بشجاعته وشهامته وقدرته على ضبط الأمور . وما يسر الله في زمانه من فتوح . وعودة مسر إلى حضن الخلافة العباسية . وقد تمنى في إحدى القضاة ان تمل جيوشه إلى أقصى الشرق (١١٣٨) :

أقسم النعم لا يفارق جيشا
ويمينا لتملكن وشيكنا
وليوفي على أقاصي خراسا
بجيوش نعم مسع أهل الـ
لهم فيه رايه سوداء
ما أظلته تحتها الخضراء
ن غدا منك غارة شعواء
عسين منها كتيبة خرساء

وجاء بعد المستنفي بالله (ت ٥٧٥ هـ) ابنه الناصر لدين الله . وهو أعظم خلفاء الدولة العباسية في أواخر عموها . أعاد للخلافة مكانتها وسلطتها وجدد شباب الأمة بتجديد الفتوة (١١٢١) . وقد خصه سبط ابن التعاويذي بأكبر عدد من غرر مدائحه وقد صرح بذلك فقال (١١٤٠) :

أصوغ له حابي المديح ولم تكن
لتحسن إلا في غلاة جواهره

ويكثر في مديحه له من بيان حسن منطقته . وصاب رأيه . وجودة تفكيره إلى جانب صلابه عزيمته . وقوة إرادته . وتمكنه الكبير في تنظيم الجيش وتعبئته وتسييره لمقاتلة الخصوم وضرب المعافل وفتحها مثل قوله من قصيدة طويلة (١١٤١) :

(١١٣٨) ديوانه ص ٤ .

(١١٣٩) ينظر بحث الدكتور مصطفى جواد (الناصر لدين الله) في كتاب : في التراث العربي ص ١ .

(١١٤٠) ديوانه ص ١٧٢ .

(١١٤١) ديوانه ص ١٦٤ .

هاشمي مؤيد الرأي والبنيط
 مورد البيض والأسنة في الـ
 طاعن الفارس المدجج بالسـ
 ورأينا ما كان من جدّه المد
 من فتوح المعاقيل المشمخـ
 واقتناص الأعداء بالأعوجيا
 ق جميعاً والعزم والتفكير
 روع ظماء ماء الطلى والنخور
 رأي ومردى السكمي بالتدبير
 صور يروى عن جدّه المنصور
 رات بيض الطي وسد الثغور
 ت المذاكي والرهسات الذكور

وكانت معارك النضال ضد الفرنج في عهد هذا الخليفة على أشدها في ديار الشام بقيادة المجاهد صلاح الدين الأيوبي . وكان لسبط ابن التعاويذي موقف مشرف في مؤازرة هذا البطل بقصائد حماسية يدعوها فيها إلى استئصال شأفة الأعداء المارقين وطردهم من بقاع المسلمين العزيزة ولاسيما القدس الشريف . وقد تحقق في حياته فتح هذه المدينة وعودتها إلى أصحابها الشرعيين سنة ٥٨٣ للهجرة . واليك الأبيات الآتية من قصيدة له : (١١٢) :

غادرت أهل البغي بين مجدل
 أو هارب ضاقت عليه برحبها الـ
 فأصبح بلاد الروم منك بغارة
 واحسّ بحدّ ظباك داء حسمة
 حتى يرى للمشرقية مطعم
 لاتعفون إذا ظفرت بمجرم
 فلتشكرنك أمة تسحنو على
 لقي الجمام وخائف يترقب
 أرض الفضاء وأين منك المهرب ؟
 لننصر فيها رائد لا يكذب
 ودواؤه بعد التفاقم يصعب
 بالفتك من تلك الدماء ومشرّب
 منهم قرب جريمة لاتوهب
 ضعفائها حدبا كما يحنو الأب

وكان عماد الدين الكاتب صديقا وصاحبا مخلصا لسبط ابن التعاويذي . تعرف عليه حينما كان يعمل في العراق . ولما انتقل إلى الشام واشتغل في دولة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ثم في دولة صلاح الدين الأيوبي لم ينس هذه الصداقة والعجبة . وبقي يرسله . وقيد له ترجمة في كتابه النفيس « خريدة القصر وجريدة العصر » . وعن طريقة عُرف شعره عند صلاح الدين والقاضي الفاضل . فمن مديحه للقاضي الفاضل والتنويه بقلمه الرفيع في تدبيح الكتابة قوله (١١٣) :

(١١٤٢) ديوانه ص ٢٥

(١١٤٢) ديوانه ص ١٩٢ .

وَكاتِبٍ ما فَتَتَتْ كُتَيْبَةَ طلائعاً للفتح والنصر
تَسْنُونُ يَوْمَ الرُّوعِ أَقْلَامُهُ عن قُضْبِ الهنديّة البُتر
رِئائِلُ كالْحُبِّ شَمُّ بَرَقها الد ساري وبثّ منها على دُعر
سوارباً في الحزن والسَّهلِ أو شوارداً في البِرِّ والبحر
يَسِيْرُ في الأفاقِ أنباؤها كأنّها الليلُ اذا يَسري

إنّ ممدوحى سبط ابن التعاويذي كثيرون . قدّم بين أيديهم . أو بعث إليهم .
أجود شعره . ولا يتسع المجال هنا لذكرهم جميعاً (١١١١) .

ولم يسلم لسان سبط ابن التعاويذي من الهجاء . مع إنه نشأ في بيت يسوده
الزهد والعبادة والتقوى . فإنّه كان يكره الشعراء المتخاذلين الذين يبيعون ماء وجههم
رخصاً في أبواب الممدوحين . ويتهجم عليهم لسكوتهم على المفايد والمقايح كما جاء
في قصيدته التي يقول في أولها: (١١١٠) :

ياقاله السُّعْرَ اِما فيكم فتى ذو مخميه
ياأنف ان يغشى مقا مات السؤال المخزيه
الى متى جفونكم على قذاها مفضيه
وكم تسموتون بأد واء السهموم المدويه

من الشعراء الذين هجاهم . الابله البغدادي . وابن المعلم الهرتي . ومن الوزراء
شرف الدين ابو جعفر محمد بن ابي الفتح المعروف بابن البلدي . وهجاؤه احياناً
يكون لاذعاً وساخرًا كما نرى في هجاء رجل يدعى ابن الزريش ويُشبهه باليهود في
خُبثهم ولؤمهم وغدرهم: (١١١٦)

وأنت مثل اليهود خُبثاً خلقت من ربيّة وفحش
مجتمع فيك كلُّ شؤمٍ وكلُّ لؤمٍ وكلُّ عُشٍّ
غيرٍ لبسٍ ولا أريبٍ ولا ملبح الكلام هَشٍّ
مافيه خيرٌ ولا حياءُ فلا يُغذي ولا يُعشي

(١١٤٤) ينظر: سبط ابن التعاويذي (مكولي) ص ٤٩ - ٨٠ . وسبط ابن التعاويذي

(الألوسي) ص ١٤٢ - ١٤٦ .

(١١٤٥) ديوانه ص ٤٦١

(١١٤٦) ديوانه ص ٢٤٦

ولسبط ابن التعاويذي قصائد ومقطوعات في الرثاء تنم على حزن عميق ولا سيما المراثي التي قالها في اهله وذويه واقاربه . فمن مراثيه الجيدة قصيدته في رثاء جده لامة الشيخ الزاهد ابي محمد المبارك بن المبارك . وقد افتتحها بمطلع فيه شي من الحكمة (١١٧) :

لكل ما طال به الدهر أمد لا والدأ يُقي الرُدى ولا ولذ
ومنها :

ان كنت في ثوب العلى فانني بعدك في ثوب نحول وكمذ
أوحدتني وفي الرجال كثرة ياقلّة الجار وقلّة السعدذ
مالك لا ترحم ذلّ موقفي وكنّت احنى والد على ولذ

ومن مراثيه التي تفيض بالحسرة والاسى قصيدته في رثاء ابن ابنه . وكان يحبه ويأنس بمداعبته . منها قوله (١١٨) :

كأنه الورذ اتى زائراً ثم انقضت أيامه عن كئيب
أشرق كالنجم مضيئاً فما ملأت عيني منه حتى غرب
كما تجلّى البدر من دونه سحابة غراء ثم احتجب
ويلى عليه ما بلغت المنى منه ولا قضيت منه أرب
أبا علي كنت لى مؤنساً فخالستني فيك أيدي الريب

وتغنى سبط ابن التعاويذي بشعر رقيق للحب . اظهر لواعجه واشواقه لمن أحب من الجميلات في اشكالهن وحركاتهن . وقد جعل هذا الشعر مستقلاً قائماً بذاته . او في مقدمات القصائد . مثل قوله من ارجوزة تجاوزت ثمانين بيتاً (١١٩) :

مُشَبَّعة الخُلُخالِ والسَّوار كأنسها بذر السماء السَّاري
جَلَّتْ عن المسحاق والسُّرار تُشرق من مطالع الأرزار
علقتها في حانة الخُمار خلعت في الحب بها عذاري
مالأخسي الضُّبوة والوقار ولم أزل منهنك الأستار

(١١٤٧) ديوانه ص ١٣٥

(١١٤٨) ديوانه ص ٥٨

(١١٤٩) ديوانه ص ٢٢٦

وفي شعره شكوى ممزوجة بالألم . ولا سيما بعد ان تجاوز الخمسين من العمر
 وقد نور عينيه ولازم داره . مثل قوله يصف حالته التي آل اليها . ويتحرَّر على ايام
 شبابه التي قضاها في لهو ومرح وانشراح (١١٠٠) :

يا لك من ليل حجا	ب جنحة معتكر
ظلامه لا ينجلي	وصبحه لا يسفر
ما في حياة معه	لذي حصة وطبر
غادر نسي كسأنسي	في كسر بيت حجير
لا أهتدي لحاجتي	وفي الليالي عير
أين الشباب والمراخ	والهوى والأشهر
أخنت على أيامها	أيام دهر غدر
لم يبق لي إلا الأسي	منهن والتذكر

وكثر عنده العتاب ممتزجا بالشكوى . ولعل أثر العمى كان شديداً على مزاجه
 وسلوكه . إذ أن « كف البصر في حد ذاته يخلق مشكله لصاحبه ترمي به في حومة
 من ركام الغد النفسية والحسية لا يستطيع ان يتغلب عليها إلا كل مؤمن شجاع .
 وهي عند الذين ولدوا مكفوفين اشد منها عند هؤلاء الذين ضروا وهم كبار . فهؤلاء
 الاخيرون تكون للحياة في اذهانهم وعقولهم صوراً باقية يتحسسونها ويلتمسون منها
 الوحي الصادق الدقيق في اكثر الاحيان . وقد عرف التاريخ عدداً من الشعراء
 العظماء المكفوفين » (١١٠١) . وكان سبط ابن التعاويذي من الشعراء الذين حرمو البصر في
 اخريات اعمارهم وظهر اثره في شعرهم . فها هو ذا يعاتب بشعر يسيل رقةً وعذوبةً
 صديقه ابا الفتوح ابن علي القاريء على التأخر عن الزيارة التي اعتاد ان يؤديها
 بين حين وآخر (١١٠٢) :

قد فاتني منك حظ عيني	فلا تدعني في حظ سمعي
كنت اذا ملني حبيب	أنجدي بالبكاء دمعي
من لي بهطالة هتون	أبكي بها طاقتي ووسعي
على أناس بانوا وكانوا	ذخري ليومي ضري ونفعي

(١١٥٠) ديوانه ص ٤٨٢

(١١٥١) الشعر والعمراء للدكتور مصطفى الحكمة ص ١٠٢ .

(١١٥٢) ديوانه ص ٢٧١ .

فليت شعري بأي حكم
سَوَّغْتَ بعد الوصالِ هجري
فارغ عهود الإخاءِ وَاكْرَمْ
واشْفِ بِنَفْسِيَاكِ مَا بَقَلْبِي
يا ابنِ علسِيِ وَأَيُّ شَرِّ
مَنْ لَمْ يَزُرْ فِي الْحَيَاةِ رَبْعِي

وظهرت في شعره مسحة من الحزن واليأس . بعد أن دبَّ الهزال في بدنه . وسرى الضعف في أعضائه . وأخذت الأعوام تنقص من سعيه ونشاطه . وبدا ذلك جلياً في الشعر الذي نظمته في الزهد والوعظ والارشاد الذي وجهه للناس لعلمهم يتخذون العبرة والعظة قبل فوات الأوان واقتراب ساعة الرحيل من دنيا الفناء . مثل قوله (١١٤٣) :

سَلْ عَنِ الْمَاضِينَ إِنْ نَطَقْتُ
أَيُّ دَارٍ لِلسَّبِيلِ نَزَلُوا
مَلَكُوا الدُّنْيَا فَمَا دَفَعُ الرَّ
فَتَكْتُ مِنْهُمْ نَوَائِبَهَا
ضَحَكُوا حِينَا فَعَادَ أَسَى
وَبَرَّتْهَا لِلزَّمَانِ يَدُ
يَأْخُذُ الْخَمْسِينَ بَاهِرَهَا
بَاتَ مَغْرُورًا تَسْمُدُ لِبِهِ
لَاهِيَا وَالْعَمْرُ مَنْتَهَبُ
قَفَّ قَلِيلاً قَدْ بَلَغْتَ مَدَى

عَنْهُمْ الْأَجْدَاثُ وَالْبِرْكُ
أَوْ سَبِيلِ لِلرَّدَى سَلَكُوا
مَمُوتَ مَا حَازُوا وَمَا مَلَكُوا
بِرِّجَالِ طَالَمَا فَتَكُوا
وَبَكَاءِ ذَلِكَ الْفَحْحَاكُ
مَا عَلَسِيَهَا فِي دَمِ دَرَكُ
وَهُوَ فِي دُنْيَا مِنْهُمْ مَكُ
مِنْ حَبَالَاتِ الرَّدَى شَبَكُ
بَيْدِ الْأَيَّامِ مِنْهَتِكُ
لِلْمَنَايَا فِيهِ مَعْتَرِكُ

ان شعره - كما لاحظنا - قريب المأخذ . في -بناء سليم مترابط . ولغة فنيحة . وموسيقى مستأنسة . وقد أدرك العفدي ذلك فقال : كان شاعرا منطبقا . سهل الألفاظ . عذب الكلام . منسجم التراكيب . ولم يكن غوامدا على المعاني (١١٤٤) .

(١١٤٣) ديوانه ص ٢٢٠ .

(١١٤٤) نكت الهميان ص ٢٥٩ .

عمر بن الفارص

٥٧٦ - ٦٢٢ هـ

اندفع الفرنج نحو الشرق طمعاً في خيراته ووافر ثرواته بموجات متتابعة وفترات متقاربة منذ قرنين من الزمان ابتداءً من سنة ٤٩٢ للهجرة واحتلوا اجزاء عزيزة من الوطن الغالي . ولا سيما القدس الشريف . وفرّ الناجون الى الله من الحرب الضروس التي وقعت آنذاك . وتضرّعوا اليه أن يدفع عنهم الكروب الشديدة . ويحسر اسجاني البلايا الصفيقة . وتوزّع الشعراء الى فريقين . ذهب فريق الى الاعراب عن دخائل النفوس وكوامن الافئدة والى الافصاح عن ضراوة الاحداث وجسامة الاهوال والكوارث بقصائد عامرة . منها قصيدة الامام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) التي مطلعها (١١٥٥) :

الشدة أودت بالمهج يارب فجعل بالفرج

وقصيدة يوسف بن محمد التوزري المعروف بابن النحوي (ت ٥١٣ هـ) المشهورة بالبنفرة ومطلعها: ^(١١٥٦)

اشتدي أزمّة تنفرجي قد أذن ليملك بالبلج

وذهب فريق اخر الى التضرّع بالرسول الكريم . صلى الله عليه وسلم . والتوسل لديه . والتعلق باعتابه ان يزيل عنهم الاحزان الجاثمة . ويردّ الامن والدعة الى نفوسهم الهائمة . ويلج بهم ابواب الرحمة الواسعة الى ساحات الرضا السرمدي .

وقد كانت الحالة الاقتصادية السيئة في الطبقات الدنيا من المجتمع والولايات التي رافقت الحروب الصليبية التي وقعت على ارض الشام ومصر ثم الهجمات التتيرية التي اجتاحت العراق دافعاً كبيراً لالتجاء الكثيرين الى الله والملاذبه والانضواء تحت رحمته . وذهب بعضهم الى اعتزال الحياة بما فيها من لذة ونعيم والترشد فيما انعم الله به على عبادة .

وقويت الحركة الصوفية والدعوة اليها . وظهر فيها رجال كبار امثال الشيخ عبدالقادر الجيلي (ت ٥٦١ هـ) وابي الفتوح يحيى بن حبش السهروردي (ت ٥٨٦ هـ) وشهاب الدين ابي حفص عمر بن محمد السهروردي (ت ٦٣٨ هـ) وابي الحسن

(١١٥٥) الدرر القوالي من اشعار الامام الغزالي ص ٩ .

(١١٥٦) مفتاح السعادة ٣ ، ١٤٤ .

علي بن عبدالله الشاذلي (ت ٦٥٦ هـ) وجلال الدين محمد بن الحسين الرومي (ت ٦٧٢ هـ) ... وكان ابو حفص عمر بن الفارض واحداً من هؤلاء المشهورين .

سيرته :

هو الشاعر الصوفي الشهير عمر بن علي بن مرشد . الحموي الاصل . المصري المولد والنشأة والوفاة . المشهور بابن الفارض . يكنى ابا القاسم وأبا حفص . ويلقب شرف الدين . وسلطان العاشقين . وسلطان المحبين .

ولد في القاهرة في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ للهجرة (١١٧٧) . في بيت دين وورع وخلق وعلم . كان ابوه عالماً درس على ابن عساكر وغيره . وقدم من حماة الى القاهرة . واقام بها . وصار يثبث الفروض للنساء على الرجال بين ايدي الحكام . ومن هنا كانت تسمية الفارض . ثم ولي نيابة الحكم للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي . وعرض عليه منصب قاضي القضاة فامتنع . واستقال عن نيابة الحكم . وأثر العزلة والانتقطاع الى العبادة في الجامع الازهر .

درس ابن الفارض علوم اللغة العربية والشريعة على ابيه وعلى العلماء الذين كانوا يعقدون حلقات الدرس في الجامع الازهر . وكانت تغمر عصره موجة من التصوف . فتأثر بها وتزهد وسلك مسلك الصوفية في التقشف ومجاهدة النفس والخلوة للتهدج والتعبد .

زار الحجاز واتصل بمنابع الوحي والالهام . وجاور مكة زهاء خمسة عشر عاماً . تجرد فيها للذكر والتضرع والابتهال . ثم عاد الى القاهرة . واقام بقاعة الخطابة في الجامع الازهر . وهي القاعة التي اقام فيها ابوه من قبل . وكان الجميع يقدرونه ويجلونه حتى صاحب مصر الملك الكامل محمد بن ابي بكر العادل . اذ كان ينزل لزيارته والاستئناس بمجالسته والاستماع الى شعره . وساعده على الظفر بمحبة الناس مامنحه الله من جمال الخلق والخلق وما سار على السنة الناس من شعره .

وعاد مرة ثانية الى الحجاز ولكنه لم يمكث فيها كثيراً . فانه ادى مناسك الحج وابتنع بالشيخ ابي حفص عمر بن محمد الشهرودي من اقطاب التصوف بالعراق في زمانه . ثم عاد الى القاهرة وجلس في مكانة بالجامع الازهر مكرماً مُعزراً من

الناس عامةً . وكان يقصده الفقهاء والصوفيون واکابر الدولة . وبقي على هذه الحالة الى ان توفي بالجامع الازهر بقاعة الخطابة في اليوم الثاني من جمادى الاولى سنة ٦٣٢ للهجرة ودفن بالقرافة بسفح جبل المقطم (١١٥٨)

شعره :

حظي ديوان ابن الفارض باهتمام النساخ والشرح والمفسرين والدارسين لما له من مكانة مرموقة في مجال الشعر الصوفي . ولعل من اشهر شراح هذا الديوان الشيخ حسن البوريني المتوفى سنة ١٠٢٤ للهجرة . وقد تناول في شرحه ظاهر الالفاظ وما يؤخذ منها من المعاني . والشيخ عبدالغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة الذي شرح الديوان على ضوء المصطلحات الصوفية .

يحيوي الديوان الى جانب القصائد والمقطوعات المنظومة على الاوزان العربية المعروفة واحداً وثلاثين دوبيتاً . ومواليها واحدة .

برع ابن الفارض في نظم الشعر براعة كبيرة وفائقة . جعلت الناس يطلبونه ويتهاوتون عليه . ومصدر هذه البراعة والجودة شاعريته وخفة طبعه وحسن صياغته . واغلب هذا الشعر في الحب الالهي . استخدم فيه لغة العشق والغرام والهيام : « وهي لغة استمدتها من اساليب الشعر العذري الذي عني بتصوير العفة في الحب . ومعنى ذلك ان ابن الفارض عبر عن حبه الالهي بلغة الحب الانساني جارياً في ذلك على طريقة الصوفية في الاشارة الى مواجدهم والتلويح لاذواقهم ومعانيهم من خلال اساليب مستعارة من الشعر الغرامي » (١١٥٩) . وتكشف هذه النزعة الغنائية الابيات الاتية التي اخذت حظاً كبيراً من الرقة والأسر (١١٦٠) :

قلبي يُحدِّثني بأنك مُتلفي روحى فداك عرفت ام لم تعرف
لم أقض حقَّ هواك إن كنت الذي لم أقض فيه أسى ومثلي من يفى (١١٦١)
مالي سوى روحى وباذل نفسه في حُب من يهواه ليس بمصرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتني ياخيبة المسعى اذا لم تسعف !
يامانعي طيب المنام وما نحى ثوب السقام به ووجدى المتلف

(١١٥٨) ينظر ، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ص ٢٠٠ ، تحفة الاحباب وبغية الطلاب ص

٣٨٢ .

(١١٥٩) شعر عمر بن الفارض ، دراسة في فن الشعر الصوفي ص ١١٢

(١١٦٠) ديوانه ص ١٥١

(١١٦١) القضي الاولى ، الهى ، الثانية ، اموت

عظفاً على رمقي . وما أبقيت لي .
 فالوجد باقٍ والوصال مما طلي .
 وأسأل نجومَ الليل : هل زار الكرى
 لاغرؤ . إن شئتَ بغمضِ جفونها
 بأهلٍ وذيِ اتمِ املي ومن
 عودوا لما كنتم عليه من الوفا
 لاتحسبونني في الهوى مُتصنعاً
 من جسمي المُضنى وقلبي المدنفِ
 والصبرُ فانِ واللقاءُ مسؤفي
 جفني وكيف يزور من لم يعرف ؟
 عيني وسحّت بالدموع الذرفِ
 ناداكم يا أهلٍ وذيِ قد كُفي
 كرمأ فاني ذلك الخُل الوفي
 كلفي بكم خلقُ بغير تكلفِ

والقصيدة طويلة يسير فيها على هذا النهج في اظهار اللوعة والمعاناة والشوق الى الحبيب بلغة رقيقة تنساب الى القلوب بيسر وسهولة استمدتها من وحي الحب العذري .

وتحولت الخمرة في الشعر الصوفي كما تحول الغزل العذري الى رمز عرفاني على ماكان الصوفية ينازلون من وجد باطن . والخمرة في شعر ابن الفارض « رمز على المحبة الالهية بوصفها ازلية قديمة منزهة عن العلل مجردة عن حدود الزمان والمكان . وهذه المحبة في الاسرار العرفانية هي التي بواسطتها ظهرت الاشياء وتجلت الحقائق وأشرقت الاكوان . وهي الخمرة الازلية التي شربتها الارواح المجردة فانتشت واخذها السكر واستخفها الطرب قبل ان يخلق العالم » (١١٦٢) على حد قوله في ميميته (١١٦٣) :

شربنا على ذكرِ الحبيب مداماً
 لها البدر كأسٌ وهي شمسٌ يديرها
 ولولا شذاها ما هتديت لجانها
 ولم يبق منها الدهرُ غير حشاشةٍ
 فان ذكرت في الحيّ اصبح اهله
 سكرنا بها من قبل ان يُخلق الكرمُ
 هلالٌ وكم يبدو اذا مزجت نجم (١١٦٤)
 ولولا سناها ما تصوّرها الوهم (١١٦٥)
 كأن خفاها في صدور النهى كتم (١١٦٦)
 نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثم

(١١٦٢) الرمز الشعري عند الصوفية ص ٣٦٦ .

(١١٦٢) ديوانه ص ١٤٠

(١١٦٤) لها البدر كأس ، يريد ان اناها مستدير كالبدر ، وهي شمس ، اي صافية كالشمس .

هلال ، اي غلام كالهلال في رشاقته . كم يبدو اذا مزجت نجم ، اي يبدو من الفقايع التي تفبه النجوم .

(١١٦٥) شذاها ، طيب والحتها . سناها ، نورها . ما تصوّرها الوهم ، ماخطرت على بال .

(١١٦٦) حشاشة ، بقية روح . خفاها ، مسهل خفاها . في صدور النهى ، اي في صدور اهل العقول .

ومن بين أحشاء الذنآن تصاعدت ولم يبق منها في الحقيقة الا اسم
وان خطرت يوماً على خاطر امري اقامت به الافراح وارتحل الهم

لقد عبّر عن حبه وولفه وهيامه بصور شتى من التعبيرات التي استعارها من شعراء
الحب العذري وشعراء الخمرة المشهورين . وقد لقب بسلطان العاشقين لقوله (١١١٧) :

يُحشِرُ العاشقونَ تحتَ لوائِي وجميعُ الملاحِ تحسَّتْ لوائِكا
وقوله : (١١١٨)

نسختُ بحبي آيةَ العشقِ من قبلي فأهل الهوى جندي وحكمي على الكلِّ
وكلُّ فتى يهوى فاني امامه وانى برى من فتى ساع العذلِ
ولي في الهوى علمٌ يجعلُ صفاته ومن لم يفقهه الهوى فهو في جهلِ

ان حب ابن الفارض « يتخطى دائرة الحب . فهو حب صاف من قيود المادة .
قد خلاص نفسه من كل شوائبها واقبل على حبيبه الذي يحل به الجمال المطلق . في
اسمى صورته المعنوية . ومن اخص خصائص هذا الحبيب كل ما في الكون من آيات
الحق والخير والجمال » (١١١٩) . والرسول محمد . صلى الله عليه وسلم . آية من آيات
الحق والخير والجمال . يتصف بكل كمال . ويفوق العالمين بحسن خلقه وخلقه . ولذلك
تشوق اليه ابن القارض وحن اليه وخاطبه بلغة الهائمين المولعين بمعشوقاتهم . مثل
قوله : (١١٢٠)

الا في سبيل الحبِّ حالي وما عسى
أخدمت فؤادي . وهو بعضي فما الذي
وجدتُ بكم وجداً . قوى كلِّ عاشق
برى اعظمي من أعظم الشوقِ ضعف ما
بكم ان الاقي لو دريتم احبتي (١١٢١)
يضرُّكم أن تتبعوه بجمليتي ؟
لو احتملت من عبئه البعض كَلتُ (١١٢٢)
بجفني لنومي او بضعفي لقوتي (١١٢٣)

(١١٦٧) ديوانه ص ١٥٩

(١١٦٨) ديوانه ص ١٧٤ .

(١١٦٩) الادب في العصر الايوبي ص ٢٤٠ .

(١١٧٠) ديوانه ص ٢٦

(١١٧١) يقول : لو دريتم بحالي وما عسى ان الاليه من الفقاء في حبيكم لرحمتوني

(١١٧٢) يقول : ان وجده . اي حبه الهديد . تكل . اي تضغط . قوى كل عاشق عن تحمل ثقل

بعضه .

(١١٧٣) يقول : ان اعظمه انحله شوق عظيم هو ضف مافي جفنه من الشوق الى النوم وما في

ضعفه من الاشتياق الى القوة .

وقد اتهم ابن الفارض بمشايعة مبدأ الحلول والاتحاد . او وحدة الوجود .
وكلاهما شيئان متقاربان . واحتدم الجدل والنقاش بين المؤيدين له والمتعصين
عليه (١١٣٤) . فمن اقواله التي انكروها عليه .

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمخ . ولا تجعل جوابي : لن ترى
دافع البوريني عنه في هذا البيت قال : « ان في هذا البيت تلميحاً الى قصة
موسى حيث طلب من ربه الرؤية . فأجيب : بلن تراني . وان مراد الشاعر الرؤية
في الاخرة بدليل قوله ، واذا . فان اذا تدل على الزمان المستقبل » (١١٣٥) . ومن اكثر
قصائده التي دار حولها الجدل التائية الكبرى التي تُعرف بـ (نظم السُّلوك) وهي في
واحد وستين وسبع مئة بيت . قال احد الباحثين : « وقد تصفحت ديوان عمر بن
الفرارض وانعمت النظر في تائيته الكبرى على وجه الخصوص فلم اجد بيتاً يعطي
معنى الحلول او الاتحاد او وحدة الوجود صراحة » (١١٣٦) .

ومما يشير الانتباه ان يجد القارئ في ديوانه تسعة عشر لغزاً شعرياً الى جانب
شعره الصوفي ، ويبدو انه لم ينس نصيبه من التسلية البريئة والرياضة الذهنية مع
جلائه احياناً في نظم الالغاز والاحاجي . وهي - في الغالب - تعتمد على التصحيف
والتحريف والتقديم والتأخير والحذف والقلب في حروف الكلمات . مثل قوله
ملغزاً في صقر : (١١٣٧)

ما اسم طيري . اذا نطقت بحرف منه . مبداء كان ماضي فعلة (١١٣٨)
واذا ما قلبته . فهو فغلي . طرباً . ان اخذت لغزي بحلة (١١٣٩)
وقوله ملغزاً في ليف : (١١٤٠)

ما اسم شيء من النبات . اذا ما قلبوه وجدته حيواناً (١١٤١)
واذا ما صغفث ثلثيه . حاشا بدءاً . كنت واصفاً انساناً (١١٤٢)

(١١٧٤) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢ ، ١١٨ .

(١١٧٥) ديوانه ص ٥٨

(١١٧٦) الادب الصوري في مصر في القرن السابع الهجري ص ١٠٥

(١١٧٧) ديوانه ص ٢٠٢

(١١٧٨) اراد ان اول حرف من صقر هو الصاد ، وصاد فعل ماضٍ من الصيد

(١١٧٩) اي اذا قلبت صقر حصل منه رقص . وهو ما فعله حين الطرب

(١١٨٠) ديوانه ص ٢٠٢

(١١٨١) اي اذا قلبت ليف حصل منه فيل .

(١١٨٢) اي جعلت ثلثيه وهما الياء والفاء باء وقافاً صار لبقاً ، وهو وصف للانسان معناه حاذق

ان شعر ابن الفارض - وان لم يخل من الصنعة - محببٌ مستساغ في الاسماع .
فيه نزوع الى التتميق والزينة وشغف بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، ولا ننكر
انه يوفق كثيراً بفضل هذه الصور والمحسنات الى سكب شعره في صيغة رشيقة
جذابة . مثل قوله في الابيات الاتية (١٣٣) :

أدِرْ ذَكَرِي مَنْ أَهْوَى وَلَوْ بِمَلَامٍ فَانْ أَحَادِيثَ الْحَبِيبِ مُدَامِي
لِيَشْهَدَ سَمْعِي مَنْ أَحَبُّ وَإِنْ نَأَى بِطَيْفِ مَلَامٍ لَا بِطَيْفِ مَنَامٍ
بِرُوحِي مَنْ اتْلَفْتُ رُوحِي بِحَبْهَا فَحَانَ حِمَامِي قَبْلَ يَوْمِ حِمَامِي
أَصْلِي فَأَشْدُو حِينَ اتْلُو بِذَكَرْهَا وَأَطْرَبُ فِي الْحِرَابِ وَهِيَ أَمَامِي
أَرُوحَ بِقَلْبِي بِالضَّبَابَةِ هَائِمٍ وَأَعْدُو بِسَطْرِفِ بِالْكَأَبَةِ هَامِ

وهناك وسائل أخرى يعمد اليها في سبيل ابداع شعره واخراج بصوره مثيرة ومؤثرة
منها « حسن انتخاب الكلام الرقيق المنجم . والجمع بين الألفاظ التي ينسرح معها
النطق . اذ تتألف فيها أصوات مخارج الحروف . ومنها اختيار الأوزان التي تتلاءم
مع العواطف والمعاني . فتساب الى النفس انسياً (١٣٤) » مثل قوله (١٣٥) :

يَا أَهْلَ وَدِي هَلْ لِرَاجِي وَصَلْتُمْ طَمَعٌ فَيَنْعَمُ بِالْأَسْتِرْوَاحِ؟
مَذْ غَيْبَتِي عَنِ نَاطِرِي لِي أَنَّهُ مَلَأَتْ نَوَاحِي أَرْضِ مَصْرٍ نَوَاحِي
وَإِذَا ذَكَرْتَكُمْ أَمِيلُ كَأَنِّي مِنْ طَيْبِ ذَكَرْتُمْ سَقِيَتْ الرِّاحَا
وَإِذَا دَعَيْتُ إِلَى تَنَاسِي عَهْدِكُمْ أَلْفَيْتُ أَحْشَائِي بِذَلِكَ شِجَا حَا
سَقِيًّا لِأَيَّامٍ مَضَتْ مَعَ جَبْرَةِ كَانَتْ لِيَالِينَا بِهِمْ أَفْرَا حَا
حَيْثُ الْجَمَى وَطَنِي وَسَكَّانُ الْغُضَا سَكَنِي وَوَرْدِي الْمَاءِ فِيهِ مُبَا حَا
وَأَهْيَلُهُ أَرْبِي وَظَلُّ نَخِيلِهِ طَرَبِي وَرَمْلَةٌ وَادِيهِ مَرَا حَا
وَاهَا عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَطَيْبِهِ أَيَّامٌ كُنْتُ مِنَ اللَّغُوبِ مَرَا حَا
قَسْمًا بِمَكَّةَ وَالْمَقَامِ وَمَنْ أَتَى الـ بَيْتَ الْحَرَامِ مَلْبِيًّا سَيَا حَا
مَارِنَحْتُ رِيحَ الضَّبَا شَيْخَ الرَّبِّي إِلَّا وَأَهْدَتْ مِنْكُمْ أَرْوَا حَا

ولعل هذا الشعر وأمثاله في ديوانه دفع الدارسين القدامى الى نعته بسيد شعراء
عصره . ووصف نظمه باللطافة والظرافة (١٣٦) .

(١٣٢) ديوانه ص ١٦٢

(١٣٤) عمر بن الفارض من خلال شعره ص ١٤١ .

(١٣٥) ديوانه ص ١٢٤ .

(١٣٦) ينظر ، الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٩١ .

النثر

تمهيد :

كانت الكتابة في العصر العباسي الأول - كما مرّ بنا سابقاً - تتبع أسلوب الصفاء واليسر والسهولة والبعد عن الصنعة واختيار الألفاظ العذبة الموثقة كما يلاحظ في كتابات ابن المقفع . وسهل بن هارون . وعمرو بن مسعدة . وأحمد بن يوسف الكاتب . ومحمد بن عبد الملك الزيات . وإبراهيم بن العباس الوصلي وسواهم . ثم جاء أسلوب الجاحظ . وهو لطيف مُشرق . يحتفظ بجمال العبارة وبلاغتها ورسالتها . ويُعنى بتقطيع الكلام الى فقر كثيرة مرسلة أو مسجوعة . ويميل الى الاستطراد واستيفاء المعنى واستقصاء أجزائه . ومن أشياح هذه الطريقة فيما بعد أبو حيان التوحيدي . وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني . وأبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني .

وما تكاد نصل الى القرن الرابع للهجرة حتى نرى ميل الكتابة عند فريق من الكتاب الى ايثار جانب اللفظ على جانب المعنى . والانحياز الى الصنعة . والرغبة في التزييق . والاستعانة بالمحسنات اللفظية والمعنوية . والاكثر من الاستشهاد بالقرآن والحديث وأطاييب الشعر ومختار الأمثال . والتوسع في الشرح والاستدلال . والاستكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات . ومن أشهر رجال هذه الطريقة : ابن العميد . والصاحب بن عباد . وأبو اسحاق الصابي . وبديع الزمان الهمداني . وأبو بكر الخوارزمي . وقابوس بن وشمكير . وقاسم بن علي الحريري . ويحيى بن سلامة الحصكفي ...

وأخذت الكتابة في القرن الخامس ثم السادس تفرق في الصنعة . وتستكثر من التمنيق . وتستأثر بقسط أوفر من المحسنات البديعية . ولاسيما التورية والجناس . وتستوفي ما في المعجم العربي من الألفاظ الصعبة . وكان على رأس هذه الطريقة سعد ابن علي الحظيري . والقاضي الفاضل . وعماد الدين الكاتب الأصبهاني .

تطور المجتمع في العصر العباسي الثاني تطوراً كبيراً . فأخذ بأسباب الزينة والأناقة . والترف في أطر الحياة المختلفة . وقد تحدث المؤرخون عن بذخ الكثيرين آنذاك . والإقبال الشديد على التجميل . من ذلك مايرويه أبو الفرج الأصبهاني في ترجمة « فريدة » المغنية عن محمد بن الحارث أنه قال حين استدعاه الخليفة الواثق الى قصره : « أفضيت الى دار مفروشة الصحن . مُلبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب . ثم أفضيت الى رواق أرضه وحيطانه مُلبسةً بمثل ذلك . واذا الواثق في صدره على سريرٍ مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب . والى جانبه فريدة جاريتة . عليها مثل ثيابه وفي حجرها (١١٨) عودٌ » ويروى أن الخليفة المقدر بالله كان بقصره شجرة من الفضة زنتها ألف درهم . وكانت تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء . وكان لها ثمانية عشر غصناً . على كل غصن الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة . وكان بها ورق مختلف الألوان . وكانت تتمايل في أوقات لها فيتحرك هذا الورق وتضفر الطيور وتهدر (١١٨) .

ودخل التألق والتزيين الأدب شعراً ونثراً . فجعل الشعراء شعرهم « كبرود الغضب . وكالحلل والمعاطف . والديباج والوشى . وأشباه ذلك » (١١٩) . وكذلك الكتاب . ولا سيما الذين يعملون في الدواوين . فإنهم زينوا نثرهم وجملوه بحلي البديع . حتى أصبحنا لانرى منهم - إلا ماندر - من لا يتخذ السجع وسيلة في تدييح كتابته وتبهيجته .

وكان للقائمين على الإمارات والدويلات آنذاك دور فعّال في تنشيط الكتابة واجتذاب كبار الكتاب الى مجالسهم ومحافلهم ودواوينهم واعطائهم سلطات واسعة . فنجد عند البويهيين ابن العميد والصاحب بن عباد . وعند السامانيين علي بن محمد الإسكافي . وعند الزياريين نجد أميراً من أمرائها وهو قابوس بن وشمكير . وعند الخوارزميين أبا بكر الخوارزمي . وعند الغزنويين أبا الفتح علي بن محمد البستي . وكان هؤلاء الكتاب يتنافسون في ابراز كتاباتهم بأجمل مظهر . وأحسن ديباجة . وأبدع صياغة . وألطف صورة موثاة بغنون البديع وضروب البيان .

(١١٨٨) الأغاني ١٤ ، ١١٩ .

(١١٨٩) ينظر تاريخ بغداد ١١ ، ١٠٠ .

(١١٩٠) البيان والتبيين ١ ، ٢٢٢ .

وكلما يتقدّم الزمن نجد النثر يزداد ولوعاً بقيود الصنعة وأغلال التعقيد . كما نشاهد في كتابات أبي العلاء المعري . ولاسيما في رسالة الغفران وكتاب الفصول والغايات . ويزداد التعقيد على يد القاسم بن علي الحريري (ت ٥١٦ هـ) صاحب المقامات المشهورة التي يقول في مقدمتها : « أنشأت على مألغانيه من قريحة جامدة . وفطنة خامدة . وروية ناضبة . وهموم ناضبة . خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله . ورقيق اللفظ وجزله . وغرر البيان ودرره . وملح الأدب ونوادره . الى ما وشحتها به من الآيات . ومحاسن الكنايات . ورصعته فيها من الأمثال العربية . واللطائف الأدبية . والأحاجي النحوية . والفتاوي اللغوية ... » (١٣١) .

وبلغ التصنيع والتعقيد غايته في القرن السادس للهجرة . ولعلّ من أشهر المولغين في ذلك يحيى بن سلامة الحُصْكَفِي (ت ٥٥١ هـ) الذي أكثر من الجنس بأنواعه المختلفة الى جانب الصور المعقّدة . مثل قوله في التجنيس المنعكس وكل كلمة مشتقة من أختها : « النفسُ بعقود التذرُّعِ حالية . ولقعود التعدُّرِ حائلة . ومن الودائع المعجزة مالية والبي الدواعي المزعجة مائلة . وفي بحار الحمد راسية . وفي رحاب المدح سائرة . تجمع الى مواصلة القمر . وتُحجم عن مساولة القُرْم . لتكفّ بإظفار الأمل . وتفكّ بأظفار الألم . فهل كاملٌ يُعني . ومالكٌ يُعين . ومقتصدٌ يدين . ومتصدّقٌ يدين . فالرغبة من الشُّهْب . من العُربة في الشُّب . رغبةٌ من قصد بالإلهام . مواقع السُّحاب الهام . وورد شريعة الإفهام . لظما الإبهام . وتعرض لمعانٍ دقّت عن الأفهام . ورقّت فترقت عن الأوهام » (١٣٢)

وممن اهتم بالصنعة وبالغ فيها في القرن السادس للهجرة أيضاً القاضي الفاضل وعماد الدين الكاتب الأصبهاني . وكانا يتباريان في مضمار الانشاء الديواني في دولة صلاح الدين الأيوبي . وسوف نُفرد لكل واحد منهما ترجمة لسيرته وطريقة كتابته .

اتجاه الترسُّل :

في الصفحات السابقة بينا طريقة الصنعة والتعقيد في الكتابة . أبعدت الإنشاء العربي عن أصلته وجماله الفني . وقد شاعت بين الكثيرين من كتاب العراق والمشرق ووصل تأثيرها الى الشام ومصر والمغرب العربي .

(١١٩١) مقامات الحريري ص ١٢ .

(١١٩٢) خرّيدة القصر وخرّيدة العصر . قسم شعراء الشام ، ٢ ، ٤٩٧ .

وتعدى طريقة الصنعة والتعقيد ومال عنها فريق من الكتاب. عرفت طريقتهم بالأسلوب المرسل الذي يُعنى باللفظ والمعنى على السواء ولا يُفرض بأحد الطرفين على حساب الطرف الآخر. ويأخذ ضرباً من البيان والبديع على سبيل الاتفاق لا سبيل التعمل والتكلف والتقصد. وقد أرسى قواعد هذه الطريقة وأشاعها الكاتب العربي الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وجاء بعده كتاب آخرون ساروا على هديه. واقتدوا بآثاره. ولعل من أشهرهم ابن قتيبة. وأبا هلال العسكري. وأبا بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني. وأبا حيان التوحيدي وهو أشهرهم وعبد القاهر الجرجاني.. ومن أبرز مزايا طريقة هؤلاء الكتاب وضوح الألفاظ وسهولتها. وفصاحة العبارات ورسائنها وبعدها عن الركة والابتذال. والموازنة بين الألفاظ والمعاني. وربط الأفكار وتنظيمها في سياق جميل. وديباجة مشرقة بلا حشو ولا فضول. والاستناد الى القواعد المنهجية « كصحة التقسيم. وتخير اللفظ. وترتيب النظم. وتقريب المراد. ومعرفة الوصل والفصل. وتوخي الزمان والمكان. ومجانبة العسف والاستكراه (١١٨٧) ».

أبو الفضل بن العميد

١ - ٣٦٠ هـ

كان القرن الرابع للهجرة - على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية - عصراً حافلاً بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة . زاخراً بطائفة كبيرة من العلماء والأدباء والفقهاء ورجال اللغة والبيان . وكان ابن العميد واحداً من مشهوري الإنشاء العربي آنذاك . وقد عُدَّ الدكتور زكي مبارك سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع (١٣٣) .

سيرته :

هو أبو الفضل . محمد بن الحسين . الملقب بابن العميد . من بيت فضل وصدارة . كان أبوه أبو عبدالله الحسين بن محمد كاتباً مشهوراً في خراسان . تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر . وكانت له رسائل « لاتقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل » (١٣١) . ولقب بالشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان . ولقب بالعميد على عادة أهل خراسان في اجرائه مجرى التعظيم .

ولد ابن العميد في أواخر القرن الثالث للهجرة . وتربى في جو علمي وأدبي . تتلمذ على الكثيرين من علماء عصره أحدهم اسمه محمد بن علي بن سعيد (١٣٥) . وقيل انه أخذ العلم في بغداد . ولذلك كان يحبها ويمعجب برجالها وحضارتها (١٣١) . وأصبح « أكتب أهل عصره . وأحفظهم للغة والغريب . وأكثرهم توسعاً في النحو والعروض واهتداء الى الاشتقاق والاستعارات . وأعرفهم بشعراء الجاهلية والاسلام . وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه . وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار . وأنفذهم سماً في الهندسة والمنطق وعلوم النفس والالهيات (١٣٧) » .

(١١٩٣) النشر الفني في القرن الرابع ١٢ ٢٢٥ .

(١١٩٤) هيتمة الدهر ١٢ ١٥٩ .

(١١٩٥) الفهرست ص ٢٠٠ .

(١١٩٦) أصراء البيان ص ٥٠٢ .

(١١٩٧) النشر الفني في القرن الرابع ١٢ ٢٢٥ .

تقلد ابن العميد وزارة ركن الدولة سنة ٣٢٨ للهجرة . وكان جديراً بها اذ استطاع بسياسته وكياسته أن يضبط الأعمال وينال تقدير الناس من الخاصة والعامه . وأصبح مجلسه عامراً بالقيمين والوافدين . وكان معاصروه يسمونه « الجاحظ الثاني » لسعة ثقافته وكثرة معارفه . ودعى بالأستاذ الرئيس لجمعه بين الامارة والأدب . ولقب أيضاً بلسان المشرق (١١٨٨) . وقد أشاد به المؤرخ المشهور أبو علي بن مسكويه وكان قيماً على خزانة كتبه ووصفه بقوله : « قليل الكلام ، نزر الحديث . الا اذا سئل ووجد من يفهم عنه ، فإنه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره . مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيرة . ومعان دقيقة . لا يتحسب فيها ولا يتلثم ... وكان رحمه الله لحسن عشرته . وطهارة أخلاقه . ونزاهة نفسه . اذا دخل اليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى اليه . واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه » (١١٩١) .

وكان ابن العميد يحتفي ؛ بالشعراء ويكرمهم . وحسبه فخراً أن يكون المتنبي واحداً من هؤلاء الشعراء . يقول فيه (١٢٠٠) :

من مبلغ الأعراب أني بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً . متبدياً . متحضرأ
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا

ومدحه الشاعر ابن نباتة السعدي بقصيدة طويلة حين ورد عليه بالري منها
قوله : (١٢٠١)

خرق ضففت أخلاقه صفو السبيك من النضار
فكأنما زفدت موا هبته بأمواج السبحار
وكان نشر حديثه نشر الخزامي والفرار
متهللاً للزائري ن مرحباً بالمستزار

لقد كان هو والصاحب بن عباد والوزير الحسن بن محمد المهلبى يتنافسون في اجتذاب الأدباء ومناذمتهم في مجالهم . ومكاتبهم في غيابهم . قال ابن خلكان عن

(١١٩٨) امرأ البيان ص ٥٠٢ .

(١١٩٩) تجارب الأمم ٢ ، ٢٧٧ .

(١٢٠٠) شرح ديوان المتنبي ١ ، ٣٦٩ .

(١٢٠١) ديوان ابن نباتة السعدي ٢ ، ٥٩٩ .

ابن العميد « وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة . ومدحوه بأحسن المدائح » (١١٠٢)

ضَلَّ ابن العميد وزيراً ثلاثاً وثلاثين سنة . وتوفي سنة ٣٦٠ بالري . وقيل ببغداد . « وكان يعتاده القولنج تارة والنقرس أخرى . تسلمه هذه الى هذه . وقال لسائل سأله : أيهما أصعبُ عليكُ وأشقُ ؟ قال : اذا عارضني النقرسُ فكأنني بين فكَّي سبع يمضغني . واد . اني القولنج وددتُ لو استبدلتُ النقرسُ عنه . ويقال : انه رأى أكاراً في بستان يأكل خبزاً ببصل ولبن . وقد أمعن منه . فقال : وددتُ لو كنت كهذا الأكار . أكلُ ماأشتهي (١١٠٣) . »

ذكر الذين ترجموا لابن العميد من المؤلفات : ديوان رسائله . وكتاب المذهب في البلاغات . ومجموع شعره .

فنه الإنشائي :

أشاد كل من ترجم لابن العميد ببلاغته . فمن القدامى أبو منصور الثعالبي . قال : « أوحده العصر في الكتابة ... يُضربُ به المثلُ في البلاغة . وينتهي اليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة . مع حُسْنِ الترتُّل وجزالة الألفاظ وسلاستها . الى براعة المعاني ونفاستها (١١٠٤) . ومن الدارسين الحديثين الدكتور زكي مبارك . قال : « كان ابن العميد اماماً لكتاب القرن الرابع . ومانظنُّ أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد . ولكنه يمتاز بميزة عجيبة . هي اعزاز القلم ورفعته الى أشرف الدرجات : فاننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعكُ بفضه . كما كان يفعلُ معاصروه . وانما يطالعكُ بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كلُّ كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفقُ أو روح يثورُ . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً براقاً يلهو به ولا ثروة لغوية يكثر بها الكتاب . ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمي بها كما يرمي البركان بأقباس الهلاك . وقد يرقُّ فتحسب نثره نجوى حبيبين في هداة الليل . وهو في رفته وجزالته . وغضبه وحنانه . عبقري لا يعبتُ برجع الحديث المعاد . وانما يجد بإبداع الرأي الصائب والقول الرصين » (١١٠٥)

(١٢٠٢) وفيات الأعيان ١٠٤١٥ .

(١٢٠٣) وفيات الأعيان ١٠٩١٥ .

(١٢٠٤) يتيمة الدهر ١٥٨١٣ .

(١٢٠٥) النشر الفني في القرن الرابع ٢٤٥١٣ .

ان القولين السابقين لا يخلوان - كما نرى - من شيء من الاطراء والاعجاب .
فالتأمل في كتابات ابن العميد التي وصلت الينا يجدها قد أخذت بقسط وافر من
الصنعة التي أثقلت كاهل الانشاء العربي . يقول الدكتور شوقي ضيف : « كان ابن
العميد يسجع في كتاباته . ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده . انما الذي يلفتنا حقاً هو
أن مذهب التصنيع تماثل على يديه في الصورة التي كانت تنتظره منذ القرن
الثاني . وتقصد السجع من جهة والاحتكام الى البديع فيما يُنشيء الكاتب من جهة
أخرى . ومن أجل ذلك اذا قلنا : ان ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى
الديق لهذه الكلمة لم نُبعد . لأنه أول كاتب - فيما نعرف - احتكم الى السجع في
كتابته . كما احتكم الى البديع من جناس وطباق وتصوير . وقد هبأه لذلك أنه كان
ذا عين تصويرية . بل لقد كان ذا شُغف بفن التصوير نفسه » (١٣٦) . وخير رسالة له
نستدل منها على ولعه بالسجع وعنايته بالبديع . التي كتبها الى ابن بلكا عند
استصائه على ركن الدولة : « كتابي وأنا مترجِّح بين طمع فيك . وبأس منك .
واقبال عليك . واعراض عنك . فانك تُبدلُ بسابق حُرمة . وتمتُ بسالف خدمة .
أيسرهما يُوجب رعاية . ويقضي محافظةً وعنايةً . ثم تُشفعهما بحادث غُلُولٍ
وخيانة (١٣٧) . وتتبعهما بأنفٍ خلافٍ ومعصية . وأدنى ذلك يُحبطُ أعمالك . ويمحقُ
كل ما يُرعى لك . لا جرمُ أنني وقفتُ بين ميل اليك . وميلٍ عليك . أقدمُ رجلاً
لصدك . وأؤخرُ أخرى عن قِصدك . وأبسطُ يداً لاصطلامك (١٣٨) . واجتياحك . وأنتهي
ثانيةً لاستيفائك واستصلاحك . وأتوقفُ عن امثال بعض المأمور فيك . ضناً بالنعمه
عندك . ومنافسةً في الصنعة لديك . وتأميلاً لفيأتك وانصرافك . ورجاءً لمراجعتك
وانعطافك . فقد يغرب العقلُ ثم يؤوبُ . ويعزبُ (١٣٩) اللبُّ ثم يثوبُ . ويذهبُ
الحزمُ ثم يعوذُ . ويفسدُ العزمُ ثم يصلحُ . ويضاعُ الرأيُ ثم يُستدركُ . ويسكرُ المرءُ
ثم يصحو . ويكدرُ الماءُ ثم يصفو . وكلُّ ضيقةٍ الى رخاء . وكلُّ غمرةٍ فإلى
انجلاء ... » (١٣٩)

(١٣٦) الفن ومذاهبه في النشر العربي ص ٢٠٩ .

(١٣٧) الفلول ، الحياة في المال وغيره .

(١٣٨) اصطلامك ، استصالك .

(١٣٩) ضناً ، بهلاً .

(١٤٠) الفياة ، الرجوع .

(١٤١) يغرب ، يذهب . ينأى .

(١٤٢) يعزب ، يهدم ، يغيب .

(١٤٣) يتيمة الدهر ، ٢٠٦٧ .

والرسالة تسيير الى نهايتها على هذا النمط. تتحلّى بالجناس والطباق. وتتكيء على السجع في نهايات فقراتها. وتوازن بين كل لفظة وقرينتها في العبارتين المتجاورتين.

ونرى ابن العميد أحياناً معتدلاً في صنعه. يمزج السجع بغير السجع. فيأتي أسلوبه لطيفاً مقبولاً. مثل قوله في شهر رمضان: «أسأل الله أن يعرّفني بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمه. وأرغب اليه في أن يقرب على الفلك ذوره، ويقصر سيره. ويخفف حركته. ويعجل نهضته. وينقص مسافة فلكه ودائره. ويزيل الطول عن ساعاته، ويُرِدُّ عليّ غرّة شوال، فهي أسنى الفرر عندي. وأقربها إليهم ويطلع بدرة. ويريني الأيدي مُتطلبَةً هلاله بشهر. ويسمعي النهي لشهر رمضان. ويعرض عليّ هلاله أخفى من السُخر. وأظلم من الكُفر. وأنحف من مجنون بني عامر. وأبلى من أسير الهجر. واستغفر الله جلّ وجهه منا قلت أن كرهه. واستغفبه من توفيقى لما يذمه. وأسأله صفحاً يفيضه. وغفواً يوسعها. انه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» (١٣١).

ولابن العميد حكم وأمثال استخرجها العارفون من رسائله. منها، الرُتْب لا يبلغ الأبتدرج وتدرب. ولا تدرك إلا بتجشم كلفة ونصب. رأس المالم لخير من الريح. والأصل أولى بالعناية من الفرع. المرء أشبه شيء بزمانه. وصفة كل زمان منتخبة من سجايا سلطانه. قد يبذل المرء ماله في اصلاح أعدائه. فكيف يذهل العقول عن حفظ أوليائه؟ المزح والهزل بابان اذا فتحا لم يلقا إلا بعد العسر. من أسر داهيه، وكرم ظمأه. بعد عليه أن ينل من غلله. ويُنل من غلله. خير القول ما أغناكم جدّه. وألهاك هزله. اجتنب سلطان الهوى. وشيطان الميل (١٣٢).

من كل ما سبق يتبين أن كتابات ابن العميد تقوم على أسلين كبيرين: أولهما السجع. وكان السجع معروفاً من قبله في الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع للهجرة. والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله. وهو استخدام المحسنات البدئية مع السجع. فالسجع وحده لا يكفي. بل لابد أن تضاف اليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما الى ذلك من محسنات البديع وتلاوته (١٣٣).

(١٣١) زهر الآداب ١، ٥٢٨.

(١٣٢) ينظر، هيمية الدهر ١، ١٧٠. معاهد التنصيص ١، ١٢٠. أمراء البيان ص ٩٢٠.

(١٣٣) ينظر، عصر الدول والإمارات ص ٦٥٦.

أبو حيان التوحيدي

١ - ٤١٤ هـ

نوابغ الفكر العربي كثيرون . من علماء وادباء وفلاسفة وفقهاء ومفسرين ومحدثين ... وقد كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية من أكثر المدن الاسلامية ازدهاماً بالمفكرين والمبدعين في صنوف المعرفة المختلفة . وقد صدق آدم متز في قوله : « إن جميع الحركات الروحية في مملكة الاسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد . وكان فيها لجميع المذاهب أنصار » . (١٣٣) . ويعد أبو حيان التوحيدي ممثلاً جيداً لأولئك المفكرين والمبدعين الذين رفدوا المكتبة العربية بتأليف قيمة ونافعة للأجيال اللاحقة .

سيرته :

لم يترجم القدامى لأبي حيان ترجمة وافية لسيرته . وقد أكد ذلك ياقوت الحميري فقال : « ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجته في ضمن خطابه . وهذا من العجب العجاب » (١٣٨) .

ولد على بن محمد بن العباس التوحيدي في بغداد حوالي سنة ٣١٠ أو ٣١١ للهجرة على وجه التقريب (١٣١) . ويكنى أبا حيان . ويلقب بالتوحيدي . نسبة الى نوع من التمر المعروف باسم « التوحيد » كان أبوه يبيعه (١٣٠) . وقيل التوحيدي . نسبة الى المعتزلة لأنهم يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد . (١٣١)

تعلم القراءة والكتابة في صغره . ولما شب أقبل على العلم يعب منه عباً . واتصل بكبار العلماء ودرس بين أيديهم . من أشهرهم العالم الكبير والنحوي المشهور ابو سعيد السيرافي . وعلى بن عيسى الرماني . وهو من أئمة اللغة والادب . والقاضي أبو حامد أحمد بن بشر المروروزي أحد أئمة الفقه آنذاك . وأبو بكر محمد بن

(١٣١٧) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١١٠١ .

(١٣١٨) معجم الأدباء ٥ : ٢٨١ .

(١٣١٩) ينظر ، أبو حيان التوحيدي ادب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص ١٦ ، أبو حيان

التوحيد للدكتور أحمد محمد الحوفي ١١ : ٢٢ ، أبو حيان التوحيدي للدكتور ابراهيم

الكيلاني ص ١٢ .

(١٣٢٠) وفيات الأعيان ٥ : ١١٢ ، بغية الوعاة ٢ : ١٩٠ .

(١٣٢١) لسان الميزان ٦ : ٣٦٠ .

علي القفال الشاشي . وهو مُحدث ولغوي وشاعر . والقاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني الفقيه الأديب الشاعر . وأبو محمد جعفر الخلدي أحد رؤساء الصوفية . وأبو الحسين محمد بن أحمد بن أسماعيل المشهور بعلم الكلام والوعظ . ودرس الفلسفة والمنطق على عالَمين كبيرين هما : أبو بكر يحيى بن عدي ، وأبو سليمان محمد بن طاهر المنطقي السجستاني وهكذا اكتسب ثقافة موسوعية من علماء عصره المشهورين .

وكانت حرفة الوراقة التي مارسها . وهي تقوم على النسخ والنقل والتصحيح . قد عُرفت على أمهات الكتب في مختلف فنون المعرفة . ويبدو أن جدواها آنذاك كانت قليلة . ولذلك قال : « لقد استولى عليَّ الحرف . وتمكَّن منِّي نكدُ الزمان . إلى الحد الذي لا استرزقُ مع صحة تقلي . وتقييد خطي . وتزويق نسخي . وسلامته من التصحيف والتحريرف . بمثل ما يسترزقُ البليدُ . الذي يمسحُ النسخَ ويفسخُ الأصلَ والفرع » (١٣٣)

لم يكن أبو حيان محظوظاً في صلاته مع كبار رجال عصره . ولعلَّ السبب في ذلك اعتداده بعلمه وأدبه وصراحته واختلافه معهم في العقيدة والرأي . فقد نفاه الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبى من بغداد متهماً إياه بالزندقة وذهب إلى خراسان واتصل بآبى العميد ولكنه لم يجد عنده ما يرضيه ويُرِجه . ففارقه إلى الري حيث التقى بالصاحب بن عباد . ولم ينل حظوه لديه فغادره بعد مكوث دام ثلاثة أعوام إلى بغداد . وأشار إلى ذلك بقوله : « إني فارقتُ بابه سنة سبعين وثلاث مئة راجعاً إلى مدينة السلام بغير زاد . ولا راحلة . ولم يُعطني في مدَّة ثلاث سنين درهماً واحداً ولا ما قيمته درهم واحد » (١٣٣) . وعلى أثر ذلك ألف كتابه « مثالب الوزراء » . ثار فيه أعنف ثورة على ابن العميد والصاحب بن عباد .

وكان حظُّه موافياً مع آبى عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة (ت ٣٧٥ هـ) إذ نال إكرامه وعطفه . وأطلق لسانه في مدحه والثناء عليه . وأصبح نديمه وسميره يلتقي معه في الليل فيقصُّ عليه ما يطيب له . أو يسأله الوزير عما يبدو له من فكرة فيجيبه بعلم جم غزير . فألف منها كتابه « الامتاع والمؤانسة » قال في وصفه : « قد شاهدتُ ناساً في الشُّفر والحضر . صفاراً وكباراً وأوساطاً . فما شاهدتُ من يدين بالمجد . ويتحلَّى بالجود . ويرتدي بالهجو .

(١٣٣٣) معجم الأديباء : ٥ : ٢٨٤ .

(١٣٣٣) معجم الأديباء : ٥ : ٢٩٥ .

ويتأزَّر بالحلم . ويُعطي بالجزاف . ويفرِّح بالأضياف . ويصلُ الإسعافَ بالإسعاف . والاتحافَ بالاتحاف . غيرك . والله انك لتَهَبُ الدرهم والدينارَ . وكأنك غضبان عليهما . وتطمعُ الصادر والوارد كأن الله قد استخفلك على رزقهما . ثم تتجاوزُ الذهب والفضة الى الثياب العزيزة . والخلع النفيسة . والخيال العتاق . والمراكب الثقال . والغلمان والجواري حتى الكتب والدفاتر وما يَظُنُّ به كلُّ جواد « (١٣٢١) . ولم تدم الراحة النفسية لأبي حيان في ظل هذا الوزير . فإنه قُتل سنة ٣٧٥ للهجرة وقد بذلَّك معيناً له . وخشى أن يلاحقه أعوان الوزير الجديد أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فأثر الاختفاء عن الأنظار . وهرب الى شيراز حيث راح يتردُّد على المتصوفة ويعيش معهم . ويبدو أنه عاش في فقر شديد خاصة بعد شيخوخته بدليل قوله : « فقد أُميت غريب الحال . غريب اللفظ . غريب النحلة . غريب الخلق . مُستأنساً بالوحشة . قانعاً بالوحدة . معتاداً للصلمت ملازماً للحيرة . محتملاً للآذى . يائساً لمن جميع من ترى . متوقفاً لما لا بدُّ من حلوله . فشمس العمر على شفا . وهاء الحياة الى نضوب . ونجم العيش الى أقول . وظل التلبث الى قلوبص » (١٣٢٠) وأصابه اليأس وخيَّم عليه القنوط فقال : « فقد كلُّ البصر . وانعقد اللسان . وجمد خاطر . وذهب البيان . وملك الوسواس . وغلب اليأس من جميع الناس » (١٣٢١)

واشتدَّت عليه قسوة الحياة . ولم تُعَدُّ كُتبه التي أفنى العمر من أجلها تنفعهُ وتردُّ عنه شظف العيش وتكد الأيام . فأقبل عليها في سورة غضبٍ ومزقها ثم أحرَقها . وقد كتب إليه القاضي أبو سهل على بن محمد رسالة يُعاتبه على صنيعه . ويُعرفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه . فكتب إليه أبو حيان رسالةً ضافيةً يعتذر فيها عن فعلته ويبرر في الوقت نفسه سبب اقدمه على إتلاف كتبه وحرَقها . منها قوله :

« وهل بعد الكبرة والعجز أملٌ في حياةٍ لذينة . أو رجاءٌ لحالٍ جديدة ... على أسي لو علمت في أي حال . غلب عليَّ ما فعلته . وعند أي مرض . وعلى أية عُسرة وفاقة . لعرفت من عزري أضعاف ما أبديته . واحتججت لي بأكثر ماشرته وطويته » (١٣٢٢)

١٣٢١ | الامتاع والمراعاة ١٣٢٢ . ٢٢٢٢ .

١٣٢٢ | الصداقة (الصديق ص ٧ .

١٣٢٣ | معجم الأديباء ١٣٢٤ . ٢٢١٠ .

١٣٢٤ | معجم الأديباء ١٣٢٥ - ٢٢١١ .

كان التوحيدي معتزلياً يأخذ نفسه بسلوك الصوفية . والغريب أنه لم يتزوج ويكوّن أسرةً لنفسه يعيش في ظلالها . فبقي وحيداً تتنازعه الوحدة والغربة الى جانب البؤس والشقاء والعجز والمرض الى أن أدركته المنية سنة ٤١٤ للهجرة بشيراز (١٣٣٨) .

كتبه :

إن آثار أبي حيان كثيرة . وقد جعلها طعمة للنار في أواخر حياته . وماسلم منها كان بأيدي الناس . قال السيوطي : « فلعلّ النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه في حياته . وخرجت عنه قبل حرقها » (١٣٢٩) . وكتبه نافعة ومفيدة وقد عبّر آدم متر عن اعجابه بها فقال : « لم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو اسهل وأقوى وأشدّ تعبيراً عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان » (١٣٣٠) . واليك كتبه ورسائله المطبوعة فقط :

- ١ - الاشارات الالهية والانفاس الروحانية : وهو كتاب صوفي . يضم مجموعة من المواعظ والاوراد الصوفية .
- ٢ - بصائر القدماء ورسائر الحكماء (البصائر والذخائر) : وهو كتاب ضخم يحوي كثيراً من العلوم والآداب سلك فيه طريقة الجاحظ في الاستقصاء والاستطراد ومزج الجد بالهزل .
- ٣ - الامتاع والموانسة : وهو كتاب كبير يتضمن أحاديث شتى في قضايا أدبية ولفوية وفلسفية وعلمية وزّعها على أربعين ليلة .
- ٤ - ثلاث رسائل . وهي : رسالة الامامة . ورسالة الحياة . ورسالة في علم الكتابة .
- ٥ - رسالة في بيان ثمرات العلوم : وهي في سبع صفحات ملحقة بذيّل كتاب الصداقة والصديق المطبوع في القاهرة .
- ٦ - رسالة في أخبار الصوفية : ذكرها ياقوت الحموي في معجم الأدباء .
- ٧ - الصداقة والصديق : جمع فيه ما قيل شعراً ونثراً في العشرة والمؤاخاة والالفة وما يلحق بها . وهو كتاب لطيف يدل على اختيار موفق وذوق أدبي رائع .
- ٨ - مثالب الوزيرين (اخلاق الوزيرين) : أظهر فيه مثالب ومعايب الوزيرين أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد . وتناول فيه أيضاً قضايا هامة

(١٣٢٨) ينظر ابو حيان التوحيدي لابراهيم الكيلاني ص ٢٤ - ٣٦ .

(١٣٢٩) بغية الوعاة ٢ : ١٩٠ .

(١٣٢٠) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٤١٦ .

ومثيرة عن الحياة الثقافية والفكرية في القرن الرابع للهجرة .

٩- المقابسات : يحتوي على ١٠٦ مقابسات . تبحث كل مقابسة في موضوع مستقل . وأغلبها تتصل بالفلسفة والتصوف .

١٠- الهوامل والشوامل : ويدور في موضوعات أدبية واجتماعية وفلسفية وأخلاقية ونفسية ولغوية .

أسلوبه في الكتابة :

أبو حيان التوحيدي كاتب كبير وموسوعي . تناول أغلب علوم عصره وآدابه . فرساً وتعليلاً وشرحاً وتقداً وتعليقاً . وهي - في عمومها - تعطي انطباعاتاً جيداً عن ثقافة الكاتب الحادق والأديب الألمعي . وقد لخص التوحيدي بنفسه هذه الثقافة فقال : « يجب على الكاتب أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى لينتزع من آياته . وأن يعرف كثيراً من السنة والأخبار والسير . حافظاً لكثير من الرسائل والكتب . وأن يكون متناسب الألفاظ . متشاكل المعاني . متشابه الخط . ذكياً . عارفاً بما يحتاج إليه . خبيراً بالحلي والشيآت . مضطلعاً بعبء الكتابة . له يد في السواد . وعمل الحساب . وأن يكون له يد في عمل الشعر . نظيف الثوب . لطيف المركب . ظريف الغلام . لقيق الدواة . حاد السكين . صقيل الكاغد . صلب الاقلام . متودداً الى الناس مخالطهم . غير متكبر عليهم ولا منتقص منهم . دمث الأخلاق . رقيق الحواشي . ترف الاطراف . عذب السجايا . حسن المحاضرة . مليح النادرة . غير قنف . ولا متعجرف . ولا متكلف للألفاظ الغريبة . ولا متعسف للغة العويضة (١١٣١) .

إن أهم ما يلاحظه القارئ في النص السابق أنه يريد من الكاتب أن يكون عالمه الثقافية . واسع المعرفة . حافظاً لكثير من العلوم والآداب . خبيراً بوسائل الكتابة وطرائق التعبير الجيدة والميسورة . عالماً بدقائق الأساليب الرائعة وقادراً عليها .

كان أبو حيان يخطو خطو الجاحظ في أسلوبه . ويتلمذ على مدرسته البيانية التي أقام قواعدها في القرنين الثاني والثالث للهجرة . ولقد أطراه في مؤلفاته جميعاً . فقال عن كتبه : إنها الدر النثير . واللؤلؤ المطير . وعن رسائله : إنها الأفنان المثمرة .

والرياض الزاهرة . وعن كلامه : انه الخمر الصرف والسكر الحلال . وعن ذاته : إنه حبيب القلوب . ومزاج الأرواح . وشيخ الأدب . وحجة العرب . (١٣٣) .

أن أميز خصائص أسلوب أبي حيان في الكتابة . التناسب بين الألفاظ والمعاني . وحسن الربط بين الأفكار . والبعد عن التعقيد والتصنع . وخير ما يمثل مذهبه قوله :

« علينا بالطبع اللطيف . والمأخذ القريب . والسَّمع الملائم . واللفظ الموثق . والتأليف الخلو . والسُّبُوط الغالبة . والمواولة المقبولة في السَّمع . الخالبة للقلب . العابثة بالروح . الزائدة في العقل . المشعلة للقريحة . الموقوفة على فضل الأدب . الدالة على غزارة المغترف (١٣٣) . وقال أيضاً : « والسُّرُّ كلُّه أن تكون ملاطفاً لطبعك الجيد . ومسترسلاً في يد العقل البارِع . ومعتمداً على رقيق الألفاظ . وشريف الأغراض مع جزولة في معرض سهولة . ورقة في حلاوة بيان . مع مجانية المُجْتَلَب . وكراهة المستكره . وركنه الذي يُعوَّل عليه . وكهفه الذي يأوي إليه أن يكون السجِّع في الكلام كالمُحِجِّع في الطعام . فإنه متى ظفر منه بمقدار الرُّتبة . وحسب الكفاية . حلا منظره . وبهر بهائه . وسطع نوره . ومتى زاد على المقدار ضارِع كلام النساء والكهنة من العرب . أو كلام المستعربين من العجم ... فاقصد أيديك الله تعالى أن تكون كالصائغ الذي يصبُّ التبرَ فيسكبه . ثم يصوغه . ثم ينقشه . ثم يسوقه . ثم يزينه . ثم يعرضه » (١٣٤)

لقد عُني أبو حيان بالمعاني كما عُني بالألفاظ ولم يفرط بالبلاغة العربية التي تتطلب جمال العبارة ووضوح الدلالة . وقد أصاب الدكتور شوقي ضيف إذ قال فيه : « وكانت المكتبة العربية قد أَلقت بكنوزها بين يديه في أثناء وراقته ونسخه . فزاعه أسلوب الجاحظ وأدبه . إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني . مستخدماً أسلوب الأزواج الذي عُرف به . وقد يتخلَّله في الحين البعيد بعد الحين السجج . ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه . فاستقرَّ هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباتهِ . ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتي لعلها لا تقل جمالاً وروعةً عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتسع اتساعاً واضحاً في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي » . (١٣٥) .

(١٣٣) ينظر : أبو حيان التوحيدي . للدكتور عبد الرزاق محيي الدين ص ٢٤٨

(١٣٣) الامتاع والمواصلة ١ ، ٦٤ .

(١٣٤) البصائر والنخائل ١ ، ٣٦٩

(١٣٥) تاريخ الأدب العربي . عصر الدول والامارات ص ٤٦٢ .

إنَّ لأبي حيان طبعاً دافقاً وفكراً سابقاً . لم يتخذ السجع أسلوباً الا في كتاب واحد من كتبه وهو الاشارات الالهية . أما في سائر ترسله فقد لزم الأسلوب المتوازن على طريقة الجاحظ . (١٣٣) . فمن الأسلوب المسجوع إليك الفقرات الآتية من مناجاة صوفية : « يا حافظ الأسرار . يا مسبل الأستار . يا واهب الأعمار . ويا منشيء الأخبار . ويا مولج الليل في النهار . ويا معافي الأخيـار . ويا منداري الأشرار . ويا منقذ الأبرار من النار والعار . عُد علينا بصفحك عن زلأتنا . وأنعمنا عند تتابع صرعاتنا . وخط رحالنا معك في اختلاف سكراتنا وصحواتنا وكن . لنا وإن لم نكن لأنفسنا . لأنك أولى بنا . وإذا خفنا منك . فامنح خوفنا منك برجائنا فيك . وإذا غلب علينا بأسنا منك فتلقهُ بالأمل فيك . نبشُرنا عند توجهننا نحوك بالوصول إليك . متّعنا بالنظر إلى نور وجهك . أسع علينا نعمتك بما وهبت لنا من توحيدك . ولا تهجرنا بعد وصلك . ولا تبعدنا بعد قُربك . ولا تكربنا بعد رُوحك . قد عادينا أعداءك فيك . فلا تُسمِتْهم بنا لتقصيرنا في حقك . ووالينا أضيافك لك فلا توحشنا منهم لسهونا عن واجبك (١٣٣٧) » .

ومن أسلوبه الذي لم يتقيد بالسجع نأخذ جزءاً من الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع والمؤانسة : « قال ابن سعدان : فصل حديثك ... بحديث أصحابنا الشعراء . صِف لي جماعتهم . واذكر لي بضاعتهم . وما خص كل واحد منهم .

قلتُ : لستُ من الشعر والشعراء في شيء . وأكره أن أخطو على دحض (١٣٣٨)

قال : دغ هذا القول . فما خُضنا في شيء الى هذا الوقت إلا على غاية ما كان في النفس . ونهاية ما أفاد من الأنس . فكان من الوصف :

أما السُّلاميُّ (١٣٣٩) : فهو حلو الكلام . مُسَق النظام . كأنما يبيسُ عن ثغر الغمام . خفي السُّرقة . لطيف الأخذ . واسع المذهب . لطيف المغارس . جميل الملابس . لكلامه لِيطةٌ (١٣٤٠) بالقلب . وعبثٌ بالروح . وبِرْدٌ على الكبيد .

(١٣٣٦) ينظر . ملامح النثر العباسي ص ٢٤٢ - ٢٥٥ .

(١٣٣٧) الاشارات الالهية ١٠١ .

(١٣٣٨) دحض . مزلة ومزلة للادام .

(١٣٣٩) السُّلامي : أبو الحسن محمد بن عبد الله . شاعر من اهل العراق . عربي الأصل . ولد

ببغداد سنة ٢٢٦ هـ وتوفي سنة ٢٩٤ هـ .

(١٣٤٠) لِيطة . تعلق والتصاق .

وأما الحاتمِيُّ (١٣١١) : فغليظُ اللفظ . كثيرُ العُقْد . يحبُّ أن يكونَ بدويًّا قحًّا . وهو لم يَنَمَّ حَضْرِيًّا ؛ غزيرُ المحفوظ . جامعٌ بين النظم والنثر . على تشابهِ بينهما في الجفوة . وقلةِ السَّلامة . والبعدِ عن المَسْلوك . بادي العورة فيما يقول . لكنَّما يُبرِزُ ما يُخفي . ويكثُرُ ما يُصفي . له سَكْرَةٌ في القول إذا أفاق منها خَمِرٌ (١٣١٢) . وإذا خَمِرَ سِدْرٌ (١٣١٣) . يتطاولُ شاخصاً . فيتضاءلُ متقاعساً . إذا صدقَ فهو مَهين . وإذا كذبَ فهو مَشين .

وأما ابنُ جَلِيات (١٣١٤) : فمجنونُ الشعر . متفاوتُ اللفظ . قليلُ البديع . واسعُ الحيلة . كثيرُ الزُّوق (١٣١٥) . قصيرُ الرِّشاء (١٣١٦) . كثيرُ العُشاء . غزُهُ نفاقُهُ (١٣١٧) . ونفقُهُ نفاقُهُ .

وأما الخالِع (١٣١٨) . : فأديبُ الشعرِ . صحيحُ النَّحت . كثيرُ البديع . مستويُ الطريقة . متشابهُ الصناعة . بعيدٌ من طُفْرَةِ المتحيرِ قَرِيبٌ من فرصةِ المتخيرِ . كان ذوا الكفائيتين (١٣١٩) يُقدِّمُهُ بالرِّي . ويَقبلُهُ على النثرِ والطِّي .

وأما مَسْكويه (١٣٢٠) : فلطيفُ اللفظ . رطبُ الأطراف . رقيقُ الحواشي . سهلُ المأخذ . قليلُ السكِب . بطيءُ السُّبكِ . مشهورُ المعاني . كثيرُ التواني . شديدهُ التوقي . ضعيفُ الترقى . يَرُدُّ أكثرَ مما يَصْدُرُ . ويتطاولُ جُهدهُ ثم يَقْصُرُ . ويَطيرُ بعيداً ويقعُ قَرِيباً ويسقي من قبل أن يفرس . ويمتخُ من قبل أن يُميه . وله بعد ذلك مأخذُ كَشْدُو من الفلسفة . وتأتى في الخدمة . وقيامُ برسومِ النَّدامة . وسُنَّة في البخل . وغرائبُ من الكذب . وهو حائلُ العقل لشغفه بالكيماء .

(١٢٤١) العاتمي ، أبو علي محمد بن الحسين ، الكاتب اللغوي البغدادي المتوفى سنة ٢٨٨ هـ

(١٢٤٢) خمر ، أصيب بالحصار ، وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر ، والكلام هنا على طريق الاستعارة .

(١٢٤٣) سدر ، تحير أو لم يبال ما صنع ولم يهتم .

(١٢٤٤) أبو القاسم علي بن جليات من شعراء البيتية ١٠٣ ، ١٠٤ .

(١٢٤٥) الزوق ، الزينة .

(١٢٤٦) الرشاء ، العبل الذي يصل الدلو إذ يلقى به في البئر .

(١٢٤٧) النفاق ، بفتح النون ، الرواج .

(١٢٤٨) الخالع ، أبو علي الحسن بن علي من شعراء المشرق ، ذكره الثعالبي في بيتية الدهر

(١٢٤٩) ذو الكفائيتين ، أبو الفضل محمد بن الحسين ، الملقب بابن الصيد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ

للهجرة ، وقد سبقت ترجمته في هذا الكتاب .

(١٢٥٠) أبو علي أحمد بن محمد مسكويه ، أديب ومؤرخ ، كان قيساً على خزاعة كتب ابن

الصيد ثم على خزاعة كتب عضد الدولة ، ثم اختص بيهاء الدولة وعظم عنده . توفي سنة ٤٢٦ هـ .

وأما ابن نباتة (١١٠١) : فشاعر الوقت ، لا يذفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل . أو معاند . قد لحق عصاية سيف الدولة . وغدا معهم ووراءهم . حسن الخنو على مثال سگان البادية . لطيف الائتمام بهم . خفي المغاص في واديهم . ظاهر الإطلال على ناديهم : هذا مع شعبة من الجنون وطائف من الوسواس .

وأما ابن الحجاج (١٢٠٢) : فليس من هذه الزمرة بشيء ؛ لأنه سخيئ الطريقة . بعيداً من الجد . قريع في الهزل ؛ ليس للعقل من شعره منال . ولا له في قرضه مثال . على أنه قويم اللفظ . سهل الكلام . وشاملة نائية بالوقار عن عادته الجارية في الخسار . وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة . وإذا جد أقمى . وإذا هزل حكى الأقمى (١٢٠٢) . «

من النص السابق نستدل أن أبا حيان كان مطلعاً على الحركة الأدبية في زمانه اطلاعاً واسعاً . عارفاً باقتدار الأدباء ومنازلهم . ولذلك وضع نتاج الكثيرين منهم في ميزان نقده بلغة واضحة وأسلوب مشرق جذاب . قال حسن السندوبي في مقدمة كتاب المقابسات : « وكان من خصائصه احتذاء الجاحظ في التفنن في كل شيء . مطبوعاً على ذلك إلى الحد الأقصى . غير أنه أولع بوضع الأحاديث والأسمار . ووقائع التاريخ في الصورة الروائية . فلا يكتفي بإيراد الحادث على ما عُرف وتناقله الرواة . بل يعرض له ويرسل ضيئاً مدراراً من فائض بلاغته . وذاخر بيانه . فإذا هو قصة ذات وقائع وأشخاص وأبطال . ترعق إذا مثلت . وتروق إذا قرئت . وتملك المشاعر والقلوب إذا استمعت . ومع ما يدخله عليها من أصباغ . وما يطليها به من ألوان . فهو لا يعدو في النتيجة أن يمثل الحقيقة في أصدق مظاهرها . فهو الكاتب القصصي الماهر الذي أهدته الينا الأعصار الأول (١١٠١) . »

ونختتم ترجمته بقول ياقوت الحموي : « كان متفنناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة . وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه . ويشتهي أن ينتظم في سلكه . فهو شيخ في الصوفية . وفيلسوف الأدباء . وأديب الفلاسفة (١١٠٠) . »

(١٢٠١) ابن نباتة السدي ، عبد العزيز بن محمد بن نباتة ، شاعر هراي ، له مدائح في سيف الدولة الصمداني ، توفي سنة ٤٠٥ هـ وله ديوان مطبوع .

(١٢٠٢) ابن الحجاج ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، شاعر ، ماجن من شعراء بغداد في القرن الرابع للهجرة . يضرب به المثل في السفه والمداهة والأهاجي . توفي سنة ٢٩١ للهجرة .

(١٢٠٢) الامتاع والمؤانسة ، ١ - ١٢٤ - ١٣٧ .

(١٢٠٤) المقابسات ص ١٧ .

(١٢٠٥) معجم الأدباء ، ٥ : ٢٨٠ .

المقامات

المعنى اللغوي والاصطلاحي :

قال ابن منظور ، المقامة . بالفتح . المجلس . والجماعة من الناس (١٢٥٦) . وكلا المعنيين نجدهما في شعر ما قبل الاسلام . اذ جاءت بمعنى المجلس في قول زهير بن ابي سلمى :

وفيهم مقامات ، حسانٌ وجوههم وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعلُ (١٢٥٧)

ووردت بمعنى الجماعة من الناس التي يضمُّها المجلس في قول لبيد :

ومقامةٌ غلبَ الرقابُ كأنهم جنٌ لدى طرْفِ الحَصيرِ قيامُ (١٢٥٨)

والمجلس في الغالب تدور فيه احاديث للمسامرة . وقد كانت للعرب قبل الاسلام مجالس سمر يتحدثون فيها بقصص الجن والحيوان ويتحدثون بالمواعظ والامثال (١٢٥٩) . « وتقدم في العصر الاسلامي فوجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة او غيره ويتحدث واعظاً . وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها . ثم نتقدم اكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة (١٢٦٠) » وقد عقد ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فضلاً في كتابه عيون الاخبار بعنوان « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » اورد فيها عشر مقامات . وهي مواعظ يقف فيها الراوي امام الخليفة لنصحه وارشاده . من ابرزها مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبدالعزيز . ومقام الاوزاعي بين يدي المنصور . ومقام

(١٢٥٦) لسان العرب ١٢ ، ٤٩٨ .

(١٢٥٧) قال الاعمش الغنصيري ، المقامات المجالس ، سميت بذلك لان الرجل كان يقوم لي المجلس ليحضر على الخبير ويصلح بين الناس . واراد بالمقامات اهلها ولذلك قال « حسان وجوههم » . والاندية : جمع ندي . وهو المجلس والمتحدث . وقوله « ينتابها القول والفعل » اي ، نجبت فيها الجميل من القول ويعمل به (شعر زهير بن ابي سلمى ص ٢٨) .

(١٢٥٨) شرح ديوان لبيد ص ٢٩٠ . الحصير ، الملك

(١٢٥٩) ينظر ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٦

(١٢٦٠) المقامة ، للدكتور شوقي حنيف ص ٧

صالح بن عبدالجليل بين يدي المهدي (١٣١). وورد ذكرها عند ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) في كتابه العقد الفريد بعنوان « مقامات العباد عند الخلفاء ». من ابرزها مقام ابن السُّمَّك عند الرشيد. (١٣٢)

نخلص مما تقدم ان المقامات كانت تُعنى - قبل ان تتخذ مدلولها الاصطلاحي - بأحاديث بالنصح والارشاد والوعظ والتقويم الخلقي ؛ وللاستدلال على ذلك نأخذ جزءاً قصيراً من مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور : « بينما المنصور يطوف ليلاً اذ سمع قائلاً يقول : اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض . وما يحول بين الحق واهله من الطمع ؛ فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد . وارسل الى الرجل يدعوه . فصلّى الرجل ركعتين . واستلم الركن . واقبل مع الرسول . فسلم عليه بالخلافة . فقال المنصور : مالذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني (١٣٣) . قال : يا أمير المؤمنين ان امنتني على نفسي انباتك بالامور من اصولها . والا احتجزت منك واقترضت على نفسي ففيها لي شأغل . فقال : انت آمن على نفسك فقل ؛ فقال : ان الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنت ؛ قال : ويحك وكيف يدخلني الطمع . والصفراء والبيضاء في قبضتي . والحلو والحامض عندي ! قال : وهل دخل احد من الطمع ما دخلك ! ان الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين واموالهم . فأغفلت امورهم . واهتممت بجمع اموالهم . وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من الحديد وخجبة معهم السلاخ ثم سجنت نفسك فيها عنهم . وبعثت عمالك في جباية الاموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكرّاع (١٣٤) . وامرت بالأ يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان نفر سميتهم . ولم تأمر بايصال المظلوم والا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ... فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود في العذاب الاليم ... هل يغني عنك ماشححت عليه من ملك الدنيا اذا انتزعه من يدك ودعاك الى الحساب . فيكي المنصور وقال : باليتني لم أخلق ... » (١٣٥) .

(١٢٦١) هيون الاخبار ، ٢ ، ٢٢٢ - ٢٤٢ .

(١٢٦٢) العقد الفريد ، ٢ ، ١٥٨ - ١٦٦ .

(١٢٦٣) ارضني ، اوجمني والمني

(١٢٦٤) الكراع ، العيل

(١٢٦٥) هيون الاخبار ، ٢ ، ٢٢٢ . العقد الفريد ، ٢ ، ١٥٩

واصبحت المقامة فيما بعد مصطلحاً ادبياً تطلق على نوع من الكتابة الفنية على شكل أقصوة منمقة في الفاظها واسلوبها . فيها شيء من الحوار . وتعتمد في الغالب على راوٍ واحد وبطل اديب متحايل . يراد بها وصف حالة نفسية . او مفارقة ادبية . او مسألة دينية . او قضية علمية .. وتنطوي على لون من ألوان النقد . او التهمك والسخرية . او التصحيح والتقويم . او الثورة ... ويعد بديع الزمان اول من اعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الادباء .

نشأتها :

اختلف الذين أروخوا للملادب من المحدثين وتضاربت آراؤهم في تعيين مبتدع المقامات إذا نجد رأياً يقول : إن أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) هو المنشئ الأول للمقامات في رسالته « التربيع التدوير » أو في رسالته « صناعات القواد » . ويذهب رأي ثانٍ الى أن أبا بكر محمد بن الحسين الأزدي (ت ٣٢١ هـ) هو مبتكرها والسابق لها . استناداً الى نص أورده الحصري القيرواني في زهر الآداب يُشير فيه الى أن بديع الزمان عارض ابن دريد في أحاديثه الأربعين .. وثالث الآراء يقول : إن المبتكر الأول لها هو أحمد بن فارس اللغوي (ت ٣٩٠ هـ) أستاذ بديع الزمان . ورابع الآراء يرى أنا أبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) ابتدعها وأنشأها(٣١١) ... وإذا احتكنا الى القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات المشهورة (ت ٥١٦ هـ) نجده يقول « قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركبت في هذا العصر ريحاً . وخبث مصايحج . ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان . وعلامه همدان . رحمه الله تعالى . فأشار من إشارته حكّم . وطاعته غنم . الى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع . وإن لم يدرك الظالم (١٣٧) شأو الضليح (٣٢٨) لبيت دعوته تلبية المطيع . وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع . وأنشأت على مألغانيه من قريحة جامدة . وفطنة خامدة . وروية ناصبة . وهوموم ناصبة . خمسين مقامة »(٣٢٩) . ويقول القلقشندي : « إعلم أن أول من من فتح باب عمل المقامات .

(١٢٦٦) تنظر تفاصيل هذه الآراء في بحث الدكتور محسن شياض (مقامات بديع الزمان

الهمداني) المنشور في مجلة الطليحة الأدبية ، العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .

(١٢٦٧) الطالع ، المائل عن الطريق القويم ، الذي يغمز في مفهية

(١٢٦٨) الضليح ، السمين القوي ، والضلاحة ، قوة الاضلاع .

(١٢٦٩) مقامات الحريري ص ١١

علامة الدهر . وإمام الأدب . البديع الهمداني . فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه . وهي في غاية من البلاغة . وعلو الرتبة في الصنعة « (١٣٧٠) .

وخلاصة القول عندنا أن بديع الزمان كان أديباً عالماً ، مثقفاً بثقافة كبيرة مستوعباً أغلب الكتابات التي أنشأها السابقون . وفكرة المقامات بصيغتها وشكلها المعروف هو صاحبها . ويعود له الفضل في إعطائها المعنى الاصطلاحي بين الفنون الشعرية في الادب العربي .

أصحاب المقامات :

انتشرت مقامات بديع الزمان انتشاراً واسعاً بين الشرق والغرب ، وأقبل الكتاب على قراءتها . وتديب المقامات على هديها وإن اختلفت في الأساليب والمضامين . وقد أشار بلاشير الى ستة وسبعين كاتباً من كتاب المقامات . منهم سبعة ورد ذكرهم من بديع الزمان الى الحريري (١٣٧٢) . وهم :

- ١ - أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمداني المتوفى سنة ٣٥٨ هـ .
- ٢ - أبو الاصبع عبد العزيز بن تمام العراقي .
- ٣ - أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .
- ٤ - أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان المتوفى سنة ٤٦٠ هـ .
- ٥ - أبو النصر عبدالله بن محمد بن الحسين بن داود بن نافيا المتوفى سنة ٤٨٥ هـ .
- ٦ - أبو حميد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .
- ٧ - أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ (١٣٧٣) .

-
- (١٢٧٠) سبج الأعشى في صناعة الانفا ١٤ ، ١١٠ .
 - (١٢٧١) ينظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٣٧ - ٢٦٦ . تاريخ الأدب الاندلسي عصر الطوائف والمربطين ص ٢٠٢ - ٢٢٦ .
 - (١٢٧٢) المقامة ، بلاشير - المشرق عدد ٤٧ سنة ١٩٥٢ . وينظر ، بديعيات الزمان ص ١٢٩ - ١٣٧ . رأى في المقامات ص ٢٢ - ٢٥ .
 - (١٢٧٣) ينظر الى اصحاب المقامات بعد الحريري في كتاب فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٣٦ - ١٤٦ .

سأت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد القرن الثالث للهجرة . ولاسيما بعد ضعف مركز الخليفة . وسيطرة الأعاجم على شؤون الدولة ومراقبتها العامة . وتفشي الظلم الى جانب الفقر والعوز . وأصبح الكثيرون في المجتمع آنذاك منهم علماء وأدباء في ضيق وحرَج حتى اضطر بعضهم الى الاختيال والتحامق والاستجداء . (١٣٧٤) . وقد سرُّ بديع الزمان هذا الواقع المرير والوضع المزري خير تصوير بأسلوب تطغى عليه روح الدعابة والمرح والفكاهة والاضحاك على لسان راو اسمه عيسى بن هشام ومحتال ذكي في صورة شحاذ يدعى أبا الفتح الاسكندري .

والى جانب الموضوع الذي يصور المجتمع في فقره وبؤسه وحرمانه من الحرية والعيش العزيز الكريم . نجد موضوعات تأخذ طابعاً ثقافياً من ذلك مقامات في النقد الأدبي . (١٣٧٥) مثل : العراقية . والشعرية . والقريضية . ومنها دينية وعظمية في النصح والإرشاد واتباع الخلق القويم والطريق المستقيم مثل : الأهوازية . والوعظية . ومنها وصفية تتناول العادات والطبائع والمآكل والمشارب (١٣٧٦) والحيوانات والمدن ...

وإذا أمعنا النظر في مقامات الحريري نجد أيضاً الكُدية تلازم بطلها أبا زيد السروجي الذي يروي اخباره الحارث بن همام . وإذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الاسكندري وأعظاً وناصحاً العباد الى مافيه صلاحهم في مقامتين . فان الحريري عرض أبا زيد السروجي وأعظاً في عشر مقامات ولعل أطرف مانراه في المقامة الثانية عشرة . الأدعية التي يرجو فيها من الله أن يرحمه وينقذه : من الباغين والطاغين والجائرين : « اللهم يامحيي الرُّفَاتِ . ويادافع الآفاتِ . ويوافي المخافات . وياكريم المكافاة . وياموئل الغفاة صلِّ على محمد خاتم أنبيائك . وبلغ أنبيائك . وعلى مصاييح أسرته . ومفاتيح نصرته . وأعدني من نزعات الشياطين . ونزوات السلاطين . وإعناتِ الباغين . ومعاناة الطاغين . ومعاداة العادين . وعدوانِ المعادين . وغلب الغالبيين . وسلب السالبيين . وحيل المحتالين .

(١٣٧٤) ينظر بحث الدكتور صفاء خلوصي (أدب المقامات أو الفن الألفصوي المسجع)

مجلة المعلم الجديد العدد الاول لسنة ١٩٦٢ .

(١٣٧٥) ينظر بحث الدكتور محمد قاسم مصطفى (النقد الأدبي في مقامات بديع الزمان

الهذلي) مجلة المورد العدد ٢ . سنة ١٩٨٤ .

(١٣٧٦) ينظر بحث صبيح صادق (بغداد من خلال المقامات) مجلة المورد . العدد ٤ سنة

١٩٧٩ .

وغيَّب المغتالين . وأجرني اللهم من جور المجاورين . ومجاورة الجائرين . وكفَّ عني أكف الضائمين . وأخرجني من ظلمات الظالمين . وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ... اللهم أحرسني بعينك ، ودعوتك ، واخصني بأمنك ، ومنك . وتولني باختيارك وخيرك . ولا تكن لي كلاءة غيرك (١٣٧) وهب لي عافية غير عافية (١٣٨) ، وارزقني رفاهية غير واهية واكفني مخاشي الأواء (١٣٩) . واكفني بغواشي الألاء (١٤٠) ، ولا تظفر بي أظفار الأعداء . إنك سميع الدعاء « (١٤١) .

ان الطابع الديني القائم على التوجيه والارشاد واصلاح النفوس من الشرور والآثام . قد اصبح سمة بارزة عند الكثيرين الذين جاؤوا بعد الحريري . مثل الامام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) . وأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ... وتجدد الاشارة الى ان المقامات عند بعض الكتاب تغيرت طريقة تناول والعرض فيها عما وضعه السابقون . ولاسيما بديع الزمان الهمداني والحريري اذ تخلصت من الرواية واكتفت بالحكاية وقد عبر بعض من هذه المقامات عن الاحداث الكبيرة والويلات والمصائب التي ابتليت بها الامة العربية . مثل ما فعله التتر في زحفهم على المشرق ولاسيما على العراق وديار الشام . اذ نرى الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني (ت ٦٩٧ هـ) ينشيء مقامة طويلة بعنوان : « مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية » . (١٣٨٢) تصف بأسلوب حزين الوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي انتابت بغداد بعد مقتل آخر خليفة عباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٦ للهجرة ونقل منها الفقرات الآتية : « وافيتها بلدة خالية . وأمة جالية . ودمنة حائلة . ومحنة جائمة . وقصوراً خاوية . وعراضاً باكية . قد رحل عنها سكانها . وبان عنها قطانها . وتمزقوا في البلاد . ونزلوا بكل واد . وقصورها المشيدة مهدومة . ونعمائؤها مسلوبة معدومة . موحشة لفقد قطانها . باكية بلسان الحال على سكانها . عظام العظام بالية . تسفي

(١٣٧٧) لا تكن لي الى كلاءة غيرك ، لا تدعني الى حفظ غيرك

(١٣٧٨) هير عافية ، هير دارسة .

(١٣٧٩) الأواء ، الهدى والضيق .

(١٣٨٠) اكفني ، احفظني لي كنفك . الغواشي ، ما يغطي به الشيء مثل غاشية السرج .

١٤٩١ ، النعم .

(١٣٨١) مقامات الحريري ص ١٠٤ .

(١٣٨٢) حلقها كوركيس هواد ، وطبعها بمطبعة الارشاد ببغداد سنة ١٩٦١ . ثم اعاد نشرها في

مجلة المورد ، العدد الرابع الخاص عن بغداد سنة ١٩٧٩

عليها الرياح السافية . « فهل ترى لهم من باقية » (١٣٨٢) فوقتُ أبكيها . وأندب ربوعها ومن كان فيها

وأندب اطلالها تارةً وابكي على فرقة الطاعيننا
فلو ذهبت مقلّةً بالبكاء لفرط الغرام لكنّا عمينا

وهناك شخص : بصر بحالي ، وهو يذري دمه لسماع ارتجالي . فقلت له : ماجلاؤك فقد أعجبنى حالك . فقال اليك عني . واذهب لسبيلك ودعني . فاني اتمتع بالبكاء . وأسحُ الدمع على هذه الاصداء . واقيم مأتم العزاء . فلو رأيت من هذه البلدة مارأيت لأذريت معي الدمع . ولا سمع بكأوك الجمع « وهذه المقامة - كما لاحظنا - تتسم بوضوح القصد وصدقه وقوة التعبير وتأثيره ونجد هذا الشيء ايضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسغي التي ذكر فيها هجوم التتر المروع على مدن الشام ولاسيما حلب التي كثر فيها القتل والسلب والتخريب والنهب (١٣٨٤) .

اسلوب المقامات :

شاعت الصنعة في الكتابة العربية في القرن الرابع للهجرة شيوعاً كبيراً . وتسرب أثرها الى المقامات . حيث نجد بديع الزمان . الذي يعد الرائد في انشائها . يأخذ نصيباً كبيراً من الاساليب البلاغية المصنعة . ويدخلها بذكاء وقدرة فائقة في مقاماته . ولاسيما السجع والجناس والتصوير . ونراه احياناً يكثر من الألفاظ الغريبة على نحو ما جاء في المقامة النهيدية . ويحشد فيها الشعر الذي يطول احياناً كما في المقامة البشرية . ويقتبس من القرآن الكريم . والامثال العربية المشهورة . ويورد اطرافاً من معارف كثيرة في اللغة العربية وأدائها . انه يأتي بكل ذلك باحكام وتناسق وانسجام وعرض مشرق لطيف يروق السامع ويستهويه .

وإذا انتقلنا الى الحريري نجده اكثر ايغالياً في استخدام فنون البديع وامعاناً في تناول غريب اللغة . ولا عجب حين قال عنه العماد الاصبهاني : « قد اعجز الفصحاء بصناعته . وأبر على البلغاء ببراعته . وبلغ السماء ببلاغته . واوجد حلماً الزمان العاطل بجودة صياغته وقد اشتهرت له المقامات شرقاً وغرباً . وبعداً وقرباً (١٣٨٥) .

(١٣٨٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٨ .

(١٣٨٤) ينظر : كلمة المختصر في أخبار البهر ٢٠٨ .

(١٣٨٥) خريدة القصر وجريدة المصر قسم العراق ، ٤ / ٢ / ٦٠١ .

لقد أقرّ الحريري في مقدمة مقاماته بقوله : انها « تحتوي على جد القول وهزله . ورقيق اللفظ وحزله . وغرر البيان ودرره . وملح الادب ونوادره . الى ماوشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية . واللطائف الادبية . والأحاجي النحوية . والفتاوى اللغوية . والرسائل المبتكرة . والخطب المحبّرة . والمواعظ المبكية . والأضاحيك الملهية » (١٢٨٦) . ان هذه الامور ساقها في مقاماته بتمكن واقتدار وباسلوب محكم رصين . فيه حيوية نافذة . ومرد هذه الحيوية كما يرى الدكتور شوقي ضيف « الى هذا الثوب المتوهج من السجع . الذي لانجد فيه نقصاً . فقد فصله وقطعه ووشاه ذوق رفيع . كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة . وكيف يشدّ اللفظة الى أختها وكأنه عازف قيثارة » (١٢٨٧) .

وجاء بعد الحريري كتاب كثيرون . دمجوا مقامات في موضوعات متنوعة دينية واجتماعية وادبية . وحاولوا ان يظهروا فيها براعتهم الاسلوبية والبلاغية . ولكنهم لم يلحقوا به ولا برائده بديع الزمان الهمداني . وبقوا في دائرة التقليد الا ما ندر منهم . ولذلك لم تأخذ مقاماتهم الشهرة والانتشار في الأوساط الادبية وبقيت بين مخطوطة ومطبوعة بعيدة عن ايدي الدارسين (١٢٨٨) .

(١٢٨٦) مقامات الحريري ص ١٢

(١٢٨٧) المقامة للدكتور شوقي ضيف ص ٦٩

(١٢٨٨) لتنظر المقامات التي الفت بعد الحريري في كتاب ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ص

بديع الزمان الهمذاني

٢٥٨ - ٢٩٨ هـ

لم تنتكس الثقافة في القرن الرابع للهجرة بانتكاس الخلافة بمجدها وعزها وأبهتها. بل بقي بريقها وهجاً، وظلت البيئات العلمية والأدبية مزادانةً بالعلماء والأدباء. حتى قال أحدهم: إن هذا العصر يستحق أن يُسمى زبدة الحقب (١٣٨١). انه حقاً عصر علم وأدب وشعر ومقامات وتآليف وفلسفة. ومن أراد التأكد من ذلك فليراجع أحد الكتب التي تناولت هذا العصر. وهو كتاب يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي/ويرى العدد الكبير من أرباب القلم. أحدهم بديع الزمان الهمذاني. رائد فن المقامات

سيرته:

هو أبو الفضل، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد. ويُعرف ببديع الزمان. ولا نعرف كيف نال هذا اللقب (١٣٩٠). وربما يكون من صنعه أو صنعه أبي منصور الثعالبي الذي عاصره وترجم له (١٣٩١). فقال: «هو أحمد بن الحسين بديع الزمان. ومُعجزة همدان» (١٣٩٢)

ولد في همدان في الثالث عشر من جمادي الآخرة. سنة ٣٥٨ للهجرة. من أسرة يصل نسبها الى بني مضر. وقد صرح بذلك فقال: «اني عبدُ الشيخ. واسمي أحمد. وهمدانُ المولود. وتغلَّب المورد. ومُضِرُّ المحتد» (١٣٩٢). ولم يكتفِ بذكر نسبه العربي. بل انتصر للعرب في كتاباته. فقال في رسالة الى الشيخ الرئيس أبي عامر عدنان بن محمد: «نحن - أطال الله بقاء الشيخ - اذا تحدَّثنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم. أردنا بالفضل ما أحاطت به الجدود. ولم ننكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس. وأنعم منها مطاعم. وأكثر ذخائر. وأبسط ممالك. وأعمر مساكن. ولكننا نقول: العرب أوفى وأوفر. وأوقى وأوفر. وأنكى وأنكر. وأعلى وأعلم. وأحلى وأحلم. وأقوى وأقوم. وأبلى وأبلغ. وأشجى وأشجع. وأسمى وأسمح. وأعطى وأعطف. والطي والطف» (١٣٩١). وأحصى وأحصف. وأنقى وأتق. ولا ينكر ذلك إلا

(١٣٨٩) بديع الزمان الهمذاني، مارون عبود، ص ١٤.

(١٣٩٠) قال الدكتور فوالى صنيف، «ان اسمه لا يعرفه الناس، وإنما يعرفونه بلقبه الذي

أطلقه عليه معاصروه». الفن ومذاهبه في النشر العربي ص ٢٤٠.

(١٣٩١) ينظر، مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد ص ١٢.

(١٣٩٢) يتيمة الدهر ٤، ٢٥٦.

(١٣٩٣) رسال أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٤.

(١٣٩٤) الطي، اللطاة، الجبهة، يقال يُطى الله لطائك أي جبهتك.

وَقِيحَ وَتَحَّ (١٣٩٥) ، ولا بجحدَه إلا نغَلَ نغَرَ (١٣٩٦) ... « (١٣٩٧) .

نشأ في همدان . وتعلّم فيها القراءة والكتابة . وكان أخوه محمد بن الحسين مفتي البلدة (١٣٩٨) . وتتلذذ على العلماء والأدباء . منهم أبو الحسين أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوي المشهور . صاحب المجمل في اللغة (١٣٩٩) . وأبو بكر محمد بن الحسين الفراء . وعيسى بن هشام اللغوي الاخباري . وكان بديع الزمان ذكياً . قوي الحافظة . قال الثعالبي : « كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط - وهي أكثر من خمسين بيتاً - فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها . لا يخرم حرفاً ولا يخل بمعنى . وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهدأ عن ظهر قلبه هدأً . ويسرّدها سرداً . وهذه حاله في الكتب الواردة عليه « (١٤٠٠) . ويُعلّق أحد الباحثين على هذا القول . فيقول : « انها مبالغات نسبوا مثلها الى المتنبي . والمعري . وأبي تمام . وهي عندي الى الحكايات أقرب منها الى التاريخ الرصين . فليست الأذهان دفاتر . ولا آلات تصوير شمسية . حتى تحفظ . وتلتقط آثار الأدباء كما هي « (١٤٠١) .

خرج بديع الزمان من همدان سنة ٣٨٠ للهجرة طلباً للعلم والجاه والشهرة . فقصده صاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) وبقي عنده زمناً في أصبهان المشهورة بجمال طبيعتها . وكانت آنذاك تجمع بالأدباء والعلماء من أبنائها والوافدين عليها . وقد عدّها الدكتور مصطفى جواد معقلاً للأدب العربي (١٤٠٢) . وبعد تزوده بشمار صاحب بن عباد وحسن آثاره . ارتحل الى جرجان « وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتيش في أكنافهم « (١٤٠٣) . ثم تركها . وشرح سبب تركها في رسالة كتبها الى أبي نصر ابن المرزبان (١٤٠٤) . فجاء الى نيسابور سنة ٣٨٢ للهجرة . « وكان لواء الرئاسة والصدارة فيها معقوداً لأسرة بني ميكال . وهي أسرة علم وأدب وفضل .

(١٢٩٥) وقح ، حسين .

(١٢٩٦) لغر ، حلوذ .

(١٢٩٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمداني ص ١٦٩ .

(١٢٩٨) معجم الادباء ١ : ٩٥ .

(١٢٩٩) ينظر : المقامات من ابن فارس الى بديع الزمان الهمداني ص ٩ .

(١٣٠٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٦ .

(١٣٠١) بديع الزمان الهمداني . مارون عبود . ص ١٧ .

(١٣٠٢) ينظر بحث الدكتور مصطفى جواد (أصفهان معقل الادب العربي في ايران) مجلة المصباح العلمي العراقي . المجلد العاشر . ١٩٦٢ . ص ٦٩ - ٩٤ .

(١٣٠٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٧ .

(١٣٠٤) رسائل أبي الفضل بديع الهمداني ص ٩٢ .

وكان أفرادها يُلقَّبون بالأمرء . وكانوا يشجعون الأدب ويصلون الشعراء (٣٠٠) .
 وألَمَع . من عاش من هذه الأسرة في القرن الرابع للهجرة الأمير أحمد بن علي بن
 ميكال والأمير أبو الفضل عبيدالله بن أحمد بن ميكال . وكان هذا الأخير كاتباً
 شاعراً شبهه الثعالبي بابن العميد والصاحب بن عباد وأبي اسحاق الصابي وابن
 المعتز وأبي فراس من الشعراء (٣٠١)

وكان بديع الزمان قبل وصوله الى نيسابور قد سلب قطاع الطريق من الأعراب
 ماكان له من مال وأمتعة وأصبح مُعدماً . وخاطب أبا بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣
 هـ) شيخ عصره في علوم اللغة والبلاغة وأيام العرب وأمثالها بهذه الرسالة : أنا لقرب
 الأستاذ أطال الله بقاءه (كما طرب النشوان مالت به الخمر) ومن الارتياح للقائه
 (كما انتفض العصور بلكة القطر) ومن الامتزاز بولائه (كما التقت الصهباء والبارد
 العذب) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتزت تحت البارج الغصن الرطب) فكيف نشاط
 الأستاذ لصديق طوى اليه ما بين قصبي العراق وخرسان . بل ما بين عتبي
 نيسابور وجرجان . وكيف اهتزازه لضيف في بُردة جفال . وجلدة خمال :

رثُ الشمائل مُنْهَجِ الأثوابِ بكرتُ عليه مغيرةُ الأعرابِ

وهو أيداه الله ولي انعامه بانقاذ غلامه الى مستقري . لأفضي اليه بسري . ان شاء
 الله تعالى « (١٣٧) . ولم يحسن الخوارزمي لقاءه . وحصلت بينهما نفرة وجفوة
 وقطيعة . تحولت فيما بعد الى عداوة . وحدثت بينهما أمام جمع من الناس معركة
 أدبية حامية . خرج منها بديع الزمان ظافراً وانحسر الخوارزمي مخذولاً (٣٠٨) .

ترك بديع الزمان نيسابور الى سجستان . وكان أميرها آنذاك الأديب خلف بن
 أحمد . تلقى حفاوة وتقديراً منه وأهدى اليه مقاماته ومدحه بقصيدة مطلعها : (٣٠٩)

سماء الدُّجى . ماهذه الحدقُ النجلُ أصدر الدُّجى حال وجيد الضحى عطلُ ؟
 لك الله من عزم أجوب جيوبه كأنني في أجفان عين الرُدى كحلُ

(١٣٥) بديع الزمان الهذلي . الدكتور مصطفى الشكعة . ص ٥٥ .

(١٣٦) تنظر : هزيمة الدهر ١٤ ، ٢٥٤ .

(١٣٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهذلي ص ٨٢ .

(١٣٨) تنظر المناظرة في رسائل البديع ص ١٧ . ومعجم الأدباء ١١ ، ١٠١ .

(١٣٩) ديوان بديع الزمان ص ٦٥ .

وكان البديع يحب السفر ، ويرغبُ في الارتحال ، اذ نراه يذهب شرقاً الى غزنة عاصمة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي ، الذي كان يهوى لقاء الأدباء والعلماء ، ويشجعهم على البقاء عنده وبعد اقامة قصيرة في كنف هذا السلطان توجه الى هراة وألقى فيها عصا الترحال ، وتزوج من ابنة ابي علي الحسين بن محمد الخشامي أحد فضلاء هذه المدينة ، فطمأنت نفسه ، وحسن حاله ، وطاب له المقام وأقتنى مالا وضيعاً ، وعاش عيشة راضية ، وأنجب أولاداً ، وفي سنة ٣٩٨ للهجرة لبى نداء ربه ، وهو في الأربعين من عمره .

آثاره :

- كان بديع الزمان شاعراً وناثراً على السواء ، وقد ترك لنا الآثار الآتية :
- ١ - ديوان شعره ، وهو مطبوع ، والقاريء فيه يجده لا يتخلى - كما هو الحال في نثره - عن الجناس والسجع والازدواج والمعميات والأحاجي
 - ٢ - رسائله ، وهي مطبوعة ، تناول فيها موضوعات كثيرة من مدح ، وهجاء ، وعتاب ، واعتذار ، وعزاء وشكوى ، وتهنئة ، ووصف ، واستعطاف ...
 - ٣ - مقاماته ، وهي مطبوعة ، وعددها اثنتان وخمسون مقامة .

نثره وأسلوبه :

جاء بديع الزمان ووجد أمامه الصنعة قد قطعت شوطاً كبيراً في ميدان النثر العربي ، على يد كتاب كبار أمثال ، ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وأبي بكر الخوارزمي . فسار على خطاهم ، وأبدى جدارة فائقة وقدرة عالية في هذه الصنعة بحيث فاقهم في الشهرة ولا سيما في مقاماته .

لقد تسربت الصنعة الى نثره ، وتجاوزت أحياناً الحد المعقول في التزام السجع ، والتشبيهات ، والاستعارات ، والكنائيات ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، والرمز والتلميح ، والاشارات ... والميل الى التعصيب والتعقيد ، روى الثعالبي في يتييمته أنه « كان ربما يكتب الكتاب المقترخ عليه فيبتديء بأخر سطر منه ثم هلُمَّ جراً الى الأول ، ويُخرجه كأحسن شيء ، وأملحه . ويؤشخ القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروي من النثر والنظم ، ويعطي القوافي الكثيرة فيصلُّ بها الأبيات الرشيقة . ويُقترخ عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف على ريقه لا يبلعه ، ونفس

لا يقطعه (١٣١) . « وقد أقرُّ البديع في مناظرته مع أبي بكر الخوارزمي أنه يستطيع أن يقترح عليه أربع مئة صنف في الترسل . ثم يستطرد فيصف بعض هذه الأصناف فيقول : انه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه . أو كتاباً يُقرأ من آخره الى أوله . أو كتاباً اذا قُرئ من أوله الى آخره كان كتاباً . فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً . أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها . أو كتاباً خالياً من الألف واللام . أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل . أو كتاباً أول سطره كلها ميم وآخرها جيم . أو كتاباً اذا قُرئ معرفاً وسُرد معوجاً كان شعراً . أو كتاباً اذا فُسِّر على وجه كان مدحاً واذا فُسِّر على وجه كان قدحاً (١٣١) . ومع هذا الاعتراف بالتعقيد نجد له رسائل تتسم بلغة واضحة ذات ألفاظ موسيقية عذبة لها وقع حسن في الأذن .

ومما يلاحظ في نثره كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية . والأمثال . والحكم . والأبيات الشعرية من نظمه أو من نظم شعراء آخرين . وأحياناً يمعن في هذا الاستشهاد كما نرى في رسالته الى أبي جعفر الميكالي التي ضمنها ستة وثلاثين بيتاً في الوقت الذي لم تتعد الرسالة بضعة وعشرين سطراً . والى جانب الشعر في هذه الرسالة نجد حكماً وأمثالاً . مثل قوله : وبذل الموجود غاية الجود . وبعض الحمية آخر المجهود . وماش خير من لاش . ووجود ماقل خير من عدم ماجل . وقليل في الجيب خير من كثير في الغيب . وحمار هو خير من فرس ليس . وكوخ في العيان خير من قصر في الوهم . وزيت خير من لبت . وما كان أجود من لو كان . وقد قيل عصفور في الكف خير من كركبي في الجو . ولأن تقطف خير من أن تقف . ومن لم يجد الحميم رعى الهشيم . ومن لم يحسن صهيلاً نهق . ومن لم يجد ماءً تيمم « (١٣٢)

واشتهرت مقاماته أكثر من رسائله . وهي قائمة على الكدية باستثناء ثلاث عشرة مقامة تتناول أغراضاً شتى في المديح والوصف والنقد والأدب والألغاز والوعظ والحجاج في المذاهب وأحوال الزمان والفكاهة .

(١٣١٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٦ .

(١٣١١) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمداني ص ٥٠ . وينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٥ .

(١٣١٢) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمداني ص ٦٠ - ٦١ .

والمقامات أرحب من رسائله معنى . وألطف مبنئ . وأخف صنعة . وأكثر فكاهة وأوفر مرحاً واضحاكاً . قال الدكتور زكي « مبارك : « إن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف النثر الفني في القرن الرابع ، وقد أردنا أن نُظِيلَ بها الطواف ليتعرّف إليها القاريء . فقد كان مفهوماً عند كثير من الناس أنها الأعيب لفظية ليس فيها من المعاني ما يستحقّ الدرس . ولكننا بعد مواجهتها مرةً ومرةً رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يُوجبُ الإعجاب . وكنا نحفظها في الحدائث . غير أننا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا في هذه الأيام » (٣١٢)

تقوم أحداثُ المقامات على كاهل رجلين ابتدعهما بديع الزمان . الأول الراوي عيسى بن هشام والثاني البطل الغامر أبو الفتح الاسكندري . وأحياناً يفغل عن هذا البطل كما هو الحال في المقامات الثلاث : البغدادية ، والنهدية ، والغيلانية .

إن أسلوب البديع في المقامات مسجوع مُنَمَّق . يعتمد على الصنعة . إذ نراه يتكئ على التشبيهات . والاستعارات . والكنائيات . وضروب المحسنات البديعية ولا سيما الجناس والطباق . ويكثر من الجمل الاعتراضية . والترادف في اللغة للمعنى الواحد . والاستشهاد بالشعر . فلا تخلو مقامة من أبيات . لاتقل عن بيتين . من نظمه أو من نظم الشعراء الأقدمين وكذلك الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف . مثال ذلك البيتان الآتيان : (٣١١)

حتى إذا جُرْتُ بلادَ العِدَى إلى حمى الذين نقضتُ الوجيبَ
فقلتُ إذ لآخِ شعارِ الهُدَى (نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ)

ومثل قوله : « أثارتنى ورفقةً وليمةً فأجبتُ إليها للحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دُعيتُ إلى كراعٍ لأجبتُ ولو أهدى إلى ذراعٍ لقبلتُ » (٣١٠)
ويلتجئ أحياناً إلى الأمثال أما مقبسةً وأما مبتكرةً مثل قوله في المقامة الجاحظية :
« يا قوم لكل عمل رجالٌ . ولكل مقام مقالٌ . ولكل دارٍ سكانٌ . ولكل زمانٍ جاحظٌ » (٣١١)

(١٢١٢) النثر الفني في القرن الرابع ، ١ ، ٣٧٧ .

(١٢١٤) مقامات بديع الزمان ، المقامة القروينية ص ٩٧ .

(٣١٥) مقامات بديع الزمان ص ٨٤ .

(١٢١٦) نفسه ص ٨٦ .

والبدیع اديبٌ ظريفٌ . وكاتبٌ طريفٌ . وفنانٌ موهوبٌ . وقصصیٌ ملهمٌ . يقدم مقاماته بأسلوبٍ محكمٍ تظلمه روح فكهةٍ مرحة . وقد اخترنا للقارئ المقامة البغدادية ليقف على طبيعة هذا الأسلوب في إيراد المشاهد الغريبة وربطها ببراعة مع بعضها وصولاً الى نتيجة لطيفة ترقُّ لها القلوب : « حدثني عيسى بن هشام : قال : اشتھتُ الأزادُ (١٣١٧) ، وأنا ببغداد . وليس معي عقدٌ . على نقدٍ (١٣١٨) . فخرجتُ أنتهز محالةً حتى أحلني الكرخُ . فاذا أنا بسوادي (١٣١٩) يسوقُ بالجهدِ حمارةً . ويُطرفُ بالعقدِ ازارةً . فقلتُ : ظفرنا والله بصيدٍ . وحياكُ الله أبا زيد . من أين أقبلتُ ؟ وأين نزلتُ ؟ ومتى وافيتُ ؟ وهلمُّ الى البيتِ . فقال : السواديُّ . لست بأبي زيد . ولكني أبو عبيد . فقلتُ : نعم . لعن الله الشيطانَ . وأبعد النسيانَ . أنسانيك طولُ العهدِ . واتصالُ البعدِ . فكيف حالُ أبيك ؟ أشابُ كعهدي . أم شابٌ بعدي ؟ فقال : قد نبتَ الربيعُ على دمنته (١٣٢٠) . وأرجو أن يُصيرَهُ الله الى جنتِهِ . فقلتُ : إنا لله وأنا اليه راجعون . ولا حول ولا قوة الا بالله العليُّ العظيم . ومددتُ يدَ البدارِ الى الصُّدارِ (١٣٢١) اريد تمزيقَهُ . فقبضَ السواديُّ على خصري بجمعه . وقال : نشدتكُ الله لامرئته . فقلتُ : هلمُّ الى البيتِ نَصِبْ غداءً . أو الى السوقِ نشترِ شواءٍ . والسوقُ أقربُ . وطعامه أطيبُ . فاستفزتُهُ حمةً القرم . وعطفته عاطفة اللقم (١٣٢٢) . ولم يعلم أنه وقع . ثم أتينا شواءً يتقاطرُ شواؤه عرقاً . وتتسائلُ جوداياته مرعاً (١٣٢٣) فقلتُ : أفرزُ لأبي زيد من هذا الشواءِ . ثم زِنْ له من تلك الحلواءِ . واختر له من تلك الاطباقِ . وانضد عليها اوراقَ الرقاقِ . ورشْ عليه شيئاً من ماء السُّمَّاقِ . ليأكله أبو زيد هنيئاً . فانحنى الشواءُ بساطوره . على زبدة تنوره . فجعلها كالكحلِ سحقاً . وكالطحنِ دقاً . ثم جلس وجلستُ . ولا يئس ولا يئستُ . حتى استوفينا . وقلتُ لصاحبِ الحلوى : زِنْ لأبي زيد من اللوزينجِ رطلين فهو أجرى في الحلوقِ .

(١٣١٧) من اجود انواع الصبر .

(١٣١٨) النقد : المسكوك من الذهب والفضة

(١٣١٩) السوادي : الرجل من رسائيق العراق والراء . نسبة الى السواد . وسمي العراق سواداً لاكتساء ارضه بالفضرة من نبات وأهجار .

(١٣٢٠) المراد بالمدينة القبر .

(١٣٢١) البدار : المبادرة والمصارعة . الصُّدار : ثوب يلبس مما يلي الصدر .

(١٣٢٢) استفزته : استعوهه وحركته بقوة الصنة للهيه شده . يقال لسته حمة البرد اي

شده . والصنة في الاصل : ابرة القرب التي تلسع بها . القرم : الفهوة البالغة لأكل

اللحم . اللقم : السرعة في الاكل .

(١٣٢٣) الجودايات : جمع جوداية . وهي خبز يخبز في تنور وفوله لحم .

وامضى في العروق . وليكن ليلى العمر . يومئ النثر (٣٣١) . رقيق القشر . كيف الحشو . لؤلؤي الدهن . كوكبي اللون . يذوب كالصمغ . قبل المضغ . ليأكله أبو زيد هنيئاً . قال : فوزنهُ ثم قعدت وقعدت . وجرّد وجرّدت . حتى استوفيناه . ثم قلت : ياأبازيد ماأحوجنا الى ماء يشمع بالثلج ليمع هذه الصارة (٣٣٥) . ويفثأ (٣٣٦) هذه اللقم الحارة . اجلس ياأبا زيد حتى نأتيك بسقاء يأتيك بشرية ماء . ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني أنظر مايصنع . فلما أبطأت عليه . قام السوادي الى حماره . فاعتلق الشواء بازاره . وقال : اين ثمن ماأكلت ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفاً . فلكمه لكمة . وثنى عليه بلطمة . ثم قال الشواء : هاك . ومتى دعوناك ؟ زن ياأخا القحة عشرين (٣٣٧) فجعل السوادي يبكي ويحلّ عقده بأسانه ويقول : كم قلت لذاك القريد : (٣٣٨) أنا أبو عبيد . وهو يقول : أنت أبو زيد . فأنشدت :

أعمل لرزقك كل آله لا تقعدن بكلّ حالة
وانهض بكلّ عزيمة فالمرء يعجز لا محالة (٣٣٩)

وتجدر الاشارة في آخر هذه الدراسة الموجزة لسيرة بدیع الزمان ونشره الى أن الباحثين جميعاً أثنوا على المقامات واشادوا بمكائنها بين الفنون النثرية التي وصلت اليها ماعدا محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩ هـ) من القدامى . والدكتور محمد مهدي البصير من المحدثين . قال ابن الطقطقا : « المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء . والوقوف على مذاهب النظم والنثر . نعم وفيها حكمٌ وحيلٌ إلا أن ذلك مما يصغر الهمة . إذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح على تحصيل النزر الطفيف . فان نفعت من جانب ضرت من جانب . وبعض الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريرية والبديعية » (٣٤٠) أما الدكتور محمد مهدي البصير فيقول : « أما مقامات الهمداني فانها جناية لا تمتفر على الأدب العربي : ذلك انه خلق فيها أدب الشحاذة خلقاً وأنشأ انشاءً . ولم يحل

(١٣٣٤) ليلى العمر : اي قد صنع بالليل . يومئ النثر . اي نثر من مصنعه بالنهار فيكون قد

نضح وسرت الحلاوة في جميع اجزائه .

(١٣٣٥) الصارة : المطلى

(١٣٣٦) يفتأ : يسكن . وتسكين اللقم : كسر الصدة من حرارتها .

(١٣٣٧) القحة : الرفاحة وسوء الادب . ومعنى زن عشرين : اعط وزن عشرين درهماً .

(١٣٣٨) القريد : تصغير فرد .

(١٣٣٩) مقامات بدیع الزمان ص ٧١ - ٧٤ .

(١٣٤٠) الفغري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١٥

الأدب العربي من الشحاذة لسوء الحظ على ألسن الشعراء المداحين ، ولكنها ظهرت في هذه المرة بأبشع صورها ، وأقبح اشكالها ، وأخس طرقها واساليبها سامح الله الهمداني ، فإنه أساء الى الادب بمقاماته اكثر مما احسن اليه بشعره ورسائله « (١٣٣١) » وقد كفانا الدكتور محسن غياض بالرد على هذين القولين ، فقال : « ونحن نعتقد أن ابن الطقطقا والمرحوم البصير قد تطرفا في مهاجمة المقامات تطرفاً لا مبرر له ، فهي دون شك صدى لظاهرة الكدية في عصرها ، ولا نرى فيها ما يصغر الهمة ويشجع على التسول ، والانسان لا يكون متسولاً اذا قرأ أدب التسول ، وانما هو أمر تضطره اليه ظروف الحياة وفقدان العدالة الاجتماعية ، ولو كان الأمر كذلك لأصبح كل من قرأ أدب المجون ماجناً وكل من قرأ شعر الزهد زاهداً ، وليس الامر كذلك يقيناً ، كما أن البديع لم يخلق التسول والشحاذة ، ولم يدع اليهما ، وانما صور ظاهرة موجودة في عصره ، واستمد موضوع مقاماته من حياة طبقة بائسة من طبقات المجتمع آنذاك ، وتلك في نظرنا ميزة يحمدها عليها ، فقد كان الادباء قبله يستمدون موضوعاتهم من حياة الطبقة الفنية ، فكثرت قصصهم واحاديثهم عن الخلفاء والامراء والوزراء والمشهورين من العشاق والمغنيات والظرفاء ثم جاء البديع فخالف ذلك واستمد موضوعاته من حياة الفقراء من الناس الذين اضطرهم فساد النظام السياسي والاجتماعي الى الاستجداء والاحتياج في طلب الرزق ، والبديع بهذا يقدم لنا وثيقة ادانة لفساد النظام السياسي عندما تغلبت العناصر الاعجمية ومزقت الدولة الواحدة وعالت بها فساداً (١٣٣٢) .

(١٣٣١) في الادب المباسي ص ٩٨

(١٣٣٢) مقامات بديع الزمان الهمداني ، المنصور في مجلة الطليعة الادبية ، العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .

القاضي الفاضل

٥٢٩ - ٥٩٦ هـ

سيرته :

هو عبدالرحيم بن علي بن الحسن ، يكنى ابا علي . ويعرف بالقاضي الفاضل . ينحدر من قبيلة عربية هي قبيلة لخم . ولد في الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ للهجرة (٣٣٣) بمدينة عسقلان . وهي احدى مدن فلسطين . وكان والده ويدعى القاضي الأشرف قاضياً فيها . وانتقل في طفولته الى مدينة بيسان وهي مدينة بالاردن فنسب اليها .

أخذ علوم اللغة العربية في مدينة بيسان . ولما شبَّ ظهر فيه الميل الى الادب . فرأى والده ان يلحقه بديوان المكاتبات ليتخرَّج على كبار المشئيين . فأرسله الى القاهرة سنة ٥٤٣ للهجرة وهو في الخامسة عشرة من العمر . وقد روى ابن الأثير قصة قدومه الى القاهرة فقال : « حدثني عبدالرحيم بن علي البيساني . رحمه الله . بمدينة دمشق في سنة ٥٨٥ . وكان اذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية . فقال : ... فأرسلني والذي ... وأمرني بالمصير الى ديوان المكاتبات . وكان الذي يرأس به في تلك الايام رجلٌ يقال له ، ابن الخلال . فلما حضرت الديوان . ومثلت بين يديه . وعرفته من أنا . وما طلبتي . رَحِبَ بي وسهل . ثم قال : مالذي اعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت ليس عندي شيء سوى أنني أحفظ القرآن وكتاب الحماسة . فقال : في هذا بلاغ . ثم أمرني بملازمته . فلما ترددت اليه . وتدربت بين يديه . أمرني بعد ذلك أن أحلَّ شعر الحماسة . فحللته من اوله الى آخره . ثم أمرني بأن أحلَّهُ مرَّةً ثانية . فحللته » (٣٣١)

ولم يقف في الدراسة عند حد الموفق يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال (ت ٥٦٦ هـ) بل تتلمذ على غيره من الكتاب المشهورين . منهم : ابو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس (ت ٥٥١ هـ) . وهو من مشهوري شعراء مصر آنذاك (٣٣٥) .

(١٢٢٢) وفيات الأعيان ١٠٣ ، ١٥٨ .

(١٢٢٤) الوشي المرقوم ص ٥٤ .

(١٢٢٥) الروضتين ١٠٢ ، ١٠٣ . النكت المصرية ص ٢٥ .

وبعد وقوفه على طرق الكتابة ، والتدرب عليها ، واجادتها ، ذهب الى الاسكندرية وقصد ابن حديد قاضيها والناظر فيها ، ولما عرف فضله ونبوغه ، استكتبه ، وقرر له مرتباً يتقاضاه . وظل في الاسكندرية زهاء ثمانى سنوات برزت فيها مواهبه . وعندما سمع به الوزير العادل رزّيك بن الصالح طلائع بعث الى والى الاسكندرية ان يرسله اليه ، وولاه رئاسة ديوان الجيش ، (١٣٣١) وتوثقت صلته بهذا الوزير ، ويحتفظ ديوانه بشعر كثير في مدحه . منه قوله من قصيدة طويلة : (٣٣٧)

ففي قلبه للناس ودٌ ورحمةٌ وفي قلوبهم منه المهابةُ والحُبُّ
فعالٌ اذا مارمت احصاء مجدها فحسبك قولى : لا يحيطُ به الحسبُ

وبقى القاضي الفاضل يعمل في الدولة كاتباً معتمداً ، وحينما قامت الدولة الايوبية في مصر والشام لم يستغن صلاح الدين الايوبي عنه ، بل قرّبه ، وفوض اليه الوزارة وديوان الانشاء ، (١٣٣٨) ، وأصبح كاتبه البليغ ومراسله الامين الى الخلفاء والملوك والامراء والقواد ، وصار أعزّ عنده من اهله واولاده . (٣٣٩) يعظمه ويرجع الى قوله ، ويزوره مستشيراً اذا أراد السفر لملاقاته الاعداد من الفرنج . وقد وصل احترامه وتقديره الى درجة القول فيه : « لاتظنوا ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل » (١٣٤٠) وقد سجل مؤرخوه له هذه المكانة السامية في الدولة الايوبية ، قال المقرئى : « كان لا يصدر أمراً الا عن مشورته ، ولا ينفذ شيئاً الا عن رأيه ، ولا يحكم في قضية الا بتدييره » (١٣٤١)

وظلّ القاضي الفاضل مخلصاً للدولة الايوبية ، يشرف على الادارة المالية ، ويعمل على تجهيز الجيش والاسطول ، وفي ايام صلاح الدين الاخيرة صاحبه الى دمشق ، وظلّ بالقرب منه حتى مرضه الاخير ، وشاهد وفاة هذا القائد المجاهد في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ للهجرة ، ورأى ان يدفن معه سيفه الذي كان يرافقه في جهاده وحروبه النضالية . (١٣٤٢) وكتب رسالة الى ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب يعزّيه فيها ويدعوه الى جمع الشمل ووحدة الكلمة : « لقد كان لكم

(١٣٣٦) القاضي الفاضل ، دراسة وفتاوى ص ١٥ .

(١٣٣٧) ديوان القاضي الفاضل ١٠١ ، ١٥٦ .

(١٣٣٨) صبح الأعشى ١٠١ ، ٩٧ .

(١٣٣٩) البداية والنهاية ١٣ ، ٢٤ .

(١٣٤٠) مرآة الزمان ٨ ، ٢٠٤ ، وينظر فترات الذهب ٤ ، ٣٢٤ .

(١٣٤١) خطط المقرئى ٤ ، ١٩٨ .

(١٣٤٢) الروضتين ٢ ، ٢١٤ .

في رسول الله أسوة حسنة. (١٣٤٣) أن زلزلة الساعة شيء عظيم. (١٣٤٤) كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مصابه؛ وجعل فيه الخلف لمالك المرحوم وإصحابه، وقد زلزل المسلمون زلزلاً شديداً؛ وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده. وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وبالباب من الجنود المجتدة، والأسلحة المغدمة؛ ما لا يدفع البلاء، ولا يرد القضاء؛ وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وأنا عليك يا يوسف لمحزونون وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لأنج الأمر فإنه ان وقع اتفاق فما عدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم، والسلام» (١٣٥٥)

وبقي القاضي الفاضل على صلة بالأسرة الأيوبية، وفياً لأبنائها، لإعجاب به بشجاعتهم ونبلهم وكرمهم، وقد مدحهم بقوله: (١٣٤٦)

قالوا: رأينا الأسود الصبر عادتهم فقلت: أبناء أيوب ولا عجب
الشاربون كؤوس الموت مسترعة وللأسنة في حافاتهما حبيب
والمضرمون لنار الحرب ليس لها الآ الرماح واضلاع العدا حطب
أطلب على كل حال منهم، وإذا كانوا غضاباً فلا يشي الندى الغضب
لا تشغل الوقت في تسبب مسألة فليس كل عطاياهم لها سبب
القوم هم واصلو الأرحام دهرهم وبين أموالهم والمعنفي سبب

وبعد زمن قصير من وزارته للملك الأفضل علي بن صلاح الدين صاحب دمشق، استعفى، وعاد إلى القاهرة، فخرج ملك مصر العزيز عثمان بن صلاح الدين إلى لقائه. (١٣٤٧) ويبدو أنه تعب من العمل السياسي فأثر الراحة عاكفاً على الأدب والعلم، وبقي محتفظاً بمكاتبه ومنزلته عند بني أيوب، وأنشأ لنفسه مدرسة

(١٣٤٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١

(١٣٤٤) سورة الحج، الآية ١

(١٣٤٥) مرآة الزمان ٨، ٤٢٢، وفيات الأعيان ٧، ٢٠٤، فناء القلوب في مناقب بني أيوب

ص ١٨٥، النجوم الزاهرة ٦، ٥٣، تلمة المختصر في أخبار البشر ٢، ١٦١.

(١٣٤٦) ديوان القاضي الفاضل ١، ١٦٢

(١٣٤٧) السلوك ١، ١١٥.

سميت باسمه . وضم إليها مكتبة كبيرة . فيها جملة عظيمة من الكتب (١٣٤٨) . وجعل فيها قاعة للاقراء . والى جانبها كتاباً برسم الايتام (١٣٤٩) .

وظل يجمع حوله تلاميذه ومريديه من الادباء والعلماء الى ان توفي بداره في القاهرة يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر سنة ٥٩٦ للهجرة (١٣٥٠) .

آثاره :

- ١ - ديوان شعره : وهو محقق ومطبوع بجزأين . تغلب عليه الصناعة اللفظية . فهو لا يكاد يتركها اذا تأتى له استخدامها . ولهذه الناحية من خصائص شعره أعجب رجال الصناعة به . ومثلوا لكثير من الوانها بشعره . مسجلين له أعظم تقدير واجاب . اما أولئك الذين لاتعنيهم هذه الصناعة فلا يرتفعون في تقدير شعره الى هذا المستوى من التقدير (١٣٥١) .
- ٢ - رسائله : ترك القاضي بعده رسائل كثيرة . قيل : انها في عشرة مجلدات (١٣٥٢) . وقد اتقى منها محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر (ت ٦٩٢ هـ) مجموعة سماها « الدر التنظيم من ترسل عبدالرحيم » (١٣٥٣) . وكذلك فعل مثل ذلك جمال الدين بن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) وسمى مجموعته « الفاضل من كلام الفاضل » (١٣٥٤) .
- ٣ - المتجددات : وهي مذكرات يروي فيها حوادث زمنه في ايام صلاح الدين الايوبي وبعده مؤرخة . وقد نقل منها المقرئني كثيراً في كتابه (١٣٥٥) .

(١٣٤٨) قال ابن الساعي ، كان له خزنة تحتوي على ثلاثين الف مجلد (الجامع المختصر ص ٢٨) وقال ابو شامة المقدسي ، وأكثر اهل مصر يذكرون ان كتبه التي جمعها مقدار مئة الف مجلد (الروضتين ٢ ، ٢٤٤)

(١٣٤٩) خطط المرهزي ٤ ، ١٩٧

(١٣٥٠) الروضتين ٢ ، ٢٤١

(١٣٥١) تنظر مقدمة ديوانه المطبوع

(١٣٥٢) مرآة الزمان ٨ ، ٤٧٢

(١٣٥٣) توجد نسخة مخطوطة منها في مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٢٤٣٧ . ومصورة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٤ أدب .

(١٣٥٤) مخطوطته في مكتبة الازهر رقم ٤٦٩ أباطة - ٧٠٦٥ - أدب . ودار الكتب المصرية رقم ٢٨٨٢ أدب

(١٣٥٥) تجد نماذجها في خطط المقرئني ١ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢ ، ٣٢ ، ٢٥١ ،

٢٩٥ ، ٢٩٤ و ٢ ، ٦ ، ٣٧ ، ١٧٤ ، ٢٠١ ، ٣٢١ .

بلغ التصنيع ، والتألق البياني ، والصنع البديعي ، مبلغاً عظيماً في القرن السادس للهجرة ، وقد ظهر تأثير ذلك في كل العصور التالية . ومما لا ريب فيه انه كان للقاضي الفاضل يد طول في هذه الحركة حتى عدّ شيخ الصناعة الكتابية ، وحتى صاروا يقولون الطريقة الفاضلية . (٣٥١) قال ابن حجة الحموي : « ولعمري أنّ الانشاء الذي صدر في الايام الاموية والايام العباسية نُسِيَ وألغى بانشاء الفاضل ، وما اخترعه من النكت الادبية ، والمعاني المخترعة ، والأنواع البديعية ، والذي يؤيد قولني قول العماد الكاتب في الخريدة ، انه في صناعة الانشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع » . (٣٥٧) وكان التويري معجباً بطريقته في الكتابة ايما اعجاب . اذ قال فيه : « اليه انتهت صناعة الانشاء ووقفت ، وبفضله أقرت ابناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واعترفت ، وأمام فضله ألقّت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت بها نواها . فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره . ورافع علم البيان لا محالة . والفاضل بغير اطالة » (٣٥٨) وقد بالغ السبكي حين رفعه الى درجة عالية جداً في قوله : « أجمع اهل الادب على ان الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسل من بعده مثله . ولا من قبله بأكثر من مئتي عام . وربما زادوا ، وهو بينهم كالشافعي وابي حنيفة بين الفقهاء ، بل هم له أخضع . لأن اصحاب الامامين قد يتنازعون في الأرجحية ، فكلّ يدعي أرجحية امامه . واما هذا فلا تنازع بين اهل صناعته فيه » . (٣٥٩) وقد ذهب الزيات عكس ماذهب اليه القدامى ، فقال : « استحدث طريقة جديدة بناها على اصول طريقة ابن العميد ، ومازاها بالاغراق في التورية والجناس . حتى اصبحت الكتابة في عهده طلاء خداعاً من زخرف اللفظ . على هيكل بال من المعنى السقيم . ثم بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون الكليلة . والقرائح الناضبة . فاقتناها عبّاد الصنعة من أشباه الكتاب ، وورطوا أنفسهم فيما لاغناء فيه ولا رجح منه » (٣٦٠) . لقد كان الذوق العام في العصر العباسي الأخير وما تلاه يقوم - في الغالب - على الاجادة في استخدام الوان البديع وقد بلغ فيها القاضي

(١٢٥٦) ينظر ، تطور الاساليب الشعرية في الادب العربي ص ٢٩٢ .

(١٢٥٧) ثمرات الاورال ص ١٢٢ ، ولتنظر ، الخريدة ، لم مصر ، ١ : ٢٥ .

(١٢٥٨) نهاية الأدب ١٠٨

(١٢٥٩) طبقات الفاهمية ٧ ، ١٦٧

(١٢٦٠) تاريخ الادب العربي ص ١٩٢

الفاضل الذروة . ولا غرو اذا تحدّث الشعراء بهذه الاجادة . منهم سبط ابن
التعاويذي . يقول في وصف رسائله : (٣١١)

يسيرُ في الآفاقِ بناؤها كأنها الليلُ اذا يسري
تزهو على الاصداف ادراجها لأنسها اوعىة الدرّ
قارئها ينظر في روضة موشية الاقطار بالزهر
كانه فضّ وقد فضّها لطائم العطر على العطر
تحدّث في أعطافه نشوة كأنسها جاءت على خمر

أسس القاضي الفاضل طريقته على طريقة ابن العميد . التي تلتزم السجع
والطباق . وتتوسع في المعاني الخيالية . الأ أن سجعه يمتاز بالطول . ويزيد على
ذلك انه يكثر من استعمال فنون البديع الاخرى المستعملة في الشعر : من
تورية (١٣٢١) وجناس . وتلميح . واستخدام . وتوجيه . ومراعاة نظير . واقتباس
آيات من القرآن . وكثيراً ما استعان بآيات من الكتاب في كثير من رسائله . (١٣٢٢)
وضمنها الأمثال . ومأثور الاقوال . ومصطلحات العلوم . وحل آيات الحكمة . وبالغ
في صنع الوان البيان . حتى ازدحمت رسائله بأفانين البلاغة . (١٣٢٣) ومما يدل على
طول باع الفاضل وغزارة مادته انه لم يكن يكرر في رسائله ماسبق ان استعمله . فما
« كرر دعاء ذكره في مكاتبتة . ولا ردّد لفظاً في مخاطبته . بل تأتي فصوله مبتكرة
مبتدعة » (١٣٢٤) وللقوف على طبيعة كتابته نأخذ جزءاً من رسالة كتبها عن السلطان
صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بأمر الله ببغداد يبشره فيها بفتح بلد من بلاد
النوبة والنصرة عليها : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي

(١٣٢١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١٩٤ .

(١٣٢٢) قال ابن حجة . ان الفاضل هو الذي عصر سلالة التورية لأهل عصره . وتقدم على
المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره . فانه رحمه الله تعالى كلف بعد طول
التحجب ستر حجابها . والنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها (خزنة الأدب
ص ٢٤١) .

(١٣٢٣) ينظر . مرآة الزمان ٨ ، ٤٧٢ . أدب العروب الصليبية ص ١٨٥ .

(١٣٢٤) ينظر . الحياة الادبية في عصر العروب الصليبية بمصر والحمام ص ٢٥٩ .

(١٣٢٥) الروضتين ٢ : ٢٤٢ .

الصالحون. (١٣٦١) سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم. (١٣٦٧) فروحٌ وريحانٌ وجنةٌ نعيم. (١٣٦٨) وصلاةٌ يتبعها تسليم. وكأسٌ يمزجها تسنيم. وذكرٌ من الله سبحانه في الملاء الأعلى. ورحمةٌ الله وبركاته معلومةٌ من النشأة الأولى على مولانا الامام المستضيء بالله. المستضاء بأنواره. المستضاف بداره. الداعي الى الحق والى طريق مستقيم. الراعي للخلق كما يرعى النسيم النسيم. التامٌ عدله. المطروقٌ موردٌ فنائه. المصدوقٌ في مورد ثنائه. المحقوقٌ من كل ولي بولائه. ابن السادة العز. والقادة الزهر. والذادة الحمس. والشادة للحق على الأس. سقاء الكوثر وزمزم والسحاب. وولاية الموسم والموقف والكتاب. والموصول الانساب يوم اذا نفخ في الصور فلا أنساب. والصابرون على حساب انفسهم فهم الذين يؤتون اجرهم بغير حساب. (١٣٦٩)

ومن رسائله الاخوانية قوله من رسالة الى صديق يتشوق اليه: « نسال الله أن يمن بقربه ورحاب الآمال فوائح. وركاب الهموم طلائح. والزمن المناظر بالقرب سامح. هنالك تطلق أعنة الآمال الحوايس. ويهتز مخضراً من السعود عود يابس:

وما أنا من أن يجمع الله شملنا بأحسن ما كنا عليه بآيس
وقد كان الواجب تقديم عتبه. على تأخير كتبه. ولكنّه يخاف ان يجني ذنباً عظيماً. ويؤلم قلباً كريماً:

ولست براضٍ من خليلٍ بنائلٍ قليلٍ. ولا راضٍ له بقليلٍ
وحاشا جلاله من الاخلال بعهود الوفاء. ومن انحلال عقود الصفاء. وما عهدت عزمة القوي في حلبة الشوق الأ من الضعفاء. وحاشية خلقه الأرق من مدام غرماء الجفاء:

(١٣٧٠)
من لم يبت والبين يصدع قلبه لم يدر كيف تقلقل الاحشاء

(١٣٦٦) سورة الانبياء. الآية ١٠٥.

(١٣٦٧) سورة يس. الآية ٥٨.

(١٣٦٨) سورة الواقعة. الآية ٨٩.

(١٣٦٩) صبح الاعشى ١٦٠٦.

(١٣٧٠) القاضي الفاضل، دراسة ونماذج ص ١٦٨.

عماد الدين الاصبهاني الكاتب

٥١١ - ٥٩٧ هـ

شهدت مصر والشام في القرن السادس للهجرة صراعاً دامياً مع عدو غاشم استأثر باجزاء عزيزة من ديار المسلمين ولا سيما القدس الشريف . وقد هيا الله لمقاتلة هذا العدو اللدود ابطالاً مناضلين عظام . ورجالاً مجاهدين كرام . من ابرزهم نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي « وكان هذان المنقذان العظيمان عنوانين لذلك العصر في العلم والتقوى والسياسة العادلة وتديرير الملك والجهاد في سبيل الله والسعي في تحرير الوطن من المغيرين . ومن كان مثلهما في سمو الذات وجلال الصفات . كان خليقاً بان يختار رجاله من طراز (العماد) في الكفايات . ومقياس عقول الرجال والدول اختيارها اعوانها » (٣٣) .

لقد كان عماد الدين . الكاتب الامين للدولتين النورية والصلاحية . وسنين دوره في ظل هاتين الدولتين . وطبيعة كتاباته في تسجيل الاحداث الكبيرة في رسائل وكتب تعد من اصدق الوثائق عن الحروب مع الفرنج .

سيرته :

هو ابو عبدالله محمد بن صفى الدين ابي الفرج محمد بن نفيس الدين ابي الرجاء حامد . المشهور بالعماد الاصبهاني (١٣٣) . ولد باصبهان سنة ٥١٩ للهجرة . ونشأ بها . وتعلم مبادئ اللغة العربية وآدابها . وقدم بغداد مع ابيه . ثم دخل المدرسة « النظامية » . وانتظم في سلك تلامذتها . ليغتترف من مناهل اساتذتها . وحينما تفتحت اكمام غرسه . وتوسعت دائرة معارفه . بدأ في ارتياد المحافل العلمية . والمجالس الادبية . ومواجهة ارباب السيف والقلم . واول محفل حضره . وجاذب الحديث فيه . كان في مدينة الموصل . حين زارها - وهو في ايهاب الشباب - ومدح وزيرها بالكرم والسخاء جمال الدين ابا جعفر محمد بن علي الاصبهاني . وصرح

(١٣٧١) كاتب الدولتين النورية والصلاحية ص ٢٤ (بحث للاستاذ محمد بهية الاثرى . مجلة

المجمع العلمي العراقي . الجزء الاول - المجلد الرابع لسنة ١٩٥٦)

(١١٧٢) معجم الادباء ١٧ ، ٨١ . الجامع المختصر ص ٩١ . وفيات الاعيان ١٥ ، ٤٧ . الوالي

بالوفيات ١٣٢ ، ١٣١ . طبقات العاقبة للسبكي ٩٧ ، ١٢ .

بذلك : فقال : « وكنت انا في ذلك العهد ببغداد متفقهاً . واتفق حضوري بالموصل سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة . فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعيتين . وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين . ومما مدحته به قصيدة - وذلك من اول نظمي - أولها :

أظنهم ، وقد عزموا ارتحالاً ثنوا عنا جَمالاً لا جَمالاً « (١٣٣)

ثم عاد الى بغداد . ومنها الى أصبهان . قال : « ودخلت أصبهان في سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة في زي العلماء . وحضرت المحافل في مناظرة الفضلاء . ومناظرة الكبراء . ولقيت بها مشايخ اترعت حوض النجر من الفهم من بحرهم . واستسقيت روض الفضل من قطرهم « (١٣٤)

وبعد مكوثه مدة قصيرة سافر الى الحجاز . وادى مناسك الحج . وعاد الى أصبهان فاخذ يستكمل مسيرته العلمية . وفي سنة ٥٤٩ للهجرة غادرها الى غير رجعة . واستقر في بغداد . وبدأ صعوده في سلم المجد والرفعة شاعراً وكاتباً له مكانته السامية ومنزلته العالية .

تولّى نيابة واسط والبصرة في وزارة عون الدين يحيى بن محمد بن هُبيرة . ولكنه هوى من منصبه اثر وفاة الوزير المذكور . وصدرت اوامر الخليفة المستنجد بالله باعتقاله . فبعث من سجنه الى عماد الدين بن الوزير عضد الدين محمد - وكان حينئذ أستاذ الدار - (١٣٧٥) قصيدة طويلة (٣٣١) يطلب فيها ان يشفع له عند الخليفة في فك وثاقه واطلاق سراحه . وتحقق ما أراد . فاقام في بغداد مدة - كما يقول ابن خلكان - في عيش منكدر . وجفن مُسهد (١٣٧٧) . ولما ضاقت به الحال . وخشى ان يقع في مذلة السؤال . قرّر ان يشد الرحال صوب دمشق .

وصل العماد الى دمشق في شعبان سنة ٥٦٢ للهجرة . وسلطان الشام يومئذ الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي . فانزله قاضيه كمال الدين ابو الفضل محمد بن عبدالله الشهرزوري بالمدسة « النورية » التي سميت فيما بعد

(١٣٧٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٤ . وينظر ديوان عماد الدين الاصبهاني ص ٢٢٢

(١٣٧٤) الخريدة ، لسم العجم ، ص ٢٥٨

(١٣٧٥) استاذ الدار ، هو متولى الاخذ ولقبه المال (صبح الاعشى ٥ ، ٤٥٧) .

(١٣٧٦) ينظر ديوان عماد الدين الاصبهاني ص ٦٦

(١٣٧٧) وليات الاعيان ٥ ، ١٤٨

بالمدرسة « العمادية » نسبة اليه . وقربه من نور الدين ، وعرفه به ، وسمع
قصيدته المدحية التي يقول في مطلعها : (١٣٧٨)

لو حفظت يوم النوى عهدوها مامطلت بوصلكم وعودها

ونال اكرام نور الدين . وعين في دولته منشئاً الى جانب التدريس بالمدرسة التي
نزل فيها . ثم اصبح مشرفاً على ديوان الانشاء مضافاً الى كتابة الانشاء .

عاش العماد في سعة من العيش ورغده . ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ للهجرة .
خبا نجمه . وبدأ حساده يضايقونه . قال : « ولما توفي نور الدين ، اختل امري ،
واعتل سري . وفاض دمعي : وغاض بحري . وعلت حسادي . وبلغ مرادهم
اخذادي (١٣٧٩) »

واثر العماد السلامة . فقرر مبارحة دمشق الى بغداد . فأغذ السير . وحينما بلغ
الموصل داهمه المرض . فاضطر ان يمكث فيها ثلاثة اشهر . قال : « اقمنا بالموصل
ثلاثة اشهر ملازماً البيت . انتظر فرجاً . وأرتقب لقصد العرق منهاجاً » (١٣٨٠) . وفي
اثناء ذلك جاءه البشير بسيطرة صلاح الدين على مقاليد الحكم . وكان قد تعرف
عليه حينما كان يعمل في الدولة النورية . كما له سابق معرفة بابيه نجم الدين
ايوب من تكريت . ففكر راجعاً الى الشام . والامل يحده في ان ينال مقاماً محموداً
عنده . ويغيب حسديه الذين حاربوه ونفصوا حياته .

لقد تحقق حلمه . ونال مبتغاه . اذ استطاع ان يلتقي بالسلطان صلاح الدين في
مدينة حمص . وان ينشده قصيدته التي يقول في اولها : (١٣٨١)

أجيران « جيرون » مالي مجيرُ سوى عطفكم . فاعدلوا او فجوروا

و اصبغ في الدولة الايوبية كاتباً للسر . ومسؤولاً عن ديوان الاستيفاء . وصحب
صلاح الدين . وشهد اغلب الوقائع الحربية معه . وكتب كثيراً من الرسائل على
لسانه . وتغنّى شعراً بمناقبه وبطولاته .

(١٣٧٨) ديوان عماد الدين الاصبهاني ص ١٤٢

(١٣٧٩) سنا البرق الشامي ١ ، ١٥٩

(١٣٨٠) العريفة ، بداية شعراء الشام . ص ٧٢

(١٤٨١) الديوان ص ١٨٥

وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ للهجرة ضعفت مكانة العماد . وقلت هيئته بين العباد . قال ابن خلكان ، « لم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته . الى ان توفي السلطان صلاح الدين . رحمه الله . فاختلت احواله . وتعطلت اوصاله . ولم يجد في وجهه بابا مفتوحاً . فلازم بيته . واقبل على الاشتغال بالتصانيف » (١٣٨٢)

واشتغل العماد بالكتابة في دولة الملك الافضل علي بن صلاح الدين . ولكن سرعان ما طلب الاستعفاء . وانصرف الى التصنيف والتدريس والافادة حتى وافته منيته بدمشق يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة ٥٩٧ للهجرة وهو في الثامنة والسبعين من العمر .

مصنفاته :

كان العماد طالب علم ومعرفة طوال حياته . يقرأ . ويدرس . ويؤلف . الى جانب اشتغاله في مراكز الدولة المهمة . وكانت له قدرة كبيرة على الحفظ . قيل « انه كان يحفظ شعر البحري . ودواوين العرب المشهورة » (١٣٨٢) . ومصنفاته كثيرة وسأذكر ما وصل اليها منها . وهي :

- ١ - خريدة القصر وجريدة العصر (١٣٨١)
- ٢ - الفتح القسي في الفتح القدسي (١٣٨٥)
- ٣ - نصره الفترة وعصرة القطرة (١٣٨٦) :
- ٤ - البرق الشامي (١٣٨٧)

(١٣٨٢) وفيات الاعيان ١٥٢ ، ٥

(١٣٨٢) مرآة الزمان ٨ ، ٥٥

(١٣٨٤) وصل اليها هذا الكتاب كاملاً ، وهو القام . طبع منه قسم شعراء مصر ، وشعراء

القام ، وشعراء العراق ، وشعراء المغرب .

(١٣٨٥) طبع مرات في اوربا والبلاد العربية .

(١٣٨٦) منه نسخة في مكتبة بودليان باكسفورد رقم ٦٦٢ واخرى في المكتبة الوطنية ببباريس

رقم ٢١٤٥ . لخصه الفتح بن علي البنداري سنة ٦٢٢ هـ ووصل اليها ، وله عدة طبعات

في اوربا والقاهرة وبيروت بعنوان « زبدة النصره ونخبه العصرة » او بعنوان

« تاريخ دولة ال سلجوقي » .

(١٣٨٧) وهو في سبعة مجلدات . وصل اليها منه الجزءان الثالث والخامس . وهما في مكتبة

بودليان باكسفورد رقم ١١ ، ٤٢٥ (في مكتبتني نسخة مصورة منهما)

٥ - البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان (١٣٨٨)

٦ - ديوان شعره (١٣٨٩)

٧ - رسائل متناثرة في الكتب التاريخية مثل: البرق الشامي، والفتح القسي، والروضتين، ومفرج الكروب في اخبار بني أيوب ...

فنه الكتابي :

عاش العماد مع القرطاس والقلم . مُغرماً بهما ، وفيأ لهما ، الى أن ادركته المنية . وترك تراثاً ضخماً تجاوز خمسة وأربعين مجلداً (٣٠) . وقد بدا لنا من قراءة آثاره الباقية أنه كان ميالاً الى الاطالة والاستقصاء ، والشرح والتفصيل ، وتقليب المعنى على أوجهه المختلفة . واستدعت هذه الاطالة الى ايراد أكبر عدد من الألفاظ في الموضوع الواحد ، وهي لاتتأى إلا لمن عرك اللغة ، وسبر أغوارها ، وخبر أسرارها . ودفعه الافراط في الاسترسال والتوسع الى الحشو والتكرار ، وإتيان المترادفات ، والمشتقات ذات الأصل الواحد ، والألفاظ النادرة . « فأثقل على قرائه . وشق عليهم في متابعة كلامه المطب الذي يوجب عليه أن يقتصد في الكلام على حسب ماتقتضيه طبيعة الحوادث والأخبار ليكون أقرب الى التاريخ منه الى الانشاء » (١٣٩١) .

ان كتاباته قائمة على السجع ، والمجانسة ، والمشكلة ، والتطبيق ، والترصيع ، والموازنة ، والتعميد ... وقلما نجد في اللغة العربية كتاباً في التاريخ يعتمد على المحسنات اللفظية والمعنوية مثل كتاب العماد « الفتح القسي في الفتح القدسي » أو كتابه « البرق الشامي » أو مقدمات تراجمه للشعراء والكتاب في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » .

كان العماد معجباً ايما إعجاب بالقاضي الفاضل زعيم الصنعة في القرن السادس للهجرة ، اسمع مايقوله في رسالة بعث بها اليه يشكره فيها على اهدائه له تسع مجلدات من أشعار أهل المغرب ، « وأنا مورد رسالة جامعة مانعة . قد وقَّفتها حقها

(١٣٨٨) نسخة منه في مكتبة احمد الثالث باستانبول رقم ٢٩٥٩

(١٣٨٩) اصل الديوان مفقود ، والمطبوع من صني ، جمعت مادته من كتب كثيرة مخطوطة ومطبوعة .

(١٣٩٠) مقدمة كتاب سنا البرق الشامي ١٥٠١

(١٣٩١) الأدب في ظل الدولة الزنكية ص ٢٥٥ .

من التجنيس . والتطبيق . والترصيع . والمقابلة . والموازنة . والتوشيح «(١٣٢) . وانظر الى ولعه بالصنعة في الأبيات الإتيية قالها حينما كان مع القاضي الفاضل في موكب السلطان صلاح الدين الأيوبي . وقد انتشر القبار بكثرة من سنايك خيول الفرسان : (١٣٢)

أما الفـبـارُ فإنيـة مما اثارته السـنابك
والجـؤ منه مـظلم لكن أثار به السـنابك
يادهرُ لي عبد الرحـيـ سم فـلستُ أخشى من سـنابك

إن الصنعة التي تكذ الذهن وتتمعب الفكر قد سادت في أسلوب العماد . مثل قوله في الرسالة الاتية التي كتبها الى القاضي الفاضل عندما حج سنة ٥٧٤ للهجرة : « طوبى للجحجر والحجون من ذي الحجر والحجا . منيل الجدا . ومنير الدجى . ولندي الكعبة من كعبة الندى . ولهدايا المشعرات من مشعر الهدى وللمقام الكريم من مقام الكريم . ومن حاطم قفار القفز للحطيم . ومتى رؤي هرم في الحرم . وحاتم ماتح زمزم ؟ ومتى ركب البحر البحر . وسلك البر البر ؟ لقد عاد قس الى عكاظه . وعاد قيس لحفاظه . ويا عجباً لكعبة يقصدها كعبة الفضل والافضل . ولقبة يستقبلها قبة القبول والاقبال والسلام »(١٣١) . إن هذا الاغراق في الصنعة كان محبباً عند العماد . ولاعجب حين يقول مُعقّباً على أبيات فيها جناس ، « وأنا استحلي هذا النوع من التجنيس . واستعذبه . ويحسبه زلال الماء قلبي في الرقة والصفاء فيشربة ويتشربة »(١٣٥) . ولكي يكون القاري على بينة أكثر من إنشاء العماد ، نأخذ جزءاً من الخطاب الذي كتبه عن صلاح الدين الى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ينبئه بفتح القدس سنة ٥٨٣ للهجرة : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (١٣٦) الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد . على نصرته لهذا الذين الحنيف من قبل ومن بعد ؛ وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما اشتمل على شبهها كرام الصحائف . ولم يجادل على مثلها في المواقف ؛ في الايام الامامية الناصرية زادها الله غرراً وأوضاحاً . ووالى البشائر فيها بالفتوح غدواً ورواحاً . ومكن

(١٢٩٢) العريفة . قسم مصر . ١٠١ . ٤٤ .

(١٢٩٣) ديوان عباد الدين الاصمغاني ص ٣٢١ .

(١٢٩٤) وفيات الأعيان ١٠٥ . ١٥١ .

(١٢٩٥) العريفة . قسم العراق . ١٠١ . ١٢٦ .

(١٢٩٦) سورة الانبياء الآية ١٠٥ .

سَيُوفُهَا فِي كُلِّ مَازِقٍ، مِنْ كُلِّ كَافِرٍ وَمَارِقٍ، وَلَا أَخْلَاهَا مِنْ سِيرَةٍ سَرِيَّةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ مَصْلَحَةِ مَخْلُوقٍ وَطَاعَةِ خَالِقٍ، وَأَطَالَ أَيْدِي أَوْلِيَائِهَا لِتَحْمِيِ بِالْحَقِيقَةِ جَمِيَّ الْحَقَائِقِ، وَأَنْجَزَهَا الْحَقَّ وَقَدَفَ بِهِ عَلَى الْبَاطِلِ الزَّاهِقِ، وَمَلَكَهَا هُوَادِي الْمَغَارِبِ وَمِرَامِي الْمَشَارِقِ، وَلَا زَالَتْ آوَاؤُهَا فِي الظُّلُمَاتِ مَصَابِحَ وَسَيُوفُهَا لِلْبِلَادِ مِفَاتِحَ، وَأَطْرَافَ أَسْتِنَاهَا لِدِمَاءِ الْإِعْدَاءِ نَوَازِحَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَصَرَ سُلْطَانَ الدِّيَوَانِ الْعَزِيزِ وَأَيَّدَهُ، وَأَطْفَرَ جُنْدَهُ الْغَالِبِ وَأَنْجَدَهُ، وَجَلَا بِهِ جَلَالِيْبِ الظُّلْمَاءِ، وَجَدَّدَ جُدْدَهُ وَجَعَلَ بَعْدَ غَسْرِ يُسْرًا، وَقَدْ أَحْدَثَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا، وَهَوْنُ الْأَمْرِ الَّذِي مَاكَانَ الْإِسْلَامُ يَسْتَطِيعُ عَلَيْهِ صَبْرًا، وَخُوطِبَ الدِّينُ بِقَوْلِهِ، (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) (٣٧٧)

Y

فَالْأَوْلَى عَصْرَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالصَّحَابَةَ، وَالْآخِرَى هَذِهِ الَّتِي عَتَقَ فِيهَا مِنْ رِقِّ الْكُفَّابَةِ، فَهُوَ قَدْ أَصْبَحَ حُرًّا فَالزَّمَانُ كَهَيْئَتِهِ اسْتَدَارَ، وَالْحَقُّ بِمَهْجَتِهِ قَدْ اسْتَنَارَ، وَالْكَفْرُ قَدْ رُدَّ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْمَسْتَعَارِ، وَغَسَلَ ثَوْبُ اللَّيْلِ بِمَا فَجَّرَ الْفَجْرُ مِنْ أَنْهَارِ النَّهَارِ، وَأَتَى اللَّهُ بَيْنَانَ الْكُفْرِ مِنَ الْقَوَاعِدِ، وَشَفَى غَلِيلَ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ بِرِقْرَاقِ مَاءِ الْمَوْزِدَاتِ الْبُورَادِ، أَنْزَلَ مَلَائِكَةً لَمْ تَظْهَرِ لِلْعَيُونِ الْلَاخِظَةِ، وَلَمْ تَخْفَ عَنِ الْقُلُوبِ الْحَافِظَةِ، عَزَّتْ سِيْمَا الْإِسْلَامِ بِمَسْوَمِهَا، وَتَرَادَفَ نَصْرُهُ بِمَزْدَفِهَا، وَأَخَذَتْ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَتَرَى مَتْرَفِهَا كَأَنَّ لَمْ تَتَوَّ فِيهَا، فَكَمْ أَقْدَمَ بِهَا حَيْرُومَ، وَرَكُضَ فَاتْبَعَهُ سَحَابٌ عَجَاجٌ مَرْكُومَ، وَضَرَبَ فَإِذَا ضَرْبُهُ كِتَابٌ جِرَاحٌ مَرْقُومٌ ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَادَ الْإِسْلَامَ جَدِيدًا ثَوْبَةً، بَعْدَ أَنْ كَانَ جَدِيدًا خَيْلَةً (٣٧٨)، مِيضًا نَصْرُهُ، مَخْضَرًا نَصْلَهُ، مَتَسَعًا فَضْلَهُ، مَجْتَمَعًا شَمْلَهُ، وَالْخَادِمُ يَشْرُحُ مِنْ نَبَأِ هَذَا الْفَتْحِ الْعَظِيمِ، وَالتَّصَرُّفِ الْكَرِيمِ، مَا يَشْرُحُ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَمْنُحُ الْحَبُورَ لِكَافَةِ الْمُسْلِمِينَ» (٣٧٩)

(١٢٩٦) سُورَةُ الْاَنْبِيَاءِ، آيَةُ ١٠٥.

(١٢٩٧) سُورَةُ طه آيَةُ ٣٧.

(١٢٩٨) جَدِيدًا، مَقْطُوعًا، قَالِ الْعَاصِرُ،

أَبِي حَبِيٍّ لَسِمِي أَنْ يَهِيْنَا وَأَمْسَى حَبَلُهَا خَلْقًا جَدِيدًا

(١٢٩٩) صَبَحَ الْأَعْمَى، ٦، ٥١٧ - ٥٢٠.

هذه الرسالة تُظهر بوضوح طريقة العماد في الكتابة الفنية . وقد لاحظنا استماتته الكبيرة بالسجع والجناس وبالقرآن الكريم ، ولا يكاد يتخلص من هذه الطريقة في جميع كتاباته ، سواء كانت كتباً أم رسائل .



الخاتمة

تحدثنا في هذا الكتاب عن الأدب - شعراً ونثراً - ابتداءً من قيام دولة بني العباس سنة ١٣٢ للهجرة الى زمن زوالها سنة ٦٥٦ للهجرة . ذلك الأدب الذي نما وتطور وارتقى وبلغ الغاية العظمى في عصر اختلطت فيه الثقافة العربية الأصيلة بالثقافات الوافدة . وامتزجت فيه العادات والتقاليد والقيم الموروثة بما عند الشعوب الاخرى .

لقد ارتقت الحياة العقلية والادبية في العصر العباسي ، وسمت جوانبها ، وأثمرت شجرةً غرسها نتاجاً جنياً طيباً كثيراً ، أغنت المكتبة العربية بتراث قيم وثروة نفيسة من الكتب والمصنفات في مختلف جوانب المعرفة لاتزال الى وقتنا الحاضر تعدُّ المصادر الرئيسة للباحثين والدارسين . تلك الثروة الغالية التي حمل لواءها وتضافر على نمائها أعلام نابهون ومفكرون نابغون من نحاة . ولغويين وعروضيين ومحدثين ومفسرين ، ومقرئين ، ومتكلمين ورجال أدب ، وبلاغة وتاريخ وجغرافية ، وفلسفة ومنطق ، وطب ، وفلك ، ورياضة ، وموسيقى ... وقد سلطنا الضوء في هذا الكتاب على فريق من هؤلاء الرواد في مجالي الشعر والنثر ، وأظهرنا مكانتهم في مسيرة الحركة الفكرية المتوهجة ، ومنزلتهم في الابداع والتوليد في ميدان الرقي الحضاري .

وتجدر الاشارة الى أن العلم والأدب - كما لاحظنا - بقيا في تألقهما في العصر العباسي الثاني حينما تحولت الديار الاسلامية خارج حكم الخلفاء العباسيين الى امارات تتنازعها ملوك وأمراء من عرب وأعاجم ، ونستطيع القول إن المدارس والمجالس الأدبية والعلمية كثرت وتوسعت في ظل هذه الامارات وأصبحت تزدهو بالرواد من أرباب القلم . وحسبُ القاريء الأسفار الكثيرة التي تناولت تراجم النابهين من الشعراء والكتاب آنذاك ، مثل يتيمة الدهر للثعالبي ، ودمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي ، وخريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الاصبهاني الكاتب وعقود الجمال لابن الشعار الموصلي ...

إن العصر العباسي سيبقى في الذاكرة بأنه من أزهى العصور التي مضت في المدينة والتقدم الفكري ، والصفحات الماضية ماهي إلا ومضات عن هذا العصر الطويل الذي لا يدرك القارىء ساحله في عجالة ووقت قصير ، ولعله يستكمل معرفته عنه بالعودة الى المصادر والمراجع التي ألفت عنه ، والله الموفق ، والهادي الى سواء السبيل .

المصادر والمراجع

- ١- ابن الرومي ، حياته من شعره ، عباس محمود العقاد . دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٨ .
- ٢- ابن الرومي ، حياته وشعره ، روفون جست . ترجمة الدكتور حسين نصار دار الثقافة . بيروت .
- ٣- ابن الرومي في الصورة والوجود ، د . علي شلق . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٢ .
- ٤- ابن المعتز العباسي صورة لعصره ، د . سعد شلبي ، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٧ .
- ٥- ابن وكيع التنهسي ، شاعر الزهر والخمر ، د . حسين نصار . دار مصر للطباعة - القاهرة ١٩٥٣ .
- ٦- أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله ، د . عمر فروخ . المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت ١٩٦٤ .
- ٧- أبو حيان التوحيدي ، د . ابراهيم الكيلاني . مط دار المعارف - القاهرة د . ت .
- ٨- أبو حيان التوحيدي ، د . أحمد محمد الحوفي . مط الرسالة - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٩- أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ، د . زكريا ابراهيم . الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة د . ت .
- ١٠- أبو حيان التوحيدي ، سيرته وأثاره ، د . عبد الرزاق محيي الدين . المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٩ .
- ١١- أبو دلامة الرجل الشاعر والناقد الساخر ، علي عبد عيدان الخزاعي . مط الآداب - النجف ١٩٦٥ .
- ١٢- أبو الطيب ماله وما عليه ، أبو منصور الثعالبي . تح : محمد محيي الدين عبد الحميد . مط حجازي القاهرة د . ت .
- ١٣- أبو الطيب المتنبّي ، محمد كمال حلمي . مط الشباب ١٩٣١ .
- ١٤- أبو العتاهية ، محمد أحمد برانق . ط القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٥- ابو العتاهية حياته وشعره ، د . محمد محمود الدش . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٦- أبو فراس الحمداني ، حياته وشعره ، د . عبد الجليل حسن عبد المهدي . مكتبة الأقصى - عمان ١٩٧١ .

- ١٧ - أبو فراس الحمداني ، الموقف والتشكيل والجمال : د . النعمان القاضي . دار التوفيق النموذجية للطباعة القاهرة ١٩٨٢ .
- ١٨ - أبو نواس زعيم شعراء الخمرة : جورج غريب . دار الاندلس - بيروت ١٩٦١ .
- ١٩ - أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله وعبثه ومجونته : ابن منظور . قدم له عمر أبو النصر . مكتب التأليف والترجمة والنشر - بيروت ١٩٦٩ .
- ٢٠ - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . د . نبيل خليل أبو حاتم . دار الثقافة بيروت ١٩٨٥ .
- ٢١ - اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : يوسف حسين بكار . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧١ .
- ٢٢ - احياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي . ط مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده - القاهرة .
- ٢٣ - أخبار أبي تمام : أبو بكر الصولي . ط لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٣٧ .
- ٢٤ - أخبار الدولة العباسية : لمؤلف مجهول . تح : د . عبد العزيز الدوري ، د . عبد الجبار المطليبي دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧١ .
- ٢٥ - أخبار الراضي بالله والمتقي لله (كتاب الأوراق) : أبو بكر الصولي . دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩ .
- ٢٦ - أخبار الشعراء المحدثين (كتاب الاوراق) : أبو بكر الصولي . دار المسيرة بيروت ١٩٧٩ .
- ٢٧ - الأخبار الطوال : أبو حنيفة الدينوري . تح : عبد المنعم عامر . القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢٨ - الأخطل الكبير ، حياته وشخصيته وقيمه الفنية : د . فخر الدين قباوة . دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٦ .
- ٢٩ - أدباء حليون : د . جواد علوش . دار منشورات عويدات - بيروت ١٩٧٨ .
- ٣٠ - الأدباء العشر : أسعد طلس ، ابراهيم الكيلاني . مط الشباب - دمشق ١٩٤٠ .
- ٣١ - أدب الحروب الصليبية : د . عبد اللطيف حمزة . دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٩ .
- ٣٢ - الادب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري : د . على صافي حسين . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٣٣ - الأدب العربي في إقليم خوارزم : هند حسين طه . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٦ .

- ٣٤ - الأدب العربي في مصر من الفتح الى نهاية العصر الايوبي : محمود مصطفى . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٣٥ - الأدب في ظل بني بويه : د . محمود غناوي الزهيري . مط الأمانة - القاهرة ١٩٤٩ .
- ٣٦ - الأدب في ظل الدولة الزنكية : عبد الوهاب محمد علي العدوانى . رسالة ماجستير مكتومة على آلة الرونيو بغداد ١٩٦٧ .
- ٣٧ - الأدب في العصر الايوبي : د . محمد زغلول سلام . مط دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣٨ - أدب الكاتب : ابن قتيبة تح محمد محيي الدين عبد الحميد . مط السعادة - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٣٩ - أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الأعشى والجاهليين : د . محمد محمد حسني مط دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٠ .
- ٤٠ - أسطورة الزهد عند أبي العتاهية : د . محمد عبد العزيز الكفراوي . دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٧٢ .
- ٤١ - الاشارات الالهية : أبو حيان التوحيدي . ت : عبد الرحمن بدوي . مط جامعة فؤاد الأول . القاهرة ١٩٥٠ .
- ٤٢ - أشجع السلمى ، حياته وشعره : د . خليل بنيان الحسون . دار المسيرة - بيروت ١٩٨١ .
- ٤٣ - أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (كتاب الاوراق) : أبو بكر الصولى . دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩ .
- ٤٤ - أعلام الكلام : ابن شرف القيروانى . مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٢٦ .
- ٤٥ - اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمد بن راغب الطباخ . المط العلمية - حلب ١٩٢٤ .
- ٤٦ - اعيان الشيعة : محسن الأمين . مط الترقى - دمشق ١٩٤٦ .
- ٤٧ - الأغاني : أبو الفرج الأصبهاني . مط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٧ .
- ٤٨ - الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى : عزيز السيد جاسم . مط دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٧ .
- ٤٩ - أمالي المرتضى : تح : محمد أبو الفضل ابراهيم . دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٧ .
- ٥٠ - الامتاع والمؤانسة : ابو حيان التوحيدي . تح : أحمد أمين ، وأحمد الزيني . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٩ .

- ٥١ - أمراء البيان ، محمد كرد علي . مطابع دار الكتب - بيروت ١٩٦٩ .
- ٥٢ - إنباه الرواة ، علي بن يوسف القفطي . تجر: محمد أبو الفضل إبراهيم . مط
دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٥٥ .
- ٥٣ - الأندية الأدبية في العصر العباسي ، علي محمد هاشم . دار الآفاق الجديدة -
بيروت ١٩٧٨ .
- ٥٤ - الانصاف والتحري ، ابن العديم . ضمن كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء .
الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٥٥ - أوج التحري عن حيثة أبي العلاء المعري ، يوسف البديعي . د : إبراهيم
الكيلاني . مط الترقي - دمشق ١٩٤٤ .
- ٥٦ - البحري بين نقاد عصره ، صالح حسن اليزبي . دار الأندلس - بيروت
١٩٨٢ .
- ٥٧ - البحري في سامراء ، يونس احمد السامرائي . مط الارشاد - بغداد ١٩٧٠ .
- ٥٨ - البخلاء ، الجاحظ / مط فتي العرب - دمشق ١٩٦٣ .
- ٥٩ - بدائع الزهور في وقائع الدهور ، محمد بن أحمد بن إياس . المط الكبرى
الأميرية - القاهرة ١٣١١ هـ .
- ٦٠ - بديع الزمان الهمداني ، مارون عبود . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٦١ - بديع الزمان الهمداني ، د . مصطفى الشكعة . دار الرائد العربي - بيروت
١٩٧١ .
- ٦٢ - بديعات الزمان ، فكتور الكك . المط الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٠ .
- ٦٣ - البصائر والذخائر ، أبو حيان التوحيدي - دمشق ١٩٦٤ - ١٩٦٦ .
- ٦٤ - بغداد مدينة السلام ، ابن الفقيه الهمداني . دار الطليعة للطباعة والنشر .
باريس ١٩٧٧ .
- ٦٥ - بغية الوعاة ، جلال الدين السيوطي . تجر: محمد أبو الفضل إبراهيم . مط
عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٦٦ - البيان والتبيين ، الجاحظ ، تجر: عبد السلام هرون . مط لجنة التأليف
والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٦٧ - تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان . دار الهلال - القاهرة د . ت .
- ٦٨ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، د احسان عباس . مط دار
الثقافة - بيروت ١٩٧١ .
- ٦٩ - تاريخ الأدب العربي ، د . شوقي ضيف العصر العباسي الأول ١٩٦٦ . العصر
العباسي الثاني ١٩٧٥ . عصر الدول والامارات ١٩٨٠ . مطابع دار المعارف
بمصر .

- ٧٠ - تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان . ترجمة د . رمضان عبد التواب . ج ٥ . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٥ .
- ٧١ - تاريخ اربيل ، ابن المستوفي . تح: سامي الصقار . المركز العربي للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٠
- ٧٢ - تاريخ بغداد ، أحمد بن علي الخطيب البغدادي . مط السعادة - القاهرة ١٩٣١ .
- ٧٣ - تاريخ الخلفاء ، بلال الدين السيوطي . تح: محمد محيي الدين عبد الحميد . مط منير - بغداد ١٩٨٣ .
- ٧٤ - تاريخ دول الاسلام ، الذهبي . ط حيدر اباد ١٣٣٣ هـ .
- ٧٥ - تاريخ دولة آل سلجوق ، الفتح بن علي البنداري . دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٠ .
- ٧٦ - تاريخ الرسل والملوك ، الطبري . تح: محمد أبو الفضل ابراهيم . مط دار المعارف - القاهرة .
- ٧٧ - تاريخ الشعر العربي ، د . محمد عبد العزيز الكفراوي . مط نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٧٨ - تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، نجيب محمد البهيتي . مط السنة المحمدية - القاهرة ١٩٦١ .
- ٧٩ - تاريخ متصوفة بغداد ، جميل ابراهيم حبيب . مط أسعد - بغداد ١٩٨٨ .
- ٨٠ - تأويل مختلف الحديث ، ابن قتيبة . مط كردستان العلمية - القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- ٨١ - تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة . تح: سيد صقر . دار التراث ١٩٧٣ .
- ٨٢ - تنمة المختصر في اخبار البشر ، زين الدين عمر بن الوردى . مط دار المعرفة - بيروت ١٩٧٠
- ٨٣ - تنمة . يتيمة الدهر ، أبو منصور الثعالبي . نشر عباس إقبال - طهران ١٣٥٣ هـ .
- ٨٤ - تجارب الأمم ، أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . مط شركة التمدن الصناعية - القاهرة ١٩١٤ .
- ٨٥ - تحفة الألباب وبغية الطلاب ، محمد بن أبي بكر عثمان المعروف بالسخاوي المصري . ط القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- ٨٦ - ترجمان الأشواق ، محيي الدين بن عربي . مط دار صادر - بيروت ١٩٦٦ .

- ٨٧ - تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : أنيس المقدسي . دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٤ .
- ٨٨ - تطور الخمریات في الشعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس : د . جميل سعيد . مط الاعتماد - القاهرة ١٩٤٥ .
- ٨٩ - التطور والتجديد في الشعر الأموي : د . شوقي ضيف . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٩٠ - تعريف القدماء بأبي العلاء : الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٩١ - تفسير سورة الاخلاص ، ابن تيمية . المط النيرية - القاهرة ١٣٥٢ هـ .
- ٩٢ - تهذيب التاريخ الكبير : ابن عساكر ، تصحيح عبدالقادر بدران . مط روضة الشام ١٣٣٠ هـ .
- ٩٣ - التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الأول : د . مجاهد مصطفى بهجت . منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد ١٩٨٢ .
- ٩٤ - ثمرات الأوراق : ابن حجة الحموي . تح . محمد أبو الفضل ابراهيم . مط السنة المحمدية - القاهرة ١٩٧١ .
- ٩٥ - الجاحظ ، حياته وأثاره : د . طه الحاجري . مط دار المطارف - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٩٦ - الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : جميل جبر - بيروت ١٩٥٩ .
- ٩٧ - الجامع الكبير : ضياء الدين ابن الأثير . تح . د . مصطفى جواد . د . جميل سعيد . مط المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٥٦ .
- ٩٨ - الجامع المختصر ، ابن الساعي . تح . د . مصطفى جواد . المط السريانية الكاثوليكية - بغداد ١٩٣٤ .
- ٩٩ - جحظة البرمكي الأديب الشاعر : د . مزهر السوداني . مط النعمان - النجف ١٩٧٧ .
- ١٠٠ - جمع الجواهر : أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري . تح : علي محمد البجاوي . دار احياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٣ .
- ١٠١ - جهرة رسائل العرب : أحمد زكي صفوت . مط مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٢٧ .
- ١٠٢ - الجوارى والشعر في العصر العباسي الأول : د . سهام عبدالوهاب فريح . شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت ١٩٨١ .
- ١٠٣ - حديث الأربعاء : د . طه حسين . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٠ .

- ١٠٤ - الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : د . محمود الربداوي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت د . ت .
- ١٠٥ - الحسن بن أسد الفارقي في حياته والصباة من شعره : جمع وتحقيق هلال ناجي . مطابع اليمامة - الرياض ١٦٧٨ .
- ١٠٦ - حسن المحاضرة : جلال الدين السيوطي ، مط عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٠٧ - الحسين بن الضحاك ، حياته وشعره : د . شوقي رياض أحمد . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - القاهرة ١٩٧٢ .
- ١٠٨ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : آدم متز . ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٠٩ - الحكاية الشعبية : د . عبدالحميد يونس . دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد د . ت .
- ١١٠ - الحلاج موضوعاً : د . كامل مصطفى الشبيبي . مط المعارف - بغداد ١٩٧٦ .
- ١١١ - حلية الأولياء : الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله . مط السعادة - مصر ١٣٥١ هـ
- ١١٢ - الحماسة في شعر الشريف الرضي : محمد جميل شلش . مط وأفست الشرق - بغداد ١٩٧٤ .
- ١١٣ - الحياة الأدبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري : د . أحمد كمال زكي . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧١ .
- ١١٤ - الحياة الأدبية في الشام : د . عبدالجليل حسن عبدالمهدي . مكتبة الأنصاري - عمان ١٩٧٧ .
- ١١٥ - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : د . أحمد أحمد بدوي . مط نهضة مصر ١٩٥٤ .
- ١١٦ - حياة البحري وفنه : د . أحمد أحمد بدوي . مط لجنة البيان العربي - القاهرة ١٩٥٥ .
- ١١٧ - حياة الحيوان الكبرى : أبو البقاء محمد بن موسى الدميري . مط حجازي - القاهرة .
- ١١٨ - حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني الهجري : د . يوسف خليف . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٨ .
- ١١٩ - الحيوان : الجاحظ . تح : عبدالسلام هارون . مط مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر ١٩٣٨ .

- ١٢٠ - خاص الخاص : أبو منصور الثعالبي . قدم له حسن الأمير . منشورات دار مكتبة الحياة د . ت .
- ١٢١ - خريدة القصر وجريدة العصر : عمادالدين الأصبهاني . شعراء الشام . تح : د . شكوي فيصل . المط الهاشمية - دمشق ١٩٥٥ - ١٩٦٧ . شعراء مصر . تح : أحمد أمين . وشوقي ضيف . واحسان عباس . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥١ . شعراء العراق : تح : محمد بهجة الأثري . ج ١ . ٢ مط المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ . ١٩٦٤ . ج ٣ . ٤ مط الحكومة - بغداد ١٩٧٣ - ١٩٧٦ .
- ١٢٢ - خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي المط الخيرية - القاهرة ١٣٠٤ هـ .
- ١٢٣ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبدالقادر بن عمر البغدادي . مط بولاق - مصر ١٢٩٩ هـ .
- ١٢٤ - الخطط المقرزية : أحمد بن علي المعروف بالمقرزي . مط النيل - مصر ١٣٢٤ هـ .
- ١٢٥ - الخلافة والدولة في العصر العباسي : د . محمد حلمي محمد أحمد . مط الرسالة - القاهرة ١٩٥٩
- ١٢٦ - دائرة المعارف الاسلامية : ترجمة محمد ثابت الفندي . وأحمد الشنتاوي . وابراهيم زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس - القاهرة ١٩٣٧ - ١٩٦٧ .
- ١٢٧ - دار السلام في حياة أبي العلاء : د . عائشة عبدالرحمن . دار الجمهورية للطباعة - بغداد ١٩٦٤ .
- ١٢٨ - الدارس في تاريخ المدارس ، عبدالقادر بن محمد النعمي . تح : جعفر الحسيني . مط الترقى - دمشق ١٩٤٨ .
- ١٢٩ - دراسات في الأدب الاسلامي : محمد خلف الله . لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٣٠ - دراسات في الأدب العربي ، انعام الجندي . دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٧ .
- ١٣١ - دراسات في الأدب العربي ، العصر العباسي ، محمد زغلول سلام . مط التقدم - الاسكندرية د . ت .
- ١٣٢ - دراسات في النص الشعري ، العصر العباسي ، د . عبده بدوي . مط قاصد خير - القاهرة ١٩٧٧ .

- ١٣٣ - الدرر الغوالي من أشعار الامام الغزالي : جمع جميل ابراهيم حبيب . مط
عصام - بغداد ١٩٨٥ .
- ١٣٤ - دولة الاسلام في الاندلس من الفتح الى نهاية مملكة غرناطة ، محمد عبدالله
عنان . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٣ .
- ١٣٥ - الديارات ، أبو الحسن الشابثي . تح ، كوركيس عواد . مط المعارف -
بغداد ١٩٦٦ .
- ١٣٦ - ديوان ابن أبي حصينة : شرح أبي العلاء المعري . تح ، د . محمد سعد
طلس . المط الهاشمية - دمشق ١٩٥٧ .
- ١٣٧ - ديوان ابن حيوس ، تح ، خليل مردم . مط دار صادر - بيروت ١٩٨٤ .
- ١٣٨ - ديوان ابن الخياط ، تح ، خليل مردم . المط الهاشمية - دمشق ١٩٥٨ .
- ١٣٩ - ديوان ابن الرومي ، تح ، د . حسين نصار مط دار الكتب - القاهرة ١٩٧٣ -
١٩٨١
- ١٤٠ - ديوان ابن سنان الخفاجي ، المط الاندلسية بيروت ١٣٠٨ هـ .
- ١٤١ - ديوان ابن الظهير الاربلي ، تح ، د . ناظم رشيد . مط جامعة الموصل ١٩٨٨
- ١٤٢ - ديوان ابن عنين ، تح ، خليل مردم . مط دمشق ١٩٤٦ .
- ١٤٣ - ديوان ابن الفارض ، مط دار صادر - بيروت ١٩٦٣ .
- ١٤٤ - ديوان ابن نُباته السعدي ، تح ، عبدالأمير مهدي حبيب الطائي . دار
الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٧ .
- ١٤٥ - ديوان أبي بكر الشبلي ، تح ، د . كامل مصطفى الشبيبي . مط دار
التضامن - بغداد ١٩٦٧ .
- ١٤٦ - ديوان أبي تمام ، تح . محمد عبده عزام . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٣ .
- ١٤٧ - ديوان أبي الحسن التهامي ، منشورات المكتب الاسلامي بدمشق ١٩٦٤ .
- ١٤٨ - ديوان أبي العتاهية ، مط دار صادر - بيروت د . ت .
- ١٤٩ - ديوان أبي فراس الحمداني ، مط دار صادر . بيروت د . ت .
- ١٥٠ - ديوان أبي نواس ، تح ، أحمد عبدالمجيد الغزالي . مط مصر - القاهرة ١٩٥٣ .
- ١٥١ - ديوان أبي الهندي ، تح ، عبدالله الجبوري مط النعمان ١٩٧٠ .
- ١٥٢ - ديوان ابراهيم بن هرمة ، تح ، محمد جبار المعبيد . مط الآداب - النجف
١٩٦٩
- ١٥٣ - ديوان الأبله البغدادي ، تح ، سعاد جاسم محمد ، رسالة ماجستير . كلية
الآداب - جامعة الموصل ١٩٨٥ .

- ١٥٤ - ديوان الأبيوردي ، تح : د . عمر الأسعد . ج ٢ . مط زيد بن ثابت - دمشق ١٩٧٥ .
- ١٥٥ - ديوان الأرجاني ، تح : د . محمد قاسم مصطفى . مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٩ - ١٩٨١ .
- ١٥٦ - ديوان اسحاق الموصلي ، تح : ماجد أحمد العزي . مط الايمان - بغداد ١٩٧٠ .
- ١٥٧ - ديوان الأعشى الكبير ، تح : محمد حسين . المط النموجية - القاهرة ١٩٥٠ .
- ١٥٨ - ديوان الباخرزي ، أبي الحسن علي بن الحسن بن أبي الطيب . تح : محمد قاسم مصطفى . رسالة ماجستير . كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٠ .
- ١٥٩ - ديوان البحري ، تح : حسن كامل الصيرفي - مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٣ .
- ١٦٠ - ديوان بديع الزمان الهمداني ، نشره محمد شكري المكي - مصر ١٩٠٣ .
- ١٦١ - ديوان بشار بن برد ، تح : الطاهر بن عاشور - القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٥٤ .
- ١٦٢ - ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، تح : محمد حسن الأعظمي . دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠ .
- ١٦٣ - ديوان جميل بثينة ، تح : فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت ١٩٦٠ .
- ١٦٤ - ديوان الحاجري ، حسام الدين عيسى بن سنجر . تح : صاحب شنون ياسين الزيدي . رسالة ماجستير - جامعة بغداد ، كلية الآداب ١٩٨٨ .
- ١٦٥ - ديوان الحلاج ، الحسين بن منصور . تح : د . كامل مصطفى الشيبلي . مط المعارف - بغداد ١٩٧٤ .
- ١٦٦ - ديوان حيص بيص ، شهاب الدين سعد بن محمد . تح : مكّي السيد جاسم وشاكر هادي شكر - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٤ .
- ١٦٧ - ديوان خالد الكاتب ، تح : د . يونس أحمد السامرائي . مط الرسالة - بغداد ١٩٨١ .
- ١٦٨ - ديوان الخريمي ، أبو يعقوب اسحاق بن حسان . تح : د . علي جواد الطاهر . ومحمد جبار المعبيد . مط دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٧١ .
- ١٦٩ - ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، تح : د . محمد يوسف نجم . دار الثقافة - بيروت ١٩٦٢ .

- ١٧٠ - ديوان ديك الجن ، تح ، د . أحمد مطلوب . وعبدالله الجبوري . دار الثقافة - بيروت ١٩٦٤ .
- ١٧١ - ديوان سبط ابن التعاويذي ، تح ، مرجليوث . مط المقتطف - مصر ١٩٠٣ .
- ١٧٢ - ديوان الشريف الرضي مط دار صادر - بيروت ١٩٦١ .
- ١٧٣ - ديوان الصنوبري ، تح ، د . احسان عباس دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠ .
- ١٧٤ - ديوان الطغرائي ، تح ، د . علي جواد الطاهر . د . يحيى الجبوري . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٦ .
- ١٧٥ - ديوان طلائع بن رزيك ، تح ، محمد هادي الأميني . مط النعمان - النجف ١٩٦٤ .
- ١٧٦ - ديوان العباس بن الأحنف ، مط دار صادر - بيروت ١٩٦٥ .
- ١٧٧ - ديوان عرقله الكلبى ، تح ، أحمد الجندي . مط دار الحياة - دمشق ١٩٧٠ .
- ١٧٨ - ديوان علي بن الجهم ، تح ، خليل مردم . لجنة التراث العربي - بيروت د . ت .
- ١٧٩ - ديوان عماد الدين الأصبهاني ، تح ، د . ناظم رشيد . مط جامعة الموصل ١٩٨٣ .
- ١٨٠ - ديوان فتیان الشاغوري ، تح ، أحمد الجندي . المط الهاشمية - دمشق ١٩٦٧ .
- ١٨١ - ديوان القاضي الفاضل ، تح ، د . أحمد أحمد بدوي . وابراهيم الأبياري . مط دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦١ .
- ١٨٢ - ديوان القطامي ، تح ، د . ابراهيم السامرائي ود . أحمد مطلوب . ط بيروت ١٩٦٠ .
- ١٨٣ - ديوان كشاجم ، أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم . تح ، خيرية محمد محفوظ - مط الجمهورية - بغداد ١٩٧٠ .
- ١٨٤ - ديوان لقيط بن يعمر الايادي ، تح ، خليل ابراهيم العطية . مط الجمهورية بغداد ١٩٧٠ .
- ١٨٥ - ديوان محمود الوراق ، تح ، راغب العبيدي . ط دار البصري - بغداد ١٩٦٩ .
- ١٨٦ - ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري . مط القدس - القاهرة ١٣٥٢ هـ .
- ١٨٧ - ديوان الملك الأمجد ، مجد الدين الأيوبي . تح ، د . ناظم رشيد . مط وزارة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد ١٩٨٣ .

- ١٨٨ - ديوان النابغة الذبياني : صنعة ابن السكيت . تح : د . شكري فيصل . دار الفكر - بيروت ١٩٦٨ .
- ١٨٩ - ديوان النشابي : مجدالدين أسعد ابراهيم الاربلي . تح : عبدالله محمود طه رسالة ماجستير . جامعة الموصل - كلية الاداب ١٩٨٥ .
- ١٩٠ - ديوان الوزير محمد بن عبدالملك الزيات : تح : د . جميل سعيد . مط نهضة مصر - القاهرة ١٩٤٩ .
- ١٩١ - ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام : د . عبدالوهاب عزام . مط الجريدة - بغداد ١٩٣٦ .
- ١٩٢ - ذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب . مط السنة المحمدية - مصر ١٩٥٢ .
- ١٩٣ - رأي في المقامة : عبدالرحمن ياغي . مط قدموس الجديدة - بيروت ١٩٦٩ .
- ١٩٤ - الرثاء : د . شوقي ضيف . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٥٥ .
- ١٩٥ - رسائل البلغاء : محمد كرد علي . ط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٦ .
- ١٩٦ - رسائل الجاحظ : تح : عبدالسلام محمد هارون . مط السنة المحمدية - القاهرة ١٩٦٤ .
- ١٩٧ - رسائل أبي العلاء المعري : تح : عبدالكريم خليفة . منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر - عمان ١٩٧٦ .
- ١٩٨ - رسائل أبي الفضل بدیع الزمان الهمداني : مط هندية - مصر ١٨٩٨ .
- ١٩٩ - رسالة الصداقة والصدیق : أبو حيان التوحیدي . تح : د . ابراهيم الكيلاني . دار الفكر - دمشق ١٩٦٤ .
- ٢٠٠ - رسالة الغفران : أبو العلاء المعري : تح : د . عائشة عبدالرحمن . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٧ .
- ٢٠١ - الرمز عند الصوفية : د . عاطف جودة نصر . دار الاندلس - بيروت ١٩٧٨ .
- ٢٠٢ - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، أبو شامة المقدسي . مط وادي النيل - القاهرة ١٢٨٨ هـ .
- ٢٠٣ - زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم . تح : د . ساهي الدهان . المط الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٨ .
- ٢٠٤ - زهر الآداب ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري . تح : علي محمد البجاوي . مط عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٥٢ .

- ٢٠٥ - سبط ابن التعاويذي : نوري شاعر الألوسي . مط الأزهر - بغداد ١٩٧٥ .
- ٢٠٦ - سبط ابن التعاويذي : يوسف يعقوب مسكوني . مط شفيق - بغداد ١٩٥٩ .
- ٢٠٧ - سرح الميرون في شرح رسالة ابن زيدون : ابن نباتة المصري . تح : محمد أبو الفضل ابراهيم . مط المدني - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٠٨ - سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي . مط محمد علي صبيح وأولاده - القاهرة ١٩٦٩ .
- ٢٠٩ - السري الرفاء : د . حبيب حسين الحسني . مط دار السلام - بغداد ١٩٧٧ .
- ٢١٠ - السري الرفاء : يوسف امين قصير . مط الشباب - بغداد ١٩٥٦ .
- ٢١١ - سقط الزند : ابو العلاء المعري - مط دار صادر - بيروت ١٩٦٣ .
- ٢١٢ - السمو الروحي في الادب الصوفي : احمد عبدالمنعم الحلواني . مط مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٤٩ .
- ٢١٣ - سنا البرق الشامي : الفتح بن علي البنداري . تح : د . رمضان ششن . مط دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٧١ .
- ٢١٤ - السهروردي : سامي الكيالي . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٢١٥ - سيف الدولة الحمداني او مملكة السيف ودولة الاقلام : د . مصطفى الشكعة . عالم الكتب - بيروت ١٩٧٧ .
- ٢١٦ - شاعر بني حمدان ، د . احمد احمد بدوي . مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - ١٩٥٢ .
- ٢١٧ - شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي . نشر مكتبة القدسي - القاهرة ١٣٥١ هـ .
- ٢١٨ - شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي تح : أحمد امين . وعبدالسلام هارون . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٢١٩ - شرح ديوان صريع الغواني : تح : د . سامي الدهان مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٠ .
- ٢٢٠ - شرح ديوان ليبد بن ربيعة العامري : تح : د . احسان عباس . مط حكومة الكويت ١٩٦٢ .
- ٢٢١ - شرح ديوان المتنبي : عبدالرحمن البرقوقي . المط الرحمانية - مصر ١٩٣٠ .
- ٢٢٢ - شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد . تح : محمد ابو الفضل ابراهيم . مط مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٠ .

- ٢٢٣ - الشريف الرضي ، د . احسان عباس . مط دار صادر - بيروت ١٩٥٩ .
- ٢٢٤ - الشريف الرضي ، وجهوده النحوية ، د . حازم سليمان الحلبي . دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٦ .
- ٢٢٥ - الشريف الرضي ، محمد عبدالغني حسن . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٠ .
- ٢٢٦ - الشريف الرضي . دراسات في ذاكره الالفية ، تأليف مجموعة اساتذة دار آفاق عربية للصحافة والنشر - بغداد ١٩٨٥ .
- ٢٢٧ - شعراء عباسيون ، غوستاف فون غريباوم ، ترجمة د . محمد يوسف نجم . دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٥٩ .
- ٢٢٨ - الشعراء من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، د . حسين عطوان . دار الجبل - بيروت ١٩٧٤ .
- ٢٢٩ - شعراء النصرانية بعد الاسلام ، يوسف شيخو اليسوعي . المط الكاثوليكية - بيروت ١٩٧٦ .
- ٢٣٠ - شعر الحرب في ادب العرب ، د . زكي المحاسني . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦١ .
- ٢٣١ - شعر الحسين بن مطير الأسدي ، تح : د . محسن غياض . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧١ .
- ٢٣٢ - شعر ربيعة الرقي تح : د . يوسف حسين بكار . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨٠ .
- ٢٣٣ - شعر زهير بن أبي سلمى ، صنعة الأعلم الشنتمري . تح : د . فخرالدين قباوة . المط العربية - حلب ١٩٧٠ .
- ٢٣٤ - شعر الشافعي ، تح : د . مجاهد مصطفى بهجت . دار الكتب للطباعة والنشر - الموصل ١٩٨٦ .
- ٢٣٥ - الشعر والشعراء ، ابن قتيبة . مط دار الثقافة - بيروت ١٩٦٩ .
- ٢٣٦ - الشعر والشعراء في العصر العباسي ، د . مصطفى الشكعة . دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٥ .
- ٢٣٧ - الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي ، عدنان حسين العوادي . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٩ .
- ٢٣٨ - شعر الطبيعة في الأدب العربي ، د . سيد نوفل . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨ .
- ٢٣٩ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، د . شوقي ضيف . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٧ .

- ٢٤٠ - شعر عبدالصمد بن المعتل : تح : زهير غازي زاهد . مط النعمان - النجف
١٩٧٠ .
- ٢٤١ - الشعر العراقي في القرن السادس الهجري : د . مزهر السوداني . دار الرشيد
للنشر - بغداد ١٩٨٠ .
- ٢٤٢ - الشعر العربي بين الجمود والتطور : د . محمد عبدالعزيز الكفراوي . دار
نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٦٩ .
- ٢٤٣ - الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي : د . علي جواد
الطاهر . ج ١ مط المعارف - بغداد ١٩٥٨ . ج ٢ . مط البعاني - بغداد
١٩٦١ .
- ٢٤٤ - الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : عبدالكريم
توفيق العبود . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٦ .
- ٢٤٥ - شعر ابن العلاف : تح صبيح رديف . مط الجامعة - بغداد ١٩٧٤ .
- ٢٤٦ - شعر علي بن جبلة الملقب بالعمكوك : تح : د . حسين عطوان . مط دار
المعارف - القاهرة ١٩٧٢ .
- ٢٤٧ - شعر عمر بن الفارض في فن الشعر الصوفي : د . عاطف جودة نصر . دار
الأندلس - بيروت ١٩٨٢ .
- ٢٤٨ - شعر مروان بن أبي حفصة : تح : د . حسين عطوان . مط دار المعارف -
القاهرة ١٩٧٣ .
- ٢٤٩ - شعر ابن المعتز : تح : د . يونس أحمد السامرائي . دار الحرية للطباعة -
بغداد ١٩٧٧ .
- ٢٥٠ - شعر ابن منير الطرابلسي : تح : د . سعود محمود عبدالجابر . دار القلم -
الكويت ١٩٨٢ .
- ٢٥١ - الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني : د . سعود محمود عبد الجابر .
مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨١ .
- ٢٥٢ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي . تح : ناظم
رشيد . مط دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٩ .
- ٢٥٣ - صبح الأعشى في صناعة الانشا : أحمد بن علي القلقشندي . المط الأميرية .
القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ .
- ٢٥٤ - الصبح المنبئ عن حيثية المتنبي : يوسف البديعي . مط دار المعارف -
القاهرة ١٩٦٤ .

- ٢٥٥ - صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني : د. محمود ابراهيم . مط دار القلم - بيروت ١٩٧١ .
- ٢٥٦ - الصراع الأدبي بين العرب والمجم ، د. محمد نبيه حجاب . مط دار القلم - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢٥٧ - الصورة الفنية في شعر أبي تمام : د. عبد القادر الرباعي . جامعة اليرموك - الأردن ١٩٨٠ .
- ٢٥٨ - صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي : ميخائيل عواد . دار الطليعة للطباعة والنشر - بغداد ١٩٨١ .
- ٢٥٩ - ضحى الاسلام ، أحمد أمين . مكتبة النهضة العربية - القاهرة .
- ٢٦٠ - طبقات الأمم ، صاعد بن أحمد الأندلسي . المطب الحيدرية - النجف ١٩٦٧ .
- ٢٦١ - طبقات الشافعية الكبرى ، عبد الوهاب بن علي السبكي . تح : محمود محمد الطناحي . مط عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٧٠ .
- ٢٦٢ - طبقات الشعراء ، ابن المعتز . تح : عبد الستار أحمد فراج . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٥٦ .
- ٢٦٣ - طبقات الصوفية ، أبو عبد الرحمن السلمي . تح : نور الدين شريعة . ط دار التأليف - القاهرة ١٩٦٩ .
- ٢٦٤ - طبقات المعتزلة ، أحمد بن يحيى بن المرتضى ، المطب الكاثوليكية - بيروت ١٩٦١ .
- ٢٦٥ - طبيعة الدعوة العباسية ، د. فاروق عمر . دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ١٩٧٠ .
- ٢٦٦ - الطواسين ، الحسين بن منصور الحلاج . تح : ماسنيون . ط باريس ١٩١٣ .
- ٢٦٧ - طيف الخيال ، الشريف المرتضى . تح : د. صلاح خالص . مط دار المعرفة - بغداد ١٩٥٧ .
- ٢٦٨ - العباس بن الأحنف ، د. عاتكة الخزرجي . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٧ .
- ٢٦٩ - عبقرية الشريف الرضي ، د. زكي مبارك . مط حجازي - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٢٧٠ - العصر العباسي الأول ، د. عبد العزيز الدوري . مط التقيض - بغداد ١٩٤٥ .
- ٢٧١ - عصر المأمون ، د. أحمد فريد رفاعي . مط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٨ .

- ٢٧٢ - العقد الفريد : ابن عبد ربه . تح : أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الاياري . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٢٧٣ - عقلاء المجانين : الحسن بن محمد النيسابوري . قدمه وعلق عليه محمد بحر العلوم . المكتبة الحيدرية - النجف ١٩٦٨ .
- ٢٧٤ - العقيدة والشريعة : كولذ زيهر ، ترجمة يوسف موسى وجماعته - مصر ١٩٥٩ .
- ٢٧٥ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه : أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني . تح : محمد محيي الدين عبدالحميد . مط السعادة - مصر ١٩٥٥ .
- ٢٧٦ - عمر بن الفارض من خلال شعره : ميشال فريد غريب . دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٥ .
- ٢٧٧ - عيون الاخبار : ابن قتيبة . مط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٤٣ هـ .
- ٢٧٨ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبعة . دار الفكر - بيروت ١٩٥٦ .
- ٢٧٩ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب : عبدالحسين أحمد الأميني النجفي . دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٧ .
- ٢٨٠ - الفخري في الآداب السلطانية : ابن الطقطقا . مط دار صادر - بيروت ١٩٧٣ .
- ٢٨١ - الفصول والغايات : أبو العلاء المعري . مط حجازي - القاهرة ١٩٣٨ .
- ٢٨٢ - فصول في الشعر ونقده : د . شوقي ضيف . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧١ .
- ٢٨٣ - الفكر التربوي عند ابن المقفع والجاحظ وعبدالحميد الكاتب : د . عبدالأمير شمس الدين . دار أقرأ - بيروت ١٩٦٩ .
- ٢٨٤ - الفكر الديني عند أبي العلاء المعري ، عطا بكري . دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٨٠ .
- ٢٨٥ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي : د . شوقي ضيف . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٩ .
- ٢٨٦ - الفن ومذاهبه في النثر العربي : د . شوقي ضيف . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢٨٧ - فن المقامات بين المشرق والمغرب : د . يوسف عوض . دار القلم - بيروت ١٩٧٩ .
- ٢٨٨ - فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : د . مصطفى الشكعة . عالم الكتب - بيروت ١٩٨١ .

- ٢٨٩ - فهرست ، ابن النديم . المط الرحمانية - القاهرة ١٣٤٨ .
- ٢٩٠ - فهرست مارواه عن شيوخته ، ابن خير الاشيلي - بيروت ١٩٦٢ .
- ٢٩١ - فوات الوفيات ، ابن شاکر الحثبي ، تح: د . احسان عباس . مط دار صادر - بيروت ١٩٧٣ .
- ٢٩٢ - في الادب العباسي ، د . عز الدين اسماعيل ، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٥ .
- ٢٩٣ - في الأدب العباسي ، د . علي الزبيدي . دار المعرفة - القاهرة ١٩٥٩ .
- ٢٩٤ - في الأدب العباسي ، د . محمد مهدي البصير . مط النعمان - النجف ١٩٧٠ .
- ٢٩٥ - في التصوف الاسلامي وتاريخه ، نكلسون . ترجمة أبي العلا عفيفي . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٩ .
- ٢٩٦ - في موكب الخالدين ، عبد السمیع المصري . مط دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢٩٧ - القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج ، د . أحمد أحمد بدوي . مط الرسالة - القاهرة ١٩٥٩ .
- ٢٩٨ - قوت القلوب ، أبو طالب المكي - القاهرة ١٩٣٢ .
- ٢٩٩ - كافوريات أبي الطيب ، د . النعمان القاضي . شركة كتب الشرق الأوسط - القاهرة ١٩٧٥ .
- ٣٠٠ - الكامل ، أبو العباس المبرد . تح: محمد أبو الفضل ابراهيم ، والسيد شحاتة - مط نهضة مصر - القاهرة ١٩٥٦ .
- ٣٠١ - الكامل في التاريخ ، ابن الأثير . مط دار صادر - بيروت ١٩٦٥ .
- ٣٠٢ - كتاب بغداد ، أحمد بن طيفور . تح: محمد زاهد الكوثري . ط عزت العطار الحسيني - القاهرة ١٩٤٩ .
- ٣٠٣ - الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجري ، د . حسني ناعسة . مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٨ .
- ٣٠٤ - الكشاف ، جار الله الزمخشري . مط مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣٠٥ - كشاف مصادر دراسة أبي العلاء المعري ، مصطفى صالح . مط العلم - دمشق ١٩٧٨ .
- ٣٠٦ - الكشف عن مساويء شعر المتنبي ، صاحب بن عباد . تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين . مط المعارف - بغداد ١٩٦٥ .

- ٣٠٧ - الكشكول ، بهاء الدين العاملي ، تح : الطاهر أحمد الزاوي . مط دار إحياء الكتب العربية - القاهرة د . ت .
- ٣٠٨ - كليلة ودمنة ، بيدبا الفيلسوف الهندي . ترجمة عبدالله بن المقفع . المط الفخرية .
- ٣٠٩ - الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ، محمد بن ناصر الدين المعروف بابن الزيات . طبع القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٣١٠ - لزوم ما لا يلزم ، أبو العلاء المعري - مط دار صادر . بيروت ١٩٦٦ .
- ٣١١ - لسان العرب ، ابن منظور . مط دار صادر . بيروت ١٩٦٨ .
- ٣١٢ - لسان الميزان ، ابن حجر العسقلاني - حيدر آباد ١٣٣١ هـ .
- ٣١٣ - المتنبي ، د . زكي المحاسني . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧١ .
- ٣١٤ - المثل السائر ، ضياء الدين ابن الأثير . تح : د . أحمد الحوفي ، د . بدوي طبانة . دار نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣١٥ - المحمدون من الشعراء ، على بن يوسف القفطي . تح : حسن معمري . مط المتنبي - بيروت ١٩٧٠ .
- ٣١٦ - محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده ، مجموعة أساتذة . الهيئة العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣١٧ - مرآة الزمان ، سبط ابن الجوزي . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٩٥١ .
- ٣١٨ - المرأة في أدب العصر العباسي ، د . واجدة مجيد الاطرقي . دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨١ .
- ٣١٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، السعدي . دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٦ ، وطبعة باريس باعتناء دي مينار ١٨٦١ - ١٨٧٧ .
- ٣٢٠ - المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبهسي ، مط حجازي - القاهرة ١٩٥٣ .
- ٣٢١ - مصر الشاعرة في العصر الفاطمي ، محمد عبد الغني حسن . مطابع الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة ١٩٨٣ .
- ٣٢٢ - مضمار الحقائق وسر الخلائق ، محمد بن عمر الأيوبي . تح : د . حسن حبشي . دار الهنا للطباعة - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣٢٣ - معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ، د . محمد نبيه حجاب . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٢ .
- ٣٢٤ - معاهد التنصيص ، عبد الرحيم بن أحمد العباسي . تح : محمد محيي الدين عبد الحميد - مط السعادة - مصر ١٩٤٧ .
- ٣٢٥ - مع أبي العلاء في رحلة حياته ، د . عائشة عبد الرحمن . دار الكتاب

- العربي - بيروت ١٩٧٢ .
- ٣٢٦ - مع أبي العلاء في سجنه : د . طه حسين . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٥٦ .
- ٣٢٧ - معجم الأدباء : ياقوت الحموي . تح : مرجليوث . المط الهندية - مصر ١٩٣٣ .
- ٣٢٨ - معجم البلدان : ياقوت الحموي . مط دار صادر - بيروت ١٩٥٥ .
- ٣٢٩ - معجم الشعراء : المرزباني . دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣٣٠ - المعري ذلك المجهول ، عبد الله العلايلي . الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٨١ .
- ٣٣١ - المعري وجوانب من اللزوميات ، محمد الحبيب حمادي . الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤ .
- ٣٣٢ - مع المتنبي : د . طه حسين . مط دار المعارف - القاهرة .
- ٣٣٣ - المغرب في حلى المغرب ، قسم مصر ، ابن سعيد الأندلسي . مط جامعة فؤاد الأول - القاهرة ١٩٥٣ .
- ٣٣٤ - المقابسات : أبو حيان التوحيدي . تح : حسن السندوبي . المط الرحمانية - القاهرة ١٩٤٩ .
- ٣٣٥ - مقامات بديع الزمان الهمداني : دار التراث - بيروت ١٩٦٨ .
- ٣٣٦ - مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد : الدكتورة إكرام فاعور . دار إقرأ - بيروت ١٩٨٣ .
- ٣٣٧ - مقامات الحريري : مط دار صادر - بيروت ١٩٦٥ .
- ٣٣٨ - المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمداني : د . هادي حسن حمودي . دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٥ .
- ٣٣٩ - مقدمة ابن خلدون . مط الكشاف - بيروت د . ت .
- ٣٤٠ - مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، د . حسين عطوان . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٤ .
- ٣٤١ - الملاح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ، أحمد محمد الشحاذ . دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٨٦ .
- ٣٤٢ - الملل والنحل : الشهرستاني . تخريج محمد فتح الله بدران - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٥٦ .
- ٣٤٣ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، أبو الفرج ابن الجوزي . ط حيدر آباد - الهند ١٣٥٧ .
- ٣٤٤ - من حديث الشعر والنثر : د . طه حسين . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٥ .

- ٣٤٥ - من غاب عنه المطرب ، أبو منصور الثعالبي . مط المدني - القاهرة ١٩٨٤ .
- ٣٤٦ - من النقد والأدب (المجموعة الرابعة) ، د. أحمد أحمد بدوي . مط الرسالة - القاهرة د . ت .
- ٣٤٧ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري : الأمدى ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد . دار المسيرة - بيروت د . ت .
- ٣٤٨ - الموازنة بين الشعراء ، د. زكي مبارك . مط مصطفى البايي الحلبي - القاهرة ١٩٣٦ .
- ٣٤٩ - موسيقى الشعر : د. ابراهيم أنيس . مط الأمانة - القاهرة ١٩٧٨ .
- ٣٥٠ - الموشح . مأخذ العلماء على الشعراء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني . تح: علي محمد الجاوي . مط دار النهضة - مصر ١٩٦٥ .
- ٣٥١ - الموشى أو الظرف والظرفاء : أبو الطيب الوشاء . تح: كمال مصطفى . مط الاعتماد - مصر ١٩٥٣
- ٣٥٢ - النشر الفني وأثر الجاحظ فيه ، د. عبد الحكيم بلع . مط الاستقلال - القاهرة ١٩٧٥ .
- ٣٥٣ - النشر الفني في القرن الرابع : د. زكي مبارك . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة .
- ٣٥٤ - النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي . مط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٦ .
- ٣٥٥ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء : أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري . تح: د. ابراهيم السامرائي . مط المعارف - بغداد ١٩٥٩ .
- ٣٥٦ - نزهة الأنام في محاسن الشام : أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري . المط السلفية - مصر ١٣٤٤ هـ .
- ٣٥٧ - نشوار المحاضرة ، المحسن بن علي التنوحي . تح: عبود الشالجي . مط دار صادر - بيروت ١٩٧١ - ١٩٧٣ .
- ٣٥٨ - نفسية أبي نواس : د. محمد النويهي . مط الدجوي - القاهرة ١٩٧٠ .
- ٣٥٩ - النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري : د. يسري سلامة . مط دار المعارف - القاهرة ١٩٧١ .
- ٣٦٠ - النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : عمارة اليميني . تح: هر تويغ درنبرغ . طبع مدينة شالون ١٨٩٧ .
- ٣٦١ - نكت الهميان في نكت العميان : خليل بن أيبيك الصفيدي . المط الجمالية - القاهرة ١٩١١ .

- ٣٦٢ - نهاية الأرب : النويري . مط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٥ .
- ٣٦٣ - هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام : يوسف البديعي . نشر محمود مصطفى - القاهرة ١٩٣٤ .
- ٣٦٤ - الهجاء والهجائون في الجاهلية : د . محمد محمد حسين . نشر مكتبة الأدب بالجماميز ١٩٤٧ .
- ٣٦٥ - هياكل النور : شهاب الدين السهروردي . المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٣٦٦ - الواضح في مشكلات شعر المتنبي : أبو القاسم عبد الله الأصفهاني . تح : محمد الطاهر بن العاشور . دار التونسية للنشر ١٩٦٨ .
- ٣٦٧ - الوافي بالوفيات : خليل بن أبيك الصفي . نشر المستشرقين الألمان باستانبول ١٩٣١ .
- ٣٦٨ - الورقة : محمد بن داود بن الجراح . تح : د . عبد الوهاب عزام . وعبد الستار أحمد فراج . مط دار المعارف - القاهرة د . ت .
- ٣٦٩ - الوزراء والكتاب : الجهشياري . مط عبد الحميد أحمد حنفي - مصر ١٩٣٨ .
- ٣٧٠ - الوساطة بين المتنبي وخصومه : علي بن عبد العزيز الجرجاني . تح : محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد الجاوي . دار القلم - بيروت د . ت .
- ٣٧١ - الوشي المرقوم في حل المنظوم : ضياء الدين بن الأثير . تح : د . جميل سعيد . مط المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٨٩ .
- ٣٧٢ - وفيات الأعيان : ابن خلكان . تح : د . إحسان عباس . مط دار صادر - بيروت ١٩٧٢ .
- ٣٧٣ - يتيمة الدهر : أبو منصور الثعالبي . تح : محمد محيي الدين عبدالحميد . مط السعادة - القاهرة ١٩٥٦ .

البحوث والمقالات

- ٣٧٤ - ابن حمدان الموصلی : د . ناظم رشيد . مجلة الجامعة - الموصل ، العدد ٣ سنة ١٩٨١ .
- ٣٧٥ - أدب المقامات أو الفن الأقصوصي المسجع : د . صفاء خلوصي . مجلة المعلم الجديد ، العدد الأول ، المجلد الخامس والعشرون . كانون ثاني - شباط ١٩٦٢ .
- ٣٧٦ - أصفهان معقل الأدب العربي : د . مصطفى جواد . مجلة المجمع العلمي العراقي . المجلد العاشر ١٩٦٣ .

- ٣٧٧ - أغزل شعراء الكرد في العربية الملك الأمجد : د. مصطفى جواد . مجلة الكتاب . العددان ١ ، ٢ سنة ١٩٥٨ .
- ٣٧٨ - بغداد من خلال المقامات : صبيح صادق . مجلة المورد . العدد ٤ سنة ١٩٧٩ .
- ٣٧٩ - التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية : د. ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين العدد ١٠ سنة ١٩٧٩ .
- ٣٨٠ - جهاد صلاح الدين الأيوبي ، التاريخ والشعر : د. ناظم رشيد . مجلة المورد . العدد ٤ سنة ١٩٨٧ .
- ٣٨١ - حسام الدين الحاجري . حياته وشعره : د. ناظم رشيد مجلة آداب المستنصرية - العدد ١٠ سنة ١٩٨٤ .
- ٣٨٢ - شعر الحرب في عصر بني أيوب : د. ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين . العدد ١٥ سنة ١٩٨٢ .
- ٣٨٣ - القدس في شعر القرن السادس للهجرة : د. ناظم رشيد . مجلة المورد . العدد ١ سنة ١٩٨٢ .
- ٣٨٤ - كاتب الدولتين النورية والصلاحية : محمد بهجة الأثري . مجلة المجمع العلمي العراقي . الجزء الأول . المجلد الرابع . سنة ١٩٥٦ .
- ٣٨٥ - كنور في رموز : د. محمد مصطفى حلمي . ضمن الكتاب التذكاري : 'محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٣٨٦ - المتنبي والمعري : ابراهيم ناجي . مجلة الهلال ١٩٣٨ .
- ٣٨٧ - محمد بن كنانة الأسدي . حياته وشعره ونصوص باقية من كتابه الأنواء : محمد قاسم مصطفى . مجلة آداب الرافدين ، العدد ٦ سنة ١٩٧٥ .
- ٣٨٨ - المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية : د. ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين العدد ١٣ سنة ١٩٨١ .
- ٣٨٩ - مقامات بديع الزمان الهمداني : د. محسن غياض . مجلة الطليعة الأدبية . العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .
- ٣٩٠ - المقامة ، بلاشير . مجلة المشرق . العدد ٤٧ سنة ١٩٥٣ .
- ٣٩١ - مقتطفات من كتاب النمر والثعلب : سهل بن هارون . تح : عبد القادر المهيري . حويلات الجامعة التونسية . العدد الأول سنة ١٩٦٥ .
- ٣٩٢ - ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي : طه محسن . مجلة آداب الرافدين . العدد ٧ سنة ١٩٧٦ .

- ٣٩٣ - الناصر لدين الله : د . مصطفى جواد . مجلة العربي (الكويتية) . العدد ١٢٤ سنة ١٩٦٩ .
- ٣٩٤ - النشاط العلمي والأدبي في عهد الأسرة الأيوبية : ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين . العدد ٨ سنة ١٩٧٧ .
- ٣٩٥ - نظرة في حماسة أبي تمام : د . ناظم رشيد . مجلة بين النهرين . العدد ٢٧ سنة ١٩٧٩ .
- ٣٩٦ - النقد الأدبي في مقامات بديع الزمان الهمداني : د . محمد قاسم مصطفى . مجلة المورد . العدد ٣ سنة ١٩٨٤ .
- ٣٩٧ - وصف الطبيعة في شعر الصنوبري : فواز أحمد طوقان . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . الجزء الثالث . المجلد الرابع والأربعون . تموز ١٩٦٩ .

٢٢
عزها
١- التمدد في العاطف والرفق

١- التمدد في الموضوعات القديرة
الدمع - الأجزاء - المراتب - التوازن - البرص - الزهر ليد
السعدية الزمرك الحزبات - سر القاصد - سلال

المحتوى

٦-٥ المقدمة
١١-٧ قيام الدولة العباسية
١٢-١١ نظام الادارة
١٥-١٢ بناء بغداد
١٨-١٥ ثقافة العصر
٢٠-١٨ عوامل ازدهار الشعر
 العصر العباسي الاول
 الموضوعات
٢٩-٢١ المديح
٣٤-٢٩ الهجاء
 الرثاء
٤١-٣٤ الغزل
٤٧-٤١ الوصف
٥١-٤٧ الزهد والتصرف
٥٥-٥٢ المجون
٥٨-٥٥ الشعوية والزندقة
٦٢-٥٨ الخمریات
٦٦-٦٢ الشعر الفكاهي
٦٩-٦٦ الشعر التعليمي
٧٢-٦٩ التجديد في المعاني والأفكار
٧٨-٧٣ الألفاظ والأساليب
٨٢-٧٨ الاوزان والقوافي
٨٧-٨٣ الشعراء
 هـ أبو العتاهية
١٠٠-٨٨ مسلم بن الوليد
١٠٥-١٠١ أبو تمام الطائي
١٢٠-١٠٦ أبو عبادة الجحري
١٣٠-١٢١ ابن الرومي
١٣٩-١٣١

١٤٩-١٤٠	عبدالله بن المعتز
	النشر
١٥٢-١٥٠	المقدمة : عوامل تطور النشر
	الفنون الشعرية
١٥٤-١٥٢	الرسائل
١٥٧-١٥٤	الخطابة
١٥٨-١٥٧	القصص
١٦٠-١٥٩	التوقيعات
١٦١-١٦٠	نشر المؤلفات أو المصنفات
١٦٢-١٦٢	النشر المترجم
	الكتاب
١٧١-١٦٤	عمرو بن بحر الجاحظ
١٧٥-١٧٢	سهل بن هارون
١٧٩-١٧٦	عمرو بن مسعدة
١٨٢-١٨٠	محمد بن عبدالمملك الزيات
١٨٦-١٨٤	ابن قتيبة
	العصر العباسي الثاني
١٩٠-١٨٧	توطئة
١٩٩-١٩٠	الادب في ظل البيئات الجديدة
	القسم الاول : الشعر
٢١٠-٢٠٠	الموضوعات
٢١٥-٢١٠	الشعر القومي
٢١٩-٢١٥	وصف الطبيعة
٢٢٥-٢١٩	الشعر الصوفي
	الشعراء
٢٤٨-٢٣٦	أبو الطيب المتنبي
٢٥٥-٢٤٩	أبو فراس الحمداني
٢٦٣-٢٥٦	أبو بكر الصنوبري
٢٧١-٢٦٤	السري الرفاء



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابط بديل



مطبعة العلم العالم في الموصل